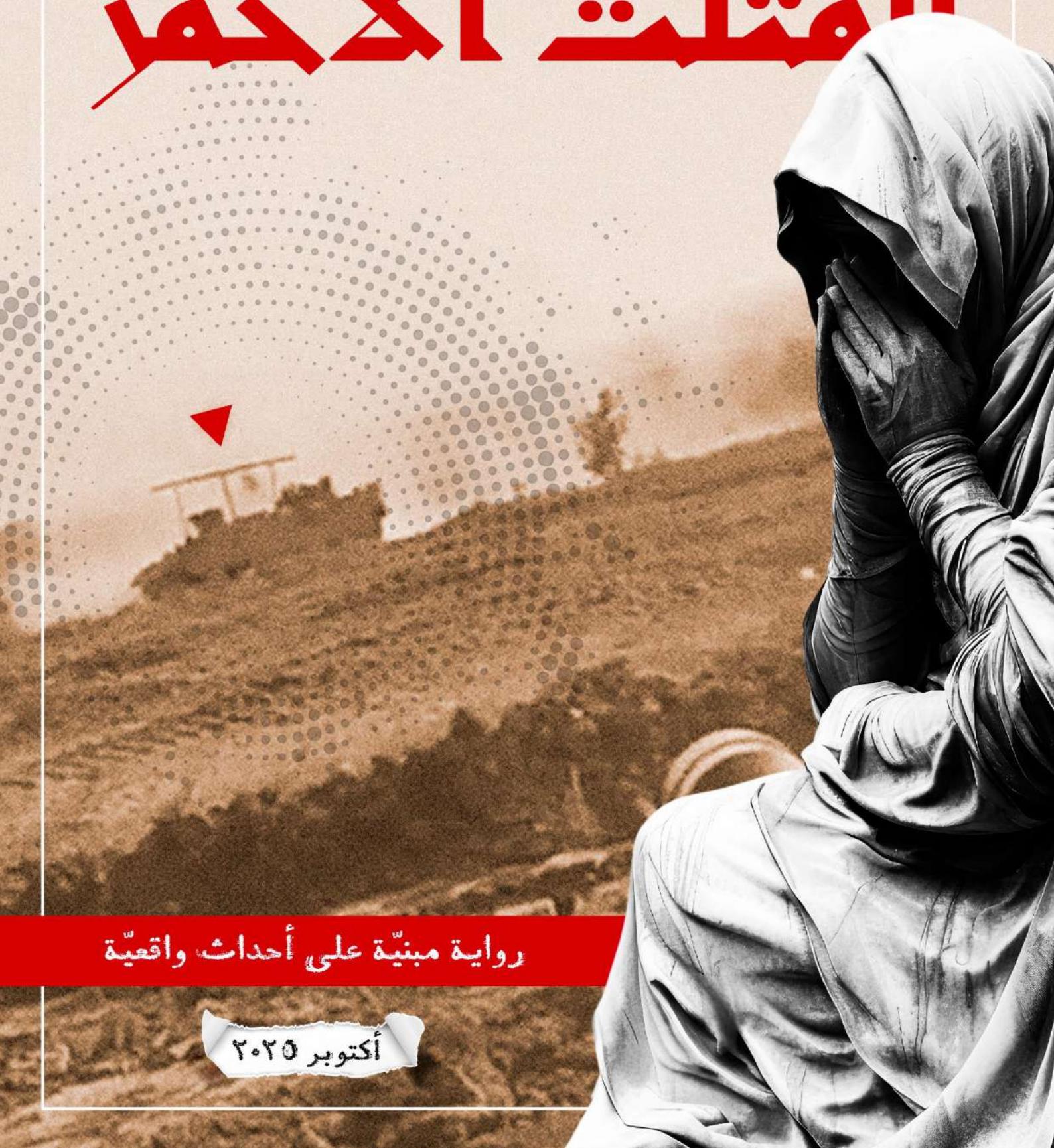




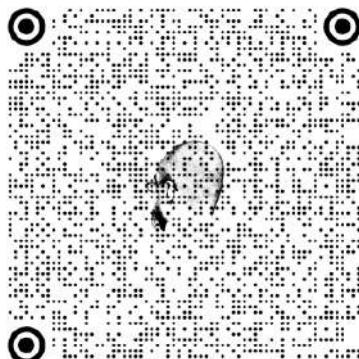
عبد الرزاق بن عمر

المثلث الأحمر



رواية مبنية على أحداث واقعية

أكتوبر ٢٠٢٥



- عنوان الرواية: المثلث الأحمر، مبنية على أحداث واقعية ([النسخة الرقمية الحقيقة True PDF](#))
- تأليف: عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)
- الإصدار الأول: 7 أكتوبر 2025
- ردمك: **9798232356071**
- الكتلة الإفتراضية الحقيقة: 51 ميغا | عدد الصفحات: 260 | عدد الكلمات: 72055
- نسبة الخطأ في التحويل الآلي للخطوط الأساسية، (Traditional Arabic)؛ لا تتجاوز 03 %
- تصميم الغلاف والضبط الفيزيولوجي للمستند؛ عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)

16 +

هذه النسخة مهيئة للطباعة المكتبية، ويستحسن استخدام آلة تجليد حراري للحصول على أفضل نتيجة

© 2025 عبد الرزاق بن عمر | جميع الحقوق محفوظة

ISBN : 979-8-2323-5607-1

نسخة رقمية أصلية التحويل وعالية الجودة، موجهة للإستغلال الشخصي والتعليمي، وصالحة للطباعة المكتبية.
يمنع إعادة الإنتاج التجاري لأي جزء من هذه الرواية، أو ترجمتها، أو توزيعها، دون إذن خطّي من المؤلف.

© 2025 Abderezak BENAMAR | All rights reserved

This is an original high-quality digital edition, intended solely for personal use and
permitted for desktop printing.

No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in
any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise,
without the prior written permission of the author.



9 798232 356071

الجزائر في :



مساحة خاصة للتوقيع أو الإهداء

الرواية التي رفضتها ٣٣ دار نشر

المثلث الأحمر

عبد الرزاق بن عمر

رواية مبنيّة على أحداث واقعية



لقد أخجلنا أصحاب المثلث الأحمر،
فصرنا لا نعرف، هل ندعو لهم بالعافية والسلامة، أم نسأل الله لهم الشهادة والفردوس؟

هذه الرواية مبنية على أحداث واقعية
تم إنشاء بعض الشخصيات والتصرّف فيها بما تقتضيه الحبكة العامة للقصة

اللَّهُمَّ إِنِّي بِمِنْكَ حَاجٌّ

ستشكّل لك هذه الرواية الجريئة استثناء من نوع خاصّ، لأنّها ليست ككلّ الأعمال الأدبية المطروحة في السّاحة الثقافية، المتحدّثة عن معاناة الشّعب الفلسطينيّ.

لنصارح بعضنا بعضاً من البداية، لأنّه يجب أن أوضح لك موقفني، فتفهمّ.

ما عهده يا سيدّي هو حديث الصّحّيّة عن ألمها، عن عذابها، عن الجحيم الذي تعيشه باستمرار، ما ألفته هو أني المستضعفين، لكنّ أن يتحدّث الجنّاد عن ألمه ثمّ ألم صحيّته، ثمّ يتّساعّ بدوره عن سبب معاناته؛ فذلك شيء لم تنتظّره من قبل، وربما لم تفكّر فيه إطلاقاً، بل ربما لن تتماهي مع سرد صاحبه.

تذكّر؛ لا أطلب منك أن تتعاطف مع الجنّاد الغاصب، فأنا ضدّ التّطبيع، ويجب أن تكون مثلي ضدّ التّطبيع، فأرض «فلسطين» خطّ أحمر، لكنّي أحبّيت لك أن ترى بشكل مغاير، منظار المُعسّر الآخر، بنظرة العدوّ، أو بالأحرى من أراد أن يكون عدوّاً، لا شيء سوى لتدرك أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين الدين والتّرعة، بين الأصل والبدعة، فتلتّفّ.

ألا يجب أن تؤمن بنور الشّمس المنتشر على وجهك بدفعه الظّاهري؟، إنه الواقع والحقيقة، أو بالأحرى جزء من الحقيقة، التي يريد الجنّاد كتمانها وإنفائها عن العالم، ثمّ لعب دور الولي الصالح أو القديس، مع إصاق التّهمة بالطرف الآخر لصقاً أشبه ما يكون بغسيل دماغ، كي تقبل ما يفعله هذا الجنّاد وترضى به ككلّ الرّضى.

أسألك شيئاً فهلاً تكرّمت؟.

منذ متى كان ذنب صاحب الأرض هو كونه صاحب الأرض؟!.

وإذا كان الغاصب يضمّ أذنيه عن سماع صوت الحقّ، فهل نلوم صاحب الأرض على ردّ فعله؟.

من الضروريّ هنا أن أشرح بعض الأشياء.

بدأت إرهادات هذه الرواية تراودني بعد شهر على أحداث «طوفان الأقصى»، التي باغتت العالم فجر السابع من أكتوبر من سنة 2023، أكبر ردّ فعل مسجل، قرّرت حينها أن أفعل شيئاً كما فعل الذين تحرّكوا فجأة في ذلك اليوم، كان عليّ أن أشارك في هذا الذي أضحي في ساعات هو الفعل، بشكل مختلف عما قام به هؤلاء الأبطال.

لقد كانوا يوثقون و كنت أوثق على طريقتي، مستنداً على مادة إعلامية خصبة، بيانات صحيحة مأخوذة من عدة مصادر، من أبرزها قناتي «الجزيرة» و«العربي» القطريتين، وقناة «المليادين» اللبنانيّة، إضافة إلى التّحليلات العسكريّة للواء «فائز الدّويري»، والعميد «إلياس حنا»، والعقيد الرّكن «حاتم كريم الفلاحي»، ومع المحاولة الحثيثة لبناء شيء له من التّماسك والمصداقية، ما يمكن أن يُروى للأجيال القادمة برأس شامخ، بآيات الفخر، دون إهمال ما يدور في أهمّ قنوات الطرف الآخر، ومواقه الإلكترونية المختلفة، الرّسمية وشبيه الرّسمية.

غير أنّ ما يُروى في الرواية يجب أن يكون نسيجاً متكاملاً من الأحداث المنطقية، فكانت عملية إيجاد حبكة درامية مبنية على الأحداث الواقعية؛ شيئاً صعباً يتطلّب بحثاً، وصبراً أخذ مني ما قارب السنة، بما في ذلك الخطّ الرئيس للرواية، والخطوط الفرعية المساعدة، وتعزيز الشخصيات في أبعادها السلوكية والنفسية والإجتماعية، سواء الحقيقة أم نصف الحقيقة، واتخاذ حيز مكاني ملائم تماماً لكلّ ما سبق، مع الحرص على معالجة البيانات الجديدة المتسارعة بانتظام، دون المساس بعبارة «المثلث الأحمر»، اللّغز، والمفتاح، والجوهر.

مثّلّث ميز كلّ فيديوهات المقاومة التي أحسنت توثيق عمليّاتها العسكريّة، فكان إشارة واضحة جلية لا ينبغي التّغاضي عنها ولا يجدر، وعليه فقد اختerte عنواناً لهذا السّرد، ثمّ ليأخذ بعداً آخر في نهايتها، كرمز للقضاء على كلّ شيء فاسد، لا يجب أن يعيش مطلقاً، وبأيّ حال من الأحوال.

ما بين لديك، رواية بيانية بالدرجة الأولى، واقعية، نفسية، إجتماعية، رومانسية، حرية، تقوم على مبدأ تغذية الفضول، سعيت بكلّ جهدي أن تكون أيقونة من أدب المقاومة، عسى أن يزيل الله بها إثم الخذلان.

أمّا عن الدّور التي رفضت نشر هذا العمل، فلكلّ واحدة أسبابها الخاصة، ولكلّ الحقّ في التّحفظ عليها تكرّماً وتنسّطاً، لكن يجدر بي ويليق في النّهاية؛ أن أحّبّي كلّ مخلص ومحلّصة للقضية الجوهرية، رغم كافة الإغراءات، والمضائق والضغوط.

لقد كانوا يوثقون، وكنت أوثق على طريقي

الباب الأول

(١)

«شيزافون»، مدرسة تدريب سلاح المدرّعات؛ صحراء «النقب»؛ سبعون كيلومترا شمال «إيلات».

حدث كل شيء ببطء، وبسرعة في آن واحد؛ أمسية السبت الثلاثين من ديسمبر، أي بعد شهرين فقط من هجوم السابع من أكتوبر، وفي أقل من ساعتين، إبتداء من الحادية عشرة ليلا.

كنا نائمين استعداداً لتدريبات يوم الغد الشّاقة، حين دخل فجأة ضابط لغرفتنا يطلبني فوراً لمركز القيادة؛ بدا الأمر مريباً لي بعض الشيء؛ لكن ما عرفه فيما بعد، لا يمثل سوى النّزّر اليسير واليسير جداً أمام هذه الريّبة؛ وأنا الذي ما زلت طالباً في سلاح المدرّعات، لم أكمل دوراتي التدريّية بعد، هنا في قاعدة «شيزافون»، يرتفع سقف توقعاتي عالياً باستمرار، كلّما تخيلت القبعة السوداء على رأسي، وراودني حلمي الوحيد الذي عشت وجئت من أجله، فأبتهج غاية الابتهاج، إنه عنفوان الشباب الذي يدفعني دفعاً حثيثاً لأرفع رأسي شامخاً بهذه القبعة، وبعزة جبل «صهيون».

نعم سأكون ضابطاً مسؤولاً، ذو شأنٍ رفيعٍ يفتخر به أبي، أينما ذهب، سأكون قائد دبابة «ميركافا 5»؛ آخر إنتاجاتنا العسكريّة، وفخر دولة إسرائيل.

– تحرّك بسرعة.

قالها لي ببررة آمرة غليظة، وبصوت مكتوم في آن واحد، ناظراً بحقنّق تجاه صديقي «عزرا غولدشتاين»، الذي أدى له التّحية العسكريّة بنشاط، بعدهما أخفى هاتّه النّقال تحت الوسادة، في حركة سريعة، كثيراً ما تدرّب عليها كي يتقنها مثل هذه المواقف، وأظنّ أنه انزعج حين وجده مستيقظاً في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

طار النّعاس من عينيّ وحقّ له أن يطير، بمجرد هذا الدّخول الفضّ.

إنّها المرة الثانية التي أواجه فيها عجرفة أحد الضّباط، منذ التّحاقِي بهذه القاعدة العسكريّة، بعد الشّيطانة التي خرجت للتوّ من الجحيم، الشّيطانة التي استقبلتني أول ما وطئت قدمي هذا المكان.

أنا الآن شبيه آلة، أنفّد حرفياً ما يأمرني به دون تردد، كلمة منه؛ معناها زرٌ ضُغط عليه، كلمة منه أو حتى إشارة؛ معناها فعل سيحدث.

كلّ شيء الآن متوقف على أفعال هذا الضابط الذي سقط علينا من السماء.

غريبة هي الحياة العسكرية، تعلّمك الإنضباط الذي لا تخيله مطلقاً حين تكون في منزل والديك، كما تلقّنك استشعار الأخطاء التي تتوقّع انكشافها أمام رؤسائك.

تبعته صامتاً وأنا أنظّف عدستي نظاري الطبيّة، بينما تركت صديقاي يغطّان في نوم عميق، ثنيت لو استيقظاً، أو على الأقلّ لو فتحا أعينهما فقط، ليريا وجه الضابط الذي لم أرتّح لسحته حين رأيته للوهلة الأولى، كما أخافني نظراته الخفية المرية لي في الطريق، فراح الوساوس والشكوك تتلاعب بي تلاعيب أمواج المحيط بزورق صيد صغير.

كيف عرّفوا أنّي غادرت القاعدة رغم أنّي أخذت كافة احتياطاتي؟.

هل من المعقول أن يكون أحدهم قد رأني فوشى بي؟.

لقد احترست، فرّت كلّ شيء لأمنع وقوع أيّ صنف من الأخطاء، وأيّ نوع من المفاجآت.

فجأة قطع الضابط حبل أفكاري، لما شدّي بقوّة من ذراعي منحرفاً إلى أحد المكاتب، كان هناك رائد مع ضابط آخر لم أتبّين رتبته، رفقة طبيب سرعان ما تذكّرته، نعم إنّه هو الطبيب الذي التقى في مكتب التجنيد والفرز في «بير شيفا»، وسأل عن حالة أبي الصحّيّة.

أدينا التّحية العسكرية وقلت بصوت جهوريّ:

- الطّالب «دافيد عوفر»؛ اللواء المدرّع 460 تدريب إلى اللواء القتالي 401، تحت أمرك سيدّي.

- ستدّه إلى «غزة»؛ نحن في حاجة لمقاتلين أشدّاء من نوعيّتك؛ جنود أقوياء أوفياء لدولة إسرائيل، يتّسّمون بالشّجاعة والصّرامة والإنضباط.

هكذا ببساطة شديدة، دون مقدمات كالتي اعتدنا عليها حين نقف أمام الضابط، ولهول المفاجأة لم أعرف حتى هذه اللّحظة من قاها، هل هو الرّائد أم الضابط الآخر الذي لم أتبّين رتبته؟، أم الطبيب؟، أم الضابط الذي أحضرني إليّهم وبقي واقفاً بجانبي؟.

تشويش تامّ أصاب دماغي قضى على تركيزي للحظات، فتركتي أقف مشدوهاً، لا أملك سوى أن أنظر وأنظر، كلّما نظرت ازداد توهاني بين هؤلاء، واشتدّ معه خفقان قلبي.

ثم أردف بصوت أعلى من السّابق متعمّداً إيقاظي من شرودي:

- غدا على السّاعة السادسة صباحاً ستتجد شاحنة متّجهة إلى «سديروت»، ستأخذك معها.

ودفع بورقة على الطّاولة، كأنّه يدفعني إلى قدرى الذي ينتظري هناك:

- إنصراف.

أدّيت التّحية العسكريّة وخرجت، ودقّات قلبي المتّسارعة أصوات متّالية تأبى الإنخفاض.

لماذا أنا بالذّات دون سواي؟!، «غزة»؟... سأذهب إلى «غزة»؟!، للحرب؟!، كيف؟!، هل سأكون قائداً لإحدى الدّبابات؟، ثمّ هل أنا جاهز للقتال؟.

عشرات الأسئلة بدأت تتهاطل على رأسي دون أن أجده لها إجابات واضحة، ولو بصفة مؤقّة تطمئنني، بدل هذا الرّعب الذي أعيشه الآن.

(2)

رجعت للغرفة، فوجدت الجميع مستيقظين، بعدما تركت «عزرا» وحده مستيقظاً يتحدث مع خطيبته بحاتف مهرب، كانت مأقيهم تسألي دون كلمات، نظرت في عيون كلّ واحد منهم، نظرت في عيون أصدقائي؛ الواحد تلو الآخر، هؤلاء الذين ما عرفت سواهم هنا، وأنا الغريب البعيد عن «أوفاكيم» مسقط رأسي، وعن أمي التي أرددت الإتصال بها لأخرينها، لكنّي خشيت أن أزيد من قلقها، وربما ارتفع ضغطها هذه الليلة، فتزداد حالتها سوءاً باتصالها الأحمق، وهي التي ظلت تعاني مع أبي، الذي لا زال يرقد لغاية اللحظة في مستشفى «سوروكا»، في «بير شيفا»، متاثراً بإصابته البليغة في العمود الفقري، بعد هجوم صباح السبت السابع من أكتوبر، ولم يفعلوا له شيئاً حتّى الساعة.

– ما الذي حدث؟، ماذا كانوا يريدون منك في القيادة؟.

قالها «شلومو زوسمان»، الرّسام النّمساويّ وهو يحاول بحرص شديد استشعار مشاعري، ثمّ أردف «رافائيل»:

– نعم نحن نسمع.

وحرّك «عزرا» رأسه صعوداً ويهبّطاً في تذبذب سريع تشجيعاً لي على الكلام.

نظرت إليه قائلاً في بطء مشدّداً على الأحرف:

– سأذهب للحرب في «غزة»؛ يجب أن أكون هناك، في «سدريوت» غداً صباحاً، قبل السّاعة العاشرة حسبيماً كُتب في الأمر.

وأريته الورقة، فخطفها «رافائيل» في حركة سريعة من حركاته القتالية.

وجم الجميع ومرّت دقائق دون أن ينطق أحد، انحرس هول المفاجأة ألسنتنا، فاكتفينا بما تقوله العيون.

بعد دقائق قال «عزرا» وهو يسترق النّظر للورقة التي خطفها مني «رافائيل»:

– أنت؟... أنت لم تكمل تدرييك بعد، هناك خطأ بالتأكيد، من يقول ذلك؟، قل كلاماً آخر «دافيد» ونحن سنصدقك، ثمّ... هل تحاول إقناعي أنّ هذا الوغد أيقظنا قرب منتصف اللّيل ليخبرك أنّك ستذهب

للحرب في «غزة»؟، لماذا يخربك الآن تحديداً؟، لماذا لا يتطلّب للصّباح؟، «غزة» بعيدة، إنّها... إنّها على بعد مائتي كيلومتر من هنا؟.

وسرعان ما سانده الكل في موقفه.

لم نستطع جمِيعاً إيجاد تفسير مناسب رغم كلّ ما تناولناه من تحاليل وقراءات، أمامنا معادلة رياضية لا تحلّ، ثمّ اقترح «شلومو» في النّهاية أن نخلد للنّوم، كي ينهضوا باكرا دون إرهاق، لمواصلة التّدريبات.

بدأ الزّمن يمرّ علىّ وأنا في سريري في سرعة السّلحافة، نظرت إلى «عزرا» فوجدهما زال يتكلّم مع خطيبته، كعادته دائماً كلّ ليلة، كأنّه ما زال مدنّياً يسهر للصّباح كيّفما شاء، في حين أراه يشائّب في كلّ ساعات النّهار تقريباً، وأحياناً يغفو بعد وجبة الغداء حين يغلهه النّعاس، إذ كثيراً ما عاقبه الضابط المدرب «ديميترى» الذي فكّرت أن أطلب تدخله؛ لأنّي أثق فيه وفي خبرته، وأرتاح لنصائحه رغم قسوته، ثمّ قلت في نفسي:

– ما عساه يفعل لي؟، هذا أمر من القيادة العليا، يا لي من غبيّ!

ثمّ تذكّرت أنّ الضابط الذي أتى ليطلبني قال إنّ القيادة تريده، لكنّه انحرف في الطريق إلى أحد المكاتب، ومقرّ القيادة العليا معروفة لكلّ عسكريّ في القاعدة.

ماذا يحدث هنا بالضبط؟.

بدأت أقلق، فأشرت إلى «عزرا» في الظّلام الخفيف، ففهم أنّي أطلب الهاتف، ولا يمكن أن يفهم غير ذلك، فالوضع مربك للجميع، تحت وطأة الحرب يمكن أن يأخذوا أيّ واحد للقتال، ولو رفض لأحالوه على المحكمة العسكريّة، ولأدخلوه السّجن بسهولة تامةً ودون أيّة شائبة.

هل نعاني من نقص في الجنود لهذه الدرجة؟.

راودتني فكرة الإتصال بأمي للمرة الثانية، أدخلت رقم هاتفها الخلويّ ثمّ عدلت عن الفكرة في اللّحظة الأخيرة.

قلت في نفسي:

– سأّتصّل بأختي «ياعيل»، أفضل، لأنّه يجب في النّهاية أن أّتصّل بإحدهنّ.

غير أنّي تذكّرت أنّها لا تعرف إخفاء أيّ شيء عن أمي، بعد ثلث ثوانٍ بالضبط من التّنّظر المباشر في عينيها، لذلك قرّرت الإتصال بخطيبتي «أتارا».

كانت السّاعة تقترب حثيثاً من منتصف اللّيل، رنّ الهاتف مرّتين، ثمّ سمعت الذي كنت له متعطّشاً.

– نعم من المتصّل؟.

قالتها بعياء وفتور.

– أنا «دافيد».

كان صاعقة أصابتها:

– «دافيد»؟، لم أنتظرك أن تكلّمي من القاعدة، هل سمحوا لكم باستخدام الهواتف؟!.

– آسف «أتارا» لأنّي أتّصل بك في وقت متّأخر، لكن يجب أن أقول شيئاً، إمعيني أرجوك، دون مقاطعة... أرجوك.

سادت فترة من الصّمت قبل أن أنطق بدموع تختنقني وتخنق صوتي معها:

– أحبّك «أتارا»، تذكّري دائماً أنّي أحبّك.

أول مرّة أصارحها بمشاعري المكتظّة منذ أشهر، حبيبي السّمراء ذات الستّة عشر ربيعاً، أول مرّة أمتلك شجاعة الكلام الذي كثيراً ما لامني صديقي «غاي» على افتقادي لها، منذ أن عرفتها في الثانوية؛ بعينيها اللّوزيتين، منذ أن تحدّثت أمّي مع أمّها واتفقنا جميعاً، مبدئياً على الخطوبة، سمعت بكائها، وأنا الذي أحاول جاهداً، وبكلّ ما استطعت من قوّة، ألاّ يجعلها تبكي، منذ حادثة شجارها مع «بلانكا مالكامو»، هذا الملاك لم يُخلق ليّبكي، هذا الملاك خلقه الربّ «أدوناي» ليعيش سعيداً، فلا يجب مطلقاً أن تفارق البسمة شفتيها.

أغلقت الخطّ رامياً الهاتف لصديقي على فراشه، هنا بدأت الدّموع تختنقني أكثر، كلّما قاومتها، زادت هي من خنقني، تمنّيت أنّي لو لم أتّصل بها، ما حدوى ما قمت به الآن؟، لا شيء، ربما ضاعفت قلقها، ربما طردت النّوم من جفونها بعباراتي الغبية الحمقاء، آه لو طلبت رأي «عزرا»، ربما كان الوضع أحسن بكثير، فهو خبير في هكذا أشياء، حتّى أنّ الجميع هنا يسمّيه «المستشار».

أمّا هو، فاللقطة الهاتف وأكمل حديثه بشكل عادي تماماً، كأنّي غير موجود، فحين يتحدّث مع خطيبته يلغى من عقله كلّ الأشياء التي تشوّش عليه، حتّى أنّي طلبت منه دواء منوماً، بصعوبة وسط دهشته، كوني أطلب ذلك منه للمرّة الأولى، كانت السّاعة تقترب من الواحدة وأنا في كامل وعيي، ويجب أن أنام لأستيقظ صباحاً، فقدّم لي نصف قرص من دواء «كلونوبين»، من أجل مفعول مناسب للفترة التي ما زالت من الليل.

«عزرا» هذا؟، غريب وبارع في هذه المسائل، فهو يحسب بدقة متناهية الوقت الذي يجب أن يستغرقه للنّوم، بعد أن كان يستعمل الدّواء عشوائياً، مما تسبّب له في بقائه نائماً حتّى في ساعات النّهار، وحين يصحو يقول لمن يجده أمامه إنّ هناك مطرقة ضخمة في رأسه، تشرع في العمل، مجرّد أن يفتح عينيه.

(3)

هنا في إسرائيل، كلّ شيء مختلف عن باقي دول العالم، نحن شعب ولسنا كأيّ شعب، نحن مجتمع عسكري بالدرجة الأولى، نعم نحن كذلك، هكذا يلقنوننا في المدارس إنطلاقاً من الإبتدائية، بل حتى في الروضة التي كانت فيها أختي «ياعيل»، يحاولون غرس هذه الفكرة بعمق، شعب وحيد مضطهد في كلّ أنحاء المعمورة، جئنا من الشّتات من كلّ أصقاع العالم، لنستقرّ في أرض اللّبن والعسل، أرض الأجداد، شعب يواجه تحديات كبيرة وصعبة من دول الطّوق كما تسمّى، أي من جيراننا العرب، لذلك تعتمد الدولة على الأمن والإستخبارات، أكثر من اعتمادها على أيّ شيء آخر، ويتمّ إنفاق حوالي خمسة بالمائة من الناتج المحلي على الشّؤون الدّفاعيّة.

من أجل حماية هذه الدولة من كافة التّهديدات، لدينا ثلاثة أنواع من الخدمة العسكريّة؛ الإلزامية والتعاقديّة والإحتياطيّة، إضافة إلى بعض البرامج الأخرى لمزدوجي الجنسية، والمرتبطة بالباحثين عن المجد، أو الذين اضطركم الظّروف المزريّة لبيع خدماتهم القتاليّة لمن يدفع أكثر، مثل برنامج «الجنديّ الوحيد».

أولاً، الإلزامية التي تورّقنا جميعاً، بحيث تتلقّى استدعاءً آلياً من وزارة الدفاع ابتداءً من السنة الحادية عشرة من الدراسة، أي في سنّ السابعة عشرة أو الثامنة عشرة عموماً، ذكراً كانت أم أنثى، طبقاً لقانون خدمة الأمن، للتوجه إلى أحد مراكز التّجنيد والفرز القرية من مقرّ سكنك، وتسجّل وفق بروتوكول واضح شامل، يحدّد بدقة قدراتك الجسمية والنّفسيّة والعقلية، ثم تتحقّق بوحدتك المناسبة التي حدّدوها لك، بناءً على مؤهّلاتك في سنّ الثامنة عشرة، وتقضى مدة اثنين وثلاثين شهراً في الجيش إذا كنت ذكراً، أو أربع وعشرين شهراً إذا كنت أنثى، لكن تتّخوّف نحن الشباب من أيّ تجدّد، من أيّ نوع، وتحت أيّ ظرف.

ثانياً التعاقديّة؛ فهي الخدمة النظاميّة في جيش الدّفاع، إذ تتحقّق به بمحبّ عقد بينك وبينه، فينتقل المواطن الإسرائيليّ من صفتة المدنيّة إلى صفة عسكريّة نظاميّة احترافيّة لا وظيفة له ولا عمل سوى الجيش، وما يتلقّاه منه من راتب، تماماً مثل أيّ.

ثالثاً الإحتياطيّة؛ وفيها يُستدعي كلّ من أتمّ فترته التّدريسيّة الإلزاميّة في الجيش، لفترة تدريسيّة أخرى، مدّتها شهر فقط في السنة، تكون بمثابة إعادة رسكلة، ثمّ يعود لحياته المدنيّة، وعمله بشكل آليّ.

ويشمل حيش الدفاع الإسرائيلي القوات البرية والجوية والبحرية، في تعقيدات متشعبة جدًا، قليل من يفهمها، لكن نعتمد كثيراً على القوات البرية على اختلاف ألويتها، وسلاح الاستخبارات الداخلي «أمان»، وهو الاستخبارات العسكرية، وجهاز الأمن العام «الشاباك»، والإستخبارات الخارجية المعروفة باسم «الموساد».

في مدينتي «أوفاكيم» التي تبعد عشرين كيلومتراً إلى الغرب من مدينة «بير شيفا»، لم يستفق الجميع من هول الصدمة، هجوم هو الأول من نوعه على إسرائيل، أدى لمقتل ألف ومائتي شخص، وأسر أكثر من مئتين آخرين، في تسونامي مباغت للجميع، ومفاجئ حتى للأجهزة الاستخباراتية، حيث انطلق زهاء خمسة آلاف صاروخ دفعه واحدة من قطاع «غزة»، نحو مدننا الكبيرة، «تل أبيب» و«لود» و«أشكولون» و«أورشليم»، ثم اكتسح ألفان وخمسمائة مخرب من «حماس»، وبباقي الفصائل الفلسطينية الأخرى، عبر البر والبحر والجو؛ خمسون موقعاً لنا من كيبوتسات ومدن إسرائيلية، مثل «سديروت» و«كيسوفيم» و«منيفوت» و«نحال عوز»، وغيرها من المناطق المتاخمة لقطاع «غزة»، وحتى قواعد عسكرية، كنا نراها رموزاً لدولة إسرائيل، محسنة لا يمكن احتراقتها مطلقاً، مثل «رعيم»، مقر قيادة «فرقة غزة»، والقاعدة الاستخباراتية «يركون 8200»، في نطاق يمتد خمس وستين كيلومتراً من السياج الفاصل، أو الذي اعتقدنا أنه يفصلنا عن هؤلاء الإرهابيين.

زخم من الأفعال العنيفة حول كلّ شيء إلى منطقة أشباح مرعبة، آثار الرصاص واضحة على السيارات والمنازل، لا أحد الآن يجرؤ على الخروج من منزله، مخافة أن يصادف مخرباً يرديه قتيلاً، هو ومن معه.

هنا في «أوفاكيم»، مشهد سينمائي هوليوودي، أو نقل دون مبالغات - أنه مشهد من مشاهد يوم القيمة.

فقدت المدينة الهدأة ثمان وأربعين مواطناً من أبنائها الأويفاء، في بضع ساعات، مثل «تاتيانا شنايدمان» و«آفي بوزاغلو» و«فلادمير بوبيوف»، وغيرهم الكثير، أصاب أحد المخربين «فيكتور راشيلوف» إصابة مؤلمة في الفخذ، وعقيلته «ناتالي» الآن في صدمة كبيرة، لا أعتقد أنها ستزول عنها، وذلك لما إلتقي به صباحاً حين كان ماراً بالسيارة، فأطلق عليه النار دون رحمة، واحتطفوا «ماتان تسينجوكر»، من أقارب صديقي «غاي»، كما احتطفوا «إيليا توليدانو»، من الحفل الموسيقي الذي أقيم قرب كيبوتس «رعيم»، وقتلوا أربعة من الأصدقاء والصديقات هناك بدم بارد، الحفل الذي كنت أتمنى دعوته «أتارا» إليه، لو لا اعتراض أمّها، بحجة أنها ما زالت صغيرة السنّ، وقد تُمنع من الدخول.

لقد أنقذنا جارنا الطيب، السيد «ريكاردو مزراحي» من المصير المظلم الذي كان يتضمننا، بأعجوبة أكاد لا أصدقها حتى الآن، شرة رفيعة كانت الفيصل بيننا وبين الموت، إذ من عادته أن ينهض باكراً لممارسة رياضة الركض في الهواء الطلق، فسمع صفارات إنذار بعيدة ثم صوت إطلاق النار؛ بعدها وبينما كان يحاول معرفة مصدرها، أطلت أمي من الباب، لتحقق هي بدورها مما يحدث، فأشار إليها أن أخرجوا بسرعة جميعاً من المنزل نحو الملحق، فدخلت أمي لتوظفنا، بينما كان أبي غائباً في عمله في حراسة إحدى المستوطنات.

(4)

كنا نحن الثلاثة بملابس النّوم، أمي وأنا، وأختي «ياعيل»، تبكي المسكينة في شجن، حين ركينا مع السيد «ريكاردو» الذي كان يشهر سلاحه استعداداً لأيّ طارئ، حيث انطلقت صفارات الإنذار من جديد لتوقف في السّكّان هذه المّرة جديّة الأمر، وانطلق هو مسراً بسيارته، لكنه انتبه إلى أنّ الوضع أكثر خطورة مما كان يعتقد، وأنّ المهاجّين ليسوا مسلّحاً واحداً أو اثنين، بل يمكن أن يكونوا بالعشرات، أو بالمائات، لأنّ أصوات الرّصاص متشابكة، وصرنا لا نعرف في ظلّ هذه الفوضى من هو الذي يطلق النار، هل هي شرطتنا، أم المخرّبون الذين قدموا من وراء السّيّاج.

وعليه، فقد كان أخذ الطّريق إلى الملجأ فكرة غير جيّدة، لذلك اضطررنا للإختباء في إحدى الروايا المموجّة بالشّجيرات الصّغيرة، بعد أن ترك معه سلاحه، رشاش من نوع «كارابين M4»، وخمسة مخازن من الذّخيرة، وذهب بشجاعة لإحضار أسرته، يحمل مسدّسه الرّشاش «عوزي» فقط، مخاطرة كبيرة وجدنا أنفسنا أمامها، ثمّ فضّلت أمي أن نعود للمتّل، لأنّه آمن أكثر من الخارج، وحين فتحنا باب متّلنا بحذّر، نادانا السيد «ريكاردو» من نافذته، يعلمنا أنّ الصّواريغ التي كنا نخشّها كانت موجّهة لمدن بعيدة.

دخلت «كتائب القسام» الجنّاح العسكريّ لحركة «حماس» الحاكمة في «غزة» حي «ميشور هاغفن»، أولّا مسلّحين بالكلاشنكوف وقدّائف RPG، وهم على متن سيّارات رباعيّ الدّفع، متسبّبين في خسائر فادحة في الأرواح والمتّلّكات، كنت قلقاً جداً على «أتارا»؛ لأنّهنّ لا يملّكن أيّ سلاح، إتصلت بها محذّراً، فقالت أنّهنّ أحكّمن غلق كلّ شيء، واحتّبان في القبو المصفّح، الذي هو في الأصل مجّهر للحماية من القصف.

ثمّ توغلّوا في شوارع أخرى، وهم يطلقون النار على كلّ ما يرونّه يتحرّك.

عائلة «غابي» مثلاً، كانوا نياماً فانتبهوا مفزوّعين، لأنّ المهاجّين كانوا أمام متّلهم تماماً، وقد يفجّرون الباب في أيّة لحظة، غير أنّهم غادروا المكان بسرعة، لما تلقوا أمراً عبر اللاسلكيّ، فتنفّست العائلة الصّعداء.

أخبرني «غابي» أنه كاد يفقد وعيه بسبب الإنفعال الشّديد والتّوتّر الذي تعرّض له.

نظر من النّافذة وجلاً، فرأى أحدهم بلباس عسكريّ، وعلى رأسه عصابة كتب عليها بالعربيّة «كتائب القسام».

منظر كلفه يومين في المستشفى يعاني من آثار الصدمة التي كادت أن تسبّ له ذبحة صدرية.

ثم سرعان ما وصلت قوّات كبيرة من الجيش، واشتبكت معهم اشتباكاً ضارياً قضى على كلّ المخربين.

كانت «أوفاكيم» مدينة هادئة هدوء البحر والصحراء، حتّى أنه تمت الموافقة على بناء أكثر من خمسة آلاف شقة سكنية في حيّ «أفيكي»، وقبلها؛ كان مشروع إنشاء مركز طبيّ ضخم، يمكن ربطه أو توأمه مع مركز «سوروكا» في «بير شيفا»، تقدّر تكلفته بأكثر من ستين مليون شيكل، وفي أوت 2023 تمّ تنظيم مهرجان استعراضيّ مثير، جذب إليه المئات من الأطفال والشباب، وافتتحت أكبر قاعة لتنمية العضلات، تحت مسمّي «الفرع 24»، لسلسلة «سبايس» المشهورة، وفيها يتدرّب كذّاب ثانويّتنا، كما زارنا في التّاسع عشر من أكتوبر 2022 «بنيامين نتنياهو»، في إطار حملته الإنتخابية، ليصبح رئيس وزراء، مستقبلاً من عمدة مدینتنا «يتسحاق دانيهو»، الذي ارتقت «أوفاكيم» في كنفه، وفتحت المئات من مناصب العمل.

أفسد علينا المخربون «عيد العرش»، ذكرى تحرّرنا من «فرعون» على يد النبيّ «موشيه»، وخرّو جنا إلى الأرض الموعودة عبر صحراء «سيناء»، وأصبحت الخيمة التي أقمناها يوماً من قبل كثيبة، يلفّها الغمّ ويكسوها الحزن، ومن أين تأتينا السّعادة والفرح؟.

بعد أربعة أيام علمت بمقتل صديقي «ليدور مكايير» الذي حضرنا جنازته في مقبرة «أوفاكيم»، الجنديّ الذي تمت ترقيته إلى عريف حين قُتل في عمر تسعه عشر ربيعاً فقط، وسط ذهول الجميع من هذا الموت الذي أخذ منّا خيرة زهور المدينة، بين عشية وضحاها، أصبح الكلّ مهدّدين، إما بالموت أو بالإختطاف.

ثم حضر وفد من يهود «أمريكا» لزيارتنا مع المثلثة «شيران صندل»، عزّوا الشّكالى وتجوّلوا في مسرح الأحداث، أيامًا فقط بعد زيارة وزير الدفاع «يواف غالانت»، لتفقد أحوال المدن والبلدات التي هاجمتها قوى الشرّ المنطلقة من هناك من «غزة».

(5)

كنت أريد لقاءه، لأسئلته سؤالاً بسيطاً، هو سؤال المثاث مثلثي من شباب إسرائيل، ويجب أن يجيبنا عليه:

ـ لماذا يكرهنا العرب؟، ماذا فعلنا لهم كي يطلقوا علينا الرصاص والقذائف الصاروخية بهذه الشراسة والقسوة والهمجية؟، أهي اعداءات منعزلة؟، أم حقد تراكم عبر السنين؟.

السؤال الذي لم يستطع أن يجيبني عليه عدمة مدینتنا، ذو الأصول الغربية «يتسحاق دانيهو».

عجبنا، هل عشنا إحساساً زائفاً بالقوة، حتى أفقنا فجأة على هول الكارثة؟.

ذكروا في التلفزيون الرسمي أننا نعيش حالة حرب معلنة، ويجب التعامل مع الأوضاع الجديدة بكل حزم وجدية، وأنه ينبغي على كلّ مواطن إسرائيلي من جنود الإحتياط، وصله أمر الإلتحاق بوحدته، أن ينصاع للأمر فوراً دون تأخير، ثم صبّت قواتنا الجوية جام غضبها على «حماس»، المتمرضة وراء السياج الفاصل، في عملية ستتوسّع مستقبلاً وتشتّد، أسموها «السيوف الحديدية».

لقد تلقّى أصدقائي وجيروني مباشرة أوامر الإلتحاق بوحداتهم، في توارييخ قريبة تمهدأ للاجتياح الكبير، الذي وبناء عليه، تمت محاصرة القطاع، لا أغذية، لا أدوية، لا كهرباء، لا وقود، رباعية القحط والمجاعة القادمة إلى مساحة لا تتجاوز ثلاثة وستين كيلومتراً مربعاً، لسكان تجاوزوا المليوني نسمة، المحاصرين منذ 2006.

«غزة»، أصبحت عدونا اللدود الذي يجب القضاء عليه اليوم قبل الغد، بكلّ شراسة وجبروت، «غزة» هي في الواقع جذور كلّ مشاكلنا الأممية، آلاف الصواريخ تنطلق منها نحو مستوطناتنا الآمنة منذ سنوات ماضية، نحو أراضينا التي ورثناها عن الأجداد، آلاف الصواريخ تبثّ الرعب فينا، وتفرّع أطفالنا الصغار.

أمدّن بـ أنا لو نشأت صهيونياً على تربية والدي الذي سقاني روح هذه الترّزعة، وحبّ هذه الأرض التي عرفتني في الثامن من ماي من سنة 2005 في «أوفاكيم»؟، هل أكون مذنباً إذا نشأت في بيته مقاتلة تعانق التّوراة والسلاح؟، ألي «يوسف»، ملازم أول في لواء «بيسلماخ»، مهاجر قديم من «المغرب»، من أصول برتغالية، وأمي «إيليانا»، مناضلة في حزب «العمل»، يسارية التّوجه علمانية التّفكير، ولدي أخت اسمها «ياعيل»، ولدت بعدي بثلاثة أعوام، كما لدى أخت أخرى غير شقيقة، إسمها «إنجي»، متزوجة من ضابط في «الموساد» لا أحد رأه حتى الآن، يُدعى «غارسيا».

هذه هي أسرتي الصغيرة التي قدمّها الصواريخ.

حلمي أن أصبح ضابطاً في سلاح المدرعات وأن أتقلّد القبعة السوداء؛ حلمي أن أكون ضابطاً في دبابة قتال رئيسة، مثل عدّة مدینتنا «يتسحاق دانيرو»، الذي تعتبره أمّي مثلها الأعلى في السياسة، رغم أنهما من حزبين مختلفين، فمنذ التحاقِي بالثانوية ودبابة «المير كافا» تسيطر على مساحة واسعة من عقلي، لم يخترني أحد أنها أحلام مراهقة، وأنّها يمكن أن تكون نواة فكرة لتأسيس مستقبل واعد، غير أنّ جارنا الطيب السيد «ريكاردو»، الرياضي الهيئه والمزاج؛ قال إنّه يجب أن أتمسّك بالأمل، بكلّ يدي بكلّ غطّرة وجبروت، مثل «شمرون»، المذكور في التّوراة.

اما أمّي التي أصبحت الآن تخشى عليّ من الموت أكثر من أيّ وقت مضى؛ لأنّها تعتبرني كلّ شيء لديها في هذه الدّنيا؛ أو بالأحرى ما بقي لها من الدّنيا، كثيراً ما كانت تخوض مع أبي في شجارات حادّة، لأنّه يرفض التّدليل، ويختبرها مما يعتبره مفسدة الأخلاق، وعدوّ التّنشئة الجادّة الصارمة.

كانت تصرّّ منذ ستين أن أطلب تأجيل ذهابي للجيش على الأقلّ، حتى أحصل على شهادة جامعية تؤهّلني لأفق واعد، تنفيذاً للأمنية أبي الذي لم يسعفه الحظّ لإكمال تعليمه، بعدها تسرّب من المدرسة باكراً في صغره، فكنت أعدّها دائمًا بالبقاء في المنطقة الآمنة.

لا أحد هنا كان يتوقّع ما سيحدث، وما سيتغيّر ابتداء من تاريخ السابع أكتوبر 2023.

(6)

فجأة... وصل ما كانت تخشاه، أمر التجنيد الذي ظنّت أنه لن يصل أبداً؛ وصل إلى المترّل عبر البريد العادي، وتقابلاً بعض أصدقائي بالشرطة أمام منازلهم، تسلّمها لهم يداً بيد.

أصبحت الدولة الآن حريصة كلّ الحرص على تبليغنا بوجوب وأهميّة الخدمة العسكريّة، في ظلّ الأوضاع المتأزمّة الرّاهنة.

الحُّت علىّ أميّ أن أطلب إعفاء لأنّي أعاني من نقص في قوّة البصر، ولا يمكنني الرّؤية إلاّ بنظارات طبّية، تزايد درجاتها عاماً بعد عام، ثمّ تراجعت، وأرادت مجدّداً أن أطلب تأجيلاً والدموع تترافق في عينيها، فقط بالهاتف دون إبداء أسباب، لأنّه أمر التجنيد الأول، ويمكنني أن أطلب التأجيل مرتّين متّويتين دون حساسيّات، لكنّي شكّكت في هذا بسبب الحرب، وأمام توقف الدراسة، والتّأجيل المستمرّ للدخول الأكاديميّ؛ والغموض الذي ميز تلك الفترة، والفوضى التي سادت.

آثرت الإنضمام لجيش الدّفاع كي لا أضيّع وقتاً ثميناً أحتاجه في ضمان مستقبلي، لقد خشيت علىّ من الحرب، شأنها شأن أيّ أمّ تحاول حماية أولادها، خاصةً وهي ترى إصابة والدي التي كادت تودي بحياته، كما أصبح لا حديث للناس هنا في إسرائيل سوى اجتياح «غزة»، محو «غزة»، إبادة «غزة»، حرق «غزة»، مهما كلفنا ذلك من تضحيات، عبارات تبدو بسيطة، هينة، غير أنّ أبعادها ستكون وخيمة جداً على الصّعيد النفسيّ، والاجتماعيّ، والإقتصاديّ.

كان الجميع مصدومين، وغاضبين، مما خلفته هجمات السّابع من أكتوبر، من قتلى وجرحى ودمار.

لأول مرّة تعلن حالة الحرب، بعد إعلانها في 1973، وتمّ استدعاء أكثر من ثلاثة ألف جنديّ وضابط، سيموت الآلاف منهم فيما بعد، وستبكي أمّها قمّ كثيراً، بشكل أكثر فظاعة ومؤسسيّة... سنبكي دماً أحمر قان، بدل الدّموع الحارة الشّفافة.

هنا إسرائيل، هنا الحرب المفروضة علينا، فجر السّابع من أكتوبر، لأول مرّة بعد خمسين سنة.

لم أكن وحدي من وصله أمر التجنيد، لقد صُدم زملائي وزميلاتي في الثّانوية من الخلط الرّهيب في مواعيد متابعة التّسجيل، في مكتب التجنيد المحليّ في «بير شيفا»، وهناك من طلب منه الإتصال بالمكتب في

ظرف أقلّ من ثانٍ وأربعين ساعة، أو سيدخل السجن لعقوبة تصل إلى خمس سنوات، بتهمة التّهرب من خدمة الأمن، مثل «دانياًل أدموني» كذاب الثانوية، لأنّه أُجّل للالتحاق بالجيش ثلاث مرات متتالية.

وحتّى لو شوّهت جسمك للإضرار بقدراتك الصحّية لتحصل على إعفاء؛ فإنّ هذا يعدّ جريمة، تعاقب عليها أيضاً.

لقد فعلت الحرب فعلتها.

لن ننجو في إسرائيل من هذا الكابوس الرّهيب للبعض إلّا إذا كنت من «الحرّيدسم»، لا يشغلك شيء في حياتك، سوى دراسة التّوراه.

أطّلعت حارنا الطّيّب السيد «ريكاردو» على الأمر، ورجوته أن يتدخل لصالحي، فيوجّهوني لمدرسة المدرّعات في «شيزافون» في صحراء «النّقب»، وبذلك أضمن تحقيق حلمي في أن أصبح قائداً لدبابة «الميركافا»، دبّابتنا الأسطورية أولاً، وأبعد عن ويلات الحرب لفترة طويلة ثانياً، وأصون وعدي لأمي، بأن أبقى حياً أرّزق ثالثاً، فطمأنني وهو يبتسم ملء شدقه قائلاً:

– لا تقلق «دافيد» حبيبي، مطلقاً... دع كلّ شيء لي واذهب للموعد الذي حدّدوه لك.

وطمأنني كلامه غاية الإطمئنان.

(7)

في موقع «ميتف» على الإنترنت؛ دخلت إلى المنصة الشخصية، بواسطة رقم بطاقة الهوية مع كلمة السر التي دُونت في الإستدعاء، عَبَّأت الإستبيان الشخصي الذي يحوي كلّ معلوماتي الخاصة، مع الإستبيان الطبي بتركيز شديد، وحملت كلّ الوثائق التي رأيت أنها ضرورية.

كنت خائفاً من أي خطأ قد أرتكب بسببه في سلاح المدرعات، أو أُسجن لمدة تصل إلى عامين، بتهمة تقديم معلومات كاذبة

شمل الإستبيان الأول التفاصيل الشخصية والعائلية والمستوى التعليمي وطرق الإتصال بي، مع بعض الأسئلة التي وجدتها غريبة بعض الشيء، لكن صديقي «غابي» أخبرني ألا أقلق منها، مصممة شكلياً للتعرف على شخصيّي وطريقة تفكيري، وأنّ الأساس هو التقرير النهائي الذي سيكون قاعدة للتوجيه الرسمي في مكتب التحديد، الذي يقع في شارع «يدو شيم»، غير بعيد عن جامعة «بن غوريون»، ومستشفى «سوروكا».

كما شمل الإستبيان الطبي نقاطاً مثيرة، مثل الوزن والطول والأمراض التي قد يعاني منها المجنّد، مع اختبار البول الذي يُشترط أن يكون حديثاً، ومعدل ضغط الدم، وسرعة ضربات القلب، إلى غير ذلك من التفاصيل الصحّيّة الصغّيرة، التي توحّي لك أنّك شخص مهمّ، وفي الأخير يوّقه طبيب الأسرة.

في الواقع يمكن لأي طبيب أن يوّقه.

كنت أخشى أن أرتكب خطأً بسبب نقص في درجة الإبصار؛ لذلك فكرت في التلاعّب قليلاً، غير أنّ جارنا الطّيب السيد «ريكاردو»؛ حذرّن من ذلك قائلاً بصوته الأحشّ المحبوب:

ـ إياك حبيبي، سيمكتشفون تزويرك وستفقد كلّ حقوقك، إياك أن تلاعّب بأيّ معلومة، ستواجه السّجن، دع الأمر لي، حين تذهب لا تنس أن تأخذ معك الإستدعاء وبطاقة الهوية وسجل التّطعيمات وبطاقةك المصرفية، خذ معك كلّ ما تراه ضروريّاً حبيبي.

عدلت عما كنت سأفعله قائلاً في نفسي:

- معه حق سيمكتشفون تلاعبي في لمح البصر، ومعماري هذه؛ ستؤدي بي إلى كارثة لا أستطيع احتوائها، هل يمكن التروير الآن في إسرائيل؟.

«ميتاب» وحدة عسكرية غير قتالية أنشئت في 2006 من أجل الإهتمام الجيد بمرشحي الخدمة الأمنية، الذين سيصبحون جنوداً في جيش الدفاع الإسرائيلي في كافة فروعه، وهي نتيجة لدمج وحدة «قاعدة الإستقبال والفرز»، ووحدة «إدارة التوظيف»، إذ يقوم طاقم العمل في مكتب التجنيد بمرافقة الشباب من الجنسين، من مرحلة الفحص الأولي، حتى حصولهم على الرّيّ الرسمي.

حين وصلت إلى مركز التجنيد، إستقبلتني إحدى المجنّدات التي يقارب طولها طولي، بلباسها الأخضر الزيتوني، وبوجهها المربع المبتسם البشوش، وشعرها الأسود المنسدل بربطة ح悱ة على الكتفين، وعينيها اللّوزيتين، ذكرتني بحبيبي «أتارا» التي كنت قد مررت على متزلم العائلي هذا الصّباح، لتصرّ أمّها على تقديم القهوة لي بيديها قائلة:

- جهزّها «أتارا» لك، ستحتاجها في التركيز، اليوم لديك عمل كثير.

أمّا «أتارا» فاكتفت بشرب حليب الماعز فقط القادم من إحدى الكيبيوتّسات، ثمّ قالت ضاحكة:

- أمّي تحبّك كثيراً، ولذلك أصرّت على تقديم القهوة لك بيديها، رغم أنّي أنا من حضرّها.

وابتسّمت ابتسامة طالما اعتبرّها جائزّي الفوريّة.

أخذت المجنّدة مني هاتفي وساعتي، ثمّ أدخلتني إلى أحد المكاتب، رغم كثرة المُنتظرين، أحريت عدة فحوصات ولقاءات مع عدة أطباء وعسكريّين، تمّ تصويري دون نظارات للحصول على بطاقة هوبيّة العسكريّة لأولّ مرّة، وأخذت مجنّدة أخرى بصمات أصابعه إلكترونيّاً بواسطة آلة خاصة، وأخذت مجنّدة أخرى عيّنة من دمي، ثمّ عيّنة من اللّعاب، وصوروها تحويف فمي كاملاً، كان كلّ شيء واضحاً وبيطاً، ثمّ عرفت أنّ رمزي التّعرّيفيّ الطّبيعيّ هو 82، ولم أفهم ما يعنيه هذا إلّا فيما بعد، حين تكفلت إحدى المجنّدات من أصول عربية بشرح ما تعنيه هذه الأرقام.

هناك ثمانية رموز تعرّيفيّة طيبة، الرّمز التّعرّيفي 97، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في مختلف الوحدات القتالية العاديّة ووحدات النّخبة، الرّمز التّعرّيفي 82، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في مختلف الوحدات القتالية وفقاً لإعاقته، الرّمز التّعرّيفي 72، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في الوحدات القتالية إلّا المشاة والدّوريات، الرّمز التّعرّيفي 64، معناه جنديّ مؤهّل للخدمة في تشكيّلات الدّعم القتاليّ فقط، الرّمز التّعرّيفي 45، معناه جنديّ لا يجب أن يتواجد في مركز قتاليّ أو في مركز للصّيانة، الرّمز التّعرّيفي 25، معناه جنديّ غير مؤهّل للخدمة، لكنّه أراد التطّوع في الجيش، الرّمز التّعرّيفي 24، معناه جنديّ غير مؤهّل للخدمة مؤقّتاً فقط وربما زال عنه المانع، الرّمز التّعرّيفي 21، معناه جنديّ غير مؤهّل للخدمة تماماً بصفة نهائّية.

كلّ هذه التّعرّيفات من أجل أن تجد نفسك في تشكيّل قتاليّ أو تشكيّل دعم قتاليّ أو تشكيّل خلفيّ.

حين أقامت كلّ شيء أتت إلى المحنة التي استقبلتني أولّ مرة طالبة مني الإنتظار قليلاً، ثم دخلتني إلى مكتب أحد الأطباء، الذي استفسر عن حالة أبي الآن، وهل هو يحتاج لعملية جراحية عاجلة في العمود الفقري.

لم أجرب على سؤاله عن اسمه كي أخبر والدي أنّ هناك من سأله عنه في مكتب التجنيد، كما لم يشأ هو أن يسهب كثيراً في الحديث، وفي الأخير قال:

– مرحبا بك في اللواء 460.

وابتسّم مسلّماً لي بطاقي العسكريّة، وقلادي الشخصيّة التي كانتا في درج مكتبه ثم أردد في حنان:

– إذهب مع «غولدا» ستسّلمك الزي العسكريّ، وبباقي المعدّات، إتحق بالقاعدة في أقلّ من ثلاثة أيام، لا يوجد وقت، نحن في حالة حرب ولا أحد يتحكم في التغيّرات.

لم أصدق عيناي؛ وأخيراً...

غمرتني نسوة نصر فريدة من نوعها، لقد تأكّدت الآن أنّ السيد «ريكاردو»، جارنا الطيب، قد قام بما وعدني به، على أكمل وجه.

(8)

عدت للمترزل حوالي السّاعة الخامسة مساءً. معنوّيات في السّماء السابعة، مرتدية الزّي العسكريّ، إرتدتيه في المركز كي أرى مدى ملائمتها لي، فكان مناسباً تماماً كأنه فصلٌ لي خصيصاً، مما شجعني على الإحتفاظ به على بدني، ولم يعترض أحد على ذلك، بل رأيت الإعجاب في أعين بعض الضيّاط الذين رأوني أغادر المركز متباخترًا به في الشّارع، كيف لا وقد قدرت أنّي أرضيّت الجميع، خاصةً أمّي، التي كانت في المطبخ تجهّز العشاء، محاولة إخفاء دموعها دون جدوٍ بذراعيّة تقطيع البصل.

طوقتها بذراعيّ، لستدير وتعانقني وتسترسل في بكاء صامت، ثم جاءت «ياعيل»، وضمّتنا بذراعيها، حينها تشجّعت:

– يجب أن أتحقّق بالقاعدة في أقلّ من ثلاثة أيام، هكذا هي الأوامر أمّي، ويجب الإذعان لها.
وزاد بكاؤها وتشبّث بي، بل كلّما تعالي صوتها، زاد إمساكها بي، حتّى خشيت أن يصيّبها مكروره.
– يجب أن تزور أبي، لا تكن جاحداً، يجب أن تراه قبل أن تغادر، لا أعرف ما المشكلة التي بينكما، و«أتارا» هاتفتني قبل قليل تسأل عنك.

قالتّها أختي «ياعيل» بحماس كأنّها تخبرني سراً من أسرار الأسرة.
– أخذوا منا كلّ شيء، لا هواتف أو ساعات، وإذا شكّوا في أيّ شيء صادروه فوراً، لقد فتشوا نظّارة أحد المجنّدين جيّداً، فقط لأنّها تبدو سميكة أكثر من اللازم.

كان كلامنا مقتضباً، كأنّ الكلمات والجمل والعبارات نفذت منّا، أتى كلّ شيء مفاجئاً للجميع، لدرجة أنه أنساناً كيف نتكلّم مع بعضنا بعضاً.

لقد فعلت الحرب فعلتها.

تركت أمّي وأختي تكمّلان تجهيز العشاء، وذهبت بالزي العسكريّ لمترزل جارنا الطّيب السيد «ريكاردو»، كنت أريد أن أشكّره ببنفسي وجهها لوجهه، وأمسّ شعوره وأنا أقف أمامه مرتدية بصفة رسّمية ما يمثّل الخطوات الأولى لتحقيق أحلامي، لكن للأسف، لم أجده هناك، فأكّدت على زوجته السيدة «براها»، أن

توصل له شكري الخالص، وامتناني لكلّ ما فعله من أحلي، وألحّت عليها، ثمّ مورت لمتر «أتارا» التي كانت مع أمّها هي كذلك تجهزان عشائهما، وأخبرتهما بكلّ شيء، فشجّعني أمّها بصوت حنون قائلة:

– جيد... موقع ممتاز، ضابط في المدرّعات، ألف مبروك، السيد «ريكاردو» عند وعده دائمًا... حبيبي.

وأرسلت ضحكة عالية وهي تقلّده في كلمته التي اشتهر بها، وصوته الأجمل، ثمّ رأيت «أتارا»قادمة نحوي، ويديها وراء ظهرها، كأنّها تعمّد إخفاء مفاجأة لي:

– هذه أحبّ صورة لي، خذها معك كي تذكّري دائمًا، ضعها في الدّبابة، أمامك مباشرة.

قالتها وهي تضحك.

يا لحظك أيّها الجواد الأسود وأنت تحمل ملاكي الطّاهر في كامل أناقته على ظهرك.

كان التّضاد اللّوبي أبرز ما يميّز الصّورة التي وضعتها بحرص في جيب سترتي، قرب قلبي مباشرة، وهي الحركة التي جعلت عينيها تلمع، تتألّأ، كخاتم الماس الذي أنّوي وضعه في إصبعها.

في تلك اللّيلة ملأت استبيان المويّات عبر نفس الموقّع، دون أن أغير ملابسي، كان هرمنون «الكورتيزول» لدى في أوّجه، ذكرت كلّ ما أحبّ فعله، أخبرتهم أنّي أهوى الكتابة والروايات، أخبرتهم أنّي أُعشق لوحات «رنوار» و«فان غوغ»، وممارسة الرياضة بشكل عامّ، لكنّي لا أمارسها إلّا نادراً جدًا، أطفأّت الكمبيوتر ثمّ أديت صلاني، ودعوت الرّبّ أن يحفظ جارنا الطّيّب السيد «ريكاردو»، وابنه بالتّبني «أنطونيو»، وزوجته الإيطالية «براخا»، مع بناته الثلاث، «مارتينا» و«روزاليا» و«بلانكا»، الأميرة ذات العشرين عامًا.

إستلقيت على السّرير، فسمعت طرقات خفيفة على الباب، وصوت أمّي المُرتجف خلفه:

– «دافيد» هل نمت؟، هل أدخل؟.

– نعم تفضّلي أمّي، كنت على وشك النّوم.

واعتدلت في فراشي.

(9)

كانت «ياعيل» معها، فجلست أمي بجانبي على حافة السرير، ويديها الإثنين تمسكان بيدي، وانفجرت

«ياعيل»:

– هل ستُنام بالرّي العسكري؟، مغور، هل تظن نفسك وزير الدفاع؟، مغور.

وأعادها للمرة الثانية.

– أتركك أخيك بسلام.

والتفتت لي:

– ستُورك جيّعا في «شيزافون»، سأحضر والدك معي، إنّه متشوق لرؤيتك وأنت على ظهر الدبابة.

– سأنتظركم جيّعا بشوق كبير.

قلتها وأنا أعلم إنّه ما زالت أمامي أشواط كثيرة أقطعها من أجل الحصول على القبعة السوداء.

– أرجوك «دافيد» عدي أن تعتني بنفسك، عدي ألا يحدث لك مكروه.

– لن يحدث لي شيء أمي، لا أعرف سبب قلقك غير المبرّ، «شيزافون» بعيدة عن «غزة»، إنّها هناك في الصحراء، لا تصلها الصواريخ ولا كتائب «حماس»، لا يوجد أي سبب يدعوك للقلق.

وأشرت بيدي تجاه الجنوب.

– لماذا قلبي منقبض؟.

– إحساس سلبي فقط وكميّات، لا أكثر من ذلك، أرجوك أمي لست صغيرا، من المفترض الآن أنّ لدى مسكنني الخاص مع «أتارا»، سنتروج بمشيئة الرب حين أخرج ضابطا، مثل أبي، وسندعوا العمدة «دانينو» وزوجته وأولاده، بل سندعو كل سكان «أوفاكيم» للعرس الكبير الذي سنقيمه في القلعة.

وأخيرا رأيت الإبتسامة على وجه أمي حين ذكرت لها الزواج، تغيير فجأة وتنفرج أساريرها حين أقول لها إنّي و«أتارا» سنتروج.

مسكينة أميّ، تنتظر أن تطلق الرّغودة التي تعلّمتها من صديقتها، بالّتركيبة النفسيّة لأنّي ت يريد أن تفرح، ولا شيء غير الفرح.

ونمت بالرّزي العسكريّ، غير مصدّق أنّي سأصبح قائد دبابة في غضون عام.

في الغد توجّهت للتحدّث مع «غابي»، جاري الذي وجدته يستعدّ للخروج للعمل، وهو كثيّب كعادته.

- صباح الخير «غابي».

قلتها متعمّداً السّير أمامه رويداً رويداً، حاملاً عبوة مشروب الطّاقة.

- صباح الخير «دافيد»، الرّزي العسكريّ مناسب لك تماماً، أخبرتني أميّ ما حدث البارحة، هنّيئاً لك، ستفتخر بك، المجد لإسرائيل.

ورفع قبضته عالياً في السّماء.

- شكراء، وأخيراً «غابي» سيتحقق حلمي، هل توصّلني بسيّارتك للقاعدة؟، في «شيزافون»، لا أريد المخاطرة في وسائل النّقل.

تقلّل وجهه من حيّا بالفكرة قائلاً:

- متى؟.

- في أقلّ من ثلاثة أيام، لا يوجد وقت، ويقولون أنّهم أوقفوا حافلات الخطوط الطّويلة كي لا يحدث تسليل أو اختطافات.

- لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً.

- لا أريد التّأخّر، من الأفضل الإعتماد على شيء آخر، حالة الحرب التي أعلنت ستعطل الكثير.

- بالنسبة لي ستفيدني كثيراً، سيركع صاحب العمل طويلاً أمّاً، لأنّهم استدعوا كلّ العمال وبقيت وحدي، وهو الآن مجرّد زيادة راتبي، البائس المتغطّس التّرجسيّ الكلب القذر.

وأهمر لسانه بعشرات الشّتائم، من كافّة الأنواع والمقاييس، ثمّ تذكّر أنّ صوته بدأ يعلم، وبدأ بعض الجيران يلقون نظرات خاطفة علينا من النّوافذ:

- لا يهمّ «دافيد»، حدّد التاريخ الذي يلائمك وأنا جاهز، وإذا أردت اليوم لا مشكلة إطلاقاً، هي فرصة لي لأنّخذ جولة بعيداً عن العمل.

- يوم الثلاثاء، غداً، ما رأيك؟.

- رائع، أكره يوم الثلاثاء، لأنّه يوم عمل شاقّ لي، وهي فرصة لأنّتغّيب عن الدراسة، وصاحب العمل في المساء، القدر، لم أعد أتحمّل رؤيّة وجهه، هل تصدّق أنّه شيطان؟.

ثم أتبع وهو يبتسم بعمر:

– إذا أردت أن أوصلك يومياً فأنا جاهز، المهم أن أجد سبباً مقنعاً للتغيّب.

لم أستطع زيارة والدي في مستشفى «سوروكا»، خانتي شجاعي وأنا أراه دائماً على سريره يعاني صامتاً، والأطباء لا يعرفون سوى طمأنتنا أن كلّ شيء سيكون على ما يرام، إحساس غريب يستولي عليّ لم أستطع التخلّص منه، سيقني يعاني من إعاقة دائمة، شلل في رجليه.

إصابته في العمود الفقري أخطر مما يحاول الأطباء تفزيعها.

(10)

كانت أمتعي جاهزة كلّها حين إستيقظت يوم الثلاثاء، الخامسة فجرًا، وأنا ممزق بين شعور الشّوق للغمارة والّتحدي واكتشاف المجهول، وشعور الألم والفقد والإحباط لفراق الأسرة.

كنت قد اتفقت مع «غابي» ليوصلي للقاعدة العسكرية بسيارته المعدّلة.

قال لي البارحة:

ـ هاتفني مباشرةً لما تستيقظ، لن أردّ عليك، لكن ستوقفني نغمات الهاتف.

وفعلت ما طلبه مني حتّى قطع الإتصال بنفسه، فعرفت أنه استيقظ للتوّ.

أحبّ أن أصلّي الصّبح دائمًا قبل أن أمسّ أيّ طعام، بل كثيراً ما أتناقش مع أمّي حول الصّلاة، فهي يسارية متهاونة في الدين، كثيراً، شأن كلّ اليساريين هنا في إسرائيل، تقول أنها لا تملك الوقت الكافي، فأعمالها في الحزب تشغّل كلّ وقتها، وفي البيت هي بين طبخ وغسيل وتنظيف، إلاّ في يوم السبت طبعاً، اليوم المقدّس لدينا نحن اليهود، وأبى لا يأبه بما أصلّت أم نامت، حتّى هو يتکاسل أحياناً عن عبادة الرّبّ.

قالت لي مرّة:

ـ ما يفعل الرّبّ بصلاتي؟، المهمّ أنه إلهي، قلبي مثل كوب الحليب الأبيض الذي تشربه «ياعيل».

فأقول لها ضاحكاً:

ـ ما يقول المسلمون إذن؟، لديهم خمس صلوات يومياً وتراهم جميعاً في المساجد، أمّي، ما بك؟... لدينا ثلات فقط، أين أنتِ منهم؟.

بالنسبة لي، لا أنتقل لأيّ مكان إلاّ إذا أديت ما عليّ من صلاة، هي صلة بيننا وبين الرّبّ الواحد، وأقرأ التّوراة من حين لآخر حسبما تسمح به الأحوال، أيّ يوصينا دائمًا أنا وأخي بالمحافظة على علاقتنا سليمة مع الرّبّ، أمّا الباقي فهو إلى زوال، ربما يرجع هذا لتأثيره بال المسلمين، حين كان يعيش بينهم في «المغرب»، قبل أن يهاجر إلى إسرائيل تاركاً عمتّه «راحيل» هناك، في رعاية الجيران.

ودنت ساعة المغادرة، ملقيّة بوقتها كمارد يقترب.

عانقت أمي طويلاً لعلّي أشحن عواطفني برائحتها العطرة الزكية، تلك الرايحة التي تتسلل الآن إلى أنفي، ومنه إلى كل ذرة عرفت شذا حقول البرتقال.

- خذ هذا، ستحتاجه كثيراً هناك، صحراء «النقب» ستكون باردة في الأشهر القادمة.

ولفته حول رقبتي بيدين مرتاحتين.

كان وشاحاً أيضاً مطرزاً بأشكال ذهبية، كان شيئاً أنيقاً هيا ساحراً بشكل لا يوصف، عمل يدوياً متقن من نسج يديها، ينمّ عن إحساس فنيّ، ومهارة المرأة التي تؤدي دورها على أكمل وجه.

نزلت «ياعيل» من غرفتها، وهي تمسح عينيها من أثر النوم غير مصدقة لما تراه، فقد كنت مرتدية اللباس العسكريّ، وزاده وشاح أمي جمالاً.

- تفقد كل حاجياتك جيداً.

وابتسمت الماكرة، كانت هذه عبارتي، التي أذكّرها بها دائماً حين كانت صغيرة، حديثة العهد بالدراسة، تغالب النوم صباحاً، ثم تتعثر وهي في طريقها لغرفة المعيشة، وأحياناً تصطدم بشيء ما تتفاجأ به في الرواق، ونضحك كلّنا على سقوطها.

- أراففك؟.

أخرجت الأحرف بصعوبة، وتردد حليّ في الصوت والنظرات، وهي تمسلك يدي الإثنين.

- لا يا أمي لا تضطبي على أعصابك، سينقلني «غابي» للقاعدة، سيّارته سريعة جداً ومرحية، ولقد حصل على رخصة القيادة العام الماضي، لم القلق بشأني؟، أهي يحتاجك في المستشفى أكثر مني هنا.

- سيحزن كثيراً حين يعلم أنك غادرت للقاعدة، ولم تزره في المستشفى؟، كيف سأجحّبه؟، هل هناك شيء بينكم؟.

أحسست أنها تعمّدت تكرار كلمة «المستشفى» لذكّري بحالته الصعبة التي تزيد سوءاً، ثم استرسلت في بكائها الصامت.

أظنّ أنّي فتحت جرحاً كانت تحاول نسيانه أو تناسيه:

- كن رجلاً «دافيد»... كن رجلاً فقط.

حملت حقيبة الظّهر التي تحوي كلّ متعلّقاتي وأشيائي الخاصة، وانسللت من المكان بسرعة، موقف مثل هذا لا يشجّع مطلقاً على الثبات، فمن المستحسن إذن؛ الإنسحاب من الميدان بعيون جافة.

وخرجت من المترّل أسابق الريح، قبل أن يتحول المشهد إلى دراما سينمائية، فأمي تقرّم ما يجب أن يبقى كبيراً لتنغلب عليه، وتضخّم ما يجب أن يبقى صغيراً تحت تأثير عاطفتها الجياشة.

ووجدت «غابي» أمّام البيت ينتظري في سيارته من نوع «فولس فاغن غولف»، إنتاج 2016، التي ما فتئ يدخل عليها تعديلات غريبة، في المحرك ونظام التعليق والمكابح ونظام نقل الحركة، سيحوّلها إلى سفينة فضائية.

نزل بنشاط حين رأي قادما نحوه، وأمّي تساعدي في حمل الأغراض بوصايا النبي «موشيه».

من المفروض أن أستقلّ الحافلة على الخطّ رقم 392، إنطلاقاً من «بير شيفا»، مع الحجز مسبقاً، ولا أظنّها فكرة جيّدة، على ضوء إشاعات تداول حول توقيف خطوط النّقل الطّويلة بسبب الحرب؛ وخوف السّائقين الذي أدى بهم إلى شبه إضراب غير معن، حسبما أخبرتني به والدة «أتارا» باعتبارها تشتغل في «هاريس».

وانطلقنا عند السّاعة السادسة والنصف صباحاً.

(11)

تبعد قاعدة «شيزافون» للمدرّعات حوالي مائة وتسعين كيلومترا عن «أوفاكيم»، عميقا في صحراء «النقب»، التي تعتبر امتدادا جغرافياً لصحراء «سيناء»، مناخ قاسٍ أكثر من «أوفاكيم»، كلّما توغلنا جنوباً؛ كلّما زاد المناخ تطرّفاً، إذ يمكن أن تصل الحرارة إلى خمسين درجة في الصيف، وتنخفض إلى سبع درجات فقط شتاءً، ومدى حراريٌّ واسع بين الليل والنهار، مع تساقط نادر جدّاً للأمطار، وبيئة طبيعية تخرج بين الصخر والجبل والسهل والمنحدر.

صحراء «النقب» هي موطن كافّة المشاريع الأمنية الإستراتيجية للدّولة، هي الحديقة الخلفية لإسرائيل، هنا تم إنشاء أول مفاعل نوويٍّ، مفاعل «ديمونا» الذي سرّب أسراره للعالم «مردحاي فعنونو»، وقضى ثمانية عشرة سنة في السّجن، عقاباً له عما اقترفه، بعدما اختطفه «الموساد»، في عملية جريئة في عرض المتوسط في «روما» سنة 1986.

بعد حوالي ستين كيلومتراً وساعة من السير الخذل؛ ولجنا الطريق السريع رقم 40.

– سأريك الآن ما الذي تستطيع هذه الآلة فعله.

قالها «غابي» وهو ينظر إلى مزهوّاً، واعتقدت لوهلة أنه كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ صبر، ليجرّب المحرك الجديد الذي ركبّه في سفيته الفضائية، ضغط على دوّاسة البنزين لينطلق في سرعة الريح، في تسارع جنونيٍّ كمتسابقي السيارات تماماً، لدرجة أنّي خشيت أن ينحرف عن الطريق.

– ممتاز «غابي» خفض السرعة الآن... أرجوك، «غابي».

– هل تخشى الموت؟

واقتحمت ذهني كلماته القديمة؛ «ستموت في غزة، لدي إحساس بهذا».

– أنظر إلى مثلاً؛ أمي تحذرني دائماً من خطر ارتفاع نسبة السكر في الدم، وأنا لا آبه مطلقاً، سنتموت كلّنا «دافيد» في الوقت المناسب، كلّنا سنتموت دون استثناء، هذا هو قضاء الرب على عباده، مشكلتنا في التّوقيت، لا أكثر ولا أقلّ، دون فلسفات زائدة، وجداول عقيم لا يعني ولا يُسمّن.

قالها ونظر إلى:

ـ ذكرتني بالأكل، ناولني الكيس الورقي الذي في الخلف.

لم أصدق عيناي، كان كيساً كبيراً يحوي عدّة شطائر من اللّحم المفروم والجبن.

ـ كيف جهزت كلّ هذا؟.

ـ لست أنا، كلّ ودلك من الكلام، سنموم كلنا في الوقت المناسب.

قالها ضاحكاً وهو يخرج حقنة الأنسلولين من جيب سترته التي خلت من الأكمام، ثم يضعها بتمهّل أمامه، تمهيداً لحقنها بعد أن يكمل أكله، أمّا أنا، فأخرجت قنّيتين من علامة «INDIGO»، مشروب الطاقة الأول عندي، فتحت واحدة وأشرت له بالأخرى، فهزّ رأسه شاكراً، وهو منشغل بنقر خفيف خفة عصفور على شاشة كمبيوتر صغيرة، تتوسّط المساحة بيني وبينه، لينبعث صوت فناني المفضل، في الأرجاء، «إيريك آنثشتاين»، في أغانٍ جميلة من ألبومه «الشّمس الرّطبة»، الصّادر في 2002.

هذا هو «غابي»، صديقي وزميلي في الثانوية وجاري العزيز، إسمه الكامل «غابرييل بوتون»، يكرّي بعام واحد فقط، وحيد والده السيد «فريديرييك بوتون»، مهندس معماري، ووالدته السيدة «هانا هرتزوني»، متطوعة في «نجمة داود»، أعتبره أخي وأقرب الناس إلىّي بعد أمّي، ذكرياتي معه لا تُنسى، فكم سهرنا في حديقة متّلنا الخلفية على نار الفحم والنّقانق المشوية؟.

«غابي»، مساعد حسابات في أحد المتاجر، فقط من أجل بعض الشّيكلات الإضافية لتمويل هوايته الغريبة «تعديل السيارات»، التي لا يتحمل والده الحديث عنها على الإطلاق، إذ يقول أنّها إهانة وقت من الأفید والأجدى لو كان مبذولاً في الدراسة، بل كاد في العام الماضي أن يُسقط السماء عليه حين فشل في الحصول على شهادة «البغروت»، وأضطرّ للتدخل بنفوذه الواسع ليُعيد السنة، بعدما أحرز معدلاً لا داعي لذكره، وأوشك على الطّرد من كلّ مدارس إسرائيل.

بوزن تجاوز المائة كيلوغرام حالياً، وملفٌ مرضيٌّ مقنع في كلّ دول العالم؛ حصل «غابي» بسهولة تامة على إعفاء من الجيش، أي الرّمز التّعريفي 21، تقول والدته حين أتتنيها أو تأتي في زيارة ودية لمتّلنا:

ـ ماذا سيفعلون بيرمبل يتحرّك بصعوبة؟، لا يستطيع حتّى ركوب درّاجة هوائية، لو عرضناه على أكلة لحوم البشر لرفضوه.

وتضحك عالياً ملء شدقيها وهي تنظر للسماء، ونضحك كلنا.

بعد اجتيازنا لعدّة حواجز للجيش في الطريق؛ ومرورنا بكلّ يسرٍ لما تأكّلوا من هوّياتنا وسبب المرور، ظهرت لنا القاعدة أحيراً، حيث تقع بالقرب من كيبوتس «نيوت سادار»، على بعد أقلّ من عشرة كيلومترات جنوب «شيطيم»، قاعدة متّامية للأطراف، واسعة على مرمى البصر، كم تمنّيت زيارتها من قبل، والآن أتت الفرصة المناسبة.

أنزلني «غابي» واستدار بالسيارة عندما عانقني طويلاً قائلاً:

ـ إعْتَنِ بِنَفْسِكَ.

(12)

قدّمت هوّيّتي عند مكتب الحراسة، ففتّشوا أمتّعي يدوياً بسرعة، ودخلت مباشرة لإحدى القاعات، حيث استكملت باقي الإجراءات، ثم جاء رقيب ذو بشرة سمراء قاتمة، يبدو أنّه من إفريقيا، نظر في أوراقي جيّداً، فائلاً بصوت جهوري دون أن يرفع بصره نحوّي:

- إتّبعني.

سرنا في رواق ضيق ذي سقف إسمنتي منخفض قليلاً:

- ربّما ستشعر ببعض الإضطراب بسبب الإستعدادات الحثيثة للإجتياح البري المرتقب، لا تقلق، أنت مختلف عن البقية، أنت شيء آخر.

ثم سأّل:

- كيف تعرف الرّائد «أنطونيو مزراحي»؟.

- جارنا في «أوفاكيم»، إبن السيد «ريكاردو مزراحي».

هزّ رأسه معجباً بإحاجاتي، كأنّه اختبار احترته دون أن أدرّي.

طرق باب مكتب ببطف، وأدخلني بعدما أشار لي بترك حقيقة الظّهر في الرّواق، أديّنا التّحية العسكريّة معاً، بينما انصرف هو.

كانت ضابطة لم أتبّع رتبتها جيّداً، تنظر في أوراقي وتبتسم من حين لآخر، ساعدتني ابتسامتها على التّحرّر من الضّغوط المكتسبة من رهبة المكان الجديد، فكلّ شيء مختلف هنا عن متّلنا.

- بدّيع... «دافيد عوفر».

- نعم سيدتي.

قتّتها بحزم وقد هالني صوّها الجاف الذي تضارب مع ابتسامتها الدافئة.

نحضرت من مكانها خلف المكتب واتجهت نحوه تتأملّي، بينما أنا متسلّم في مكاني كالتمثال، أنظر أمامي مباشرة.

- يجب أن تدرك من الآن أنك في الجيش، لا وجود للديمقراطية هنا ولا للمعارضة... إنما هو أمر القائد الذي يجب أن يطبق حرفياً، والعصيان عقابه السجن، وفترة السجن لا تحسب ضمن فترة التجنيد، مفهوم؟.

- نعم سيدتي.

- بديع.

ثم دارت حولي:

- إحذر أن تنشر أية صورة أو معلومة مهما كانت نوعيتها من داخل القاعدة العسكرية، يمكن أن يستغلّها العدوّ، نحن في حالة حرب، أنت في الأساس قادمون من مجتمع مدنيّ وإن كان الجميع يحمل الأسلحة، تصرفاتكم وسلوكيّكم غير المنضبط، مؤشرات على كونكم مدنيّين، وهذا ما يجب أن يتغيّر الآن... في هذا المكان، يجب أن تبذلوا جهداً حقيقياً في التحول إلى عسكريّين يتمتعون بحسّ أمنيّ، ويطبقون الأوامر بحذافيرها دون نقاش، مفهوم؟.

- نعم سيدتي.

ثم واجهتني تتأمل كلّ ذرة في وجهي:

- منوع استعمال الهواتف الذكيّة، ولا تترثّر في الإجازات خاصةً مع الغرباء، إحذر استقبال رسائل قصيرة أو مكالمات من أطراف لا تعرفهم ولا سيما من البنات، حتى ولو كانوا من «أوروبا» أو «أمريكا»، مفهوم؟.

- نعم سيدتي.

- عند تخيّل العلم في طابور الصّباح أو المساء، قف بانضباط تامّ فقط، ولا ترفع الكفّ ملامساً للرّأس، أنت هنا مجرّد غرّ.

ثم أضافت بتدبر جليّ:

- تبدو ساذجاً ضعيفاً، جيش الدفاع الإسرائيليّ ليس مكاناً للنّوم يا فتى، جيش الدفاع الإسرائيليّ للتّضحية من أجل الدولة التي أنشأها «بن غوريون».

استقبال سيّء، أول مرّة يُقال لي في الجيش أنّي ضعيف، إهانة؟، هذا الذي يحدث لي الآن.

- لماذا ترتدي هذه النّظارات؟، تبدو أحمقًا بها.

قالتها وهي تتفحّص قلاديّ ثم استدارت لمكتبهما:

- ستكون في اللّواء 401، لا بأس... فالجيش الآن أصبح مزبلة، كلّ من يمشي على رجلين يحضرونه لي، هذه الحرب... عليها اللّعنة.

وشدّدت على كلمة «مزبلة»، ثمّ نظرت نحو الباب منادية بصوت عال:

- «سالو غلو».

دخل المجند الذي أحضرني مسرعاً مقدماً التّحية في انضباط وصرامة.

- خذه للمكتب الثاني.

- حاضر سيدتي.

ونحرجنا، ومن هول ما وجهته لي من إهانات نسيت أن أقدم التّحية، وبيدو أنّها لم تتبّه أصلاً، فقد كانت منشغلة ببعض الأوراق التي كانت أمامها.

في المكتب الثاني أعطاني زياً عسكرياً آخر شبّهها بالأول، قال إنه ميداني وأساسي هنا في «شيزافون»، أمّا الذي الأول، فيلبس في الإجازات فقط:

- يجب أن نبقى ممّيزين عن بقية الناس.

ثمّ وجّهني لغرفة إقامتي.

فعلاً، الحرب تغيّر كلّ شيء.

(13)

- لا توجد بيننا أسرار، يجب أن نكون مكشوفين على بعضنا البعض.

بهذه العبارة يفتح «ديميترى» ضابط التدريب المسؤول عن كلامه أمامنا في كل مرة، بل يشجّعنا أن تكون اجتماعيين لأقصى حدّ، فكلّنا نمرّ بنفس التجربة، فلماذا لا نجعلها ممتعة؟.

كنت على وشك أن أفتح باب الغرفة التي سأقضى فيها مدة تجنيدى في «شيزافون»، حين انتبهت أنه مفتوح، فدفعته، لأحد مجندين آخرين يلعبان الشطرنج، أحدّهما أصلع.

- أنت المجنّد الثالث إذن.

قالها صاحب الشعر الطويل، فأردد الأصلع على الفور:

- أدخل، مرحبا بك.

ونمض من مكانه يساعدني في حمل أمتعتي، وتبعه الأول.

- أنا «دافيد عوفر» من «أوفاكيم».

- وأنا «شلومو زوسمان» من «حيفا».

- وأنا «رفائيل أشكينازى» من «كريات شمونة».

وتصافحنا جميعا، بحبّ بدا جليّا على الوجوه، وأنا في داخلي ما زلت متأثرا بإهانات التي بدت لي كشيطانة خرجت للتو من الجحيم.

يستغرق ترتيب أغراضي في الخزانة الحديدية نصف ساعة، بمساعدة زميلي الجديدان، اللذان بدايا دمثين جداً، ومهذّبين واجتماعيين.

عرفت فيما بعد أنّ وحدة «ميتاب» هي من وضعتني معهما، إستناداً لاستبيان الهوايات الذي عبّأته ليلا، حين رجعت من مكتب التجنيد.

كانت السّاعة تقترب من منتصف النّهار، قال «شلومو» وهو يتلمس بطنه مداعباً:

- وقت الإطعام، هيّا بنا، وسنكمّل حديثنا هناك، كلام كثير سقّوله لبعضنا البعض.

في المطعم بدا المكان هادئاً جداً عكس ما كنت أتوقع.

قال «رفائيل»:

- لا تقلق، سيدأ المجموع بعد قليل.

وضحك هو و«شلومو»، بينما أنا أنظر لهما بلاهة.

- ما بك؟.

- ستعتاد على مصطلحاتنا.

واستمرّا في الضحك.

أخذنا صفائح فارغة ملأناها بأصناف من الطّعام الذي كان متوفراً بكثرة، يمكن لأيّ شخص أن يأخذ منها ما يريد، وأن يخدم نفسه بنفسه، أخذت قطعة لحم وقليل من البطاطا المقلية، وشيئاً من الخسّ والطّماطم، بينما أخذ «شلومو» فاصولياً حمراء مع قطعة لحم، وأخذ «رفائيل» لحماً كثيراً مع الخسّ وقارورة ماء، وجلسنا إلى إحدى الطّاولات نتعرّف أكثر على بعضنا البعض.

«شلومو زوسمان» رسام من أصل نساويّ، يبلغ من العمر تسع عشرة سنة، طويل القامة، أبيض البشرة، نحيل الجسم، ذو شعر أشقر مسترسل، وأنف دقيق مستقيم، من سكّان «حيفا» في الشمال، أخبرني أنه يحبّ أن يترك شعره طويلاً، مما يتنافى مع القواعد الدّاخليّة للجيش، أتفهم هذه النوعيّة من النّاس، هم يعيشون في عالمهم الخاصّ، وعادة ما يكونون من غربيي الأطوار، ونادراً ما يجدون من يفهمهم.

«رفائيل أشكينازي» ملاكم من أصل بولنديّ، ثمانية عشرة سنة، من سكّان مستوطنة «كريات شمونة»، ذو عينين زرقاء، وأنف يحتلّ مساحة جيّدة من وجهه العضليّ، يتمتّع ب الهيئة رياضيّة بدعة التّنكرين، مثل «جون كلود فوندام»، وخاصة لما يرتدي السّروال العسكريّ فقط دون أيّ شيء في أعلى الجسم، مما يشير إلى فضول المجنّدين الآخرين ويدركي غيرهم؛ حيث يبدو مصارعاً جباراً لا يرحم منافسه، فكيف بعده؟، يخلق شعره دون أن يترك ولو نصف مليمتر، فيبدو أصلع الرّأس تماماً، كأنّه عضو قدّيم من أعضاء المافيا الروسية.

في نبرات حديثه، بدا قلقاً على مصير عائلته التي تمّ إجلاؤهم من المستوطنة مؤخّراً، خشية هجوم «حزب الله»، حيث نقلوا إلى فندق «نوف إينوسار»، على ضفاف بحيرة «طبريا»، رغم أنّهم استقبلوا جيّداً هناك، مع سكّان مستوطنة «يفتاح»، لدرجة أنّ كلّ الغرف مشغولة ولا مكان للسّيّاح؛ والدولة تتكتّل بتكتاليفهم كاملة، إلاّ أنّ المسألة تبدو مقلقة على غير عهدها؛ لأنّ هناك مستوطنات أخلّيت لأولّ مرة منذ 1948.

بعد حوالي عشرين دقيقة كان المكان يعجّ بالجنود، ومنهم مجندات، قال عنهنّ «شلومو» أنّهنّ من الكتيبة «كاراكال 33» الخاصة بالدّبابات، رأيت مجندين ومجندات يرتدين مازر بيضاء، يقدمون الأكل للجنود، بعدما كانوا يخدمون أنفسهم بأنفسهم، فرجّحت بسبب كثرةهم.

أرجعوا أطباق الطعام وخرجنا مسرعين، كي لا نعلق في الرّحام الذي بدأ يستدّ مع منتصف النّهار.

أخبرني «شلومو» أنّ القائمين على خدمة المجنّدين يتهرّبون من العمل إذا كان التّوافد قليلاً، فلا يتشكّل زحام يكشف تحرّكهم من مهامّهم، لكن في زيارات التّفتيش بآحدتهم مثل خلية نحل.

في الطّريق رأيت الأعلام في كلّ مكان، شائناً شأن كلّ المدن والبلدات الإسرائييلية؛ دعانا «رفائيل» لتناول شيء بارد في النّادي، فلبيّنا الدّعوة، وأكمّلنا تبادل الحديث ولقاء التّعارف.

حدّثهم عن نفسي وعن هوايّاتي، تكلّمت كثيراً عن «غاي» و«أتارا» وأمي التي أهدتني الوشاح الأبيض، كتّت أمامهم كالكتاب المفتوح تماماً، بسيطاً، صريحاً، كنور الشّمس السّاطعة هنا في الصّحراء. وأكمّل كلّ واحد حديثه عن نفسه.

أراد «شلومو» أن يكون مصوّراً عسكريّاً، لأنّه يعشّق الصّورة والظّلال، لكنّه وجد نفسه هنا في سلاح المدرّعات، فرضخ للأمر الواقع، وأحضر معه عدّة الرّسم الخاصة به؛ أوراق وأقلام حبر، الجنّي يستطيع رسم أيّ شيء أمامه، كآلة تصوّير؛ مناظر من الطّبيعة؛ جنود؛ أسلحة؛ كلّ شيء... كلّ شيء.

أخرج أمامي من جيبي ورقة بيضاء ومن جيبي الآخر قلم حبر، وراح ينظر في وجهي ويرسم، ثمّ قال: - والآن، ما رأيك؟.

وهزّني ما رأيت، فعلاً إنّه أنا على الورقة، وفي أقلّ من دقيقة، خربشات أتّاحت وجهاً يشبهني.

بعد ساعة اقترح «رفائيل» الخروج للهواء الطلق، فخرجنا، كان بعض المجنّدين يلعبون «الريّقني» غير بعيد عنّا، فراح يشجّع أحد الفريقين بتصفيق حارّ، بينما نحن نمشي بين الدّبابات المتوقفة، وعيناي متعلّقة بها، كالصّبيّ المتعلّق بوجه أمّه، كأنّي أرى أمامي مارداً خرج لتوه من القمقم، وانتبه «شلومو» لنظراتي:

- لا تقلق، ستملّ منها ومن زيت تسيحيمها القدر، نحن ننتظر استكمال عدد المجنّدين، وربما سيلتحقون بنا في أقلّ من ثمان وأربعين ساعة، غرفتنا فقط ينقصها سبعة أفراد، أكتوبر وفيفراء شهران للتجنيد المركّز، هل تعلم أنّك وصلت متأخّراً؟.

ثمّ أضاف وهو يتلفّت حذراً:

- خذ هذا واتصل بعائلتك، إحدنّر أن يروك، هنا يقولون كلاماً ويفعلون نقيضه.

كان هاتفاً بسيطاً صغيراً دون إنترنيت، إنزوّيت بسرعة وراء إحدى الدّبابات مكّلماً أمّي و«ياعيل»، ثمّ «أتارا»، وهو يحثّني على الإسراع مخافة أن يتبّه لنا أحد الضّيّاط المارّين، أو تُلتقط الإشارة اللاسلكية.

- لماذا يمنعون الهواتف البسيطة، فهي ليست مزوّدة بالإنترنّت؟.

- إفهم، لا يمنعونها، لكن يضعونك في قائمة المشبوهين بنقل أخبار القاعدة للعدوّ، وتخضع للمراقبة دون علمك، وربما سيدفعون بك للمقصّلة إنّ كان ولا بدّ أن تتمّ التّضيّع بأحدتهم، لقد اتهموا كثيراً من المجنّدين

بالتخلّي عن الإحساس بالمسؤولية الأمنية، وآخرين بالتجسس لصالح أطراف أجنبيّة، لا تنسّ، نحن في حالة حرب، وفيها يكون الحسّ الأمنيّ في أعلى مستوياته.

– هل هناك إعدام في إسرائيل؟

– لا تكن أحمقاً، ما يمنع ذلك؟، إذا وجدوك تمثّل تهديداً مباشراً فلماذا يتركونك حياً؟، سيقولون انتحار، أو قتل لمشاجرة حول فتاة، أو «قتلوك بدو العرب»، لأنّك لاحقت إحدى بناتكم الجميلات، والجميع سيصدق، لا شيء أسهل من إيجاد عذر في حالة حرب.

ثمّ أشار برأسه في لفترة سريعة إلى إحدى المجنّدات الفاتنات التي كانت تقترب منّا متبخترة:

– أنظر أنظر... هذه هي «باولا ليفي رودريقار»، ملكة جمال كتيبة الدروع، رقيب احتياط من الكتيبة النسويّة للدبّابات «كاراكال 33»، من أصل أرجنتينيّ، تعمل في فندق «ليوناردو» في «بير شيفا»، كلّ الضباط هنا يلهثون خلفها، عطّرها فقط يمثّل راتب شهر.

ثمّ التفت إلى قائلًا وهو مندهش:

– لقد صدّت الرائد «يتسيهار هوفمان» رغم أنه في وحدة «شالداغ»، هل تعرف «شالداغ»؟، وما الذي تعنيه؟، مكانة مرموقة وراتب محترم جداً وهيبة... كلّ شيء... كلّ شيء.

وراح يحرّك يديه في الهواء مكملاً بقية الشرح:

– «شالداغ» هي من نفّدت عملية استرجاع يهود «الفلاشا» من «إثيوبيا» عبر «السودان»، سنة 1991، بمساعدة «الموساد».

أدركت أنه يعرف الكثير هنا، معلوماته جيّدة عمّا يحدث، وما يجب أن يحدث في المكان.

مثلاً، يجب أن نحافظ على كلّ الأشياء التي أعطوها لنا، وإلا سندفع غرامات، ومن لا يدفع يبقى هنا، يجب أن نخلق وجوهنا دائمة، كلّ صباح بعناية فائقة، كما يُمنع التدرج في حلقة الرأس أو صياغة الشعر، وأنّه منذ نوفمبر الماضي، تمّ العمل بتوجيهه جديد من وزارة الدفاع، بحيث يعرف كلّ مجند في الدروع اللواء الذي سيخدم فيه عند انتهاء دورات التدريب، هذا من شأنه خلق ديناميكية قتالية صلبة، وتعزيز روح الوحدة والفخر، كما أنّنا سنكون تحت إمرة الملازم «ديميترى»، ضابط صارم، يكره الكسالى، ويعاقب بشدة على أدنى خطأ، لا يوجد مصطلح «الرحمة» في قاموسه.

يقولون هنا في القاعدة أنّ لديه وشما غريباً على ظهره، لكن لا أحد رأه ليتأكّد، وهو من كتيبة «ديكل» المسؤولة عن تدريب الضباط، بينما اعتبره «شلومو» من كتيبة «ريشيف» المدرّعة، وأنّه هنا خصيصاً لتدرّينا على النسخة الخامسة الجديدة من «المير كافا»، التي تستعمل الذكاء الإصطناعيّ في القتال، التي سيزوّدون بها كلّ أفواج اللواء 401، إنّها معقدة أكثر من النسخة السابقة.

زيادة على معرفته الواسعة بكلّ ما يدور في القاعدة، إكتشفت مع الأيام أنّا نشتراك في ولنا بالمعنى «إيريك آنشتاين»، إذ وجدت أغانيه معه في جهاز MP3، يحمله دائماً أينما ذهب، لأنّه جهاز عملٍ، صغير الحجم، يمكن أن يضعه في أصغر حيّب له، أو بالمعنّى المصطلح العسكريّ المأثور... يخفّيه في أضيق مكان.

هاتّه المهرّب هو نافذتي الوحيدة على العالم.

حاولت أمّي أن تعرف تاريخ منحي إجازة، فهي متشوّقة جدّاً لتراني، لكنّ ما عساي أقول وظروف الحرب تجبر القيادات على تأجيل كلّ شيء.

بعد الزّوال كنا في الغرفة نصّلي، وهناك أراني «شلومو» عدّة الرّسم خاصّته، أقلام حبر من نوع H و HB، كما أراني بورتريهات لبعض الشخصيّات التي رسّمها، بقلم الحبر دون اللّوان، مثل «بنيامين نتانياهو» وعقيلته «سارة»، وأيقونات إسرائيل، «دافيد بن غوريون»، «غولدا مائير»، الجنرال «أريل شارون»، ورمز الصّهيونية «تيودور هرتزل».

(14)

أما «رافائيل»، فملاكم من الطراز الرفيع، حاصل على عدّة ألقاب، يتحجّب الحديث عنها، يقول «شلومو» أَنَّه رأَه مَرَّة يقاتل قتال شوارع، سريع الضربات لدرجة لا تصدق، يمكن أن يوجّه لك خمس لكمات في ثانية واحدة، ييد أَنِّي اعتبرت هذا مبالغة من طرفه.

يقول «رافائيل» عن الخمر أَنَّه يهدم الجسم، ولا فائدة فيه مطلقاً، ولا يعرف لماذا يمْسِي بالثياب باهظة، لكنه مدمِن قمار، وتجده يتذمّر ليل نهار من الراتب الذي يدفعونه لنا نحن المسؤولون بالرّي العسكري.

طبعاً لو تقدّم للمقامر هرّاً من ذهب، لطلب النّهر الثاني لطمأنة اللاعبين.

في تلك الأمسية، قرب الغروب، حضر مجند آخر.

بدأ الزّملاء يلتحقون بنا، تماماً كما تنبأ «شلومو»، دخل مباشرة حيّاناً بترفّع، متّجهاً نحو الخزانة لترتيب أشيائه، دون أن ينبعس ببنت شفة أخرى، ثمّ شرع في ترتيب سريره، حاولنا كُلُّنا استدراجه للحديث، للفظة ولو قليلاً، فتحن جميّعاً لتقاسم المصير ذاته، غير أَنَّه يحبّ دائمًا إجابات محدّدة، منها الموضع بسرعة، كأنّه يعرف ما بداخلك، وما الجواب الذي يرضيك.

شخص منعزل؛ لا يحبّ إنشاء مساحة مشتركة مع الآخرين، سيتسبّب في مشاكل لا تخطر له على بال، فبانعزاله يغلق باب التّواصل ونواوفده مع الذين من المفروض أن يلقي لهم بكلّ شيء.

حين بدأ في ترتيب سريره؛ كان صديقي الرّسام خلفه، فأشار لنا بعلامة من يده على شكل المسدس، عالمة انتقاميّة للإسْتِخْبَارات العسكريّة «أمان»، لا أعرف كيف أقع نفسَه بذلك وأراد إقناعنا به؛ ربما لشكل الجسم المعيّر عن القوّة، أو للهيبة التي يزخر بها شكله، فهو ضخم الجسم متناسق الأبعاد بطول يقارب المترین، وبذراعين قويّين مثل أسس الإسْتِخْبَارات المسلح، وزاده لونه الأسود الضارب للسواد، وعيناه النّاريتان هيبة وجبروت، فتجلّى كفهد شرس، لا يرحم فريسة وقعت بين أنيابه.

حين ذهب ليأخذ حماماً، حاول «شلومو» التخلّص من بطارية هاتف ذكيّ كانت معه، لكنّ «رافائيل» أشار عليه بالإحتفاظ بها، معتبراً أَنَّه لو كان من «أمان» لكان اجتماعيّاً، ليسهل عليه التّعرّف على أسرارنا، أمّا

أنّه منزل، فهذه إشارة توتر، وأنّ ما فعله لا يعدو أن يكون حركة دفاعية، واعتبرت المسألة منطقية بنسبة تجاوزت التسعين بالمائة.

يؤكّد أطباء العيادة النفسيّة لجيش الدفاع الإسرائيليّ باستمرار على وجوب الإندماج في الجماعة، ففي الجيش تجد نفسك مجرّاً على عقد صداقات من جميع أصناف البشر، فأنت تعيش للغير والغير يعيشون لك، تشاركون الخير والشرّ، كما تقاسمون الماء والطّعام والهواء، الصّدقة في الحياة العسكريّة تختلف تماماً عن الصّدقة في الحياة المدنيّة، لأنّ إحتمالية موت الجنديّ أكبر من احتمالية موت المدنيّ، فالذي لا يتعامل مع أدوات القتل حظوظه في النّجاة أكثر، أمّا بالنسبة للعدو فهو لا يفرق بين جنديّ وآخر؛ ولا بين القادم من الشمال والقادم من الجنوب، ولا بين المولودين في الخارج و«الصّابرا»، فالرّصاصة تبقى في النّهاية رصاصة، جسم معدّ ينطلق بسرعة كبيرة نحو الإنسان، وسيلة قتل مثل الشّطّية، لا هوّية محدّدة لهدفها، كلّ جنديّ أمام أربع احتمالات أساسية؛ إما النّجاة أو الإصابة أو الموت أو الأسر، وإحتمالية أسر الجنديّ أكبر من أسر المدنيّ، لأنّه ثمين أكثر من الثاني، هكذا كان يقول أبي دائماً، وهو العسكريّ القادر من «المغرب»، الذي أفنى حياته في خدمة إسرائيل.

كنا جميعاً في طابور الصّباح يقف أمامنا «ديميتري» بعيته الرّهيبة، وشاربه الخفيف، طويل في حدود متر وتسعين سنتيمتراً، ضخم الجثة عريض المنكبين، أبيب بشرة بدأت تتّجه للسّمرة من أثر شمس الجنوب، تضاريس وجهه القاسية وشعره الأشقر المحلوق بعناية إلى ما فوق الجلد بحوالي ميليمتر واحد، يعطيك انطباعاً مفاده أنّي عسكريّ صارم بكلّ معنى الكلمة، فلا تبعث معي، وطاقتي السوداء ذات النّجمة السادسية، تشي بتدينه، سحتته سحنة اليهود «السفرديم»، تشي بأصوله الروسية، أو الجورجية، أو ما حاورهما.

وقف كالطّود الشّامخ:

- تستطيعون تسميني «ديميتري»، أنت هنا من أجل التّدريب فقط، وما زلت غير معنّين بالحرب، أريد أن أصنع منكم رجالاً أقوىاء، كلّ الوقت اللازم لذلك متوفّر، لا توجد بيننا أسرار، تذكّروا دائماً، لا توجد بيننا أسرار، يجب أن نكون مكتشفين على بعضنا البعض، ومن كانت له مشكلة فليأت إلىّي، يساعدني في تدريكم الرّقيب «فاليري»، سيعلّمكم أساسيات الحياة العسكريّة، سيعلّمكم كيفية الإنتقال من مدنيّ إلى عسكريّ، أريد تفاعلكم الإيجابيّ معنا، كي تكون لإنجازاتكم نتائج واقعية فعالة، أتيت في الأساس من مجتمع مدنيّ، وإن كان الجميع يحمل الأسلحة هناك، إحدروا...

ورفع سبّابته لأعلى مكملاً:

- أيّ عصيان نتيجه المنطقية السّجن، وفترة السّجن لا تحسب ضمن فترة الخدمة، تذكّروا أنّنا هنا لا نمزح، ولا يجب أن نمزح، بأيّة صورة، ستتعيّنون كثيراً معي، لكن يجب أن تبقوا مفعمين بالطاقة مهما يحدث لكم، هنا شيئاً ثان، إما النّصر أو الموت، إما ترفع علم إسرائيل... أو يرفع عليك.

عبارات مختزلة، لكنّها قوية المعنى والدلّالات، نفس الكلام تقريباً مع الشّيطانة التي استقبلتني أولّ مرهّ، كلّهم يقولون نفس الأفكار، لكن في سياقات مختلفة.

وبدأنا أول التدريّيات العسكريّة، في إطار دورة أولى مدّها ثمانية أسابيع، ترّكّ على اللياقة البدنيّة، وتشمل اجتياز الحواجز والركض الجماعي والتّنقل منبطحاً.

أخبرني «شلومو» أنّها تسمّى «دورة البندقية» المستوى رقم 5، والمقصود بها إعداد المحارب بتعليمه أساسيات القتال، ولا يمكن الذهاب لتعلّم القتال بالدبّابة دون المرور على هذه الدّورة، وسيكفل بذلك الرّقيب «فاليري».

في الصّباح الباكر قبيل الشّروق نبدأ الرّكض في مجموعة تصل إلى ثلاثين مجلّداً، لا توقف ولا يجب أن توقف ولو تعيناً، هذه الممارسة تحفّز الجسم على التّجاوب مع الظروف الخارجيّة الطّارئة، وتنميّه.

كنت أركض بصعوبة وأنا الذي اعتدت الجلوس أمام الكمبيوتر، وأنناول كلّ ما أرغب به اقتداء بصديقي «غابي».

أين أنت الآن أيّها البدين؟، لا شكّ أنّك جالس على أريكة وثيرة في مكان مكيف، نظيف وأنا أشوى هنا حياً كالنّقانق.

إرتفعت حرارة جسمي بسرعة وصرت أغليّ كقدر أميّ، ورغم كلّ ذلك لا يجب أن توقف، حتّى تأبى رجالك أن تحملك، فتهاجر على الأرض الملتهبة، ولا يتوقف لأجلك أحد، ستأنّ مجندات مهمّتهن إسعافك أينما سقطت، وإذا تطلّب الأمر، سينقلونك للعيادة.

قاوم «رفائيل»، لكنّ صديقنا الإفريقيّ الذي لا نعرف اسمه ضرب المثل في المقاومة، حتّى أني شككت أنه لا يركض، كنا نرّكّز كما أمرنا الرّقيب «فاليري» على التنفس السليم، الإستنشاق بالألف والزفير من الفم، ونبقي كذلك حتّى يأمرنا بالتوقف.

مرّت الآن حوالي نصف ساعة ونحن نركض، كان البعض يتسرّطون خلفنا الواحد تلو الآخر، ومنهم «شلومو»، كنت أركض بلا نظارات وبالكاد أرى أمامي، نكزني «رفائيل» قائلاً في همس في حركة خفيفة برأسه إلى اليمين: - «ديميترى».

أدركت ساعتها أنّنا سنتعب كثيراً كما قال في كلمته الأولى لنا، وما يحدث لي ولرفافي الآن ما هو سوى بداية المأساة. - أمعن.

كان هذا أحد المجندين الذي انحني يتقى بجانبي بوجه شاحب، فيما أكمل الآخرون مسلكهم، وراحت الهواجس تتلاعب بي، وأنا أشعر أنّي أسير دون رجلي، وطنين غريب في أذني، ثم فجأة وجدت نفسي على

الأرض، وسط شعاع من الشمس حارق، أتت مجندتان تحملان مستلزمات الإسعاف، وألقت واحدة منهما الماء على وجهي ورأسي، وهي تصفعني صفعاً خفيفاً، وحين استوعبت ما يجري حولي طلبت مني إن كنت أستطيع المواصلة، فحرّكت رأسي إيجاباً ونفست، أتبع المجموعة التي كانت قد اختفت وراء منطقة ضبابية تراها عيناي.

ركضت أحوال اقفال الآثار على الرمل والتراب، وبعد حوالي خمس دقائق رأيتهم أمامي يعودون، أشار لي الرّقيب أن أرجع معهم، ففعلت حتى وصلنا للحطّ الذي انطلقنا منه، حينها بدأنا نسير ببطء، وهو يحدّرنا من الوقوف المفاجئ، أو الجلوس على الأرض.

إستمرّت المعاناة حتى منتصف النّهار، كدنا نموت كلّنا من الإلهاق الشّديد، كانت مجندات الإسعاف تتبعنا بإحدى السيارات العسكريّة الصّغيرة، وهنّ يوزّعن علينا قارورات الماء البارد، الذي سرعان ما تزول برودته في أقلّ من نصف دقيقة، بسبب الحرارة الشّديدة التي لم أر لها مثيلاً في حياتي، ملابسنا العسكريّة ملتصقة بأجسامنا من كثرة التّعرّق.

يا له من يوم!، هل هذا كله من أجل القبة السوداء؟.

أخبرنا الرّقيب «فاليري» أننا ركضنا حوالي خمسة أميال كاملة، ثم وجهنا للمطعم قائلاً:

– كونوا هنا السّاعة الثانية تماماً دون أي تأخير، تنتظرون تدريبات أخرى.

(15)

توجّهنا للمطعم، الذي تراءى لنا على بعد عشرين كيلومترا من فرط ما بنا من إرهاق، وتحسين الحظّ كان المكان فارغا، أخذت شلتنا ما رغب به كلّ واحد، وأكثرنا من اقتناء عبوات الماء، ثمّ أرتمينا على إحدى الطاولات نتأوه من شدّة الألم.

كاد «شلومو» أن يبكي، فيما كان «رفائيل» يسبّ بينه وبين نفسه، ثمّ سمعته يقول:

– نحن رجال مدرّعات ولسنا قوّاتاً خاصة، تبا لهم، سيقتلوننا قبل نهاية الشهر.

في المساء، كانت تنتظرنَا معاناة من شكل آخر.

أمرنا الرّبيب بالرّحف على بطوننا، وباستعمال المرفق كي تعطي لنفسك زحماً حرّكيّاً في مسار تعلوه الأسلاك الشائكة، ويا ولاته!، كانت الدّماء تسيل من مرافقنا، ويجب رغم ذلك ألا تتوقف، وزادنا الجهد الذي بذلناه صباحاً إيلاماً لها من الفظاعة ما يفوق الوصف، حتّى خُيل لي أنّهم سيجدوننا موتى في صباح الغد، ثمّ في نهاية المسار نقفز على حاجز إسمنيّ يرتفع قرابة المترین، للتلقى بأنفسنا من فوقه في عرّ شمس الظّهيرة، وتتوالى باقي العقبات، التي بدت لي من تأثير الحرارة الشديدة حلقة مفرغة.

في تحيّة العلم عند السّاعة الخامسة مساء، لم أستطع الوقوف، رغم أنّي كنت قد تناولت من قبل مشروب الطّاقة الذي لا يفارقني، كانت رجلاً بالكاد تستطيعان حمله، فلا أشعر بما من كثرة ما بذلت من جهد لم أتعود عليه، وجسدي كله مبلل مثل باقي المجنّدين، يومها حمدت الرّبّ على أنّ السلام الوطنيّ الإسرائيليّ قصير.

بعد غروب الشّمس بقليل؛ كنّا مستلقيين على أسرّتنا بعدما أخذنا حماماً نزيل به العرق الممزوج بالغبار؛ حين حضر «عزرا غولدشتاين»، آخر المجنّدين الملتحقين بغرفتنا، الشّابّ الوسيم الذي ييدو كنجم سينمائيّ أهوى للتّوّ تصوير فيلمه الأخير، أكمل عقده الثاني قبل أسبوع، يوزّع ابتساماته وعبارات المjalمة على كلّ من يلتقيه، مثل السياسيّين.

يقول عنه «شلومو» أنّه لم يرّ شخصاً في بلاهته، لدرجة ييدو معها كالذّي يتسلّل الصّداقات:

– هل يُعقل أن يوجد أشخاص مثله في العالم؟.

تناقض تام بينه وبين المجنّد الذي حضر قبله، ولا يُعرف اسمه حتى الآن.

– إنه يتحدّث مع كلّ من يراه، فظيع هذا النّموذج من البشر، إذا استمرّ معه هذا الجنون سنّراه ذات يوم يتحدّث مع القطط والكلاب.

يُضحكني والدي حين يقول مازحاً عن هذه التّوعية من البشر أنّهم ولدوا في أشهر الرّبيع، يعتمد الصّراحة هجاً أصيلاً في حياته، كلّ ما في قلبه على لسانه، مثلي لا يشرب، لا يدخن، لا يلعب القمار، لكنه مولع بالسّهر تحت النّجوم، وبالغناء على أوتار قيثارة لا أعرف من أين اقتناها، ولا من سمح له بإدخالها للقاعة، التي تعتبر مغلقة يغادرها المجنّدون في نهاية الأسبوع، ويعودون إليها في بدايته، عكس القواعد الأخرى والشّكّنات، كما لا أعرف إن كان أحدهم قد تشجّع وأخبره أنّ صوته مزعج لدرجة لا تُتحمل.

الغريب أنّه يجبرنا على الاستماع إليه.

أما هو، فيظلّ يكرّر على مسامعنا أنّ هرّمونات السّعادة لديه تفيف عن حاجة ومضطرّ لتصديرها.

بعد أيّام عرفنا مصدر هرّموناته، لديه فتاة يحبّها كثيراً، ويريد الزّواج منها حين ينهي فترة خدمته الإلزامية، كان يتحدّث إليها سراً في البداية، ثمّ أصبح لا يتحرّج في مهافتفتها أمامنا، وفي الغرفة هو في احتمالين لا ثالث لهما؛ إما يغّني أو يتحدّث إليها، إما مع قيثارته أو مع حبيبه.

استمرّ تدريياتنا الشّاقة المتنوعة، بين الرّكض واجتياز الحواجز، واستمرّ معها تورّم أرجلنا.

صوّبنا بالبندقية والرّشاش والمسدس، في وضعية الوقوف والإرتباك على الرّكبة والإبطاح، بشكل احترافيّ، وإلقاء القنابل اليدوية، وفكّرنا السلاح وأعدنا تركيبه، وقدّمنا الإسعافات الأولى لبعضنا البعض حين نصاب بعيار ناريّ أو بشظية قبلة، ثمّ انتقلنا لمرحلة أصعب، الرّكض واجتياز الحواجز وأنت في كامل عدّتك القتالية، من سلاح وذخيرة وعبوة الماء وحقيقة الظّهر، وهذه كلّها أوزان زائدة، ستؤثّر على أدائك، وستزيد من تورّم رجليك.

يقولون لنا في الجيش أنّه ينبغي الإهتمام بصحتك، فالجنديّ قويّ بجسمه وعقله، بل كلّ تأثير عليه هو في الأساس تأثير على كلّ الجنود، وإنماك للشباب الإسرائيليّ المقاتل ذكرأً كان أو أنثى، ولذلك يجب المحافظة على روتين تدريجيّ مستمرّ لا يتوقف، كي لا تنهار قدراتك، ويرتفع مع الوقت.

كي تزيد من فرص تجهيز جسمك لتحديات صعبة.

كنت أذهب مع «غابي» للتدريب على الرّماية خارج «أوفاكيم»، وأعرف استخدام السلاح، علميّ أبي منذ أن نعومة أظفاري باعتباره عسكرياً؛ الرّمي بالمسدس وبالبندقية، وحلب لي بعلاقاته الواسعة مع عدّة قيادات حتّى «الكلاشينكوف».

أطلقت النار باستمتع من «ميسي تابور»، أروع بندقية هجوم رأيتها في حياتي، إضافة إلى فخرنا، مسدّسنا الرّشاش «عوزي»، ولم أجد مشكلة في التصويب بأي سلاح؛ فحين يرتفع مستوى «الأدرينالين» في جسمك؛ ستبحث لا إرادياً عن الضغط على الزناد لتفخّضه، كلّ الإسرائيّيين يفعلون ذلك.

نحن هنا نتدرّب على الأسلحة، مثلما يحدث في «أمريكا»، منذ الصّغر في ميادين التصويب المغلقة أو حتّى في الطّبيعة، وعادة ما يطلب منك المسؤول عن قاعة الرّماية هوّيتك، لكن إذا تدخل أحد الأقوياء في الدّولة، فلا تفكّر كثيراً، سيرجّبون بك في أيّة ساعة من النّهار أو من اللّيل.

يقول أبي لنا دائماً في المترّل:

– لا شيء أفضل للمقاتل من الطّبيعة، فهي أمّه التي ولدته، أمّا ميدان التصويب، فهو زوجة الأب، التي تأوي إليها اضطراراً، حين تذهب أمك للعالم الآخر.

ثم تعرّفنا على ما يسمّى «اللياقة القتالية»، «الكراف ماغا»، القائم أساساً على مبدأ قتال الشّوارع، ونستعمله حين لا يتوفّر مكان واسع لاستخدام السلاح، إذ يقوم على تحويل الحركات الدّفاعيّة الغريزيّة للإنسان إلى حركات مدروسة، من أجل أن تصبح أكثر فتكاً، إعتماداً على سرعة ردّ الفعل، والقوّة الذاتيّة المتفجرّة للجنديّ، والقتال العنيف الحاسم الذي لا يدع فرصة للعدوّ كي يهرب أو يطلب المساعدة، وينقسم لثلاثة أنواع، رياضة قتالية؛ طريقة دفاع للمدنيّين؛ طريقة قتال للجنود، وهو قائم من زمن «الماغانا»، طوره «موشيه فلدينكرياس»، و«إيبي شادور ليشتتنفيلد»، و«غيرشون كوفلر»، كلّ ذلك بالأيدي العارية تماماً؛ ثم القتال بسلاح معلّق على الكتف؛ ثم القتال بسّكين التّدريب، جنديّ مقابل جنديّ؛ أو جنديّ مقابل اثنين؛ أو جنديّ مقابل ثلاثة مقاتلين.

كان «ديميترى» يرقبنا عن كثب.

(16)

هنا في «شيزافون» يتجمّع المجنّدون أمام تلفزيون النادي، حين تُعرض مباراة مصيريّة، خاصةً إذا كان «ميكيابي تل أبيب» طرفاً فيها، كلّ واحد يتعصّب لفريق ما، أمّا شلّتنا؛ فلا أحد فيها يشجّع فريقاً كرويّاً إسرائيليّاً بعينه، ولا غرو في ذلك.

«عزرا» مثلاً، يشجّع «ميسي»، غير مقتنع باللاعبين الإسرائيليّين، ويكره «رونالدو»، لأنّه باع حذائه الذهبيّ بـ 500 مليون ونصف المليون من الدولارات متبرّعاً به لشعب «غزة»، بعد هجومنا عليها في 2012، الشيء الذي أزعجه كثيراً، لدرجة أنه مزّق كلّ صوره، معتبراً إياه من داعمي الإرهاب، بينما يجذب «زوسمان» أن لا أحد سيختلف «مارادونا»، وأنّ أرحام النساء عاجزة على ولادة طفل يشبهه، ثمّ إنه توقف عن الإعجاب بأيّ لاعب بعده، لأنّه لاعب لن يكرّره الزّمن، ولو بعد مليون سنة، أمّا أنا، فكنت نادراً ما أمارس أيّة رياضة، حلّ وقت فراغي أكون مع «غابي»، إما في المكتبة، أو نتجوّل بسيارته، نأكل ما لذّ و طاب، في أيّة كافتريرا تجذبنا إعلاناتها، حتّى أنّ أمي أو أمّه إذا قلقتنا علينا أو احتجّتنا شيئاً، فإنّه يكفي إحداهمما أن تطلب أحدهنا عبر الهاتف ليكون الآخر برفقته، وإذا عدنا للمترّل، يعزل هو نفسه في المستودع مع سيارته التي عادة ما يخرج كلّ أميّاتها، ثمّ يعيدها وقد غيرّ هذه القطعة وأضاف تلك؛ وأتسرّم أنا أمّا شاشة الكمبيوتر أراجع الدّروس، وأنجز البحوث التي يكلفوننا بها في الثانوية، ولا سيمّا في سنتي الأخيرة، وفي الليل لّا يصيّبني الأرق، أكتب مذكّراتي الشّخصيّة، أنفّس فيها عن شتّى شجوني، فترجحني من الإنفجار.

غير أنّ الروتين اليوميّ هنا في «شيزافون» مختلف عما عهده في الماضي، ففي وقت فراغي الذي أريد أن أختلي فيه مع نفسي أخطّ بعض الأوراق؛ ويرسم «شلومو»؛ ويسترجع «رافائيل»؛ يجربنا «عزرا» جرّاً لإجراء مقابلة ودية، بدعوى أنّ الرياضات الجماعيّة تزيد من أواصر التّرابط في الفريق القتاليّ، أضطرّ لترع نظاريّة أثناها مدة طويّة، في مخالفة صريحة لأوامر الطّبيب، كي لا يكسرها أحدّهم دون قصد، مقابلة رتبها مع مجنّدين آخرين في غفلة منّا، وهذا طبعاً حين يتشارج مع خطيبته، أو تخاصمه أيّاماً.

حركة دفاعيّة منه كي لا يؤثّنه ضميره.

يعيرني حذائه الريّاضي الأسود الذي تحالطه صفرة، لأنّه يتّشاعم منه، فلا أستطيع معرفة سبب ابتياعه، ثمّ يصرّ على اللّعب بكرته التي اشتراها بأكثـر من مائـة وخمسـين شيكـلا من محلّ كـبير في «تل أبيب»، نرجـسيّ، يـريد أن يـوصل لـنا فـكرة أـنـه هو الشـمـسـ، مـصـدر الطـاـقةـ والنـورـ، الـيـ يـجـبـ أنـ تـدـورـ حـوـلـهـ الـكـواـكـبـ.

وتـارـةـ حين يـجـدـيـ وـحدـيـ فيـ الغـرـفـةـ، يـجـرـيـ جـرـاـ لـقـاءـ تـقوـيـةـ الـعـضـلـاتـ، لـأـسـاعـدـهـ خـصـيـصـاـ فيـ تـمـرينـ «الـقـرـفـصـاءـ»ـ، المعـرـوفـ بـيـنـ الـمـجـنـدـيـنـ باـسـمـ «ـسـكـوـاتـ»ـ.

ـ المـحـنـونـ سـيـكـسـرـ ظـهـرـهـ ذاتـ يـوـمـ.

هـذـاـ ماـ وـصـلـ إـلـيـ «ـرـفـائـيلـ»ـ مـنـ اـسـتـنـتـاجـ، لـمـ يـرـاهـ يـحـاـولـ جـاهـدـاـ وـلـاـ تـسـعـفـهـ رـجـلـاهـ أـنـ يـرـفـعـ كـلـ تـلـكـ الـأـوـزـانـ الـمـهـوـلـةـ، الـيـ تـصـلـ إـلـىـ مـائـةـ وـخـمـسـينـ كـيـلوـغـرـامـاـ، يـرـيدـ مـنـافـسـةـ صـدـيقـنـاـ الإـفـرـيـقيـ الـجـدـيدـ الـذـيـ لـاـ نـعـرـفـ اـسـهـ، الـذـيـ يـسـتـطـعـ بـجـسـمـهـ الـقـويـ وـلـوـحـدـهـ، رـفـعـ مـائـةـ وـثـمـانـينـ كـيـلوـغـرـامـاـ، كـأـنـهـ يـرـفـعـ رـيشـةـ فـيـ الـهـوـاءـ، عـكـسـيـ ثـمـامـاـ، حـيـثـ لـاـ أـسـتـطـعـ رـفـعـ عـشـرـةـ كـيـلوـغـرـامـاتـ، إـلـاـ بـمـسـاعـدـةـ صـدـيقـ.

يـقـولـ لـهـ «ـرـفـائـيلـ»ـ:

ـ دـعـكـ مـنـ التـهـوـرـ، زـوـجـتـكـ الـمـسـتـقـبـلـيـةـ لـاـ تـرـيـدـكـ مـقـعـدـاـ عـلـىـ كـرـسـيـ مـتـحـرـكـ، تـتـجـوـلـ بـهـ أـمـامـهـ فـيـ الـمـتـرـلـ، أـوـ تـأـخـذـ حـمـامـاـ شـمـسـيـاـ فـيـ الـحـدـيـقـةـ الـخـلـفـيـةـ.

لـكـ حـيـنـ تـسـتـنـفـرـ هـرـمـونـاتـ السـعـادـةـ لـدـىـ صـدـيقـنـاـ الـمـغـرـورـ بـوـسـامـتـهـ...ـ فـأـنـتـ تـخـاطـبـ حـرـاـ.

وـتـذـكـرـتـ أـيـ وـمـاـ يـعـانـيـهـ فـيـ الـمـسـتـشـفـيـ، سـيـكـوـنـ قـعـيـدـاـ بـقـيـةـ حـيـاتـهـ.

كـنـتـ أـنـتـظـرـ بـفـارـغـ صـبـرـ أـنـتـهـيـ مـنـ هـذـاـ العـذـابـ الـذـيـ أـنـاـ فـيـهـ، هـذـهـ الدـوـرـةـ الـلـعـيـنـةـ الـتـيـ يـقـولـونـ أـنـهـ إـجـبـارـيـةـ عـلـىـ كـلـ مـقـاتـلـ فـيـ جـيـشـ الدـفـاعـ إـلـيـسـرـائـيـلـ، ثـمـ تـنـفـرـغـ لـلـدـوـرـةـ الثـانـيـةـ الـخـاصـةـ بـالـدـبـابـاتـ، آـهـ...ـ «ـالـمـيـرـكـافـاـ»ـ حـبـيـيـثـيـ الثـانـيـةـ الـتـيـ أـسـعـيـ إـلـيـهاـ بـعـدـ «ـأـنـارـاـ»ـ، هـذـهـ التـحـفـةـ الـفـيـقـيـةـ الـتـيـ تـعـبـرـ آـخـرـ مـاـ تـوـصـلـ إـلـيـهـ الـإـنـسـانـ فـيـ صـنـاعـةـ الـمـدـرـعـاتـ، ثـمـنـاـ يـصـلـ إـلـىـ سـتـةـ مـلـاـيـنـ دـوـلـارـ أـمـرـيـكـيـ، نـعـمـ سـتـةـ مـلـاـيـنـ مـنـ دـوـلـارـاتـ «ـالـعـمـ سـامـ»ـ، عـلـىـ يـدـ أـبـ عـقـيـدـةـ التـدـرـيـعـ الـلـوـاءـ «ـيـسـرـائـيلـ تـالـ»ـ، مـؤـسـسـ مـدـيـرـيـةـ الـعـربـاتـ وـالـدـبـابـاتـ فـيـ وزـارـةـ الدـفـاعـ، وـالـمـهـنـدـسـ «ـيـسـرـائـيلـ تـيـلانـ»ـ.

تـسـمـحـ لـيـ بـالـقـتـالـ وـأـنـاـ فـيـ أـمـانـ تـامـ، لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـصـبـيـنـ شـيـءـ، أـنـاـ مـثـلـ الـلـؤـلـؤـةـ، تـحـمـيـنـ قـوـقـعـةـ حـدـيـدـيـةـ مـصـفـحـةـ، بـنـاـهـاـ مـهـنـدـسـوـنـاـ الـمـتـازـوـنـ مـنـ ذـوـيـ الـعـقـولـ الـنـيـرـةـ، كـلـمـاـ أـرـاهـاـ تـجـرـيـ تـشـرـ حـوـلـهـ الـرـمـالـ وـالـغـبـارـ، يـهـتـزـ بـدـنـيـ كـلـهـ مـعـهـ، وـيـقـفـزـ قـلـبـيـ فـرـحاـ، وـيـرـسـخـ فـيـ ذـهـنـيـ شـعـارـ حـلـمـيـ الـذـيـ أـتـوـاجـدـ هـنـاـ مـنـ أـجـلـهـ، سـتـكـونـ لـيـ بـعـدـ أـقـلـ مـنـ سـنـةـ مـنـ الـآنــ.

قـرـبـ مـنـتـصـفـ الـلـيـلـ؛ـ سـعـنـاـ صـرـاخـاـ وـجـلـبـةـ غـيـرـ بـعـيـدـ عـنـاـ، ثـمـ صـوتـ إـطـلـاقـ نـارـ، تـبـيـنـ فـيـمـاـ بـعـدـ أـنـهـ اـنـتـحـارـ لـمـجـنـدـ رـفـضـوـاـ مـنـحـهـ إـجازـةـ، لـيـحـضـرـ جـنـازـةـ أـمـهـ الـتـيـ مـاتـتـ مـنـذـ يـوـمـ، بـسـبـبـ الـحـاجـةـ الـمـاـسـةـ لـلـجـنـودـ، وـلـأـنـهـ جـنـدـ مـؤـخـراـ فـقـطـ، فـيـ لـحـظـةـ يـأـسـ وـغـضـبـ وـإـحـبـاطـ مـاـ حـوـلـهـ، وـضـعـ حـدـاـ لـحـيـاتـهـ بـسـلاـحـهـ الشـخـصـيـ، لـمـ يـتـفـهـمـ عـذـرهـ

أحد من الضبّاط المباشرين أو من القيادة، لأنّه - كما أخبرني «شلومو» - من يهود «الفلاشا»، الطبقة المحبودة هنا، ولو كان من «الأشكيناز» لاختطف الوضع حذريّاً.

هل يُعقل أن يكون هذا التّمييز الإجتماعي حتّى في جيش الدّفاع الذي يتغّنى دائمًا بالمساواة والعدالة الإجتماعية؟.

حين يؤكّدون لنا بضرورة التّواصل مع بعضنا بعضاً، فلتخفيف الضّغوط النفسيّة التي سرعان ما تتعاظم، ويجب إيجاد متنفسّ لها، بالرّياضة، أو بالصلّة، أو بمارسة الهوايات، أو بتبادل أطراف الحديث، تبادل الكلمات ليس لتبادل الأفكار فحسب، بل لتقاسم المشاعر، وللمجّند حرية الإختيار بين تصديير مشاكله، أو التّأكّل النفسيّ.

من كان يدرّي أنّ مسلسل الإنتحار مسلسل طويل، وأنّ هذه فقط... الحلقة الأولى منه؟.

(17)

كُنّا نشكّل حلقة كبيرة وهو في وسطها كالنّحلة، يغّير مكانه باستمرار مثل القنّاص والشّمس الحارقة فوق رؤوسنا، وعلى حين غرّة أشار لي بسبابته اليمني:

– أنت... عرّف نفسك.

– الطّالب «دافيد عوفر» من اللّواء المدرّع 460 تدريب إلى اللّواء القتالي 401 سيدّي.

– لماذا هناك حرب في «غزة»؟.

كان سؤالاً مفاجئاً، فلقد توقّعنا أسئلة عن قواعد القتال، أو في الأسلحة، أو حتّى في الإسعافات الأوّلية، لكنّ أن يأخذك مباشرة دون مقدّمات، لمكان يبعد عنّا مائة كيلومتر، فهذه هي لفائف التّوراة.

وهذا هو «ديميري»، صناعة الرّبّ في حلقة، الذي يؤكّد في كلّ مناسبة أنّ عقيدتنا العسكريّة هي الأفضل في العالم، فنحن نحافظ على حياة جنودنا مثلما تحافظ الأمّ على رضيعها، وديدنه تصفّح «المير كافّا»، عدد لا يقبل القسمة على إثنين.

كابوس إسرائيل الحرب الطّويلة، هاجس إسرائيل المجنّدون والمجنّدات، الذين هم في الأصل موظّفون وعمّال في قطاعات شتّى، إستدعاوهم للجيش معناه توجيه كلّ الميزانية للجهد الحربيّ، مما يرهق كواهل المواطنين، ويؤزّمهم نفسيّاً، ولا سيما إذا كانت هناك خسائر في الأرواح.

هل تسأّل أحدكم عنّي بعوض اليد العاملة المؤهّلة، والأدمغة الفدّة التي تُقتل في المعارك والحروب؟.

تأمل قيادات جيش الدفاع الإسرائيليّ الخوض في حروب خاطفة، مع الحفاظ على حياة المقاتل، لأنّها تعني الكثير، تعني الإبن والأب والأخ والزّوج والخطيب للأسرة؛ وتعني العامل والموظّف المستخدم والأجير والخبير للدولة؛ وتعني الصّديق والرّفيق والأليف والأنيس للشّلة، فمن يعيد هؤلاء إذا اخْتطفُهم الموت؟، من يعيد الأحباء إذا ساروا في هذا المسلك ذي الاتّجاه الوحيد؟.

ثمّ هل من المنطقيّ أن تنتظّر ضربات عدوّك؟، هل من الرّجاحة والتفكير السّليم أن تكون على علم بما يجهّز لك، وتغمض عينيك، أو تدفن رأسك في التّراب كنعامة؟.

- للقضاء على مخرب «حماس».

تفرّس في وجهي بعينيه النّاريتين، حتّى اعتقدت أنّي أخطأت في الإجابة، أو أنّي لم أرفع صوتي كفاية، أو أنّها ليست العبارة المناسبة التي ينتظرها منّي.

- لأنّ أرض إسرائيل لا تُجزأ أيّها المجنّد.

ثمّ بدأ يسير وسطنا في صرامة وصوته يعلو:

- حتّى ولو لم تكن «حماس» أو «كتائب القسام»، فإنّنا يجب أن نهيمن على كلّ شيء، ننقل المعارك لأرض العدوّ، كي نقلّ الخسائر، ونكسب باستمرار أرضاً جديدة، أرضنا واسعة، واسعة جداً، تتدّ من «الليل» في «مصر» إلى «العراق»، أمّا التّحصيل فعائق وقت فقط، صكّ الأرض في أيدينا، وسنحرص على المطالبة بها في الوقت المناسب.

ثمّ أضاف في حقد:

- كلّكم هنا عانيتم في السابّع من أكتوبر، كلّ واحد هنا تضرّر من الذين جاؤوا من خلف السّيّاج، كلّ واحد منكم فقد عزيزاً عليه، مقتولاً أو أسيراً في الأنفاق، يجب أن ننقل معاركنا لأرض العدوّ، نحن نقاتل قتال وجود وليس قتال حدود، أريدكم أن تذكّروا هذا جيداً، يجب أن ننتقم وبشدة هذه المرة، أكثر من المرات الماضية... الإنقاص، الإنقاص، ورفع قبضة يده يعتصر الهواء بقسوة.

لا أعرف كيف بدأت نيران الحقد تأكلني لما صاح الجميع بصوت واحد وهم يرفعون قبضاتهم في الهواء:

- الإنقاص... الإنقاص... الإنقاص.

كانت عيونهم تقدح شرراً مثل الشّيّوعيّين.

رأيت بعض المجنّدين ييكونون وهم يعانون بعضهم بعضاً، وسمعت أحدهم يقول أنّ عائلته كلّها قد تمّ قتلهم بدم بارد، حتّى أنّهم قتلوا أشقاء الصّغار، وبدأ يردد عالياً:

- أين أنتَ الآن يا «هارون»؟، أين أنتَ الآن يا «تومر»؟، أين أنتَ يا «ميatal»؟، أين أنتِ يا أمّي؟.

وخرّ على الأرض في نوبة صرع، تذكّرت «غابي» المريض بالسّكريّ الذي كاد يموت من نوبة هلع، وأبي الذي أصابته رصاصة مخرب من «القسام»، وما زال يعاني ألمًا نفسياً من أثر صدمة الإهمال على سرير، سينهض منه في النّهاية إلى كرسيّ متحرّك، يقضي فيه بقية حياته، والسبب إرهابي جبان أتمنى قتله الآن بيدي آلاف المرات، هؤلاء الذين أكرّهم، لأنّهم يحاولون أخذ أرضنا المقدّسة التي وعدنا الربّ بها في التّوراة، ثمّ تخيلت أختي «ياعيل» وهي مصابة بعيار ناريّ في الرّأس، ترقد على جثّة أمّي في المترّ.

صهيونيّ حتّى النّهايّة أنا، وأيقونة القادمين من الشّتات هو، رسميّاً بعد الخامس عشر من ماي 1948، تاريخ إعلان الدّولة التي تأسّست على ألوية «الهاغانا» و«البماح»، وعليها تأسّس جيش الدفاع الإسرائيليّ، في ظرف خمسة عشر يوماً بعد ذلك، ثمّ بدأت الإحترافية في الخمسينيات في عملية «قادش» ضدّ «مصر»، في

1956، قيمه من قيم الأجيال اليهودية المتعاقبة، والقيم الأخلاقية والإنسانية التي تعتمد على كرامة الإنسان وقيمتها، من قيم دولة إسرائيل عبادتها الديموقراطية، وقوانينها ومؤسساتها.

هذا هو حيشنا المجيد الذي يحاولون تشویهه، نحن ندافع عن أنفسنا ضدّ الممجحين القادمين من خلف السياج الفاصل.

وهذا الذي استطاع أن يخلق الغضب فينا، «ديميترى» المعروف والمحظوظ لنا في وقت واحد، المتكتّم عن حياته الشخصية حسب «شلومو»، غامض مثل المحيط، لا أحد يستطيع سرّ أغواره، يغرس فينا بكلامه وبشخصيته الإعتزاز بالإنتماء لجيش الدفاع الإسرائيلي، الذي يدافع عن أرض اللّبن والعلّل، ويؤكّد دائماً أنه لا يوجد جندي يقاتل وحده، لأنّه سيُقتل يوماً ما، نحن نقاتل في مجموعة، والمجموعة لا تهزم.

يقوس علينا لحدّ نمقته فيه، ثمّ يظهر في حنان الأمّ في أحيان أخرى، حتّى نقول عنه أخانا الأكبر الحريص دوماً على مصلحتنا.

إنّه يلعب دورين متناقضين في الوقت نفسه، دور مأمور الشرطة ودور الأمّ.

هذا التناقض في شخصيته، هو ما يجذبك إليه مرغماً.

مرةً؛ صفع «رفائيل» ناعتاً إياه بالمستهتر الغبيّ، لأنّه ترك سلاحه بعيداً عنه، وأنّه سيضعننا في ورطة، وربما في أزمة دبلوماسية إذا خطّفوه:

- هل تعتقد أنّ «القسام» سيرسلون لك ملاكمًا يصارعك ندّاً لندّ؟.

وعاقبني بتمارين الضغط مكرّرة مائة وخمسين مرّة، حتّى أصبحت لا أشعر بوجود شيء إسمه صدر، لمجرّد خطأ بسيط في الشرط المطاطي للحذاء، ثمّ قال:

- لا تكمل التفاصيل الصغيرة أيّها الضابط، لو أصبت... ماذا سيحدث لرفاقك؟.

أولّ مرّة يخاطبني أحد الضبّاط على أنّي ضابط مثله، رغم أنّي ما زلت لم أكمل دورتي الأولى، كنّا في تمرّين ميدانيّ لرمي القنبلة اليدويّة، ويسبّب تأخّري في الإستيقاظ، أهملت ربط شريط حذائي، كان مفهوم التّمرّين قائماً على كيفية استخدام القنابل اليدويّة في حال نفاذ الذّخيرة، فحين أخذت القنبلة لرميّها وأنا أركض تعثّرت، فسقطت والقنبلة في يدي، لم أرّه إلّا حين هجم علىي وألقى بها بعيداً لتنفجر مثيرة بعض الغبار.

لقد أنقذني من الموت في اللحظات الأخيرة، وسط دهشة «فاليري»، الذي كان يتتسّائل بينه وبين نفسه مثلّي، عن كيفية ظهور «ديميترى» في هذا التّوقيت، وعن المكان الذي كان يراقبنا منه.

أشتم تمرّين الضغط وأنا أحمل جبلاً على ظهري، حتّى أنّي التصقت بالأرض الحارّة من شدّة ما نالني من التّعب، أمسكني من ذراعي في عنف، يجرّني صعوداً إلى إحدى الدّبابات التي كانت على مقرّبة منّا، صارخاً في حزم:

- أنت ضابط هذه الدبابة... أنت ضابط هذه الدبابة، ضع هذا في رأسك، أنظر أمامك، هذه هي «المير كافا»، وأنت مسؤول عليها وعلى حياة زملائك، أنت المسؤول... أنت المسؤول.

تيس جسمى كالسابق في ماء متجمد رغم حرارة الطقس والشمس اللافحة من أعلى.

لم أستطع النّوم في تلك اللّيلة، كان كلامه يتردّد في سعي كأنّه ما يزال أمامي الآن، واقفًا على «المير كافّا»، وأنا أرتعش أمامه، كشحيرة عصفت بها الرياح من أثر كلماته التي تتسرّب لأعماق النّفس، كلامه المتسرّب لأعماق التّربة، إنّه يحبّنا، إنّه يريد أن يصنع منّا أيقونات عسكريّة، مثله تماماً، هذا الذي لا يتجاوز سنه الثلاثيّن سنة، حسبما تشي به ملامح وجهه.

في الصّبّاح كنت متوقّعاً للغاية في طابور النّفّيتش، كان «ديميترى» ينظر إلى نظرات غريبة، بعد حوالي ساعة، وقبل بدأ برنامج اليوم التّدرّيّيّ، حين كنا نتلقّى توجيهات الرّقّيب «فاليري»؛ أتى أحد المجنّدين ليأخذني معه، أدخلني إلى مكتب قيادة القاعدة، فوجدت «غارسياً» زوج أخي غير الشّقيقة «إنجي»، ضابط «الموساد» الذي لم يزرنا قطّ، ولا أحد في العائلة يعرفه، واقفاً وحده قبالة النّافذة:

— مرحبا «دافيد»... أنا «غارسيّا»، زوج أختك من والدك، «إنجي».

ومدّ يده مصافحاً ومستفهمًا، فمدّت يدي بدورٍ، ثم طلب مني الجلوس.

بدا الموقف غامضاً يلفه التباس شامل، وعشرات الأسئلة بدأت تترافق في ذهني، تنتظر من هذا الجالس أمامي أن يلدي الضباب.

(18)

إنتهت الدورة الأولى بسلام دون حوادث تذكر، سوى بعض الإصابات الخفيفة، كالجلد والكسور التي أصيب بها بعض الزملاء، وضربات شمس الجنوب، وحصلت على شهادة تثبت احتيازي بنجاح، في حفل أقيم لنا خصيصاً في القاعدة، ولو أنني غير مهمّ بما في المجمل، حيث أضع دائماً في ذهني، أنني موجود هنا لأجل الدورة الثانية، «دورة المهن»، التي يمزح فيها بين الجانب النظري والتطبيقي، والتي يجب أن أوجه فيها إلى اختصاص معين، «مدفعي» أو «محمّل قذائف» أو «سائق دبابة»، ثم في نفس الوقت يتم اختيار من بين هؤلاء الإختصاصات من يجدونه مناسباً للقيادة، فيوجه في دورات أخرى، يؤهل فيها ليكون قائداً على دبابة «الميركافا»، يتعلم فيها باقي التخصصين الذين لم يدرسهما، وبعدها يكون التخرج، وأداء اليمين أمام القيادات، والإعلام، وأفراد العائلة المدعوين، مشوار طويل يتضمن من أجل نيل القبعة السوداء، ثم يكمل التأهيل في دورات متقدمة، يتعلم فيها كيفية القتال، كجزء من فصيلة، أو سرية دبابات.

تشجّعت وتفائلت بعد نهاية الدورة بإمكانية منحنا إجازة ولو لأسبوع، لtour فيها أسرنا وعائلاتنا، غير أنهم بدعوى الحرب، منحوا لجزء صغير فقط تراخيص العودة للديار، مما جعل الإحباط يتسلّل لكيان كله، أنا والشلة التي بدأت تشعر بالظلم، كنت مشتاقاً جداً لرؤية أمي وأبي و«ياعيل» و«أتارا»، والسيد «ريكاردو» الطيب، و«غابي»، وعمدة المدينة، بل كلّ من أعرفهم هناك ويعرفوني في «أوفاكيم»، مدیني الرائعة، وتدافعت على الذكريات بكلّ شراسة، تداعف القطط على تاجر السمك، وأنا على سريري، أحاول دفن رأسي في المخدّة تارة، وأنقلّب كأنّ بي وجعاً أو أرقاً تارة أخرى، وعلى كره مني، رحت أسترجع ما علق في ذهني من صور ومواقف، وحتى العبارات وبعض الكلمات، ثمّ بدأت الدّموع تجتمع في العينين، شيئاً فشيئاً، كلّما استبدّ بي الحنين للماضي، أسترجعه ببطء، الذي يسترجع ماله من مدين ماطل، وما أحصد سوى الآلام.

– ما رأيك لو تكون معنا في «هيئة الإستخبارات والمهام الخاصة»؟، هذه التي تعرفونها باسم «الموساد»، أنت الآن قريبي على كلّ حال، ويهمني أن أضمن لك مستقبلاً زاهراً لم تحلم به أبداً، أحسن مما أنت فيه الآن، ما رأيك «دافيد»؟.

قبل أن أعي ما يدور أمامي من أغاز قريبي، بادرني:

– هل تحكم في العربية جيداً مثل والدك؟.

ثم نمض فجأة مسرعاً حين تلقى رسالة على هاتفه الجوال:

ـ فكر جيداً «دافيد»، «المكتب» بحاجة لأمثالك، سنتنقى في أقرب فرصة.

وخرج وهو على وشك الركض وتركني حالساً وحدي حائراً.

يبدو أن كل شيء سيتغير من الآن فصاعداً.

«مدفعي»، هذا هو اختصاصي الذي وجهوني إليه، قالوا حسبما حصدته من نتائج، مع احتساب كل ما من شأنه توجيه المجنّد لمكانه المناسب، بينما وجهوا «رافائيل» و«بابلو» - وهو صديقنا الإفريقي - لتحميل القذائف، وجهوا «شلومو» للسيّارة.

كنت راضياً تماماً على نتيجتي، بل اعتبرت أنها ستعزّز الوصول لحلمي، أفضل بكثير من الإختصاصين الباقيين، في حين اعتبر «شلومو» أنه تعرض للظلم، وأنّ مستواه أكبر بكثير، غير أنّ مستواه التعليمي هو من لعب دور الفيصل في توجيهه، فقد غادر مقاعد الدراسة في سنّته التاسعة، أما «رافائيل» فلم يحصل على شهادة «البغروت»، وغادر الثانوية هو أيضاً، لكنّ اللّغز هو الوافد الإفريقي «بابلو»، الذي بالكاد يستطيع كتابة اسمه، فكيف تم تصنيفه كمحمل قذائف، بل كيف وجهوه لسلاح المدرّعات أصلاً.

تعلّمت ألا أحشر أنفني في قضيّة لا تهمّي، ما دامت الأمور تسير على الشّكل الذي يرضيّني وأفضل.

كان هاجس «رافائيل» الذي يسرده كلّما تكلّم، هو الخشار قذيفة في المدفع، فكان يرتعد خوفاً كلّما فكر في ذلك، ثم يقول وهو يرتجف:

ـ ستُنفجر في الدّاخل ونُغرقنا إرباً إرباً.

أما هاجسنا الذي اعتبرناه جميّعاً التّهديد الحقيقّي لنا، هو توجيههنا لمشاهدة المدرّعات في حالة ارتكاب أخطاء جسيمة، عقاب يمكن أن يقضي على مستقبل أيّ مجّند هنا، وعلى حلم القبّعة السّوداء، ويسحقك كدوّدة، وفي النهاية لن يحترمك أحد، وستفقد كلّ فرصة أمامك للعودة لمسارك الأصليّ.

الإختصاصات الثلاثة للدبّابة هي التي تسمّى في مصطلح الجيش «المهن»، وينضم المجنّدون أثنائها لتكوينات قاعدية نظرية وتطبيقية ميدانية، وباستعمال جهاز المحاكاة، تستمرّ ثمانية أسابيع، وربما أكثر بأسبوع أو اثنين على قدر الحاجة، ثم يتم فرز المؤهّلين لقيادة الدّبابات بشكل سريّ، ليتمّوا دورة أخرى، تصل إلى ستة عشر أسبوعاً، يتعلّمون فيها باقي المهن الموازية، ويكونون فريقياً قتالياً حقيقّياً، يجمع بينهم التنسيق والإنسباط، وقصصيّ زمن ردّ الفعل، ثم في النهاية تكون دورة أخرى لم أفهم كنهها، مدّتها ستة عشر أسبوعاً.

ما يجب أن أركّز عليه الآن هو السّير على المسار الصّحيح، وربما يغيّرون البرامج التّدرّيّية مستقبلاً بسبب الحرب، أو ما سيرونه ضروريّاً للمقاتلين، فلماذا أشغل تفكيري بما سيقع بعد أشهر من الآن؟.

في تلك الأمسية التي صادفت يوم الأحد، قررنا الإحتفال، أنا و«بابلو» و«رافائيل» و«شلومو» و«عزرا»، الذي تأخر توجيهه ثلاثة أيام بلياليها، ثم أخبرنا بحسرة أنه «سائق»، في حين كان يطمع أن يكون مدفوعاً مثلّي.

توجهنا كلّنا لنادي الإستراحة، وما إن دخلنا حتّى كنا شهوداً على شجار كاد يتضوّر إلى محاولات قتل، بسبب أحد «الأشكيناز»، الذي أمر أحد «الفلاشا» أن يشعل له سيجارة وضعها في فيه، ثمّ عنّه على تأخيره، الأمر الذي أثار عليه بعض المجنّدين الآخرين من «السفرديم»، الذين اتهموه بالعنصرية، واحتقار الغير بسبب لون البشرة، وهو ما أُجّج غضبه، وراح يسرد على الجميع أنّ «الأشكيناز» هم أسياد الدّولة رغم أنف الجميع. أراد «رافائيل» التدخل، لكن «عزرا» أوقفه حين لمح عناصر من «أمان» تدخل النادي، آخذة جميع المترّطين للتحقيق.

جلسنا إلى إحدى الطّاولات، بعدما اقتربنا ما نحتاجه من عصائر وقهوة ومحليات.

– تبا لهذه العنصرية الغاشمة، وتبّا لهم، أفسدو احتفالنا.

قالها «رافائيل» حاكاً قبضته، كأنّه يستعد لمنازلة، بينما بدا على «بابلو» التأثير الشّديد، كونه من يهود «الفلاشا» القادمين من «إثيوبيا» و«السودان»، الذين يعانون من الإستغلال، بل كثيراً ما يؤمرون بتنظيف المراحيض، ناهيك عن إستغلال الجنود القادمي للجنود الجدد، وخاصة أصحاب الطّباع الخجولة، مثل أحد اليهود القادمين من «الصّين»، أو كما يطلق عليهم اسم يهود «الكاييفنج»؛ وهو ذو طبع هادئ وعقل متّزن، سنّه لا يتجاوز الخمس والعشرين سنة، إسمه «لي جاكوب»، وأناديه حين ألقاه «لاؤ خي».

كان بعض اللّئام يقتربون المال منه ولا يعيدون له شيئاً، وهو يخجل أن يطلب منهم ماله، كنت مع «رافائيل» حين سمعنا أحدهم يقول له أنّ أمّه ماتت، وأنّه يحتاج الآن للمال، كي يحضر الجنائز.

قال «رافائيل» والشرّ في عينيه:

– هل رأيت هذا الأفاق اللثيم؟، قال له أمامي نفس الكلام الشهر الماضي، إنّه استغلال الطّيّبين وأصحاب القلوب البيضاء النّاصعة، يكذبون عليهم، ولا يعيدون لهم شيئاً، ما داموا لم يطالبوا به، ولن يطالبوا به، لأنّ صفاتهم النفسيّة تأبى عليهم ذلك.

ثمّ هبّ واقفاً قائلاً بتملّمِلِ:

– هل تعرف أنّ لواء «ناحال» يسمّونه هنا في جيش الدفاع الإسرائيليّ «لواء الجهلة»؟، لا لشيء سوى لأنّه أنشأ من أجل دمج الفلاحين والمزارعين في الجيش، في عام 1948.

هالي ما سمعت، ثمّ تذكّرت أحد «الأشكيناز» الذي أرسل أحد الجنود من «الفلاشا»، ليشتري له السّجائر الأسبوع الماضي فقط، كان المسكين يركض مسرعاً ليلاً للطلب، مثل عبد من عبيد «أمريكا» في القرن التّاسع عشر.

أخبرني أبي أنَّ الْرَّبَّ «إِلَوَهِيْم» خلقنا كما ورد في التّوراة متساوين أبناء آدم، وحَتَّى المشكّل العويسن الذي بيننا وبين العرب، سببه أرض «كتعان» التي هي في الأصل أرضنا التي وُعدنا بها.

أمّا ما حدث منذ أسبوعين، فقد كان على درجة عالية من الخطورة.

كنت مع «عزا» حين رأينا أحد الضّبّاط القادمين للتوّ من «فرنسا»، يصق على أحد «الفلاشا»، أمام زملائه المحّدين والمحّنّدات، حين تكلّم باللغة الأمهرية، قائلاً في تكبير ونرجسية واضحتين:

– منذ تركناكم وأنتم على حالكم، لقطاء، عرايا، حثالى وستمتوون حثالى، هل ما زلتם تتحدّثون لغة البرابرة؟.

ثم صفعه وسط ذهول الجميع:

– أغرب عنّي أيّها القدر، نعل حذائي الأسود أطهر من وجهك الكريه.

وبصق عليه ثمّ بصق على الأرض، وانصرف يسبّ حتّى اختفى صوته.

بعد ثلاثة أيام سمعنا أنه انتحر كمداً، بعدما رفع شكوى ضدّ الضّبّاط الذي أهانه دون أن يجد له منصفاً، ولا أحد تدخلّ، كانّ المسألة ليست بالأولويّة القصوى أو بالشّأن الهامّ، وغيره بالعشرات، لكن تختلف ردود أفعالهم من مجّند لآخر، كما تختلف درجات التّحسّس تجاه كلّ مكوّن من مكوّنات المجتمع اليهوديّ.

يختلّ «الفلاشا» أدن سلّم الرّفض والّبند الإجتماعيّ من طرف «الأشكيناز»، الذين يعتبرون أنفسهم مؤسّسي الدّولة الأقوياء المترّبون عن الخطأ، ولهم مطلق الإنفراد بحقّ اعتلاء هرم المجتمع، دون غيرهم، من باقي التّقسيمات العرقيّة في شغل أيّ منصب، بل حتّى جنودنا من البدو؛ يعتبرونهم حيوانات، ويستغرونهم سراً.

هنا جيش الدّفاع الإسرائيليّ، هنا هيبة إسرائيل، وهنا عارها الذي تحاول عبّاً إخفائه بشّتى الطرق.

(19)

ناديه «بابلو»، كما أراد هو ويرغب، محتفظا باسمه الحقيقى «إدواردو تسيحاي» للرسوميات.

متواضع جداً عكس ما يظهر عليه، لمن يلمس فيه الحب والصدق، لكن ما يحدث في جيش الدفاع الإسرائيلي من عنصرية وتعصب؛ هو ما دفعه لاتخاذ موقف دفاعي، ضد كل من يقترب منه أو يحاول.

عرفت هذا وتأكدت منه بعد مدة من الزمن، كانت كفيلة بتبني نظرة جديدة، تختلف عن نظري الأولى حين وضع قدمه لأول مرة في الغرفة.

بدأ صديقنا «بابلو» يتحلى عن تحفظه شيئاً فشيئاً، كلما اقتربنا منه أكثر، وكلما عاملناه بود ولطف واحترام، كأنه يكتشفنا مثلما يكتشف المغامرون أراضٍ جديدة.

بدأنا نأخذه معنا إلى المطعم حين استأنس بنا تماماً، بعدما كان يأكل مع أبناء جلدته فقط، ويجالسهم دون غيرهم من المجندين الآخرين.

بارد هو اليوم الذي دخلنا فيه لنادي الإستراحة، كأيّ يوم من أيام شهر ديسمبر الباردة، بعد غروب الشمس، بغيتنا الدفء المفتقد منذ الصيف، كعادتنا دائماً التي اكتسبناها قبل شهر فقط؛ نتوجه لإحدى طاولات «البلياردو»، رياضة البلاط كما يسمونها هنا، للترفيه، ولخوض مستوى التوتر والإرهاق الجسديّ الذي أخذ منا كلّ مأخذ.

كانت الطاولة مشغولة فانتظرنا حتى تفرغ، وجلسنا في إحدى الزوايا نتجاذب أطراف الحديث، بينما شدت اللعبة «بابلو»، فبقي متسمراً ينظر إلى أحدهم وهو يتوجه لضرب الكرة البيضاء على مجموعة من الكرات وضعت على شكل مثلث، وحين أخطأ، بقص على الأرض في غطسة وتكبر وهو ينظر مباشرة إلى صديقنا «بابلو» في حقد، مما أثار أعصاب هذا الأخير، ولما أراد العودة لمكاننا في الزاوية متخفياً الشجار، إعتقد المجنّد الآخر أنه خائف منه، فتسلى خلفه يريد ضربه بعصا «البلياردو» أمام أصدقائه، الذين سرعان ما استفربّتني نظراتهم، وجدت نفسي لا شعورياً أتدخل دفاعاً عن شرف صديقنا الذي يهان أمامنا، فطلبت من المجنّد المهدوء والإبعاد عن المشاكل، لكنه دفعني لأسقط أرضاً وتسقط معه نظاري.

ليس لي في المشاجرات، لكن على الدّم في عروقي فجأة لما احتجّر صديقي أمامي، لسوداد بشرته، وأراد المعندي ضربني في تحدٍ صارخٍ ومفضوحٍ لكلِّ القوانين الدّاخليّة، ولجميع المحنّدين دون استثناء، فنهضت ولكمته في حركة لم يكن يتوقعها، ولا أعرف ما الذي أتى خلده حين رأني بنظارات طبّية وجسم ضعيف نسبياً!.

تدخل «رفائيل» في الثانية المناسبة بضربات سريعة ودقيقة موجّهة للوجه والكبد، خرّ على إثرها فاقد الوعي، ولما هجم صديقه بإحدى الزّجاجات؛ بادره بسلسلة لكمات أدتْ لتريف حادٍ في الأنف، وتورّم تلوّن بالأزرق في العين اليسرى، الشّيء الذي أجرِ الآخرين على التّراجع، والإرباك بادِ عليهم، ثمّ خرجنَا وتركتناهم يحاولون إسعافه بقطع من الجليد.

في تلك اللّيلة، حكى لنا قصّته، ويا ليته ما حكى، رأيتَ الألم مجسداً في تعبيرات وجهه ونبرات صوته، ألم تراكم وتعاظم عبر أعوام من الأسى والّنعاشرة والمعاناة.

أتى هارباً مع عائلته من الحرب الأهلية السودانية، التي قامت في الخامس عشر أفريل 2023، أسرته المكونة من أمّه «عزيزة»، وأخته «سارة»، ذات الإثنتي عشرة ربيعاً، وأخوه الصّغير «زيميريا» ذو السّبع سنوات.

«بابلو» لم يسعفه الحظّ لإكمال تعليمه، فقد تسرّب باكراً من المدرسة في السنة الرابعة من التعليم الإبتدائي، وعمل في الأسواق باعماً لكلِّ شيء، كي يعيش أسرته، التي بدأت أنفاس الجوع تنهشها، بعدما ذهب أبوه ضحية حادث ميت في العمل، ورفض صاحب الشّغل تحمل مسؤوليّته، بل بلغت به الجرأة والندالة أن يتتصّل من كلِّ صلة تربطه به، حتّى أنه ادعى عدم معرفته به أصلاً، وأنّه لم يتبنّى عمّالاً منذ أكثر من أربع سنوات، وزادت الحرب التي اندلعت دون سابق إنذار الطّين بلّة، فقد اضطُرّوا للنّزوح رفقة حبرائهم من أحياء في العاصمة «الخرطوم»، ثمّ زاد الوضع اشتعالاً وتراجعاً، حتّى بات الجميع يفكّر في مغادرة البلاد، فقرّرت أمّه الإنّقال لمدن أخرى لا تصلها المعارك مبدئياً، لكن حين احتمم الصراع في المناطق الآمنة، وتدخلت الطّائرات الحربيّة؛ حاولوا الوصول لمدينة «الفasher»، التي تبعد عن العاصمة بما يقارب ثمانمائة كيلومتر، لإيجاد بيئة ملائمة تماماً للعيش، و بعيدة جداً عن أتون الحرب، ثمّ فكّروا في اللجوء إلى «تشاد»، غير أنه نفد كلُّ ما كان معهم من مال، فقد اضطُرّوا لتقديم رشوات للمرور في حواجز على الطرقات، رشوات زهيدة من أوراق مالية كانوا يذخرونها ليوم الشّدة، وهم الفقراء البائسون الذين إن وجدوا طعاماً للغداء، باتوا يتضورون جوعاً إلى مساء اليوم الموالي، وليس هذا فحسب، بل كادت أخته أن تُختطف أمام عينيه، في أحد الحواجز المزيفة، لولا لطف الربّ، ثمّ بدأ تفشي الأوبئة، بسبب غياب البنية التحتية الضروريّة لعيشة الناس، إضافة إلى المجاعة، بسبب توجيه كلِّ شيء للمجهود الحربي، وترك المديّنين يواجهون مصيرهم المحظوم.

كانوا لا ينامون لأيام متّوالية حشية وقوع هجوم عليهم، حتّى مرضت أمّه بارتفاع الضّغط، ووصلت أخته لاضطرابات عصبية، فكانت تبدو مجذونة للنّاظرين.

هذا هو «بابلو»، الذي صنع منه الفقر وال الحرب رجالاً، وليس ككل الرجال، أول صديق حميمٍ لي من «الفالشا»، عرفه أحناً في 2023، بعدما عرفته «الخرطوم» مولوداً في 2001، وعرفته «السودان» يتيمًا في 2011، وعرفه جنوب «تل أبيب» لاجئاً في ذات السنة التي استوطن فيها فؤادي.

عند شروق شمس اليوم المولاي؛ كناً أمام محكمة عسكرية، أو هكذا أو همونا، نواجهه كما لم يستطع عقلي تقبّلها أو استيعاها، أبرزها نشر الذّعر بين الجنود، واستعمال العنف ضد المجندين في القاعدة، وتدمير ممتلكات جيش الدفاع الإسرائيلي، أي بين ليلة وضحاها غدرونا نشكّل خطرًا مميتًا على الآخرين، وصرنا نتساوى مع دواعش «حماس»، وصاحب الشّكوى هو «آيزنکوف»، المجنّد الذي أُسقطني أرضاً، حين دفعني بكل قوّته، مع صديقه صاحب الرّجاجة.

كان يوشوش للضّابط في حقد عجيب، ذكرني بكتاب الثانوية «دانيايل أدموني»، ثم ابتسم الضّابط ابتسامة نمت عن خبث شديد، لتكون عقوبتنا في الأخير جميعاً هي العمل في مطابخ القاعدة، مدة عشرة أيام، بعدما سحبوا منا أسلحتنا، وجمّدوا «بطاقة التّحوم»، وهي بطاقة ائتمان افتراضية عملتها التّحوم فقط، التي تمنع بعدد معين، وبها يمكن للمجندين الجدد، أو الجنود الذين يخدمون بالفعل في الجيش، شراء معدّات شخصية لأنفسهم، من أجل تحسين ظروف حياتهم أثناء الخدمة هنا.

همس لي «رفائيل»:

- هل رأيت؟، الضّابط ابن خالته، «نيتاي»، أقدر من جرذ، لو لا الحرب لكان في السّجن الآن، نقضى فترة تصل إلى خمس أو سبع سنوات، لقد كيّفوا لنا تكمّلاً ثقيلة، كفيلة بتدمير مستقبل أيّ مجند شاب، ومع ذلك، فإنّهم في حاجة ماسّة لجميع المجندين، وربما سيفرون السّجون، إذا تدهور الوضع على الجبهة.

أثار «آيزنکوف» الشّعراً حين أخذنا مزهوّاً بانتصاره إلى المطعم، كأنّه يسوق أسرى حرب أمامه، أحسست أنّ هذا الشّيطان يستطيع أن يفعل أيّ شيء، دون أدنى اهتمام للأخلاق أو للدين، كان يوشوش كامرأة عجوز شنطاء لرئيس الطّهاء، الذي ابتسم ابتسامة خبيثة بدوره، لم أفهم بادئاً سرّ هذه الإبتسامة، التي تكون مباشرة بعد الوشوشة، غير أنّي فهمت كلّ شيء لما وضعوا أمامي صناديق البطاطا لتقشيرها، عمل متعب للأعصاب، وشاقّ، لأنّ المطعم يشتعل طول النّهار لتحضير مئات الوجبات، وعمّاله لا يرتاحون أبداً، وإذا احتاجونا من مطاعم أخرى ذهباً إليهم، المهمّ ألاّ نرتح بأيّ شكل من الأشكال.

أما «بابلو»، فكان عقابه تقديم الوجبات للجنود، وأرغموا «رفائيل» على التّنقل طوال الوقت من مقلاة لأنّه، ومن قدر لأنّه، في القلي، وقطع الطّماطم والخسّ، وغسل الفواكه، وأنّه كان مجبراً على تجّرع ريقه، كي لا يقتل رئيس الطّهاء، الذي كان حريصاً كلّ الحرص على جعله يعاني، بكلّ ما في الكلمة من معنى وأبعاد.

لم أر الشّيّطان «آيزنکوف» بعد ذلك في أيّ مكان في «شيزافون»، تمنّيت أن ألقّي عليه قبلة نووية فيتبرّح، لكنّ «شلومو» اعتبر المسألة أخطر بكثير مما حدث، وأنّه سيكون غريبي اللّدود، الذي يجب أن أحسب له ألف حساب.

حين انتهت فترة العقوبة التي بدت غريبة لنا، تم الإحتفاظ بصديقنا «بابلو» كمساعد لرئيس الطهاة، وأوقفوه نهائياً من مسار التدريب السابق، وبقي معنا في الغرفة، حينئذ وبالدليل القاطع، إقتنعت فعلاً أن هناك أشياء تجري في الخفاء في إسرائيل، وأن «شلومو» يعرف الكثير والكثير.

تغير شعوري مائة وثمانين درجة، وغدت المغادرة من هنا على الأقل ليومين أو ثلاثة، شغلي الشاغل، بعدهما أصابني اكتئاب وإحباط شديدين.

إنها المرة الأولى التي أعقاب فيها في الجيش منذ انضمami إليه في الرابع والعشرين من أكتوبر الماضي، تاريخ تحنيدي رسمي في سلاح المدرعات.

لقد رأيت الظلم بعينه في جيش الدفاع الإسرائيلي.

(20)

«من يتواجد داخل الدبّابة سينتصر»، هذا هو شعارنا الدائم في قاعدة «شيزافون» للمدرّعات، وخاصة الذين يستعدّون بعد أقلّ من عام من الان، ليكونوا قادة الكوبرا السوداء.

كان الحظّ حليفي حين تمكّنت من التّدريب على النّسخة الرابعة من «المير كافا»، لأنّه بسبب الحرب؛ علمت أنّ مجموعات أخرى تدرّبت على النّسخة الثانية منها، وآخرون على النّسخة الثالثة، وأنّ الجيش يعرف نصاً فظيعاً في مخزون النّسخة الرابعة، بسبب الإصابات التي لحقت قوّاتنا في «غزة».

بدأت الأخبار تصلنا تباعاً، ونحن على بعد مائة كيلومتر من بؤرة الموت الواقعة خلف السياج الفاصل.

لقد دمّرت «كتائب القسام» أغلبها، كليّاً، أو أطعّبتها بشكل يجعلها لا تصلح للقتال.

أنا الآن مدفوعي، أنا الآن المسؤول الأول مؤقتاً بعد القائد عن شيء جهّنمي في العمود الفقريّ لجيش الدفاع الإسرائيليّ؛ يسمى المدفع الرئيسي، من عيار مائة وعشرين ميليمتراً، بمقدوره إطلاق من ست إلى عشر قذائف في الدقيقة الواحدة، على بعد خمسة كيلومترات، فظيع ما يبدي كلّ الفظاعة وجبار كلّ الجبروت، هو مدفع أملس أي مصقول من الداخل، يرتكز على آلية «الجيروسكوب»، التي تمنحه القدرة على الحفاظ على الهدف أثناء التّنقل، ولو على أرض وعرة، وتضاريس صعبة، ليس بمقدور أيّة مركبة أخرى السير عليها، ويسمح له بتحقيق إصابة عالية جداً مباشرة من القذيفة الأولى، هذه الدقة تصنّف كعامل استراتيجيّ، فهي الفاصل في القضاء على العدوّ في التّوالي الأولى، قبل أن يتّخذ احتياطاته، بالهرب أو بالارتداد التّارميّ.

و«الجيروسكوب» هو عجلة صغيرة دوّارة على الجذع، موجودة في كلّ دبّابات العالم، تقاوم بصورة عجيبة كلّ تغيير لاتّجاهها، نظراً للقوّة التي يولّدها هذا الدوران.

كما أستطيع التحكّم في كامل حركة برج الدبّابة، فأحرّكه ثلاثة وستين درجة، ومدفع رشاش من عيار 7.62 مم، لإبادة مشاة العدوّ، لأنّنا نحن من نحمي مشاتنا، ومحمّيون نحن بدورنا بالداخل، نستطيع ضرب العدوّ بسمّ فتاك، دون أن تكون له القدرة على النّيل منّا.

فظيع ما يبدي كلّ الفظاعة، لأنّي أستطيع إطلاق كافة أنواع القذائف الفتّاك المعروفة، أبرزها المضادة للدبّابات حارقة الدروع «هاتزاف»، والمتعلّدة الأغراض المعروفة باسم «شقاتن النّعمان»، والقذائف

الغوفوروية، وحتى القذائف المستخدمة في دول «الناتو»، في نظام تلقييم آليًّا مذهل، يحوي عشر قذائف في مخزن خاص، ينقل إليه «المحمل» -على غرار «رفائيل»- ما يأمر به القائد، من مخزن عامًّا مغلّف بحاويات مقاومة للحرق، يستطيع حمل من ثمان وأربعين إلى أربع وستين قذيفة.

وهناك مدفع هاون ثانويٌّ خلفيٌّ عيار 60 مم؛ يصل مداه إلى أكثر من كيلومترتين ونصف، ومدفع رشاش ثقيل يتحكم به القائد، يتواجد على السطح من عيار 12.7 مم؛ يستطيع تحديد مروحة قتالية معادية بسهولة تامة.

تعد «ميركافا» دبابة قتال رئيسة، إسرائيلية الفكره والتّصنيع، بعدها تعاون جيش الدفاع مع الجيش البريطاني في السّنّينيات من القرن المنصرم لصناعة دبابة «تشيفتن»، لكن خاب أملنا حين تعرّضت «بريطانيا» لضغط من الدول العربية، من أجل حرماننا من حقنا في التّسليح، فاعتمدنا على أنفسنا لإنتاج أول دبابة إسرائيلية خالصة مائة بملائة، في السّبعينيات من القرن الماضي، ليعرف النّور أول نموذج منها في 1979، ثم توالت النّماذج، إلى أن بدأ العمل في منتصف التّسعينيات على النّموذج الرابع، ليولد رسمياً في 2003، ووجهت الأجيال القدّيمة على غرار «ميركافا 1» و«ميركافا 2» و«ميركافا 3» للتدريب في القواعد العسكرية.

تتميز «ميركافا 4» بانخفاضها النّسبيّ، كي لا تلفت الأنّظار من بعيد، وشكلها نصف البيضويّ، حيث يتجلّى شكل البيضة من الأمام عند المدفع، يمكنها حمل ستة جنود وثلاث نقالات لجنود مصابين، أي وسيلة إجلاء آمنة، بباب وضع في الخلف، كميّزة تكتيكيّة لضمان سلامة الدّخول والخروج، تم التّركيز فيها أساساً على التّكامل المتناغم، بين القوّة التّارّية وحماية الأفراد، والتّنقّل السّلس على التّضاريس المختلفة، هذه المعادلة الصّعبّة يبلغ وزنها خمس وستون طنّا، يدفعها محرك توربينيّ نفاث، بمخزن يتّسع لألف وأربعينات لتر من وقود «الديزل»، بقوّة هائلة تبلغ ألفاً وخمسين ألفاً وخمسمائة حصان بخاريّ، لتحصل على سرعة تتراوح من خمس وخمسين إلى خمس وستين كيلومتراً في السّاعة؛ حسب نوعيّة المسار الذي تسلكه، ويقع المحرك في الأمام لضمان حماية ذات بعد آخر للجنود، فيحول بينهم وبين قذائف العدوّ وصواريّخه، محققاً تسارعاً يبلغ اثنين وثلاثين كيلومتراً في السّاعة، في ثلاني ثوانٍ فقط؛ ضامناً لدى عمليّات يصل إلى خمسين كيلومتر، مع محرك إضافيّ لتشغيل النّظام والأجهزة الأخرى أثناء التّوقّف، مما يسمح بزيادة التّخفّي، لأنّ المحرك المشغّل سيصدر صوتاً يمكن أن يسمعه العدوّ، فيسلّب منا عنصر المفاجأة.

يبلغ طول النّسخة الرابعة من «ميركافا» تسعه أمتار إذا حسبنا ماسورة المدفع؛ وسبعين فاصل ست أمتار كطول حقيقيّ، وعرض يصل إلى ثلاث فاصل اثنين وسبعين متراً، وارتفاع اثنين فاصل ستة أمتار، تتنقل على جنّزير بطول أربع فاصل ثمان وسبعين متراً؛ مما يسمح باحتياز خنادق عرضها أقلّ من ثلاثة أمتار ونصف، وعوائق دون ارتفاع المتّر الواحد، معلّق على ستّ عجلات حديديّة على الأرض، إضافة إلى عجلتين مسانديتين لها، واحدة في الأمام والأخرى في الخلف، مهمّتهما رفع الجنّزير، ليسهل تجاوز العوائق.

كلّ عجلة داخل الجنّزير هي في الأصل معلقة فيه، وليس موضعه داخله فقط كما تبدو، أو كما في دبابة «رينو» القدّيمة التي صُنعت في 1917؛ الشّيء الذي يسمح بالتخّلص من الإهتزازات المتولّدة أثناء السّير،

مثل كلّ دبابات العالم، فكلّما تزيد السرعة يزيد الإهتزاز الناتج عنها، مما يرهق الطاقم، ويسترف قواهم العصبية، وبالتالي تنقص فاعليتهم في القتال.

مجميّة جيّدا ضدّ الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية، ومن الحريق، إذ يكتشف بمستشعرات، ويُحتمد تلقائياً، منتجة من طرف شركة «باراك زوهار»، مع نظام تهوية وتدفئة رفع المستوى، يسمح بتوزيع الأكسجين، وسحب غاز ثاني أكسيد الكربون في سلاسة، وهناك مستشعرات أخرى تحدد ما إذا كانت الدبابة مستهدفة ليزرياً، فتطلق نافثات الدخان للتعمية عليها، إضافة إلى كونها مصّنة ضدّ الألغام الأرضية، باختلاف أنواعها، وضدّ القذائف والرصاص المضاد للدروع، بدرع خاصّ، خلطة سرية من البلاستيك والمعدن والسيراميك، ذي طبقات تفصل بينهم فراغات، يمكن استبداله أو ترقيته، وظيفة الطبقة الأولى التفاعلية تشتت قوّة المقدّوف أو عرقلة رأسه، مما يؤثّر على إمكانية اختراقه للهيكل، كما يمكن استبدال قطعه المتضرّرة بسهولة تامة، إضافة إلى ما يسمّى «معطف الريح» أو «تروفي»، وهو منظومة دفاع ثوريّة ضدّ الصواريخ المضادة للدبّابات، تقوم على رادار أفقي، يكشف كلّ الأجسام ذات السرعات العالية، مثل الصواريخ المنطلقة نحو الدبّابة من مسافة بعيدة، بزاوية مفتوحة كاملة، مع كمبيوتر يحسب إتجاه الجسم وسرعته ومساره، وإذا اعتبره تهدّداً تعامل معه فوراً، إذ يعطي الأمر وحده، دون تدخل بشريّ، لنصّة من منصّي الاعتراف المتواجدة على جانبي الدبّابة، لإطلاق شحنة كرات معدنية، تسبّب في انفجاره قبل وصوله إلى بدن الدبّابة.

كانت «أمان» تصرّ على بثّ أخبار تفوقنا كي لا تترعرع الروح المعنوية للمجنّدين، لكنّ صديقي «شلومو» يؤكّد أنّ دواعش «حماس» أصبحوا خطرين جداً علينا أكثر من أيّ وقت سابق، لقد أصبح باستطاعتهم الآن بسهولة تامة تدمير أيّة دبّابة، بقذيفة بسيطة، تطلق من على الكتف تسمّى «ياسين 105»، هذه القذيفة الشيطانية تؤجّج نيراناً هائلة بانفجارها، تأكل حتى طلاء الحديد.

– شعارنا الذي نتغّنى به لم تعد له أيّة صلاحية.

وللأسف أصدقه، لأنّه يعرف الكثير والكثير.

كان باقي الأصدقاء مفروعين بين واثق ومكذب.

هل يمكن أن تدمر «الميركافا» التي تكلّف ستة ملايين دولار بسيط؟، هل تخطي العدوّ مستويات تحصيناتنا المختلفة بهذه السهولة؟، «معطف الريح»؟، أم أنّ الطّاقيم لا يمكنه رؤية المهاجمين، رغم كلّ ما لديهم من أجهزة؟، لديهم رشاش يتحكم فيه المدفعيّ من الدّاخل، يكفي أن يضغط على الزناد ليطلق الموت من فوهته، أم هي المفاجأة التي تسلّل التّفكير؟.

من غير المنطقيّ أن أرى تهدّداً أماميّ ولا أفعل شيئاً، أتر كه حتّى يفضي علينا؟.

إنّ أكثر ما أخشاه هو أنّ أموت محترقاً داخل ما أعتبره قوّة مصّنة من الفولاذ المقوّي، لا أقوى على تحمل تلك الدّقائق التي تأكل النار الجسم وروحه داخله، وإذا خيّروني بين الموت حرقاً والموت ممزقاً، لاخترت الثاني، على الأقلّ يكون الإنقال إلى ما بعد الموت سريعاً جداً، في أجزاء من الثانية الواحدة.

تحوي الدبّابة على جهاز متابعة تلفزيونيّ نهاريّ وحراريّ ليليّ، مع باحث ليرزيّ عن الأهداف، وحاسب للمسافات، مع جهاز بانوراميّ متظّور، وتمّ إدخال الذّكاء الإصطناعيّ كنراع مساعدة، فيتعامل مع الأهداف المكتشفة بسرعة استراتيجية، بل يبحث في إمكانية تبادل الأهداف للتعامل الأفضل، ويسهّل الاتصال بالوحدات القتالية الأخرى، لتوفير مزيد من الدّعم النّاريّ، أو طلب مساعدة فرق الإسعاف، أو تلقي أوامر من قيادات عليا.

يشنّي «عزرا» حين ألقاه على الذّكاء الإصطناعيّ، ويتميّز لو يتحكم في كلّ الدبّابة، وحين أسأله عن عمله، ساعتها يقول أنّه من المفروض أن يكون مدفوعاً، أمّا «رفائيل» فيعتبر القناعة كثراً لا يفني.

ورغم كوني مدفوعاً أتحكم في مصير أعدائي بكبسة زرٍ؛ فإنّي أنظر لكلّ اختصاصات الدبّابة شيئاً واحداً، هو عمل كلّ الطّاقم، مجموعة كاملة في أدوار محدّدة، وتنسيق مضبوط وانضباط صارم، هذه هي معادلة الحياة في «المير كافاً»، التي يجب أن نصون كلّ قطعها لتصون هي حياتنا، نحن نشكّل فريقاً، يكفي أن يخطئ أحدهنا خطأً بسيطاً، وبسيطاً جداً ليموت الجميع دون استثناء، العدو لا يفرق بين اختصاصاتنا، ولا يهمه أصلّاً ما عملنا هنا، ولا من أين جئنا، نحن بالنسبة إليه ثقل فريسة يجب اصطيادها بقدرتنا التّرافقية، ليغذّي تعطشه للدماء.

هذه هي أبرز النقاط التي أكّد عليها الملازم «ديميترى»، في حديثه المطول لنا في أول يوم في الدّورة الثانية، التي كنت أنتظرها بفارغ صبر.

تغير «عزرا» ولا أعرف لماذا تغيّر، فقد أصبح يتحسّن مني ويتهبّ، شكّلت أنّي ربما أخطأت في حقّه دون قصد، غير أنّ «شلومو» أو صانى ألاّ أغير للموضوع اهتماماً، فهذه هي طبيعة «عزرا»، يغار كونه وجّه للسيّاقة، وهو الذي بذل كلّ ما في وسعه ليكون مدفوعاً مثلّي.

في اعتقاد «عزرا» أنّي لم أحصل على مهنة «المدفوعيّ» بجهدي الخاصّ، بل طلبت تدخل الملازم «ديميترى»، الذي توسّط لي مع حارنا السّيّد «ريكاردو»، وحذفوا إسمه وأضعين إسمى مكانه.

أيّ عاقل يصدق هذه التّرهات؟، لقد تأخّر توجيهه ثلاثة أيام كاملة بعدي، فكيف أكون قد حلّت مكانه؟.

لم أشأ الدّفاع عن نفسي، ولم يهمن عليّ أن أواجهه، فأرى الأسف في عينيه لما يتيقّن الحقيقة، بل تركت الزّمن يعالج كلّ شيء.

لقد سلب مني -دون أن يشعر- قوّة الرّد على صديق.

(21)

كان الوقت عصراً حين بدأت تتردد شائعات عن وجود مجندين مقتولين غير بعيد عن قاعدتنا العسكرية، وبدت المسألة دقيقة حين اتهمت «كتائب القسام» بتصفية هؤلاء، على اعتبار أنهم رفضوا التجسس لصالح هؤلاء المخربين، ولا سيما وأن «شيزافون» قاعدة مركزية للمدرّعات، يتم فيها تجريب آخر النسخ من الدبابات وحاملات الجنود، ثم قفز إلى ذهني أن المكان المحيط بنا خطير جدّاً، وأن من نعم الرب على أن منعوني من الخروج، لكن تذكرت «بابلو» الذي كان يتسلل من هنا كثيراً، معتمدأ على أصدقائه في الحراسة، فلو كان الأمر يشكل تحديداً حقيقياً لنا لقتلوه هو أيضاً.

– العدوّ أعمى، لا يفرق بين هذا وذاك.

هذا ما يقوله الملازم «ديميترى».

كنت في سريري على وشك النوم، لما راودني سؤال غريب في إلحاد أغرب، أين يذهب «بابلو» حين يتسلل من القاعدة؟.

في الغد كانت الشائعات تترسّب أكثر عند المجندين والمجندات الخائفين من مغادرة «شيزافون» في نهاية الأسبوع، خاصة ونحن الآن في شهر ديسمبر، والقاعدة بدأت تستقبل مجندين ومجندات يلتحقون بالجيش لأول مرة في حياتهم، ومنهم من لا يعرف شيئاً في الحياة خارج المترّل، أما في المطعم، فنشأ جدال حاد بين إحدى المجندات، التي قالت أن الجن هم من يقتلون جنودنا ليلاً، وبين أحد «الأشكيناز»، الذي راح يتهمها بمارسات سفلية، خاصة وأنّها من «السفرديم»، بل وضعها في موقف لا تُحسد عليه حين خاطبها بالحرف الواحد أمام الجميع:

– كيف عرفت بأمر الجنّ إذا كنت لا تمارسين السحر؟، يبدو أنك كنت من ذوي الشأن في «بولندا».

لينفجر الجميع ضاحكين وتنهار هي بالبكاء.

ثم اتهم أحدهم البدو العرب، لترتفع أصواتهم بين باحث عن الحقيقة، وبين باحث عن تلفيق الإتهامات، وبين هذا وذاك؛ لا موقف رسمي يتّخذ، لأنّ الذين قتلوا مجرّد كلاب مشرّدة.

بعد يومين، أرانا أحد المجندين فيديو بثّه «كتائب القسام»، يُظهر تدمير دبابة «مير كافا 4» بواسطة قذيفة «ياسين 105»، وقبل لحظة الإطلاق؛ أوقفوا الفيديو واضعين مثلثاً أحمر فوقها، كعلامة تؤشر أنّها هي المعنية بالتلذيم، ثمّ في أقلّ من ثانية... كان كلّ شيء كتلة من اللّهب.

لقد خرج العدوّ من مبني على بعد أقلّ من مائة متر، وأطلق القذيفة من نافذة الطّابق الأوّل، في دقة واحترافية، كأنّه ينتمي للقوّات الخاصة.

أولّ مرّة أرى هذه التّوّعية من الفيديوهات، وأولّ مرّة أرى هؤلاء المقاتلين، «دواعش حماس» كما يردّ النّاطق الرّسميّ باسم جيش الدفاع الإسرائيليّ «أفيحاي أدرعي».

كانت «المير كافا» متوقّفة أمام سيّارتين إحداهما بيضاء، ثمّ انفجرت، دون أن يفيدها شيء من التّحصينات والتّدريعات التي حشوّا أدمنتنا بها، وأقعنونا أنّها آمنة تماماً أكثر من حصن أميّ.

في نفس الفيديو خرج مقاتل آخر من زاوية الشّارع، فيفجر دبابة ثانية على بعد أقلّ من مائة وخمسين متراً، كانت متوقّفة مع دبابة أخرى، وقبل لحظة الإطلاق، أوقفوا الفيديو، واضعين مثلثاً أحمر كذلك كعلامة للتّلذيم، وتصبح «المير كافا» كتلة من اللّهب، كالي سبقتها، ثمّ ظهر مقاتل آخر، أطلق القذيفة على دبابة ثالثة متّحّركة، بعد وضع مثلث أحمر عليها.

إذن ما يقال كإشعاعات صحيح كلّ الصّحة، فخر الصّناعات الإسرائيليّة التي تكلّف ستة ملايين دولار أمريكيّ أصبحت ولا شيء، أمام هؤلاء المقاتلين الذين يستطيعون إرسال أربعة جنود منّا على الأقلّ، دفعة واحدة إلى الدّار الآخرة، بكبسة زرّ من على الكتف، ثمّ يظهرون في توثيق مصوّر وعليهم إشارة مثلث أحمر، في آخر صورة تذكاريّة تجمعهم في هذا العالم.

لقد بدا الأمر مفزعًا وفظيعًا للدرجة لم يستطع عقلي تقبّلها، ذكرّنا «شلومو» بما سمعه كإشعاعات حول إقحام المرأة في القتال، لتعويض النّقص في الرجال، لم أستسغ ذلك؛ إذ كيف يعقل أن تقود امرأة دبابة قتالية، هناك دبابات إسعاف، ودبابات إمداد، ودبابات جسور متّحّركة، إذا أرادوا فعلًا إقحام المرأة، فيكفي أن يكون لديها ملف طبيّ رقم 97 أو 82 لتكون بيننا، أمّا أن تزاحم الرجال، وربما تلتقي الأمر منها، فذلك غير مقبول بتاتاً، وحتى حانحاتنا ترفضه رفضاً قاطعاً دون نقاش، يحيّزون لها القتال وحدها ويحميها الرجل، أمّا هو فيعتبر المطبخ مكانها الأصليّ، بينما يلاقي «رفائيل» مشكلة حقيقة - كما يزعم - في إصال فكرة ما لأخته التي تدرس في الجامعة، فكيف يوصل فكرة إطلاق النار على المدف لامرأة غريبة تجلس أمامه؟.

ل لكنّ «عزرا» تعجبه الفكرة ودينه الكتيبة النّسوية «كاراكال 33»، التي يضرب بها المثل في نجاح المرأة العسكريّ، التي تأسّست في 2004، وأثبتت جدارتها في حمّة الحدود في 2012، عندما تمّ استدعاء قوّة من الكتيبة إلى مكان الهجوم، الذي نفّذه مخربون ضدّ قوّة من سلاح المدفعيّ، كانت تقوم بتأمين الأعمال على الحدود المصريّة، في منطقة جبل «حاريف».

وفي 2014، ضد مهربين حاولوا نقل مليونا وخمسمائة ألف شيشكل إلى خارج إسرائيل، وهي الوحيدة التي لها سرية دبابات خاصة بها، فلماذا لا يجعلهن يختلطن مع المجندين؟

ما يمنع أن تكون المرأة مدفعة أو محملة قدائف أو سائقه أو حتى قائدة علينا؟، ما دامت تسجم مع الطاقم، وتطبق الأوامر دون تردد أو مماطلة، والقتال قتال، وما دامت تحمل سلاحاً؛ فلماذا لا تقاتل في دبابة؟، على الأقل ستكون محمية داخلها.

وهنا ثار «رافائيل»:

- هراء، عن أيّة حماية تتحذّرون؟، ألا تلاحظون أننا رجعنا لنقطة الصفر؟، ألم تروا الفيديو؟، إنّها تشتعل مثل الفرن يا أغبياء، أنظروا جيداً، كتلة هب يُشوّى كلّ شيء داخلها ولا أدنى فرصة للهرب.

ثم راح يشرح باستهزاء وهو يتمايل أمامنا:

- وزن الدبابة وطولها وارتفاعها وطول الجنزير والمحرك ذو الألف والخمسين حصان... كلّ هذا كلام فارغ، قذيفة واحدة تقدم الأسطورة التي حشوا أدمنغتنا بها، وأقنعونا أنّ لا شيء يستطيع تدميرها.

وغادرنا وهو يحك قبضتيه كعادته حين يغضب، يعكّر مزاجه ألف عفريت، تاركا الجميع واجهين، يتبادلون النّظرات، وفي أعين كلّ واحد منّا مائة سؤال، وأحسست بعرق بارد يغمرني لأول مرّة، نحن ندور في حلقة مفرغة، هذه الدبابة التي أقنعونا أنّها حصن رومايني حصين، لن تحمي أحداً منّا من الآن فصاعداً، مجنداً كان أم مجندة.

من الآن فصاعداً... «من يتواجد داخل الدبابة سيحترق».

عادة ما نجد «بابلو» في المطعم كلّما ذهبنا هناك لتناول الفطور أو الغداء أو العشاء، أصبحت المنطقة وأضحي الآن هو المتحكم في الأمور، وخاصة بعد الساعة التاسعة والنصف مساء حين يغادر الباقيون، وكثيراً ما تلتقي الشّلة حول إحدى الطاولات، نتجاذب أطراف الحديث حول آخر التطورات.

كنا في نهاية الأسبوع، وبذا المطعم قليل الحركة، بسبب مغادرة أغلب المجندين للقاعدة لزيارة عائلاتهم، جلسنا نتناول عشاءنا، ثمّ انضم إلينا «بابلو»، حاملاً طبقه مليء بالأرز ودجاجة كاملة، جلس وهو يضحك في خبث متصنع، فعرفنا أنه أخذها دون أن يتفطن له أحد، قسمها نصفين في حركة سريعة، تدلّ على أنه اكتسب خبرة كبيرة في شؤون المطبخ والإطعام، ثمّ ألقى نصفها لي في الطبق، لأنّي كنت الوحيد الذي لم أطلب لحما، طلبت طبق سلطة بسيط مع قارورة كبيرة من الماء، كنت متوعّكا قليلاً بسبب سوء هضم، بيد أنّي لم أشأ أن أردّ عرضه.

وما إن بدأت في مضغ قطعة من الفخذ؛ حتى كانت «باولا» أمامي، وسط ذهولنا الذي عزّته هي بصوتها الرّخيم:

- لماذا تتهرب مني «بابلو»؟، لو كنت رجلاً لما تهربت مني بهذه الطريقة؟.

ثم راحت تصرخ في هياج وهستيريا:

- الرجال لا يهربون «بابلو»، الرجال يواجهون، كن رجالاً وواجهني.

وراحت تستنفر دموعها، مثيرة جلبة يسيرة في البداية، ثم تطورت لضوضاء النساء، فنهض بسرعة وصفعها صفعة ردد المكان كله صداحها، فخرجت باكية منكسرة.

أمسكه «رفائيل» و«شلومو» ليهدّأه، بينما كان «عزرا» يرتب ما سقط عن الطاولة من أطباق وقارورات الماء والعصائر، وهو يتسم بابتسامة، فضحت معرفته بشيء لا نعرفه نحن.

في تلك الليلة كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً حين سمعت بكائه الصامت، بكاء يشبه أنين طفل صغير.

أول مرة أسمع فيها «بابلو» يبكي، «بابلو» الذي يشبه فهداً إفريقياً، يبكي مثل طفل صغير، من يصدق هذا؟، ووجدت دموعي تنهمر في صمت لبكائه؛ نحن جميعاً عسكريّون، نحن جميعاً نقدس الشرف ونرفض الإذلال، ونعرف جيداً ما الذي تعنيه الدّموع، وما معنى أن يبكي رجل يحمل سلاحاً لا يفارقه.

- هون عليك «بابلو»، لست الملام مطلقاً، أنت رجل وستبقى رجلاً؛ وهل يحتاج الفهد كي يثبت فحولته؟.

نظر إلى نظرة لم أفهم مغزاها، ثم عانقني بقوّة كادت تختطّ ضلوعي.

لم أكن أعرف أنّي دعّدت فيه الحين إلى ذكريات يحاول الحفاظ على لونها الأبيض، «بابلو» هذا الجنديّ، ذو الأصول الإفريقية، المعمّ بالأسرار.

كنا وحدنا في الغرفة، فقد كانت بقية الشّلة ساهرة في النادي الرياضي، وحين أتوا متعبيين كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، كان الوقت كافياً جداً ليسرد كل شيء، أو على الأقلّ؛ هكذا تخيلت.

إنها تحبه، نعم تحبه، هذه المغورّة بحملها «باولا ليفي رودريغuez»، ومع صدّ المستمرّ لها، شعرت بالإهانة، لم تعتد أن يصدّها أحد، بل هي من تصدّ الآخرين، شامخة الرأس شموخ جبال الأنديز، ذات عينين عسليتين، وشعر بني يتّجه للسّواد بتجاوز الكتفين، ووجه مكتتر، مع وجنتين مرتقعتين، وفم ممتليء وأنف دقيق، هذا النوع من الجمال لا يردد، غير أنّ «بابلو» صدّها عنه في كبريات وأنفة وعزّة، مما أثار دهشتها ودهشة جميع المجنّدين والمجنّدات.

هل هو مجنون ليرفض حبّ «باولا»، الأميرة القادمة من وراء المحيط؟، من أمريكا الجنوبيّة؟، ملكة جمال قاعدة «شيزافون»؟.

تشجّعت وسألته عن سبب رفضه لها، ما دامت تحبه، فلماذا لا يتزوّجها؟، لماذا يضيّع فرصة مثل هذه؟، خاصة وأنّها تعمل في فندق كبير، يمكنهما بناء أسرة متماسكة، وإنجاح أطفال.

سيعيشون سعادة حقيقة بكلّ ما للكلمة من معنى.

تنهدّ أمامي بصوت مسموع، كالذّي يحمل فوق عاتقه طوداً:

– إنّها تحبّنِي بصدق، هذا ما أكّدَه لي «عزرا»، لكنّ ليس كُلّ ما يلمع ذهباً أخْي «دافيد».

ثمّ رَبَّتْ على كتفي، تارّكَ الحيرة تنهشّنِي نهشاً، وذهب لينام.

وهل تنام حيرتِي؟.

يا لقوّة عزيمتك يا «بابلو»!، يا لصبرك!، يا لقلبك الكبير يا «بابلو»!... يا لقلبك الكبير وما تخفيه!.

(22)

إختفى «بابلو» ثلاثة أيام كاملة لم نسمع فيها عنه شيئاً، وحتى حين يحاول «عزرا» مكالمته عبر جوّاله؛ يجد الخطّ مشغولاً، وحين عاد قال إنه أرسل في مهمّة سرّية، لا يجب التّطرق إليها بأيّ شكل من الأشكال، ولاحظنا أنه عاد فرحاً جداً، براحة عطر زكية يعيق بها كلّ مكان يتواجد فيه، لدرجة أنه تكفل بكلّ تكاليف إحدى جلساتنا في النادي العسكريّ من أكل وشرب، خارج خدمة النّجوم التي يوفرها الجيش.

قامر «رفائيل» سرّاً ولم يربّح شيئاً، أما أنا فأكلت كثيراً، وأحضرت العديد من قنّينات مشروبات الطّاقة لأننا لها صباحاً.

إقتنعت الشّلة بالموضوع، لأنّ هذه هي طبيعة الجيش، إلاّ أنا حاولت أن أقنع نفسي، فلم أستطع. من أين أحضر «بابلو» كلّ هذا المال الكثير؟، لقد رأيت معه مبلغ خمسة آلاف شيكل نقداً، مبلغ كبير دون بطاقة ائتمان.

كان الأسبوع الثاني من الدّورة الثانية لم يشرف بعد على نهايته، والأمور تزداد صعوبة مع الوقت.

أصابنا إحباط شديد من الفيديو الذي شاهدناه، قال «رفائيل» أنّ «كتائب القسام» يتبّه على شاشة «الجريدة»، وهي تبث كلّ فيديوهات المصورّة عنا في هذه القناة، بل كلّ دبّابة يفجّرونها، عليها إشارة مثلث أحمر، فتتّاثر قطعها في الماء، مخلّفة كرة من النار داخلها، ورأيت الإنزعاج في عيني «عزرا»، الذي اعتبر كلّ الجهد التي وُجّهت لصناعة «الميركافا» عبث مجموعه من الأطفال، لم تجد أين تصرف الأموال التي منحت لها.

في حين اعتبر «رفائيل» أنّ عقاب «بابلو» يصبّ في صالحه، فهو يخدمه بنسبة مليون بـ المائة، سيظلّ في المطبخ حتى تسرّيه، ولن يرى الموت الذي ينتظراً، إنه محظي بين أربعة جدران، أكثر منا نحن في قالب الزّبدة هذا الذي يسمّونه «الميركافا»، فخر الصّناعات الإسرائيليّة، وراح يضحك في استهتار، غير آبه بعناصر الشرطة العسكريّة التي تحوم في الأجواء، تتصيّد كلّ شعور مناوىء، أو تصرّف يثير الشّبهات.

في السّاعة الخامسة فجراً، فاجأني دوار كاد أن يسقطني أرضاً، وتكرّر معي أربع مرات في ظرف ثلاث ساعات، فأدركت أنّ ثمة خطب ما، ويجب أن يفسّر ذلك علمياً في العيادة.

إستلقيت على سرير الفحص، فراحت المرضة تأخذ قياس الضغط أولاً، ثم جاءت الطبيبة مسرعة، مباشرة وعينها على المقياس، ودون مقدمات اعتبرت أن لا شيء خطير، مجرد إرهاق بسيط، غير أنها حذرّتني من تناول مشروبات الطاقة لما أعلمتها أنّي من المدمنين عليها، وأعطتني مقوياً مع ثلاثة أيام للراحة التامة، الأكل والنوم، ولا غير ذلك.

- تخلص ممّا لديك أيّها المجنّد، هذه المشروبات لن تفعّل من الآن فصاعداً، جسمك لم يعد يتّحمل الكمية المهولة التي تستهلكها من الكافيين.

اعتبرت المسألة منتهية، فالطبيبة تعرف أكثر من «شلومو».

توجهت للمطعم كي أدردش مع «بابلو»، فقد أضحي الآن هنا على ما يظهر مثل رائد أو عقيد. كان قد أتمّ عمله، ويجلس مرتاحاً يتناول وجبته المفضلة، الدجاج مع الأرز، أخبرته ممّا أعايني، فطلب مني الإنتظار قليلاً وذهب، ليأتي لي بعد دقائق قليلة، بطبق فيه دجاجة كاملة، مع بعض الفاصولياء والمرق، مع كثير من الخسّ بزيت الزيتون، وشرعنا نأكل.

- تبا لها، هل هذا وقتها الآن؟، لديهنّ مطعم خاص.

إلتفت خلفي لأرى «باولا» تنظر إلينا والشوق في عينيها، ثم أخذت عصير بر تعال وانصرفت.

تشجّعت مستعطفاً «بابلو» ليخبرني بما يخفّيه، أخبرته أنّ امرأة مثل «باولا رودريقار» لا تُرفض هكذا دون أسباب، ومن المؤكّد أنّ أسبابه منطقية جدّاً.

منذ أن دافعت عن صديقي وأنا أحاول التقرّب منه، لكن كلّما اقتربت أكثر، بدا لي أنه متحفّظ أكثر، لا يفتح صدره إلاّ للذى يثق فيه، وإذا وثق فيك «بابلو» أطعّنك كلّ شيء، واقتسم معك حتّى عطّره الفاخر «أرماف كلوب».

عندما فرّ من «السودان»؛ لم يستطع تهريب «مارغاريتا»، إبنة الجيران اليتيمة، ذات الخامسة عشر ربيعاً التي تعيش مع جدّها، حيث نشأت بينهما علاقة حبّ عذرّي وثيق، وأتى كلّ شيء مفاجئاً دون سابق إنذار، فقد تعرّف على أحد المهرّبين العاملين مع الوكالة اليهودية، الذي أخرّ جهم من «السودان» في شاحنة، ثمّ عبر البحر - تولّت «الموساد» الباقي حتّى أوصلتهم إلى «إيلات»، وتتكلّلت الدولة بمستلزماتهم، فأسكنتهم في «ديمونا»، لكنّه فقد الاتّصال بحبيبتها، التي سع من أحدهم أنّها تعيش عند عائلة «عثمان» المسلمة، مع كفيلها «إدريس» وعقيلته «عائشة»، وسط أولادها السّبع، بعد وفاة جدّها بأزمة قلبية حادّة مرتّ بها، كما تأكّد من عدّة مصادر أنّها معزّزة مكرّمة هناك، في انسجام عائليّ تامّ كواحدة من الأسرة؛ مما أتّلّج صدره، وجعله يستبشر أملأّ كلّما افتقدها إلى جانبه.

لم تترك له الحرب حتّى صورة لها، سوى الصّورة التي ما زال يحتفظ بها في مخيّلته.

هذا ما كان يخفّيه عّنا «بابلو»، أو بالأحرى جزء بسيط فقط ممّا يخفّيه في قلبه.

(23)

بعد الزوال بحثت عن الملائم «ديميترى»، كي أضعه في صورة ما ألم بي من توعك، مطلاعا إياه على كشف الفحص، مضياً ومحظياً من طبيبة العيادة:

– ماذا كان يريد منك «غارسيا»؟.

– الإنضمام للاستخبارات سيدى.

– آه... حسنا، إنصرف.

توجهت للغرفة أروم الراحة التامة امتنالا لأمر الطبيبة، لكن ما إن استقر رأسي على الوسادة حتى هاجمتني ذكريات «أتارا».

يبدو أن «بابلو» حين فتح ملفه العاطفى أمامي، بعشر أوراق ذكرياتي دون قصد منه.

كانت سنتي الأخيرة في الثانوية العامة الواقعة في شارع «هاتياسيم» حين عرفت هذا الملاك الطاهر، وفي قسم الرياضيات، القسم الذي يخشاه أغلب الطلاب والطالبات.

حصلت على شهادة «البغروت» بمعدل جيد أتاح لي فرصة الإقتراب من حلمي، لكن ليس بسهولة، فقد كنت أقضى أغلب وقتى في مكتبة «أوفاكيم»، لأجد فيها كل ما أحتاجه من كتب، كما كنت ومازلت أعشق هندسة البرمجيات.

صناعة برنامج معين، هو بمثابة انتصار على الآلة ذاتها، التي نطورها بهذا البرنامج، ويعكس قدرة الإنسان المذهلة على التفكير والإبداع، التي أعطاها له الرب حين خلقه.

إهتمامي بالبرمجة مكّنى من إقامة علاقات وثيقة مع بعض الشغوفين بها في إسرائيل، و«بريطانيا» وخاصة في «الولايات المتحدة الأمريكية»، مثل صديقي «هارون بوشنل»، طيار في القوات الجوية الأمريكية، له من غرابة الأطوار ما يثير فضولك، ذو إرادة فولاذية، خجول يحب القحط كثيرا، مثل أخي «ياعيل»، كما يشجّعني على التعلم والصبر.

يثيرني ذكاؤه بقدر ما تثيرني غرابة تصرّفاته، إذ له قدرة عجيبة على حلّ المعادلات الرياضية، وحلّ مشاكل البرمجة العويسقة التي تعترضني، في تميّز وتفوق غريب.

له، يرجع الفضل في حصولي على شهادة «البغرورت»، التي تُعتبر مكاسبًا استراتيجيًّا بيد أيّ شاب هنا، لو أراد الالتحاق بالجيش.

وبسبب حرصي الشديد على نيل هذه الشهادة مهما كلفني الأمر؛ كنت أدرس ليل نهار، إمّا في المكتبة بين المراجع، أو في المترّق قبالة جهاز الكمبيوتر، حتّى أصبحت مدميًّا على مشروبات الطّاقة، أحملها معّي أينما ذهبت، في يدي أو في حقيبة الظّهر، من علامتي «INDIGO» و«XL»، ولم أكن على دراية وافية بخظرها القادم على الصّحة.

دون انتظام ومتى ما سنتحت لها الفرصة، تردد على مكتبة «أوفاكيم»، فتشدّي كالمحناطيس، كلّما رأيتها هناك، أضاء لي المكان، وأنا وحدي من كان يشاهد هذا الضّوء.

لم أعرف في البداية ما يحدث لي، ولماذا أشعر بحرارة تعلو وجهي كلّما رأيت هذه الفتاة، ذات النّمش الخفيف.

لماذا تطرق أبواب تفكيري وأنا الذي كرّست حياتي للدراسة فقط، حتّى كاد ظهوري يتقوّس كعجوز؟.

لا علاقة لي بأيّة أنشى، حتّى زميلاتي في القسم، لا أتجاوز معهنّ تحية الصّباح أو المساء.

لماذا أفكّر فيها دائمًا؟.

خانتي شجاعتي فلم أجرؤ على الإستفسار من أيّ أحد، حتّى من أمّي، التي تشجّعني على التّواصل معها، للخروج من القوقة التي تقول أني أعيش فيها، وعالمي المثاليُّ الخاصُّ

يحب طرح جميع مشاكلِي أمامها، دون تحفظ، من أيّ نوع، لنجد حلولاً مُرضية.

أمّي يا أمّي، كم أعدّها وأختلف وعدي، حتّى أحسّ بـ«غابي» ذات يوم، لما كنّا في المكتبة بقصد إجراء بحث، دخلت هي مع ثلاثة من صديقاتها، أصابتي يومها رجفة غريبة، وبدأ قلي ينفّق بشدّة، وخشيته أن ينكشف أمرِي للجميع، فأصبح بين عشية وضحاها مركّز اهتمام لكلّ سكّان «أوفاكيم»، وضعت مشروب الطّاقة جانباً، لأعطي انطباعاً للجميع أنه هو سبب رجفتي واضطرابي، متناولًا جرعات كبيرة من عبوة ماء معديّ، أحضرها «غابي» معه ليزيل عطشه الذي لا يتوقف، بسبب مرضه، ثمّ تبعتها لما خرجت، من بعيد دون أن أجعلها تشعر أنّ أحداً ما يراقبها، لأعرف عنوانها على الأقلّ.

ـ لو سأّلت أيّة واحدة من صديقاتها لرفعت عنك مشقة السير.

هذا ما قاله صديقي البدين وهو مندس تحت سفيته الفضائية.

تيقّنت أنها تسكن في حيّ «ميشور هاغفن»، على بعد خمسين متر من المترّه العام، حيّ يوصف برقّيه وجماله الأخّاذ، تماماً كساكنيه.

وحين سأله عن علامات الحبّ، قال مازحاً فرحاً بتأكيدي لاكتشافه:

- وأخيراً عرفت سبب عدم مقدرتك على الإبتسام لها؛ إنّه تشنّج في عضلات الوجه، أليس كذلك؟، أيّها الماكر، كنت متأكّداً أنك ستتبعها، حين تركتني في المكتبة وانسللت خلفها كاللّصوص، أتذكر؟.

وهل يخفى شيء عن «غابي»؟.

- هل يُعقل أن تنظر لشخص بنظارات طبّية مثلّي؟.

- وما ينقصك؟، الوسامّة؟، أنت أوسم مني «دافيد»، أنت تشبه «هاري بوتر».

وضحك وهو يشرب الماء من عبوته البلاستيكية، وضحك معه، أمنّي نفسي بما أراه حلماً مستحيل التّوال.

كأيّ عاشق شابّ، بدأت أجمع المعلومات عنها، كلّما عرفت شيئاً زادت فرحتي، ثمّ سألت إحدى صديقاتها -التي أقسمت لي على التّوراة ألاّ تفشي شيئاً ولو تلميحاً-، إنّ كانت تعرف شاباً ما، فأكّدت لي أنّها لا تتكلّم مع الشباب كثيراً، وأنّ أمّها السّيدة «ليرا» التي تعمل في صحيفة «هارينس»، توصيها دائماً بدراستها أوّلاً وآخراً، ستجعل منها إعلاميّة مثلّها، وهي الآن في السنة الأولى آداب في الثانوية التي أدرس فيها.

عجبأً كيف تدرس معي في ثانوية واحدة ولم أنتبه لها هناك!.

ثمّ عرفت منها أنّ مطربتها المفضّلة هي «شيري ميمون»، اليونانية الأصل، وتعشق كثيراً أغانيتها «أنت»، وصرت أحّبّ هذه الأغنية كحبّي لمن تحبّها.

تغيّيت ذلك اليوم بسبب إنفلوانزا حادّة أصابتني، حين أخبرني «غابي» أنّها صرخت بكلّ قوّتها في وجه كذّاب الثانوية «دانيال أدموني»، الذي يعاكسها من فترة لأنّه، آملاً في نظره منها نحوه، رغم أنّها تصدّه دوماً عنها، وترفضه بسبب كذبه المتواصل على سكّان المدينة.

قال لنا مرتّة أنّ لديه أحّا اسمه الحرّكي «تشاتشا»، ضابط رفيع في «الشاباك»، ولا يستطيع ذكر اسمه الحقيقيّ أبداً، كي لا تتأثّر مسیرته المهنية، ثمّ قال لنا مرتّة أخرى أنّ «ناحوم أدموني»، رئيس «الموساد» السابق، هو والده الحقيقيّ، وأنّه اتّصل به مراراً وتكراراً ليعيش معه في «أورشليم»، ثمّ قال إنّ له علاقة قرابة مع «يتسحاق دانيهو»، عمدة مدينتنا «أوفاكيم»، الذي في الأصل -حسب زعمه- ابن عمه، ثمّ أخبر أعضاء نادي «الفرع 24» بوقاحة الحمار؛ أنّه كان يتدرّب في قاعة تقوية العضلات مع «آرنولد شورترنيجر» شخصياً، حين كان في «أمريكا»؛ في حين يعرف الجميع أنّه لا يملك جواز سفر.

دون التّطرق طبعاً لشهاداته المتعدّدة في «الكاراتي» و«الكونغ فو» و«الجيودو» و«الملاكمّة»، وحتى في ممارسة «اليوغا» المأكولة من «المهدّ».

وبّخه «غابي» مرتّة بقسوة أمام بعض الأساتذة بعد أن نفّد صبره حين بدأ يروي مسلسله التّخييليّ، رافعاً صوته كعادته، حين يشرع في سرد مغامراته، التي لا أحد يعلم حلقتها الأخيرة:

– ماذا تخسّبنا يا غبي؟، هل تظّننا لا نعرفك؟، أم جئنا من القمر؟، الكلّ اكتشف كذبك الذي لا ينتهي حتى قطّط الشّوارع، هل تعرف ما معنّي هذا؟، لا أعرف لماذا ترتدي طاقية «الكيبا» وأنت تكذب ليل نهار؟، مثل الهواء الذي تتنفسه؛ على الأقلّ احترم ما ترتديه.

«تشاتشا» الذي قال عنه أنه ضابط رفيع في «الشّاباك»؛ هو أخوه من أب آخر، يعمل في مصنع للنسّيج، عرفت هذا لّما أقلني ذات يوم بسيارته إلى «بير شيفا»، ودردشنا قليلاً في الطّريق حول الدراسة والعمل والمستقبل، هذا الذي يغار أكثر من النساء؛ بسبب كذبه وأنانيّته وغطرسته، أضحي الكلّ يكرهه في العائلة، ويبعدون عنه، لكن «دانيال» المسكين، الذي يعاني من عقدة النّقص، لا يعرف ذلك، لأنّه ببساطة لم يلتقيه أبداً.

إذا قال لك «دانيال أدمون» أنّ الشّمس مشرقة، فيجب عليك التّنظر من النّافذة، لتأكّد بنفسك.
لقد حاول مرّة كسر نظّاري، حين قالت له «أثاراً» في موقف غضب أنّ «هاري بوتر» أفضل منك، جاعين مسرعاً يسبّ ويشتّم، بعينين براقتين تقدح شرراً، ودفعني بكلّ قوّته لأسقط أرضاً في عنف:
– إذا كلّمت موزتي المنقّطة بجدّاً، سأقتلك «دافيد».

ثم أراد أن يأخذ نظّاري ليكسرها أمام الجميع، لولا تدخل إحدى الأسّاذفات، التي هددته باستدعاء الشرطة حالاً، وتوجيهه للجيش في ذات اللّحظة، بعد فصله مباشرة من الثّانوية.

قالتها له هكذا بصرىح العبارة، أمام كلّ طلّاب وطالبات الثّانوية، مما أدى لتحوله إلى برّكان ثائر، منذ ذلك الحين، أصبحت معروفاً باسم «هاري بوتر»، وأصبح الجميع يعرف قصتنا، أو على نحو أدقّ... قصة قليبينا.

اعتبر «غابي» هذا دليلاً دامغاً على ميلها نحوه، وأنّها تنتظر خطوة إيجابيّة مني، في أقرب وقت، كي ييدو الأمر أكثر جديّة ووضوحاً، وحين غابت أستاذة الرياضيات، صاح بي:

– يا مغفل ماذا تنتظر؟، فرصتك الآن وتحب أن تستغلّها، أترك خجلك وادعها لتناول بيترنا ملكيّ، أطلب لها ما ترغّب به، كي لا تتعنت بالبخيل، يجب أن تملّك شجاعة الكلام وروح المبادرة، الفتاة تريدك، تقدّم منها وانتبه لكلامك، لا تصمت ولا تتحدّث كثيراً ولا تسرع في الكلام، تحدّث بكلّ عفوّة، متأنّلاً عينيها مباشرة، المرأة تحب من يتكلّم ويتأملّ عينيها، ستعطيها إحساساً عميقاً بالطمأنينة.

طبعاً لو كان مكاني لاختلف الأمر، هذا الذي يتقمّص اللّحظة دور «أنشتاين» الحبّ ببراعة.

تناولت قيّيتين من مشروع الطّاقة دفعة واحدة، وذهبت إليها أواجه مصيري المحظوظ، كانت تقف أمام إحدى النّوافذ، رفقة صديقتها التي أقسمت لي على التّوراة وبيدها كتابين، وإنّم وجهينا مجرّد إلقاء التّحية، وهذا الإحمرار، كان احترازاً لآلاف الكلمات.

ثم تعارفت الأسرتان، إذ أخبرتني بعد يومين أن أمّها تتضرّنا على الغداء، لتردد الزيارة، وتعرّف على زوج ابنته.

كاد «غابي» أن يخرج من جلده.

قال وعيونه تتلاّلا فرحاً وفمه ممتلئ بقطعة بيتسا:

ـ ما دامت قد أخبرت أمّها عنك فهي تحبك، وليس شرطاً أن تخبرك صراحة، هذا النوع من الحبّ نادر جدّاً في إسرائيل؛ نادر، هذه الفتاة تحبك بصدق يا «دافيد»، لقد منحتك قلبها، إحنر أن تخونها مع أمّة فتاة أخرى، لأنّها ستتحول إلى أداة انتقام فظيعة من كلّ رجل يحاول التقرّب منها.

إندھشت كيف استطاع قول كلّ هذا ولم تحدث له غصّة في حلقه، ثم جلس وأكمل بحدوء شديد:

ـ هذا ما يسمّيه العرب «الحبّ العذريّ»، أرقى أنواع الحبّ في الوجود...

ولم أركّز في بقية ما قاله، فحين يشرع في الشرح لن يوقفه أحد، ولا يسمح لأيّ كان بمقاطعته.

يُحيرني هذا السّمين، لم يرتبط في حياته بأيّة فتاة، ويعرف في العلاقات العاطفية أكثر من أيّ شاب آخر:

ـ لم أرك مع أمّة صديقة، فكيف تعرف كلّ هذا يا «غابي»؟.

ـ من هذه التي ترضي أن ترتبط بيرمبل مثلّي؟؛ يكفي أن تكون السيارة حبيبي الوحيدة.

وأدخل رأسه كعادته تحت سفيته الفضائية.

ـ ثمّ ماذا بعد؟، هل ستبقى على هذه الحالة إلى الأبد؟، ألا تتزوج مستقبلاً؟، لديك إعفاء من الجيش «غابي»، هل تعي ما معنى ذلك؟، معناه توفير ثلث سنوات من عمرك، هناك من يدفع رشوة من أجل الإعفاء.

نحضر ثمّ أدخل رأسه كله داخل أحشاء سيارته غير مبالٍ بي، كأنّه لا يراني، أو لست موجوداً أمامه.

في ذلك المساء الذي تحدّث معها لأول مرّة؛ كان أبي في المترّل لما أخبرتهم جميعاً في حياء بكلّ ما جرى لي، فاقترحت أمّي على دعوتها، لتعرّف عليها عن قرب، واقتراح أبي دعوة أبيها وأمّها للغداء لدينا على انفراد، ثمّ راحت أمّي تطمئنّي أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام؛ ستفتح أمّها وستخطّبها لي، وهنا قفرت «ياعيل»:

ـ ييدو أنّك ستتزوج باكراً جدّاً كقبائل البدو، رائع... سأكون خالة وأنا لم أكمل الثامنة عشرة بعد.

وراحت أمّي تقبّلي في حرارة:

ـ حين تكون علاقتكم واضحة ستتعلّم المسؤوليّة، ستكون رجلاً حقيقياً، بدل العبث مع كلّ واحدة كما يفعل شباب المدينة؛ يضيّعون وقتاً ثميناً هم في أمس الحاجة إليه، آه يا «دافيد»؛ سأرى أولادكم الصغار يلعبون حولي.

تلفّظت بحملتها الأخيرة بنبرة أمل عريض وهي تضمّني لصدرها.

وساندها أبي بكلّ اهتمام، حيث أبدى رغبة جادّة في التّعرّف على والدها، ولم تتمالك أمّي نفسها بعنة، وانخرطت في بكاء صامت، وعانتها «ياعيل» متأثّرة، وسرعان ما أتت قطّتها البيضاء الصّغيرة «كرين»، لينقلب المشهد إلى دراما رومانسيّة، كالمي نراها في الأفلام.

(24)

إنترسال الخبر في الثانوية انتشار النار في المшиيم، إنترسال ليزيد من معاناتي مع كذاب ثانويتنا، الذي أصبح يترصدني صباحاً ومساءً، كلّما رأي، يتفرّس في وجهي، يستفزني كالذى يبحث عن المشاكل، مع سبق الإصرار والترصد، ثم ينصرف إذا لم أعره اهتمامي.

يؤكّد لي «غاي» أنه أصبح يشاهده باستمرار، رفقة إحدى الطالبات، يتجادلان في حرص وجده، بصوت يختلطان على إيقائه منخفضاً قدر الإمكان.

وصدق «غاي»، كان سلاحه هذه المرة فتاكاً من نوع خاص، إسمه «بلانكا مالكامو».

لubo من أصول إفريقية، ذات شعر أسود مجعد، ترسله ضفائر إلى ما تحت كتفيها، وشفتين ملتهبتين نفختهما عمليّات التجميل أكثر من اللازم، فتبعد مثيره بعيون سوداء واسعة، وبشرة قليل للبني القاتم، تلمع دائماً تحت الشمس، التي تضفي عليها بريقاً أحاذ، وزادتها مساحيق الزينة فتنة.

كلّما تراها «ياعيل»؛ أو تذكّرها، تتعتها بعنوان الغرور، لا سيما حين تتختر في سراويل الجينز الزرقاء المرتفعة الضيقّة، بينما أراها شخصياً تعشق المال إلى حدّ إعلائه فوق كلّ المبادئ والقيم.

ورغم كلّ ما تلقّنه من إنذارات من إدارة الثانوية بسبب ألبستها المثيرة؛ وتواجدها المشبوه مع غرباء عن المؤسّسة التربوية، إلاّ أنها ما زالت تعتقد أنّ لها مطلق الحرية في ارتداء ما تراه ملائماً لجمالها، واستقبال-على حدّ قوله- من ترّغب فيه.

كنت ساهراً أمام شاشة الكمبيوتر، منشغلًا بأحد البحوث في اللغة العبرية، أسابق الزّمن لأنّميه في أقرب وقت، كي لا أنشغل به حين تقترب الإختبارات، حين اتّصلت بي «أتارا» قرابة السّاعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، قائلة أنّ أباها يهدّد بإطلاق النار على أمّها، بعد نشوب شجار عائليّ حادّ حول أحقيّة أحدّهما في حضانتها، وأنّهم الآن في منزل قريبة لهم في إحدى الشقق السكّنية الواقعة في شارع «حاييم حوري»، وهي تنتظري هناك للتدخل.

جاء الحدث مفاجئاً، لدرجة أنّي لم أعرف ما الكلام المناسب هنا، ولا كيفية التصرّف المثلّى، ثمّ أعطتني العنوان بسرعة وأغلقت الخطّ، بعد أن تهّيأ لي أنّي سمعت حشرجة، وأصوات تحطم أوابي متّلية، إرتدت

ملابسها بسرعة، وذهبت إلى غرفة أبي وأمي أو قظمهما، وخرجت بعدها في سرعة البرق، لأجد الشرطة هناك مع سيارة إسعاف، وهدوء غريب يعمّ المكان.

دخلت العمارة متلهّماً، لأجد «باناكا مالكامو» في ثياب النوم، تتشاجر مع ضابط شرطة، وما إن رأته حتى أشارت لي بإصبعها، كأنّها تتهمني بشيء لا أعرفه، لم أستوعب ما يحدث، ماذا تفعل هذه اللّهوب هنا؟، ولماذا تريني للضابط بالبنان؟، ثمّ أين «أتارا»؟.

كان أبي هو من استدعي الشرطة إلى مكان الواقعه، فمن المنطق أن يتدخل القانون لفض أي نزاع، غير أنّ القضية كلّها في الأصل مكيدة، من تدبير «دانيال»، بخطّة تتلخّص في استدرج ليلاً لمتلها، متصنّعة شجاراً بين والدي «أتارا»، ومقلدة صوتها حتّى تضمن حضوري بسرعة البرق، لكنّ استدعاء الشرطة أفسد عليها لعبتها، وفي التّحقيق المعمق انكشفت كلّ الأعيبها، فقد جهزت كاميلا لتصوير لقائنا، ومن ثمّ ابتزازي لأبعد عن «أتارا» نهائياً، فيخلو الجوّ لكتاب الثّانية.

خطّة جهنّمية محبوكة بدقة شديدة، وبلمسات خبير في ضربات ما تحت الحزام.

ووجدت أبي في مركز الشرطة في تلك الليلة حين ذهبنا جمِيعاً للتحقيق، كان يتحدث مع صديقه هناك حول الحادثة، في حين لم تعلم «أتارا» بالأمر إلاّ في صباح اليوم التالي، حيث انتشر بين الطلبة والأساتذة، وأنكر «دانيال أدموني» كلّ ما قالته «باناكا»، جملة وتفصيلاً، حيث أدلت باعترافات خطيرة ضده.

لقد عرض عليها مبلغ خمسمائه شيكلاً نقداً كي توقع بي.

ومن خسنته، زعم أنه لا يعرفها، بل لم يرها مطلقاً في حياته، والقضية كلّها لا تعود كونها أكاذيب تنسج حوله، بدافع الغيرة والحسد، وهو الطّالب المخلوق، المتدين الذي لا يترع «الكيبا» مطلقاً، العاكف على قراءة التّوراة ليل نهار، المترشّح لمحالس الطلبة إنطلاقاً من حرصه الدّوّوب على مصالحهم.

يعرف كلّ من في الثّانية أنّ والدا «أتارا» مطلّقين، وأنّ الحضانة من نصيب أمّها السيدة «ليزا»، حكماً نهائياً من المحكمة، منذ أن كانت رضيعه، لكنّ «أدموني» الميكافيلي استغلّ ذلك استغلالاً قدرأً للإيقاع بي.

بكّت «أتارا» بكاء استمرّ ساعات طوال حتّى انتفخت عينها، لقد أحسّت بالإهانة، وأحسست مقابلها بالعجز عن فعل أيّ شيء، ثمّ قالت في لحظة غضب أنّ «باناكا» تبحث عنّ يجرّها من شعرها المجدّد على طول الشّارع، كي تحرّم أملاك الآخرين.

أولّ مرة أراها غاضبة، وأولّ مرّة أعرف أنّي أصبحت من أملاكها، في حين رفعت أمّها قضية لاستعادة كرامتها ابتها المهدورة، ونالت حكماً فيما بعد، بتعويض ماديّ كبير، فيما خرج «أدموني» بريئاً، لأنّه لم يترك خلفه ولو دليلاً واحداً يدينـه قانونياً.

أمّا «ياعيل» فاعتبرتني سعيد الحظّ، فكلّ فتيات الثّانية سير كضن خلفي من الآن فصاعداً.

يبدو أنّ المسألة التي سبّبت لي إزعاجاً حقيقةً كانت في صالحِي دون أن أشعر، فقد أصبحت أمّ «أتارا» تخيّبني كثيراً، حتّى أنّها أصبحت تعتبرني ابنها الذي لم تلده.

غادرت «باناكا» «أوفاكيم» نهائياً بعد هذه الفضيحة، فقد اكتشفت متأخّرة أنّها كانت خرقاء بشكل لا يُصدق، استغلّت بذكاء شديد وببراعة نادرة من كذّاب الثانوية، الذي ازداد غيظه لما رأى قصر حبل كذبه، فقال بعنجهيّة على مسمع من زملائه وزميلاته:

– من يظنّ نفسه التّعس؟، «شارلوك هولمز»؟، يذهب ليلاً لمسرح الجريمة ليحقّق بنفسه؟، أيّ استهتار بالقانون هذا الذي وصلنا إليه في هذا القرن؟، يجب أن يعلم أخي «تشاتشا» بكلّ شيء، كي يضع حدّاً نهائياً لهذه المهرزلة، وأنا متأكد من أنه -بغير زته- لن يدخل جهداً في بذل كلّ ما من شأنه توطيد جسور ثقة عالية المتانة، لإحلال المدوء والطمأنينة في مدينتنا، بل يجب أن يعلم الجميع وبتأكّد، أنّ أمن المواطنين في إسرائيل كافية، أصبح الآن بالذات؛ مسألة أخلاقية، أكثر منها استراتيجية؛ تستلزم تدخل «الشاباك».

(25)

تعلّمت الرّمایة بصفة أساسية في وادي «أوفاكيم»، حيث تتوارد طبيعة ساحرة، بعد عشر دقائق فقط بالسيّارة؛ وحيث يلتقي الماء الجاري بشقائق النّعمان، على بعد حوالي سبعة كيلومترات شرقاً من المدينة. كنت صغيراً لا أتجاوز عشر سنوات من العمر، إلاّ أنه أصرّ أمّي على أن يعلّمي استعمال المسّدس، فكّت أطلق النار، وهو سدي، عندما يهتز السلاح في يدي كلّ اهتزاز.

ومرت السنّوات، واستمرّ أبي في تعليمي، وواظبت على الذهاب هناك مع «غاي» بسيارته، التي يسابقها الريح، يقول أنّ ذلك يساعد على حرق السّكر الموجود في دمه، فلا يحتاج لأنسولين كثيراً. لم أحد المسألة منطقية، لكنه يقول أنّها تساعد، وهو أعلم بصلحته مني.

كان الجوّ ربيعيّاً حين نظر «غاي» نحو «غزة» مطيلاً النّظر، ولما سأله تقرّب من الإجابة، شهر كاملاً وهو على هذه الحالة، ثمّ حين ألحّت عليه قال إنّ لديه إحساساً فظيعاً من جهتي، وأشار إلى أنّ أركب في السيّارة كي نعود، ثمّ لاحت ما يشبه الدّموع الخفيفة في عينيه.

على غير عادته كان صامتاً في السيّارة، ولم يأكل شيئاً، رغم وجود ما حضرته له أمّه مما لذّ وطاب، ثمّ رنّ هاتفه الموضوع أمامه فوق لوحة القيادة، كانت أمّي تسألني إن كنت سأعود للمotel للغداء، أم ستناول أكلًا خفيفاً في الخارج، فقلت إنّي سأعود وسأحضر معي «غاي»، فرددت على الفور أنّ الأكل يكفي الجميع، وضحكـتـ، فنظرتـ إـلـيـهـ أـقـيـسـ رـدـ فعلـهـ، إلاـ أنهـ بـقـيـ صـامـتاـ مـحـافـظـاـ عـلـىـ تـرـكـيزـهـ فيـ السـيـاقـةـ.

ـ «دافيد» ما رأيك في وضعنا الحالي؟، هل أنت مرتاح هنا في إسرائيل؟.

ـ طبعاً، الوضع هادئ منذ فترة طويلة، إلاّ من بعض الصّواريـخـ التي تعـكـرـ مـرـاجـناـ منـ حـينـ لـآخرـ.

ـ لا أعتقد أنّ يستمرّ هذا المدّوء طويلاً، هذا السّيّاج لن يحمينا، رغم ما صُرّف عليه من أموال باهظة، هل تصدقـ؟ـ، أكثرـ منـ أربعـمائـةـ مـليـارـ شـيـكـلـ حـسـبـ تصـرـيـحـ وزـيرـ الدـفـاعـ العـامـ المـاضـيـ فقطـ.

ـ جـدارـ فـاـصـلـ بـيـنـاـ سـيـمـنـعـ تـسـلـلـهـمـ.

- ما هذه الأفكار الغريبة؟، هل نعيش في العصور الوسطى؟، جدار يردع العدوّ عن مهاجمتنا؟، أتعلم؟، «حماس» تطور قدراتها القتالية يوماً بعد يوم، والحكومة لا تزيد أن تواجه ما يهدّدنا؛ إذن أفضل حلّ في منطقها هو سياسة إغماض الأعين، ويساعدهم الجدار، لأنّه عالٌ جدّاً يحجب ما خلفه.

وراح يضرب المقوّد بيديه، بدأ غضبه يتضاعد، وشرع يحلّل الوضع في «غزة»، مستعرضاً ما هم فيه من فقر وبيوس، ومؤكّداً على أنّ الوضع سينفجر في يوم من الأيام، وأنّهم يجهّزون لنا شيئاً، لكن لا أحد يعرف ما هو بالتحديد:

- هذا الجدار الذي يبلغ طوله خمس وستين كيلومتراً، وارتفاعه ستة أمتار، المجهّز بكاميرات دقيقة وأجهزة استشعار، هو في الحقيقة لعبة أطفال، وسحابة صيف، لا يجب أن ننتظر منها أيّ مطر.

- هل تعني أنّه لو لم يكن أصلاً؟.

- هل تعرف لماذا أقاموا الجدار؟، سأخبرك «دافيد»، المسألة كلّها تلخص في أنّهم لديهم مشاكلهم ولدينا مشاكلنا، معاناتنا تكفي، لا نريد سماع أيّ شيء عنهم، إذن نبني جداراً يفصل بيننا وبينهم وانتهى الأمر، هذا هو ما أسمّيه «تفكير نعامة».

ثم ذكر أنّ إحدى قرياته التي تعمل في حراسة السّياج، بدأت تلاحظ منذ فترة قاربت الشّهر، تدريبات غريبة تجري على قدم وساق في القطاع، وحين أبلغت عن ذلك في تقاريرها التي رفعتها للضّابط المسؤول، تمّ توبّعها، بل اعتبروها تهذيباً وتملّوس، بل تزوجت القيادة بشيء لن يحصل مطلقاً، وأنّ كتاب «حماس» ليست لها القدرة، ولا حتّى الفكرة في مهاجمتنا، إنّه سلوك روتينيّ لأيّ فصيل مسلّح في العالم، هل جنوا ليها جمّوا إسرائيل؟، سمحو لهم من على الخارطة بممحة أطفال.

ومنذ ذلك اليوم، ونحن نعيش في وهم ينمو مثلما تنمو القطفط.

- «روني آشل» تقول إنّها قلقة جداً من هجوم وشيك، ولا أحد يصدقها، يلقوها بالبّيغان، يقولون عنها أنّها تردد كلاماً لا تعني معناه، لكنّي أصدقها «دافيد»، أصدقها لأنّها تعرف أشياء لا نعرفها نحن، لا نعرفها أنا وأنت وأولئك الحشّالة، الزّمرة الجالسة في «تلّ أبيب».

وأخرج الأنسولين ليحقّن نفسه.

في منزلنا أمّا أمّي نسي كلّ شيء، وراح يأكل بنهم، كأنّه لم يأكل منذ أشهر، هذا هو «غاي» الذي ينفعل، مثيراً برّكاناً من العواطف، ثمّ لما يهدأ، ينسى كلّ ما سبق، فطن وصرير ولوذعى، أبيض قلبه مثل أرض اللّبن والعسل أرض الميعاد، يحبّ أمّه أكثر من أبيه، يقول عنها أنّها تفهمه، بينما والده منشغل دائماً في بناء المستوطنات، وفي النّهاية كاد يفقد صوابه حين توقف كلّ شيء بسبب فيروس «كورونا»، ورفضت الحكومة منحه تعويضاً مناسباً، رغم شبكة علاقاته الواسعة، وحتّى الذين ساعدوه في الحصول على عقود من الحكومة لشركته الخاصة، لبناء مستوطنات في «يهودا» و«السامرة»؛ أصبحوا يغلقون هوافتهم ترّباً منه.

كونه ليس من الطبقة التي تحتاج دعم الدولة، أو شرك على الإفلاس، وأصبح لا يتحمل أيّ شخص يكون قربه، لقد فقد الثقة في أقرب الناس إليه، بل وصل به الأمر إلى ضرب زوجته السيدة «هانا»، لأنّها رفضت الإنسحاب من العمل الصحي أثناء فترة الحجر، الذي عانينا منه ابتداء من 2020، وهدّد بتطليقها في هياج عصبيّ، لما راحت تتهّمّه بالإهمال والتّبذير في رحلاته التّافهة، ومغامراته الإقتصاديّة.

أيّام عصبية مرّت على الجميع، حيث أغلقت المدارس وسُرّح العمال، وتوقفت كافة الأنشطة الإقتصاديّة والثقافيّة والفنّيّة.

لم نقلق، فأبي كان معنا في تلك الأيّام، وراتبه سيقى سارياً مهما حدث، أمّا السيد «فريديريك» والد «غابي»، فقد ضاعفت همّه خشيته على زوجته من الفيروس الذي لا يرحم، باعتبارها متطوعة في «نجمة داود»، منظمة الإنقاذ الوطنيّة للدولة إسرائيل للخدمات الطّبيّة، تواجه الخطر من مسافة الصّفر، ربة البيت المثالّة، التي كلّ همّها الطّبخ وأشغال المترّل، والإعتناء الجيد بأسرّتها.

في العشرين من مارس فقط، كانت الإصابات المؤكّدة في إسرائيل تقارب مائة حالة، رقم مخيف إذا كان في ممتالى هندسيّة، واعتبر أنّ مطلق الحقّ معه، ولن يسمح لأحد بمجادلته.

لقد إتّهمته بالأنانية، بينما يقول هو أنّه يفكّر فيما لو ماتت بهذا الوباء اللعين، وحتّى الكمامات التي تمّ فرضها على الناس؛ تشبه الستّرة المضادة للرصاص، لا أحد يضمن فعاليّتها في كلّ الأحوال.

كّنا حائفيين جداً من هذا الفيروس الذي فتح على العالم أبواب جهنّم، لم نعرف له شبيها، فالإصابات بدأت ترتفع بالآلاف، والحكومة تتّكل عن الحقائق، وحين تحكى أم «غابي» عمّا تراه في المستشفيات من مآسٍ ودموع؛ يتعاظم إحساسنا بنهاية العالم، من هول المفاجأة التي لم يكن أحد ينتظرها، لقد مات جدّاً «غابي» لأبيه في موجة «أوميكرون»، في الثّامن عشر من جانفي 2022، رغم أخذها اللّقاح الذي كادت أن تنشب حروب بين الدول بسببه، هذا اللّقاح الذي أصبح يمنح نحت الطّاولة، وفي خضمّ مصالح سياسية بحثة، بعيداً كلّ البعد عن المدف الأسايّ الذي أُنجز من أجله.

لقد مات جدّاه كما عاشا معاً، ودفنا في «ألمانيا»، دون أن يحضر جنازتهما أيّ شخص.

حتّى الموتى لا نستطيع عناقهم العناق الأخير، أو أخذ كلّ وقتنا في البكاء على فراشهم.

(26)

مرّت عطلتي المرضية، إستعدت خالها عافيتي وعدت للتدريبات، في الدّورة الثانية، بعدها كنت قد أنهيت الدّورة الأولى «دورة البنديّة» فيما مضى، ويفترض بي بذل جهد إضافيّ، للّاحق بما كسبه الزّملاء من معارف ميدانية.

إنّختار الملائم «ديميترى» أن يخّصّ هذا اليوم كله للصّيانة العامّة للدبّابة، لكلّ الإختصاصات، من تفكيك الجتّير وإعادته لما كان عليه، وتفكيك الأسلحة وتنظيفها، من مدفع الماون إلى الرّشاشات، عناه كبير عشناء جمّيعاً، بل ألغى فترة الغداء، معتبراً أنّنا في مهمّة قتاليّة يجب التّعرّغ لها، عندما استفزّه «رفائيل» بتذمّره وسوء فهمه:

– نفكّك الجتّير؟، أحنّ في مصنع السلاح؟.

على الطّاقم الآن الإنتهاء من كلّ شيء قبل السّاعة الخامسة مساءً، وإلاّ سنضطرّ للمبيت هنا مع «المير كافاً»، ثمّ اخترفّي، مبقياً على تواصله معنا فقط عبر اللاسلكي.

يهدف هذا التّدريب الغريب، إلى التّحضير النفسيّ لمعالجة مشكلة ما حدثت للدبّابة أثناء القتال، إصابتها مثلًا، أي التّكّيف مع الواقع القتاليّ المفاجئ، غير المتحكم فيه، يجب هنا التّناوب على الحراسة، بحيث يتكتّل كلّ واحد منّا لحراسة المكان ثلث ساعات في يقظة تامة، ثمّ يترك مكانه لآخر كان يفكّك أو ينظّف، وهذا يرتاح الجميع بتداولهم على أعمال بعضهم البعض، واحتار اثنان منّا يكونان على بعد خمسين متراً من الطّاقم، أحدّهما يحرس الشّمال، والآخر يحرس الجنوب، مع التركيز على الإنتباه الشّديد، لكلّ حركة أو رائحة تطرأ على المكان.

كانت فترة الحراسة الأولى فترة حراستي مع «رفائيل»، كنّا متّبعين جدًا كما أمرنا، وهو يتابعنا محترساً، كأنّنا في معركة حقيقية، يأمر هذا ويأمر ذاك وعيّنه على الأفق وفي السماء، وسارت الأمور على أجود حال، ثمّ اخترفّي فجأة، فظنّنا أنّه ذهب لقضاء حاجته، لم نكتثر ما دام معه جهاز لاسلكيّ تبادل به المعلومات، ثمّ نسيناه مع الأهمّا كنا الشّديد في التّشحيم ورائحته المقرفة، وقبل أن تنتهي فترة الحراسة الثانية لكلّ من «عزرا» و«شلومو»، سمعنا صوت إطلاق نار، ثمّ أُلقيت علينا قبلة يدوية، وثلاث قنابل دخانية، إرتكبنا وانبطح «عزرا»

شارعاً في إطلاق النار دون توقف، أمّا «شلومو» فكان حريصاً على الذخيرة، بينما تحصن مع «رفائيل» في الدبابة، في انتظار انضمامهما إلينا، وحاولنا مناداة «ديميترى» عبر اللاسلكي، لكن لا محظوظ.

إعتقدنا جميعاً أنّ مخرب «حماس» شنّوا علينا هجوماً مباغتاً، وعليه اتخاذنا وضعية الدفاع والرّصد، لكن لم يظهر أيّ عدو في المكان، ظنّ «عزاً» أنّ الملازم «ديميترى» قُتل، وعليه يجب التّصرف بناء على ذلك، لكن كيف يتأتّى لنا التّصرف ولا قائد معين على الدبابة؟، أنا مدفوعيّ، و«عزاً» و«شلومو» في السيّارة، و«رفائيل» في تحمّيل القذائف، الطّاقم غير مكتمل، و«ديميترى» لا يجيب، أيّ أنا وجدنا أنفسنا معزولين أمام العدوّ مجهول يترصدنا.

فقد «شلومو» أعصابه، وتشاجر مع «عزاً» شجاراً كاد يؤدّي إلى قتال بينهما، لو لا تدخل «رفائيل»، فقد أصرّ الأوّل على التّقدّم، لأنّ الوقوف معناه ثبات الدبابة، وبالتالي سهولة استهدافها، بينما تساعل الثاني عن الإلّيّاح الآمن للمناورات، فمن غير المعقول أن يتحرّك دون اتّجاه واضح، هذا يعطي انطباعاً للعدوّ أنّنا في حالة ارتباك، ويكتفي صاروخين موجّهين مضادّين للدّروع لتمزيقنا، أو قذيفة «القسام» التي أصبحت سلاحهم الفتّاك، وبقيت أنا ألتّف بالبرج أبحث عن أيّة حركة.

تسارع نبضي وجفّ حلقي، ثمّ بدأت مخاوف ظهور مخرب «حماس» وقد يقتلهنّ المسؤولية تسيطر على عقلي، في ضغط عصبيّ استمرّ لحوالي نصف ساعة، غير أنّ شعاعاً رفيعاً من الطّمأنينة بدأ يسري في أنفسنا شيئاً فشيئاً، فقد انتبه «رفائيل» لطول المدّة ونحن على تلك الحالة، ولو كان العدوّ يريد القضاء علينا لفعل منذ الدّقائق الأولى.

هذا... إنّ كان هناك فعلاً عدوّ.

ثمّ ظهر «ديميترى» أخيراً كأنّه خرج من تحت الأرض، ظهر ليقول لنا أنّا سنقتل لو كنا في معركة حقيقة، فالقنبلة اليدوية التي كانت صوتية فقط، كانت كافية لإشعال توّرّنا وهو جسناً، مع القنابل الدّخانية التي أطلقها علينا، فأصبح المكان يعجّ بالفوضى والقرارات الإرتجالية، لأنّا لم نعيّن قائداً لنا يأخذ على عاتقه مسؤولية الضّبط والتّسيير، ثمّ من المفروض أن أتولّ أنا مهنة القائد، لأنّ المدفوعيّ هو الشخص الثاني بعد قائد الدبابة.

أمّا الخطأ الثاني فهو إهمالنا جنديّاً، خاصةً وأنّ الإتصال البصريّ كان معدوماً معه، وسيلة الاتّصال الوحيدة هي جهاز اللاسلكي، وهو في هذه الحالة الملازم «ديميترى»، بل أنّا لا نعرف بالضبط متى فقدنا الإتصال به.

كان درساً قاسياً جداً، من بنات أفكار الملازم «ديميترى»، لقد تعرّضنا لموقف لا نُحسد عليه، عهّدناه صارماً لا يرحم في التّدريب، يكره المتقاعسين، مبدع وفريد في تفكيره، يتجاوز التعليم عنده كلّ قواعد العقل والتّقاليد المتعارف عليها، وحين يريد أن يضعك أمام الأمر الواقع؛ فإنّك ستكون أنت الواقع الذي يرسمه هو لك، دون شعور منك.

– تذكّروا دائماً، الحرب ليست لعبة أطفال، لقد عرفت المعارك قبلكم.

في المساء ارتقينا على أسرتنا وقد خارت قوانا تماماً، الجنسيّة والنفسية، وبينما أنا في حيرة من أمري، أداعب قنينة مشروب الطاقة بأصابعِي، لا أعرف ماذا أفعل بها أمام نصيحة الطبيبة، لم أشعر إلا برأحته الرّكيّة أمام سريري، يهتزّي هامساً لي وهو ينظر إلى الباقين، الذين كانوا يغطّون في نوم عميق:

– «دافيد» «دافيد» إستيقظ أرجوك.

– أنا مستيقظ، ما الأمر؟.

– إحفظ هذه الوثائق، يجب أن تخفيها في مكان آمن خارج القاعدة العسكريّة، سلّمها لي لاحقاً حين أطلبها، لا أستطيع الخروج من القاعدة لأنّي مراقب، عدن ألا تطلع عليها، فهي سرّية لأقصى حدّ.

وخرج مسرعاً وهو ينظر يميناً وشمالاً مخافة أن يراه أحد، كانت حافظة بلاستيكية سوداء، عميّ اعتقد قويّ أنها أوراق شخصية تخفيه من «السودان»، أو الفتاة التي تركها خلفه، فلم أهتمّ لها، ووضعتها في خزانة بين أغراضي الشخصيّة، حين نهضت في الصّباح.

كان يفصلنا عن نهاية الأسبوع يومان فقط، لما وجدت نفسي أمام مفاجأة ذات نكهة ممّيّزة، مفاجأة بطعم خاصّ، زيارة عائلية هنا لي في «شيزافون»، «غاي» وأمه ومعهما «أتارا» و«ياعيل»، في حين غابت أمي لأنّهم احتاجوها في مستشفى «سوروكا».

سألت «ياعيل» عن أحوال أبي، فأجابت أنها لا تدرّي، ثمّ وجدت نفسي أعانق الجميع وأبكي، وأنا الذي ذبت شوقاً لمدينتي الرّائعة «أوفاكيم» ومن فيها، وجدت نفسي أريد تقبيل كلّ شيء، مكتتبها التي رأيت فيها «أتارا» لأول مرّة، وحديقتها العامّة، وشوارعها وأبنيتها وتراب المدينة، كلّ ذلك كان سبباً وجيباً لتنبيه غدّتنا الدّماغيّة، في لقاء له من الّذكريات أكثر مما له من الأماني المستقبلية.

إتفق الجميع على أنّي فقدت بعض الكيلوغرامات من وزني، بالطبع بسبب المجهود العضليّ الكبير الذي استترّفي طيلة الأشهر الماضية، وزداد لوني سمرة بسبب وهج الشّمس الحارق هنا، ثمّ عاودت السّؤال عن أبي في فضول بالغ، أكثر من السابق، وحاولت «ياعيل» التّهرب، كما فعلت طيلة الدّفائق الماضية، غير أنّي هذه المرّة عرفت كيف أجعلها تلقي بكلّ ما في جعبتها من معلومات.

– سيفي رهين كرسيّ متّحرك، لقد هتكّ نخاعه الشّوكيّ، هكذا تقول أوراق ملفه الطّيّ، رغم كلّ ما فعله السيد «ريكاردو» له من تدخلات عالية المستوى في الوزارة.

– نعم، مثلما توقّعت، حالته طالت أكثر من اللازم، وهو التّفسير المنطقّي لماتطلّات الأطباء.

وهنا تذكّرت أوراق «بابلو» التي يحب أن تكون خارج القاعدة، أخبرتكم أن ينتظروني ريشماً أعود سريعاً، وذهبت للغرفة لإحضارها، فرصة ذهبية لن تتكرّر، فأنا هنا لا أستطيع المغادرة بسبب الحرب، رغم أنّهم سمحوا لآلاف المجنّدين والمجنّدات بزيارة أهاليهم، كلام مسؤول للإسّهالك الإعلاميّ، لا أدنى من ذلك ولا أكثر.

وحانت ساعة الرحيل، سريعة بالسرعة التي قدمت بها، وتنبّت لو مكثوا أكثر، أوصيت «غابي» و«أتارا» مجدداً أن يحتفظا بالحافظة السوداء التي استأمنني عليها «بابلو»، لأنّ فيها مستقبله، ومستقبل حبيبته «مارغاريتا»، فأقسمما على ذلك، عانقت الجميع مودعاً، وانحنت أن أنظر طويلاً لملائكي الطاهر، أريد أن ألتقط آخر صورة حيّة لها، أرسّخها عميقاً في عقلي الباطن.

في تلك الليلة وبالضبط حين كانت السّاعة قد تجاوزت التّاسعة مساء بقليل، دخل لغرفتنا ضابط من جهاز الأمن العسكري «أمان»، مع خمسة عناصر شرعوا في تفتيش أسرّتنا ومحطّيات الخزانة الحديديّة، فيما راح الضابط يستجوبنا حول أشياء لم أجد أيّ رابط منطقّي بينها، ذخيرة حربيّة، مسدّسات، سجائر، حزم أوراق بيضاء معدّة للطباعة، هواتف ذكّيّة، بطاريّات شحن، ثمّ خرج الجميع، وتركوا مذهولين نتساءل عن سبب هذه الزيارة غير المرغوب فيها.

«رفائيل» هو الوحيد الذي كان متّأكّداً أنها وشایة حقيرة كصاحبها «آيزنکوف»، وحان نظره نحوي من «شلومو»، الذي أكّد لها دون أن ينطق ما قاله لي سابقاً حول ضرورة تونخي الحذر من هذا الشّيطان، في حين اعتبر «عزرا» أنّ حبه مهدّد بهذه الزيارات، وأنّه يجب أن يتّخذ مزيداً من الإحتياطات الأمنية حول هاتّقه الذكّيّ، الذي كان قد أخفاه في دورة المياه، بطريقة اعتبرها مستعصّة عن العفاريت.

قبل شروق شمس الغد، كانت نظرات «بابلو» تشي أنّ هناك شيئاً خطيراً فادماً في الأفق.

كنا نتناول فطور الصّباح، نظر إلى نظرات كلّها استفسار عن الأوراق التي طلب مني إخراجها من القاعدة في أقرب وقت، هزّت رأسي أطمئنّه فتنفس الصّعداء، وراح يكمل عمله بنشاط وهمة، ثمّ فجأة لمحت «آيزنکوف» ينظر إلينا، وهو الذي لم أره منذ حادثة النادي.

(27)

- «كتائب القسام» عدو خطير، لا يرحمون من يقع في أيديهم.

هذا تماماً ما قاله «رفائيل»، لما بدأت أنباء الحرب في «غزة» تنتشر في كلّ وسائل الإعلام، وأصبحت حديث العامّ والخاصّ، وأخبار الموت تصل تباعاً للقاعدة، رغم تعليم إعلامنا الرّسميّ، ورغم المراقبة الدّائمة للأمن العسكريّ، يقولون أنّ انتشار هذه الأخبار يساهم في انهايّر معنويات الجيش، ويثير القلائل في صفوف القوات المقاتلة.

- عائلتك في مكان آمن ومحميّ، على أيّ شيء تقلق؟.

هذا ما أظهرته نبرة صوت «شلومو زوسمان» متفائل، في إشارة ضمنية لعائلة «رفائيل»، التي تعيش الآن في فندق في «طبريا»، بمنأى عن كلّ مكروه، ثمّ راح يقارن بين نوع القتال السّائد هناك ونوع القتال الذي تتعلّمه هنا.

لقد تدرّبنا على القتال في بيئة عدائيّة، ولا نعرف شيئاً عن قتال الشّوارع، حيث يختفي العدوّ وراء الجدار، ويتمرس داخل العمارة، وبين السيّارات المتوقفة، فكيف السّبيل إليه، ولا سيما إذا اتّخذ بعض الرّهائن دروعاً بشرية؟.

المسألة معقدة هناك لدرجة يصعب تصوّرها، ثمّ كيف تتحرّك الدّبابة داخل محيط عمرانيّ ضيق؟، ستصبح فريسة سهلة للإصطياد، هنا الرّمل والتّربة والubar، ولا شيء غير الفراغ، لا وجه للمقارنة أصلاً.

- سأّي دور «حيفا»، حرب «غزة» بداية اللعبة فقط.

كان هذا «عزرا» وهو يتمدد للنّوم، قبل أن نسمع شخيره بدقة أو اثنين على غير عادته.

- على ما ييدو أنّه تشاجر مع خطيبته، وإلاّ لكان الآن يتحدث إليها، أو أنّه اتّخذ احتياطاته منذ حادثة تفتيش عناصر «أمان» لغرفتنا.

قلت هذا في نفسي واستدررت لأنام على الجهة اليسرى، لأريح كتني الذي بدأ يؤلمي منذ الظهرة.

لم أشعر بأي أحد دخل غرفتنا، حتى هرّ شخص كتفي، وأشار لي ألا أثير أي ضجيج، فقط أتبعه في صمت للخارج، كان يبدو قلقاً على غير عادته، فقد تركته البارحة جذلان فرحا، لا يعكر مزاجه شيء.

- إسمعني جيداً «دافيد»، سأسلم شحنة تمر بالسيارة في قلعة «بطيش»، ثمّ أعود، لقد أخبروني أنها تقع أمام «أوفاكيم»، المدينة التي تقطن أنت فيها، هل ترافقني؟.

- هل هي فكرة جيدة؟، لا أستطيع مغادرة القاعدة دون إذن كما تعلم، كيف سأخرج كيف سأدخل؟، نحن في حالة حرب، لا تساهل في ذلك إطلاقا.

- لن يكتشف أحد الأمر، ستنطلق فجر يوم الجمعة ونعود قبل غروب الشمس، سيكون أصدقائي في الحراسة يومي الجمعة والسبت، وسنمر دون طلب استفسارات، أرجوك «دافيد» وافق؛ لا أعرف شخصا آخر يمكنه مساعدتي غيرك، أنت وحدك «دافيد»، أنت وحدك من يستطيع مدّ يد العون لي.

ترددت قليلاً ثم قلت:

- لا بأس، موافق، لكن هناك شيء غير منطقي، من المسلم به أن تأتي بالتمر إلى هنا، وليس أن تذهب به بعيداً عن المطعم؟.

غادر بسرعة بعد أن أعطاني زجاجة عطر فاخر من النوع الذي دأب على شرائه، «أرماف كلوب»، مشيراً لي أنه سيفهمني كل شيء غداً لما أذهب معه، مؤكداً الموعد، الخامسة فجرأ، ومشيراً إلى مكان يبعد عنها حوالي ثمانمائة متر.

وكنت هناك تماماً في المكان والزمان، أحمل حقيبة ظهر وضعت فيها ملابسي المدنية، حين أتى «بابلو» بسيارة «رونو ماستر»، المرقّمة لعام 2022، رمادية اللون.

صعدت معه، وخرجنا بشكل عادي من القاعدة، لا أحد سألنا، ولا أحد أوقفنا، ولا أحد فتنش السيارة، وتخيلت أننا من القيادات ذوي الرتب العالية، ندخل ونخرج متى ما أردنا.

في الطريق شرح لي كل شيء وأنا أستمع فقط، دون أن أتكلّم أو أسأل.

أيقنت الآن سبب وضعه معنا في سلاح المدرعات، ثم سبب نقله للمطعم.

ليستغلوا جهله في تسيير مصالحهم، هذه هي خلاصة ما وصلت إليه، وطافت بذهني عبارة «شلومو» التي دأب على تكرارها، «إن كان ولا بدّ، فيجب التضحية بأحدّهم»، وزدت اقتناعاً أن هناك أشياء تجري في الخفاء، نعم في الخفاء لا يعلم بها الناس، هنا في إسرائيل أرض اللبن والعسل، وأن «شلومو» يعرف الكثير والكثير.

صلب القصة أن هناك من وعده بتهريب «مارغاريتا» من السودان، مقابل خدمة بسيطة يسديها، وهي تكفله بنقل سيارة محملة بالتمر لقلعة «بطيش»، حيث سيسلّمها شخص يكون في انتظاره، يفرغ السيارة من حمولتها، ثم يرجعها له فارغة ليعود بما للقاعدة، هذا هو الملخص، أو بالأحرى ما يظهر من القصة.

حاولت أن أفهمه أنّ هذا تصرّف غريب يشيء بشيء غير قانونيّ، من المؤكّد أنّ شيئاً ما تحت الحمولة، فصرّح أنه يعلم أنّ تحت التّمر أسلحة وذخائر مهربة، وأنّه في وضعية لا تسمح له بالإحتيال، ثمّ سكت برهة وقال في نبرة إحباط:

– هذه هي الفرصة الوحيدة التي لن تتكّرّر لتهريب «مارغاريتا» من «السودان»، إما أنّ أقبل ويأتون بها إلى هنا، أو تبقى هناك لتنقّل في خضمّ المعارك والإشتباكات، ستندلع مواجهات جديدة بين قوات «الدعم السريع» والحكومة.

– كيف عرفت؟.

– أوروروه «دافيد».

ثمّ تغيّرت نبرته إلى نبرة الواثق من نفسه، فغمز بعينه اليمني قائلاً:

– لا تخف، لست غبيّاً كما يعتقدون، لدىّ الحافظة السوداء.

– حافظة الأوراق السوداء؟، إعتقدت أنّها أوراق تخصّك أو تخصّ فتاتك، هذا هو الإنطباع الذي أخدته عنها ما دمت لم أفتحها حسب رغبتك.

– أنت فيك «دافيد»، لذلك أعطيتك الحافظة لتخرجها من القاعدة في أقرب وقت، وبسببها أتوا لتفتيش غرفتكم؟، ملن أعطيتها؟.

– لصديق مقرّب عزيز لا تعرفه، جاري...

كدت أذكر اسم «غابي»، لولا فرملة مفاجئة جعلت رأسي يكاد يصطدم بسبيبها بالزجاج الأماميّ، لقد اجتاز الطريق أمامنا شيء قدر «بابلو» أنه حيوان صحراويّ، مرّ مسرعاً جداً إلى الناحية اليمني.

ثمّ تلقّى اتصالاً من أحد أصدقائه، أشغله قرابة نصف ساعة، فُنسي الموضوع، لكنّي تذكّرت وهو في قمة انشغاله بال maksala - عما كان الضابط يسأل عنه، تذكّرت كلّ الجمل والعبارات التي لم أحد الرابط المنطقيّ بينها، ذخيرة حرية، مسدّسات، سجائر، حزم أوراق بيضاء معدّة للطباعة، هواتف ذكية، بطاريّات شحن.

وأكمل «بابلو» حكايته بعدها، ويا ليته بقي ساكتاً وبقيت أنا في اعتقادي السابق الذي يقيني في منطقة راحتي.

ما شأني وشأن الفواتير الأصلية للإستهلاك السنوي للذخيرة؟.

ما شأني أنا وشأن تهريب السلاح داخل وخارج إسرائيل؟.

الأوراق الآن مع «غابي»، وأخبرته أنّها تخصّ صديقي، وربما دفعه الفضول للإطّلاع عليها، وقال – عن سوء فهم - أنّي كذبت عليه متعمداً، وربما كانت القائلة «أتارا»، التي أحرص أن أبقى نقّياً طاهراً أمامها نقاء الألماس.

ما كان ليفتضح شيء لو لم يطلب أحد الضباط في الشرطة العسكرية ممن عينوا حديثاً رشوة ضخمة جداً مبالغ فيها، ليغمض عينيه عن الشحنة، فرصة أنتهى على طبق من ذهب، كي يجني أموالاً بسرعة البرق، خارج مرتبه في رمثة عين، هذا التصرّف لم يكن متوقعاً لدى العصابة التي خطّطت وتحطّط لعمليات التهريب منذ سنوات خلت، مما أدى إلى تقلص الأرباح، فكان الحلّ الذي رأوه مناسباً هو سحب الفواتير التي وضعوها كأصلية، وتعويضها بأخرى، أو لنقل ما نعتبرها فواتير أصلية، التي استطاع «بابلو» سرقتها من مكتب أحد الضباط، ليؤمن نفسه من اتخاذه كبش فداء، حين يجب أن يقدموا قرياناً للعدالة، حين يجب أن يضعوا شخصاً في فوهة المدفع، والفارق يتقدّمه الضباط المشتركون في التهريب، بعد بيع الذخيرة في السوق الموازية.

صُعقت للأمر، كيف يحدث هذا في إسرائيل؟، وعلى يد ضباطها؟.

وتذكّرت المثل الذي يرددّه حارنا الطّيب السيد «ريكاردو»؛ «حاميها حراميها».

الآن... هم يبحثون عن اختلاس منهم الفواتير، طبعاً دون إثارة شكوكهم في غنى عنها، يفتّشون في أية منطقة يظنّون مجرد الظنّ أنها هناك، ويموّهون عملية التّفتيش، كي تبدو لغرض الكشف عن المخدّرات أو فيديوهات مخربّي «حماس»، التي انتشرت بكثرة بين المجنّدين والمجنّدات، بدعوى أنها تؤثّر على الروح المعنوية للجيش.

إنّهم يعرفون كيف يستغلّون الأوضاع جيّداً.

- وصل التهريب منذ سنوات لذخيرة الدبّابات، ومن يدفع أكثر يتسلّم الشحنة، السلاح لا يبور مطلقاً ولا يكسد، ثمّ من هذا الذي يستطيع اكتشاف الكمّية الحقيقية لاستهلاك كلّ أنواع الذخيرة في قاعدة واسعة رحبة مثل «شيزافون»؟، أرباح طائلة «دافيد»، أرباح عمالين الشّواكل كلّها تهرب إلى بنوك «سويسرا»، ويطعموننا نحن شعارات زائفة، «أرض اللّبن والعسل»، «إسرائيل لا تهزم»، «نحن هزمنا ستة جيوش عربية».

كلّما يتكلّم ترداد صعقي، ويزداد افتتاعي أنّ «شلومو» يعرف الكثير والكثير والكثير.

كنت قد ارتديت في الطريق سروال جيّز مائل للسواد، وقميصاً رماديّاً مع سترة بيّنة، وحين أوشكنا على الوصول، خفّض «بابلو» السرعة طالباً مني أن ألقى بنفسي من السيارة، حين يعطيوني الإشارة في اللحظة المناسبة، فربما كان هناك شخص يراقبنا من بعيد، والتعليمات الموجّهة إليه صريحة صارمة واضحة، «إذهب وحدك»، ثمّ نلتقي بعد تسلّم الشحنة بعد ساعة فقط.

وألقيت نفسي من السيارة في منعطف حادّ، بعدما أبقيت له مشروب طاقة أردت التخلص منه بعد تحذيرات طبيبة العيادة، ثمّ تذكّرت أنّ ساعة واحدة لا تكفي لزيارة العائلة، و«غابي» و«أتارا» والسيد «ريكاردو»، وبافي معاشر، لذلك اختبأت في الجوار أراقب ما سيحدث.

تبعد قلعة «بطيش» عن «أوفاكيم» بحوالي كيلومترتين فقط إلى الشرق، مزار سياحيّ بامتياز، أو هكذا أصنّفه، لما لهذه القلعة من هيبة في نفسي، تقع على ربوة تشرف على منطقة مفتوحة واسعة، مكان هادئ لم تلوّثه أيادي الحضارة، وعادة ما ينظّمون هنا حفلات موسيقية ليلية، وعارض فنيّ، كي يعطوا للمكان بعداً

ثقافيّاً، كنت آتي هنا مع «غاي» أحياناً حين يلحّ عليّ للتخفيف عن أنفسنا، ثمّ نتولّ لمعارة تقع تحت القلعة على بعد حوالي خمسين متراً عنها.

ما إن وصل «بابلو» بدقة فقط، حتى خرج شخص من القلعة، يرتدي نظارة سوداء وسترة بنية اللون، أخذ منه المفاتيح، وأشار له بالإنتظار هنا ثمّ ابتعد بسرعة بالسيارة.

بعد أقلّ من ساعة، كانت جاهزة للعودة.

لم أستطع الإقتراب من «بابلو» فقد حرص الشخص الذي استلم السيارة على البقاء قربه، كي يتأكد من مغادرته، معنى هذا أن لا وجود لأية مراقبة أخرى، وفعلاً تأكّدت من ذلك لما اختبأ في الجوار.

جريت بأقصى سرعي من مكان آخر، لألحق به دون أن يتفطن الشخص الذي أرجع له السيارة، ثمّ أشرت له من بعيد أن إذهب، حين بدأ صاحب النظارة السوداء يتحرّك بدوره، وهو حريص على متابعة «بابلو»؛ الذي فهم إشارتي، بينما توجهت أنا لزيارة عائلي.

كنت أفكّر في زيارة أبي في مستشفى «سوروكا»، وأعود مع «غاي»، مستغلاً وجود أصدقاء «بابلو» في الحراسة يوم السبت، يوم العطلة المقدّس لدينا نحن اليهود، حيث تكون الحركة من وإلى القاعدة شبه معدومة.

(28)

- لقد سافر للقمر بمركبته الفضائية.

هذا ما قالته لي أم «غابي» ضاحكة حين ذهبت إليه لأستلم الحافظة السوداء، داعياً ربّ أن أجده في المرآب، ثم عادت بجديتها:

- يتحول بسيارته التي غير مجدداً محركها، أين سيكون؟، من الأفضل الإتصال به لتحديد مكانه بدقة.

بيد أني تذكريت نصيحة «بابلو» بتجنب التحدث بالهواتف مهما كانت الأحوال، لأنّ هناك احتمالاً كبيراً أن يكون مراقباً، فتركـت له خبراً عنـها أن يـأتي إلـيـ على عـجلـ، فيـ بـيـتـاـ أوـ فيـ بـيـتـاـ، مـلـحـاـ عـلـيـهاـ أنـ تـعـلـمـهـ بـالـأـهـمـيـةـ الـقـصـوـيـ لـلـمـوـضـوـعـ، بـحـيـثـ لـاـ يـحـتـمـلـ التـأـخـيرـ.

كانت أمي في المطبخ منشغلة كعادتها حين قرعت جرس المدخل، لم تتوقع أبداً زيارتي، فقد عانقتـيـ بـرـيـلـةـ مـلـطـخـةـ بـالـطـمـاطـمـ، وـظـلـلـتـ مـتـمـسـكـةـ بـيـ، غـيرـ مـصـدـقـةـ وـجـوـدـيـ أـمـاـهـاـ:

- «دافـدـ»، حـبـيـيـ، إـيـاكـ أـنـ ثـوـتـ وـتـرـكـيـ وـحـيـدـ، لـقـدـ قـتـلـهـ وـهـوـ لـمـ يـتـحـاـوـزـ التـسـعـ عـشـرـةـ سـنـةـ منـ العـمـرـ، صـدـيقـ الـقـدـيمـ «عـبـرـانـ عـلـوـيـ»، دـفـنـاهـ مـنـذـ أـيـامـ.

وـشـهـقـتـ شـهـقـةـ، وـهـيـ تـحـاـوـلـ غـرـسـ أـصـابـعـهاـ فيـ ظـهـرـيـ، حـتـىـ جـاءـتـ «يـاعـيـلـ»ـ منـ المـدـرـسـةـ.

أـخـبـرـكـمـاـ أـنـيـ سـأـزـورـ أـبـيـ الـآنـ فيـ الـمـسـتـشـفـيـ كـيـ أـعـوـدـ غـداـ لـلـقـاءـهـ، سـأـذـهـبـ إـلـيـ «ـسـوـرـوـكـاـ»ـ لـأـرـاهـ وـبـرـانـيـ، وـصـدـمـتـيـ إـحـابـتـهـاـ وـالـدـمـوعـ فيـ عـيـنـيـهاـ، مـازـجـةـ بـكـاءـ الـفـرـحـ بـكـاءـ الـحـزـنـ.

- سـيـقـىـ مـشـلـوـلـاـ طـوـلـ حـيـاتـهـ، وـالـأـطـبـاءـ يـخـفـونـ عـلـيـهـ الـأـمـرـ، كـيـ لـاـ يـتـأـثـرـ نـفـسـيـاـ، أـنـتـ تـعـرـفـ تـحـسـسـهـ لـلـمـوـضـوـعـ، أـمـلـ فيـ عـمـلـيـ الـعـمـوـدـ الـفـقـرـيـ ضـعـيفـ جـدـاـ لـاـ يـتـحـاـوـزـ خـمـسـ بـالـمـائـةـ، بـسـبـبـ التـهـتـكـ الشـدـيدـ الـذـيـ سـبـبـتـهـ الرـصـاصـةـ لـلـنـخـاعـ الشـوـكـيـ.

أـسـقـطـ فيـ يـدـيـ، وـأـنـاـ أـرـىـ الـآنـ تـضـحـيـاتـ أـبـيـ منـ أـجـلـ دـوـلـةـ إـسـرـائـيلـ تـتـحـوـلـ إـلـيـ بـخـارـ.

أـبـيـ الـعـسـكـرـيـ الشـجـاعـ الـذـيـ أـعـطـيـ سـنـوـاتـ شـبـابـهـ جـيـشـ الدـفـاعـ، يـخـرـجـ الـآنـ أـمـامـ أـعـيـنـاـ مـنـ بـابـ ضـيـقـ، لـاـ يـسـعـ تـضـحـيـاتـهـ الـعـظـيمـةـ.

أبي الذي كان «شارون» و«موشيه ديان» مثاله الأعلى، سيقضي ما تبقى من حياته على كرسيّ متحرّك، نضعه به كلّ يوم أمام الشّمس.

إستأذنت أمّي لزيارة «أتارا» وقلبي يكاد يتمزّق ألا على الحالة التي آلينا إليها، كنت متأكّداً أنّي سأجدها في المترّل بعد انتهاء دوام الدراسة، وشكّرت الربّ أنّي وجدت معها أمّها السيدة «ليزا»، لأنّي كنت أنوّي مناقشة موضوع «بابلو» وقريب الذّبحة، لا سيما وهي تعمل صحفيّة في جريدة «هاريتس»، ويهتمّها كثيراً مثلما يهتمّي إجراء تحقيق عميق، تكشف فيه كلّ خفايا هذه اللعبة القدرة.

لم تصدق بداية أنّي أمامها، فقد اعتقدت أنّي ما زلت هناك في قاعدة «شيزافون»، وعليها الانتظار حتّى انتهاء الدّورة الثانية ليمتحوني إجازة طويلة، بدا لي لوهلة أنّي تعرّفت على «أتارا» في أوقات صعبة جدّاً، وما حدث فجأة، خلط كلّ الحسابات والتّوقّعات، وأفسد الأحلام التي اقتسمناها سوياً.

- إنّها فضيحة جديدة تضاف للحكومة الإسرائيليّة، فوق فضيحة المروحيّة التي قصفت المارين من مهرجان «نوفا».

كان هذا أولّ ردّ فعل من السيدة «ليزا» قبل مناقشة الموضوع، بكلّ حيّباته وتفاصيلاته، يبدو أنّها مثل «شلومو»، تعلم الكثير والكثير، بحكم موقعها؛ وتستطيع الوصول إلى معلومات خطيرة عن الوضع العامّ الإسرائيليّ، ثمّ طلبت رؤية المستندات، للدراستها وتقديمها أدلة دامغة مع التّقرير، دون الإشارة الصّريحة لأيّ من استطاعوا تهريب الوثائق، حفاظاً على سلامتهم، وخاصة «بابلو»، الذي لولاه لما كشفنا ما يدور في الخفاء.

بعد أربع ساعات من النقاش، وفتح أبواب جميع الإحتمالات الممكنة، وجدنا أنّ ما يعوقنا هو الوصول إلى «غاي» فقط، فالمستندات معه، وهو وحده من يملك القدرة على دفع العجلة للأمام.

أخيرّهم أنّي تركت له خبراً مع أمّه، ليتحقّق بمحترلنا، أو يأتي إلينا هنا عاجلاً، كما لا أستطيع الإتصال به، حسبما حذّرني منه «بابلو» سابقاً، وهنا حاولت «أتارا» الإتصال به بدلاً عنّي، لأنّ رقم هاتفها غير معروف لديهم، فلا يمكنهم التّجسّس على مكالمتها، غير أنّنا وجدنا مجداً حجر عثرة في طريقنا، هاتفه يرنّ ويرنّ ولا يجيب، ومهمماً حاولت وحاولت تلقي نفس النّتيجة.

- ربما لم يسمعه، أو كان يصلّح شيئاً تحت سيّارته، أو كان الهاتف بعيداً عنه.

قلت هذا وأفكاري المشوّشة ترافق أعصاّي، فلا أكاد أسيطر عليها، أحاول جاهداً أن أعطيها شكلاً يطمئنني، ولو مؤقاً، ويطمئنّهم معي.

- ربما تخلّصوا منه فهو وحده من يملك الدليل.

قالتها «أتارا» والرّعب في عينيها، أقتتها كرصاصة انطلقت للتوّ من سلاح آليّ، وبدأت مخاوفي تصبّع، أنا السبب إذا حدث مكروه له، أنا الذي قدمته للموت بيدي، يا ليتني لم أعطّه شيئاً.

يمكن أن يكون «آيزنکوف» قد رأى فحرّض أحدهم على التخلّص منه؟.

لكن ما دخل «آيزنکوف» في الموضوع؟، لمشكلي معه مسار مغاير.

وراحت الوساوس تأخذني بين القطبين كعادتها حين يشتّد قلقي، وألقيت بصري نحو شاشة التلفزيون، لعلّي أنجح في الهرب من هذا الكابوس، كان صوته ضعيفاً، فقد قامت السيدة «ليزا» بخضه لما بدأ النقاش واحتاجنا للتركيز الشديد، ثم رأيت فجأة سيارة تشبه السيارة التي جئت فيها، وهي مقلوبة على حافة الطريق تأكلها النيران، أشرت بإصبعي نحوها مشدوها بعينين لا يرتد لهما رمش، فقد أخرست الصدمة لسانِي، وأنا أرى مصرع «بابلو» واقعاً مسداً أمام عيني.

ونظرت «أتارا»، صرخت، ثم كتمت صرختها بيدها.

لقد دخلنا نفقاً مظلماً لم نحسب له حساب، لقد دفعوا بشخص للمقصولة، لقد ضُحِيَ بصديقي، ولو ذهبت معه ل كنت الآن في عداد الموتى، هناك على شاشة التلفزيون، تراني أمي و«ياعيل» و«غابي»، والسيد «ريكاردو» وزوجته وبنته، وعمدة المدينة، وأصدقائي في الثانوية، و«دانيال أدموني»، والجميع في «أوفاكيم».

– لقد تخلّصوا منه بعدما انتهى دوره.

إنّها السيدة «ليزا»، وهي تنظر إلىّي، تؤكّد ما كان مؤكّداً من قبل، ثم تسأّلت «أتارا» وهي تترّقّب مني أية إشارة، وقد احتلّت لديها مشاعر الحُنف والحزن والجيرة:

– الحادث مدبر؟.

هزّت أمّها رأسها بالإيجاب عنّي، وعلامات الأسف جلية في مقلتيها:

– يا للهول!، لو رجعت معه لقتلته، هذه عصابة منظمة حيّاً، تعرّف متى تضرب، وأين تضرب، وبوسيلة لا يرقى إليها الشكّ، نحن نتعامل مع أناس على قدر كبير من الخطّر، لهم نفوذ واسع في الدولة، وغايتهم تبرّر وسائلهم.

واستمرّ عرض الصور ذلك المساء، واستمرّت معها معاناتي النفسيّة.

شاحنة من شاحنات نقل البضائع تصطدم بسيارة «بابلو»، فترديه قتيلاً على الفور، ثم تشتعل النار وتتأجّج، بشكل يقطع نهائياً كلّ أمل حيّ في الخروج من هذا الفرن.

كان الحادث حوالي السّاعة الواحدة بعد الزوال، في الطريق رقم 40، قرب «شيطيم» بالضيّط، قبل أقلّ من عشرة كيلومترات عن قاعدة «شيزافون».

من سيجلس معي ليلاً يسامريني حين تتألّأ النّجوم في السماء؟، وماذا سأقول لأصدقائي حين يسألون عنه؟، «عزرا» و«رفائيل» و«شلومو»؟، كيف سيكون شكل المطعم وأنا أفتقد فيه «بابلو»؟، غريبة هي الدنيا، نأتي إليها ثم نذهب إلى حياة أخرى، بسرعة كأنّا لم نأت إليها في لحظة من اللحظات.

خرجت من متل «أتارا» في ساعة متأخرّة، رغم إصرارها على المبيت لديهم بسبب يوم السبت، اليوم المقدّس لدينا نحن اليهود الذي لا نفعل فيه شيئاً، لكنّي أمام قلقي، فضلت الرّجوع لمتلنا، وديديني «غابي»، الذي

بحثت عنه مجدداً في المترّل، فوجدت أمّه في حالة نفسية رثّة، هاتّفه لا يجيب حين هاتّفته هي أيضاً، كانت تخشى الإرتفاع المفاجئ للسّكر في دمه، ورّعاها هو فاقد الوعي الآن في مكان ما، وحين تجاوزت السّاعة منتصف الليل ولم يظهر لا هو ولا سيّارته؛ أبلغت الشرطة.

كنت معتمداً على «غابي» ليعيدين للقاعدة، خاصة وأنّ غداً يوم السّبت، كلّ شيء متوقف، وإذا تأخرّت أكثر من هذا اكتشفوا غيابي، ووُجدت نفسي بين ليلة وضحاها وحيداً مهزوماً كسيّر الحال، قد أوصدت كلّ الأبواب في وجهي.

ونمت، ولا أعرف كيف نمت، حتّى استيقظت صباحاً منهاكاً تماماً من كثرة التّفكير، صلّيت صلاة الصّباح وذهبت للمطبخ، لأنّها تأول الفطور المجهّز منذ البارحة.

أنت «أتارا» أولاً ثم تبعتها أمّي، بنظرها الحرينة:

ـ ستدّهـب اليـوم؟.

ـ نـعـمـ، أـعـودـ كـيـ لاـ يـكـتـشـفـواـ غـيـابـيـ غـداـ فيـ طـابـورـ الصـبـاحـ.

ـ كـيـفـ؟ـ، كـلـ شـيـءـ مـعـطـلـ، الـيـوـمـ يـوـمـ سـبـتـ.

ـ لـاـ أـعـرـفـ، كـنـتـ مـعـتـمـداـ عـلـىـ «ـغـابـيـ»ـ وـهـوـ الـآنـ مـخـتـفــ، وـلـاـ أـحـدـ يـعـرـفـ مـكـانـهـ، حتـىـ أـمـهـ.

ـ سـأـذـهـبـ إـلـيـهـاـ بـعـدـ الغـرـوـبـ لـأـوـاسـيـهـاـ.

قالـتـهـاـ أـمـيـ وـهـيـ فـيـ الـوـاقـعـ تـبـحـثـ عـمـّـنـ يـوـاسـيـهـاـ.

ـ آـهـ تـذـكـرـتـ، شـقـيقـ صـدـيقـيـ الـأـكـبـرـ «ـحـايـمـ»ـ يـذـهـبـ الـيـوـمـ لـمـدـنـيـةـ «ـإـيـالـاتـ»ـ، سـيـوـصـلـكـ معـهـ فيـ طـرـيـقـهـ الطـوـلـيـلـ، أـنـاـ مـتـأـكـدـةـ أـنـهـ سـيـفـرـحـ كـثـيرـاـ، سـيـارـتـهـ «ـأـوـبـلـ»ـ، قـوـيـةـ وـسـرـيـعـةـ مـثـلـ الـبـرـقـ.

كـانـتـ هـذـهـ «ـيـاعـيـلـ»ـ مـنـقـذـيـ منـ الغـرـقـ.

قـفـزـتـ مـنـ مـكـانـ كـمـنـ وـخـزـتـهـ إـبـرـةـ حـادـّـةـ، وـأـنـاـ غـيـرـ مـصـدـقـ، ثـمـ أـكـمـلـ وـهـيـ تـنـهـضـ مـنـ مـكـانـهـ بـنـشـاطـ.

ـ تـعـالـ مـعـيـ سـأـهـاتـفـهـاـ، مـاـ بـالـيـدـ حـيـلـةـ.

بعد أقلّ من نصف ساعة كنت في سيّارته السوداء «أوبل أسترا»، بحقيقة الظّهر التي أحضرتها معّي، مرتدية الزي العسكري، وهو يهيني نفسياً لإمكانية تعطّلها في أيّ وقت، وعن الفخ الذي وقع فيه حين اشتراها من أحد السماسرة، وأنّه كان في سذاجة الخروف، وغباء القرد، ثمّ بدأ يسبّ ويلعن، وأنا أقول في نفسي:

ـ هلـ هـذـهـ هـيـ السـيـارـةـ الـيـ سـتوـصـلـنـاـ؟ـ يـسـيرـ بـيـطـءـ السـلـحـفـةـ خـشـيـةـ تـفـكـكـ شـيـءـ مـنـهـاـ، وـتـقـولـ «ـيـاعـيـلـ»ـ.

ـ أـنـهـ سـرـيـعـةـ كـالـبـرـقـ، أـيـنـ أـنـتـ الـآنـ يـاـ «ـغـابـيـ»ـ؟ـ.

ما إن دخلنا الطريق السريع حتّى توقفت، واضطربنا إلى الإنتظار أكثر من ساعتين، حتّى تنخفض حرارتها، أكثر من ساعتين ونصف ونخمن على حافة الطريق، وأنا أمّا هذا الأشيب صاحب الخمس والأربعين

سنة، المتوسط الطول، ذو اللحية الخفيفة والشارب والسترة السوداء، مجبر على الاستماع إليه، الذي يطلب مني كلّما حكّ رأسه أن أذكره بإسمي، حتى أني فكرت جدياً أن أخلص منه، وأركب مع أيّ شخص آخر من يمرون علينا، وهو ما زال يحكى عن السمسار الذي خدعه، والميكانيكي الإنتهازي الذي سلب منه أربع آلاف شيكل نقداً، ثمّ الذي باع له بطارية قديمة على أنها جديدة فوجدها لا تعمل، وأوشك على قتله حين رفض تغييرها، وبائع قطع الغيار، الذي أخذ منه سبعمائة وخمسين شيكلاً، مقابل قطعة فولاذية صينية المنشأ غير أصلية في المحرك.

دون الحديث عن التوقفات الأخرى لقضاء الحاجة، فتارة لديه مشكل في البروستاتا، وتارة لديه عسر هضم بسبب له إمساكاً مؤلماً، وتارة أخرى إسهالاً مفاجئاً لم يكن يتوقعه.

حين وصلنا بعد السّاعة السادسة مساءً، صافحني قائلاً بتبرج يشبه تبرج «دانيال أدموني»:

– ألمّني ألاّ أكون قد أزعجتك بثرثري أيّها الشّاب... ذكرني باسمك أرجوك.

(29)

يبدو أنّ أمّي حين غادرت، دعت لي الربّ مخلصة أن يوقفني في ذلك اليوم، فقد وجدت أصدقاء «بابلو» في الحراسة كما أخبرني تماماً، لم يتغيّروا، مررت دون أن أقول شيئاً، لم أرد أن أثير انتباهم كي لا يشار التّساؤل عن سبب تواجدي معه في السيّارة، وانسللت إلى غرفتي مباشرة كأنّ شيئاً لم يحدث، وجدت هناك «شلومو» وهو يستعدّ للرسم بعد الغروب وقد حضر أدواته.

أثار حزني الظّاهر انتباذه، فالتفت إلى مستفسراً بحركة من رأسه، وحاجبين مقطّبين، فبادرته:

– «بابلو»... مات في حادث مرور، رأيت ذلك في التّلفزيون البارحة.

– غير معقول، هل كان هو؟، حادثة «شيطيم»؟.

هزّت رأسي وقد بدأت الدّموع تنساب على وجهي كنبع ماء

ذهب «بابلو» واختفى «غابي» ومعه المستندات، وأنا نحوت من الموت بأعجوبة، ولا أعرف ما الحال الآن.

– آه تذكّرت، لقد بحث عنك أحد الضّباط اليوم، سأّل عنك هكذا دون اهتمام.

أجحبني المفاجأة، من هذا الضّابط الذي يسأّل عنّي يوم السّبت؟، كم من سبت مرّ علىّ هنا ولا أحد سأّل عنّي، لماذا الآن بالذّات؟.

– أين كنت «دافيد»؟.

قالها منشغلًا بأقلامه وأوراقه البيضاء دون أن يرفع لي طرفاً.

– لا أتدخل في شؤونك لكن لا يبدو الأمر طبيعياً، أشعر بشعور غريب لست مرتاحاً له إطلاقاً، من الأفضل لو تتكلّم مع طبيبة العيادة وتجهز لك سبياً مقنعاً للغياب، أو سيقولون أنّك غادرت القاعدة دون إذن.

ثمّ أردف وهو ينظر إلى محذّراً:

– أخرج من المنطقة الرّمادية، ستواجه السجن خمسة عشر يوماً، هذا في أحسن الأحوال، وربما اتهموك بالتجسس أو بشيء آخر.

لم أهتم لكلامه، فقد مللت من التفكير الزائد الذي أتعبني نفسياً، تعبت من هذا الحوف الذي يقيّد عقلي وعواطفني، أنا الآن لم أعد أهتم لشيء... لأنني سئمت كل شيء، أبحث عن عالم جديد نقيّ يأويّني، لم أعد أهتمّ لمن مات أو قُتل أو اخترس أو سرق، سئمت نفسي، لا أعرف... ربما أكون في حالة صدمة أو تأكّل أو في بداية اختيار عصبيّ، أجد صعوبة في اختيار الألفاظ والعبارات المناسبة لشرح معاناتي، أشعر بضباب يلفّني، ورائحة غريبة تجتاح أنفي.

نمت بحزني دون تناول وجبة العشاء، صراحة؛ لا أستطيع الذهاب لمكان أرى فيه ظلّ «بابلو»، يجبوب المكان جيئة وذهاباً بين الكراسي والطاولات، وأشمّ رائحة عطره العالق بأنفي، الذي ما بخل ولو مرة علىّ به.

أيّ قلب يتحمل مكاناً جمع ذكريات في طعم العسل، تتحول بين ليلة وضحاها إلى علقم؟.

أيّ قلب محظّم يستطيع رؤية المزيد من الخطام؟.

نمت وأنا أتمنّى أن أستيقظ في الجنة لأرتاح نهائياً من همومي المتّامية تنامي العشب والفطريّات، نمت وأنا أعي فعلاً سبب انتشار هؤلاء المساكين، يمتلكهم الإحباط ويسود العالم في أعينهم، رغم مباهجه ومسرّاته، فيلجمون لرصاصة من عيار صغير هي في الواقع أقوى حواز سفر للعالم الآخر.

نمت لأستيقظ على صوت الضابط اللعين الذي قال أننا ذاهبون لمركز القيادة، ثم انحرف بي إلى أحد المكاتب حيث أمرني بالذهاب إلى «سديروت»، مركز تحشيد الجنود الذين سيسيّاقون لحفهم هناك في «غزة».

كانت السّاعة تقترب من العاشرة صباحاً حين وصلت هنا يوم الأحد، الحادي والثلاثين من ديسمبر 2023، هالي منظر آلاف المجنّدين والمجنّدات، ما يقارب المائة ألف جندي، يشغلون مساحة واسعة على مرمى البصر، مع مدرّعاتهم، وأصوات محرّكّات المادّرة، بعد أن تمّ إخلاء المستوطنات والكيّوتات.

أقمت مع رفقاء الجدد في موقع ميدانيّ غير بعيد عن «سديروت»، أمام السياج الفاصل، بعد أن ودّعت «عزرا غولدشتاين» و«رافائيل أشكينازى» و«شلومو زوسمان»، أصدقاءي القدامى الذين لن أنساهم ما حيّيت، ولن أراهم بعد الآن، وصلت هنا متّحسرة على ما حدث لي، ولم أكن أعرف ما سوف يحدث.

قدمت نفسي في مركز التّحشيد مبرزاً أمر الإنقال المستعجل، فوجّهوني لغرفتي في الإقامة الميدانية للجنود، من أجل الرّاحة، في انتظار الغد الذي لا أعرف ماذا يخبّئ لي فيه.

مدمرّ نفسياً، وبشعور بعوض القيّت بجسمي على السرير، وفي ذهني ألف سؤال ينتظر كلّ واحد إجابة محدّدة أو إجابتين، لقد غيرّوا قلادي الحرّية التي تضمن التّعرّف على جيّي حين تحرق عالم الوجه، وجدت نفسي هنا برتبة عريف، بعد أن كنت على مرمى حجر من أن أصبح ضابطاً في المدرّعات.

هل يعرف الملازم «ديميترى» ما حدث لي؟، هل سيسكت أم سيدخل لإنقاذى من هذا المأزق؟، لقد ضاع حلمي الذى تحمس له وتحمّس له أبي و«غاي» والسيد الطيب «ريكاردو»، ماذا سأقول لهم؟، وبأى وجه سأقال لهم؟، ماذا سأقول لحبيبي «أتارا»؟، ستعتبرنى نسخة طبق الأصل عن «دانيال أدمونى»، وستكرهنى كرهها للشّيطان، ثمّ ما فائدة تعليمي وتحصيلي الدرّاسي في الرياضيات إذا كان هذا في النّهاية مصيرى؟، مصير صر صور.

ما جدوى شهادة «البغروت» وأنا أتساوى الآن مع من طُرد في التعليم المتوسط؟.

إستولت عليّ نوبة غضب عارمة، كم كت مغفلًا، مخدوعًا، مثل حمار الطاحونة.

ووُجِدَت نفسي ضعيفًا جدًا، لا حول لي ولا قوّة ولا نفوذ ولا واسطة ولا معارف، ضعيف بالمعنى الحرفي للكلمة، مثل مولود خرج للتوّ من بطن أمّه، لا يملّك لنفسه سوى البكاء والبكاء والبكاء.

- ستكون سائق دبابة، لدِيكِم خمسة عشر يوماً للتدريب الميداني فقط، لن تحتاجوا الجانب النّظري أو جهاز المحاكاة، خمسة عشر يوماً كافية للتحكّم في «الميركافا»، ليس لدينا وقت.

هذا هو مدربِي الجديد، الرّقيب «الكسندر كارهي»، ذو الستّة والعشرين ربيعاً، أوكرانيّ المولد والنّشأة، الذي عرّفَنا بنفسه مسهماً في الحديث في صراحة، وبساطة تختلف كثيراً عن صرامة «ديميترى»، ثمّ أتعّبُ:

- شيء واحد فقط هو ما يجب أن يكون مهمّاً لكم وواضحاً كلّ الوضوح؛ التقدّم بالدبابة مهمّاً كانت الموانع؛ توقّعكم سيفتكم جميعاً، هنا التّدريب... وهناك الموت، هنا العرق... وهناك الدماء.

وأشار ببيان سبّابته اليمني إلى «غزة»، فأتى إلى ذهني ما قاله لي «غاي» ذات يوم.

يختلف الوضع هنا عن قاعدة «شيزافون»، أشياء بدأت أكتشفها كلّما انغمست في حياة المعسّر، بدأت أعي معاناة الجنود، تصرّفات وسلوكيات تدلّ على أزمات نفسية حادة، هذيان أثناء النوم، إرتجاف لا إرادى، عزلة، عصبية، مناورشات بالسّكاكين على أبسط الأشياء، التّهديد بالقتل باستعمال السلاح، كحول ومخدرات، إدمان المهدّئات من أجل النّوم ليلاً، بل إنّي رأيت أحدهم يحدث نفسه!

كلّ واحد هنا إلاّ وله طريقته الخاصة في المروب من الواقع، في انتظار بروز حلّ واضح، مثل مدربِي اللّبّق «الكسندر كارهي»، الذي يفتح قلبه للجميع، يقول أنه سئم هذا الوضع البائس، وهو يحضر جدياً للهجرة للأرجنتين، لقد كان من أوائل من اجتاحتوا القطاع في السابع والعشرين من أكتوبر 2023، ضمن الكتيبة المدرّعة 52، ثمّ أرجعواه لتدريب المجنّدين، ورسّكّلتهم، بناء على الخبرة التي توفّرت لديه، يعتبر نفسه واحداً منا، بحيث لا تشعر بتلك المسافة التي تحول بينك وبينه.

علمت منه أنه جرى تدمير دبّابات لنا حين توغل الجيش في منطقة معبر «رفح» الحدوديّ، في الثالث والعشرين ديسمبر الماضي، ثمّ تدمير دبّابة أخرى هرعت لمكان الكمين مباشرة بقذيفة «ياسين 105»، ثمّ قال إنه تمّ سحب كتيبة من لواء «غولاني» لواء النّخبة الإسرائيليّة، بعد ستّين يوماً فقط من القتال الضّاري، بعد أن

تكبّد خسائر ثقيلة في كلّ تشكيلاته، وعليه وجب الحفاظ على ما تبقى منه، وعلى شرف الجيش الذي أهين، على يد مقاتلين لا يأبهون لمصيرهم.

إنّهم يجلّون الموت الذي تخشاه نحن.

- إسرائيل أرض اللّبن والعسل، لكن من يشرب اللّبن ومن يأكل العسل؟، الجالسون في مكاتبهم في «تل أبيب»، ونحن هنا نشرب الماء القدّر وتأكلنا النّار.

إجابة مفزعّة أجابني بها، حين تشوّجت لما رأيت فيه من تهذيب ولطف وتواضع، مستفسراً منه عما يحدث هناك وراء السّيّاج، وأظنّ أنّ الأمر أكبر مما أخبرني به.

أما في المساء، فسألت أحد الجنود العائدين من مهمّة قتالية عن الوضع، مرّ إلى جانبي مرهقاً وسلامه على كتفه، لكنّه أجابني بتذمّر ولا مبالاة:

- تدمير أربع مركبات مدرّعة هناك في كمين في «حجر الديك» أدى لمقتل وسحق أغلبهم.

نظرت مستفهما إلى صديقي الجديد الملازم «غريغوري آلكلاي»، فهُزِّ رأسه لي للتأكّيد.

يا إلهي، يبدو أنّها معارك طاحنة في شمال «غزة»، في حيّ «الرّيّتون» وفي «الشّجاعيّة» وجنوبياً، وخاصة في «خان يونس»، كلّ يوم تنقل المروحيّات الجرحي إلى مستشفى «بير شيفا»، إصابات فظيعة عند رفقائي، منهم من وجده محرقاً داخل دبّابته، ومنهم من فقد رجله أو يده، هؤلاء القتلى كانوا هنا بالأمس، يعيشون بيننا في مساحات التّحشّد، كانوا يشاركون صوراً وفيديوهات عبر حساباتهم في وسائل التّواصل الإجتماعيّ مع ذويهم وأصدقائهم، ويتفاخرون فيها بإنجازاتهم وأعمالهم القتالية البطولية، الحقيقة أحياناً والمزيفّة.

هذه الأشياء لم نكن نعرفها تماماً على هذا القدر من الرّحّم، حين كنّا في «شيزافون».

كُنّا نعيش في هدوء، بعيداً عن كلّ مسؤوليات الخطر، كانت الأخبار تصلنا عبر فيديوهات مهربة عن اصطياد الدّبابات، فاعتقدنا أنّ خطر الأمر يكمن في أن تصاب بالقذائف، ونسبة إصابتك ضعيفة، مقارنة بما ينتشر لنا من قوّات على الأرض، أما أن يتساوى الجميع في الموت، في إبادة شاملة، بحيث لا ينجو إلّا القليل؛ فهذا شيء يصعب تصديقه، حتّى تراه بعينيك.

(30)

الخميس الرابع من جانفي 2024، منطقة التّحشّد، «سديروت».

لقد فقدت كلّ أمل في العودة سالماً، وأيقنت بالهلاك بعد عشرة أيام من الآن، عندما تطاو قدماي تلك المساحة المخيفة الواقعة خلف السيّاح.

المسألة كلّها مسألة وقت فقط، ولن أرى بعد اليوم أمي أو أبي، أو «أتارا» أو «ياعيل»، أو «غاي»، سيصطادوني مثل العصفور مباشرة حين أعبر بالدبابة إلى الطرف الآخر، سيصطادوني بسلاح ككلّ الأسلحة وليس أيّ سلاح، يطلق من على الكتف، لا يحتاج لمنصة ثبيت، قذيفة طالما حذّري منها رفقاء، وخاصة «أفيحاي هرغوفي»، رقيب أول في لواء «جفعاتي»، مكلّف بحماية الدبّابات من القذائف، أثناء توغلها في المناطق الحضرية.

- نحن لم نتدرّب على قتال الشّوارع، لا التّدريع ينفعنا هنا ولا «معطف الريح»، هذه القذيفة لا ترحم ولن ترحم أحداً منّا، لقد صنعت خصيّصاً لسحقنا، إنّها تحرق بدن الدبابة كالسّكين الذي يقطع الزّبدة، وتتفجر في الدّاخل، مدمرة الذّخيرة والجنود معاً، يا ربّ «موشيه»، إنّهم يخرجون لنا من كلّ مكان، يضربون بعنف وسرعة، ثم يختفون تاركين ورائهم الموت والدّمار.

قالها بعصبية، وبصق على الأرض، مكملاً في استغراب حذر:

- ليست لديهم مناظير للرؤيا الليلية، ومع ذلك يروّنا في الظّلام الحالك، كأنّ الملائكة هي من تدلّهم علينا، حتّى «ميري سيناي»، لا يمكنه فعل شيء، عملية «السيّوف الحديدية» لن تنجح، لن تنجح، لن تنجح.

أردت منه شرحاً، غير أنه ذهب وهو ما زال يتصقّ، شاما الحكومة و«نتنياهو» و«غالانت»، وأنا ألتفت يمنة ويسرة، مخافة وجود أحد أفراد الإستخبارات العسكريّة، حتّى نكّرني صديقي الجديـد:

- لا تخـف «دافيد»، الوضع هنا يختلف تماماً عن الشّكـنـات والـقوـاعـد، هؤـلـاء رأوا الموـت أـمـام أـعـيـنـهـمـ، بحيث أصبح جهاز «أمان» لا يـمـثـلـ لهمـ أـكـثـرـ منـ بـعـوـضـةـ تـلـدـغـ، منـ عـرـفـ «اليـاسـينـ 105»؛ لا يـخـشـيـ السـجـنـ أوـ أيـ عـقـابـ آخرـ.

ذات تقنية ترافقها، بحيث تخترق الشحنة الأولى جسم الدبابة، وتتفجر الثانية في الداخل، تطلق مباشرة على بعد مائة متر، كمدي فعال قاتل لا مهرب منه، هذه المسافة القرية جداً يجعل عمل المستشعرات مستحيلاً، وبالتالي فإنّمنظومة «معطف الريح» لصد الصواريخ المضادة للدروع؛ ليست فعالة على الإطلاق، وعليه، كثيراً ما يلجأ جنود الهندسة إلى إقامة سواتر ترابية بارتفاع مترين، كي تكون الدبابات محمية خلفها؛ فإذا لم يتمكن المهاجم من رؤية الدبابة؛ لن يستطيع توجيه القذيفة نحوها، هذا أقصى ما يستطيعون فعله، أو بالأحرى ما يستطيع فعله جيش الدفاع الإسرائيلي.

لم أستطع التّوم ليلاً، تراءت لي أطياف العائلة والأصدقاء، وزاد تضاعفي وانزعاجي، ثم شعرت بضرورة الخروج لقضاء حاجتي، فوجدت ثلاثة جنود يتداولون الحديث وهم يدخّلون المخدّرات، كان أحدهم يعني منتشياً، بينما كان الآخر جالساً القرفصاء واضعاً رأسه بين يديه، غير مصدق أنه نجا اليوم من الموت بأعجوبة، يبدين ترتجفان:

– تم تفجير دبابة بعبوة «شواطئ»، لقد كنت أراها، مرّ أمامي بكلّ جرأة دون خوف أو تردد، تخطّي دبّابتنا في سرعة، وألصقها في الدبابة الثانية، وانسحب في أقلّ من نصف دقيقة، حفّة ورشاقة، ثمّ عمّ المكان اهتزاز شديد كالزلزال المدمر، وتصاعدت ألسنة النيران.

وزاد ارتخافه، ثمّ أعطاه أحد الجنديّن سيجارة ثانية.

سُمعت عن هذه القبّلة من «غريغوري»، قبّلة طورّتها «كتائب القسام»، على أساس مبدأ عمل القبّلة اليدويّة، تزن أكثر من عشرين كيلوغراماً من المتفجّرات، وتوضع مباشرة على الدبابة، وتنشط بصاعق، ولها القدرة على اختراق أكثر من ستين سنتيمتراً من الفولاذ المصفّح.

من أين لهم بهذه الأسلحة التي تعتمد على المواجهة المباشرة؟، كيف لهم أن يقاتلونا من مسافة الصفر؟، دون خوف، أو تردد، كأنّهم هم الذين على حقّ، ونحن على باطل؟.

أيّ شجاعة يتحلّون بها؟، وأيّ عقيدة هذه التي تملأ قلوبهم؟.

أسبوع واحد فقط بحثت فيه في عقد صداقات قوية مع مجنّدين أكبر مني، وجدت نفسي أصغرهم، ومع هذا يسود بيننا نوع من الإحترام والتّوقير، هنا لا خيار لك أن تكون اجتماعياً أو لا تكون، إختلاف أعمار الجنود، معناه اختلاف في الخبرات والسلوكيّات ووجهات النظر، هذا ما يُستشفّ من السنّ، أمّا أسماء الأوليّة والكتائب التي نحن أساساً تابعون لها؛ فلا أحد يهتمّ ما دام الموت لا يفرق بينها، تقاسم المصير ذاته؛ نضحك كلّنا ونبكي كلّنا.

هنا تجد نفسك تصاحب كلّ من يجلس إليك رغمّ عنك، لأنّ مشاعر الإنسان تتحرّك بالموت، منهم من يفضي بأسراره الخاصة، ملئ بحث فيه أذاناً صاغية؛ ومنهم من يفرغ ما بداخله تنفيساً، حتى ولو لم يسمعه أحد، ومنهم من ينتحر من تأثير الإحباط واليأس، حتى الضّباط الميدانيّون، نزعوا عنهم لباس الغطّرة والكرياء،

وأندجوا بيننا، عكس القادة الكبار، الذين لا يأتون إلا لالتقاط الصور والفيديوهات، تفوح منهم رائحة العطور الفخمة، تعطّي ماضيهم الدنس.

هنا تعرّف على كلّ أشكال البشر والطبيعة الإنسانية، في صورتها الحقيقية وتناقضها، يرفع الموت كلّ قناع، كلّ نفاق، كلّ تنّكّر.

منذ خمسة أيام، فقط، تعرّفت على «نوعم ياخين»، ثالث وعشرين سنة، جندي في الفرقة 8105، أخبرني صراحة دون تلميح أو خجل، أنه يتّظر دخول «غزة» بفارغ صبر، لا لشيء سوى لسرقة كلّ ثمين هناك، مشتكيا من مرتبه الذي لا يكفي كلياً مدللاً، في ظلّ الإكبار الاقتصادي الذي تشهده إسرائيل، وأنّ هناك من أقسم له أنّ النساء تركن ذهباً كثيراً في المنازل، هاربات على عجل، لينأين بأنفسهنّ وبأولادهنّ عن القصف، تذكّرت المغامرين الإسبان وما اقتربوه من جرائم، يندى لها جبين الإنسانية، حين أبادوا قبائل الهنود الحمر بآطفهم ونسائهم، لا لشيء إلا لأجل البحث عن الذهب، والغريب أنه يعرض عبر حسابه في وسائل التواصل الاجتماعي صوراً لتدمير المنازل، كأنّه هو من دمرها، إنه يحاول جاهداً الظهور بمظهر الشجاع الجسور المقدام، في حين أنه لا يهتمّ لشيء سوى لكلّ ثمين.

- إحدى على الأقلّ... ستضع «كتائب القسام» على صورتك مثلاً أحراً وأنت تسرق، ثمّ ينتهي كلّ شيء، ستكون فضيحة كبيرة، وربما ستتسبّب في استقالة «غالانت» أو «نتانياهو».

غير أنه هرّ كتفيه في لا مبالاة، مجيباً ضاحكاً:

- «غالانت»؟... ممكن؛ لكن «نتانياهو»... مستحيل، سيطلب حصته من عائلتي.

ثمّ التقى بجندي آخر، «الكانا نيلاندر»، أربع وعشرين سنة؛ مسعف في كتيبة «يفتح» في الفرقة 99، يحاول التّشدّق بإنجازاته، إذا أجريت عملية حسابية؛ لوجدت أنه أنقذ بشجاعته المزعومة ما يقارب الثلاثة آلاف جندي في ظرف يومين فقط، عرفت لاحقاً من صديق له أنه كاذب أفاق، يظلّ مختبئاً مثل الجرذ في قنوات الصرف الصحّي، وحين يرى صحفيّي القناة 12 يظهر مثل «سوبرمان».

وهناك «دينيس كروهالوف»، إثنين وثلاثون سنة؛ نقيب في الهندسة القتالية من «يهالوم»، حين أخبرته أنّي من «أوفاكيم» ازداد تقديره لي:

- أنت صديق «عيران»؟.

- لا أعرفه.

ثمّ تذكّرت أنّي أعرفه جيداً، لكنّي لم أره منذ مدة طويلة.

(31)

«عيران علواني»، قُتل في الثاني عشر من ديسمبر 2023، في شمال القطاع، مع تسعه جنود آخرين، من لواء «غولاني»، قُتل وهو لا يتجاوز تسع عشرة سنة، ودُفن في «بير شيفا»، وحضرت أمي وأختي جنازته، أخبرتني «ياعيل» أنّ أمي كانت في حالة توّر شديد أثناء المراسم التأبينية، خائفة ألا تراني ثانية، وظلّت تبكي أثناء الدفن، حتّى اعتقدوا أنّها هي أمّه الحقيقية.

– ييدو أنّ فصائل المقاومة قد نظمت صفوتها دون أن نشعر، ودون أن تتفطن لها الإستخبارات، لدرجة أنّنا لا نستطيع سحب جنودنا القتلى إلاّ بصعوبة بالغة، شراسة القتال تجبرنا على ترك جثث القتلى إنقاذاً للأخياء؛ رفقائي تركوا أصدقائهم المقربين، لقد تخلّوا عنهم، ثمّ ما فائدة إحضار ميت إذا كنا ستفقد ثلاثة جنود على الأقلّ؟، هنا يجب أن تتوقف عن استخدام العاطفة، لأنّها لا تفيد؛ هنا دماغك فقط ما يجب أن يشغله.

هذا هو موقف «دينيس»، الذي يعتبر أنك ما دمت في «غزة»؛ لا يهم قاتلك لأيّ فصيل عسكريّ يتّمني.

ما شأنك بطرف المعادلة إذا كنت ستفقد حياتك كنتيجة؟.

ربما تنجو بأعجوبة بطرف مقطوع، أو بتشويه مدى الحياة، لن تسألك القيادة عن المتسبّ في هذا، «كتائب القسام»، أم «سرايا القدس»، أم «شهداء الأقصى».

– نسعى لشقّ طريقين، الأول موازاة مع السّيّاج في الشّمال بعمق كيلومتر واحد، والثّاني على خطّ «كيسوفيم»، من السّيّاج إلى البحر، لفصل مدينة «غزة»، مع إنشاء سواتر ترابية عالية، تكفي لحجب دباباتنا عن قذائف «الياسين».

ثمّ أردف:

– الأوغاد، إنّهم يهينوننا بمثلّهم الأحمر، أصبح جيش الدّفاع الإسرائيليّ أضحوكة يتسلّى بها الأطفال.

كنا مجتمعين كلنا في المطعم الميداني نتناول وجبة العشاء، أنا و«ألكسندر» و«نعم» و«ألكانا»، والأخوان «موشيه» و«إيتان عسيفا»، في انتظار الباقين الذين ربما سيأتون أحياء، لما دخل أحد الجنود طوبل القامة ذو عينين بنيتين، وهو يضع على وجهه ملتويا للتمويل، كالذي يستعمله أفراد القوات الخاصة.

- ١١١١١١، وأخيرا أنت حي... إجلس أمامنا «ميري».

قالها «ألكسندر» الذي كان إلى جانبي بنيرة واثقة.

جلس أمامنا واصعاً بندقية القنص خاصته على ركبتيه، التي ما إن رأيتها، حتى تيقّنت أنه هو القناص «ميري سيناي»، الذي طالما تغنا بمحاده.

- ضعها على الأرض، لن تهرب منك.

ضحك الجميع وأكملوا عشائهم، بينما رحت أتطلع إلى سلاحه.

- هل تعجبك؟، إنها «HTR 2000»، بندقية قنص مثالىة، رغم أنها ثقيلة عند البعض، لكنها رائعة بكل ما في الكلمة من معنى.

وأطال حرف الراء بارتياح في الكلمة «رائعة»، كمن يتلذّذ بالكلمة.

- تحفة.

- سأدعك تحرّكما يوما ما، عرّفي بنفسك.

تعلّمت، كنت سأقول جملتي المعروفة التي لقّنوها لنا في «شيزافون»، غير أنّي كبحت لسانِي في الثانية الأخيرة:

- «دافيد عوفر»، ثمان عشرة سنة، لواء 401 مدرّعات.

- «ميري سيناي»، وينادوني «ألكسي»، سبع وعشرون سنة، قناص في لواء «جفعاتي».

ومدّ يده مصافحا فوق الطاولة.

لم ننم حتى ساعة متأخرة من الليل، بدا طيبا جداً وخلوقاً جداً ومتواضعاً وليقاً، مادا عساي أقول في وصفه؟، يكاد يكون نسخة طبق الأصل عن الملازم «ديميترى» في طبيته، من أب جورجي أرثوذكسي، طوبل القامة، وأم يهودية من «الغروزنيم»، ورث عنها لون عينيه، لكنه قناص محترف لا يعرف الرحمة، ولا يفرق بين رجل وامرأة وطفل، الكل لديه أهداف مشروعة، قال إنه تلقى أوامر بإطلاق النار على أي هدف يتحرك براه مناسباً للقنص، خاصة الصحفيين، لأنّهم أعين العالم، وهم تُكتشفن أفعالنا وحيثيات الحرب، ولذلك يجب التخلّص منهم في أسرع وقت، وستندرّع بأخذاء القتال، فكلّ حرب إلاّ ولها أحطاؤها.

ثم من يهتمّ لمن يُقتل حين تتشابك الحيوط؟، العالم كله منشغل بالحفاظ على البيئة، وأسعار البترول، وأخبار البورصة، وأبطال الكرة المستديرة، هل يملّك وقتاً أو وعياً ليتساءل عن من قتل هذا الطّفل ومن جرح هذه العجوز؟.

– في انتظار أن يُغلق مكتب «الجزيرة» في إسرائيل.

– «الجزيرة» القطرية؟... سيوقفونها عن العمل؟.

– مؤكّد وأكيد، إنّها هدّدّت سمعتنا في الخارج، بوق إعلاميّ لمحري «حماس»، أرأيت كيف يدافعون عنهم؟، كيف يتبنّون روايّاتكم؟، خاصة «وائل الدّحدوح»، ذاك السّمين؛ أقسم ببنديقيتي أنّي سأفجّر رأسه حين أراه.

– حرّية صحافة، نحن نتكلّم وهم يتتكلّمون.

إبتسّم هارئاً بكلامي:

– عن أية حرّية تتحدّث «دافيد»؟، ييدو أنك تؤمن بحلّ الدولتين، لا تشرّع غضبي، كمّا زدنا في تدمير وإحراق الأرض ومن عليها؛ زدنا من احتمالية هجرة الفلسطينيين، ليتركوا الأرض لنا، مثلما تركوها خائفين في حرب الإستقلال في 48، «السيوف الحديديّة» مجرد تسخينات، هؤلاء متّمسكون بالأرض، وسنريهم من سيأخذها في النهاية، صهيوني حتّى الرّمّق الأخير أنا، وسأبقي كذلك.

كان واضحاً وصريحاً في عباراته، يعرف جيّداً ما الذي يريده، أيقنت من أسلوب كلامه أنّ لديه أوامر سرية بتصفية الصحّفيّين، أينما كانوا، وحيثما وجدوا.

وتركني مودعاً، ودخلت أنا لأصلي، ولأقلي بنفسي على سريري.

كان «إيتان عسيفاً» مستيقظاً:

– ما يعجبك في «الكسّي»؟، أكثر من ساعتين وأنتما تتحدّثان.

– «ميري سيناي»؟، شخص جيد.

– هل تعرف أنّه ملحد لا يؤمّن بوجود الله؟، هذا كلامه وليس كلامي، والجميع هنا يعرفون أنّه ملحد، لا يصلّي ولا يمارس أية شعيرة، هل تعرف أنّه يتمنّى لو كان غير مختون؟، ولذلك يتّجنبون الكلام معه، جبان رعديّ، يُتّخذ من الفلسطينيين طعوماً بشرية.

فتحت عيناي واسعاً في الظّلام نحو السّماء:

– يا إلهي، لقد بدا لي شخصاً نزيهاً صادقاً، ما معنى «الطعم البشري»؟.

إعتدل في فراشه وراح يشرح في امتعاض واستقدار:

– إنّه يقيّد أيّ أسير يجده طعمًا مناسباً لجذب الآخرين من ذويه، من النساء والشيوخ والأطفال، جيداً إلى شيء ما، ثمّ يترصد من يأتي لإنقاذهم، ليقتلهم بدم بارد، البارحة فقط ربط إحدى النساء إلى شجرة، وقع في إحدى البناءات العالية، يتنتظر أن يأتي أحد إليها، من في رأيك كان يحاول إنقاذهما؟، أبناؤها الأربع، أكثراهم فتاة دون الخمس عشرة سنة، كانت تحاول فاك قيد أمّها باكية، مع أخواها الصغار المرتجفين من الجوع والذعر، ثمّ فجأة، فجر رأسها أمام أمّها، وتلطخ الجميع بدمها وبقايا الدماغ، ثمّ أجهز على الباقي، تاركاً الأمّ تهذى بعبارات غير مفهومة، لقد فقدت المسكينة عقلها، بعد أن كانت بطلة وضحية لفيلم الرّعب هذا.

ثمّ زاد حنقه الذي ظهر واضحاً في صوته:

– أكبر نزل على وجه الأرض؛ من ينكر وجود الإله، لا يمكن أن يتواجد الصدق في قلبه، هذا ما قوله في «إثيوبيا»، تصبح على خير أخي «دافيد».

تركتي مصدوماً، كنت أريد أن أستعلم منه أكثر، لكنه نام.

هل يُعقل أن تصل وحشيتنا إلى هذا المستوى؟.

في الصّباح لم أجده، كان قد غادر فراشه باكراً، حاولت البحث عن «ميري» في المطعم، وجدته جالساً وحده يتناول كأساً كبيراً من الحليب، مع خبز فرنسي بالمربي، ودجاجاً مشوياً، ما إن رأي حتى أشار لي بفيه الممتلي، جلست أمامه وأنا أنظر إليه مشدوها.

– ما بك؟.

– لا شيء، غير أنّي ...

قاطعني وهو يعطي فخذًا من الدّجاجة التي عمّت رائحتها المكان:

– أخبروك أنّي ملحد؟، حسناً أنا حرّ في اعتقادي، أنا أؤمن بنظرية التّطوير، لا يمكن أن يكون هناك إله، الطّبيعة أوّجدهت نفسها بنفسها.

– إذن لماذا تقاتل معنا في دولة الربّ؟.

– الدّولة هي التي ت humiliّنا فقط وليس الربّ، ليس الربّ من أنشأ هذه الدّولة، يجب أن يكون لنا نفوذ وقوّة جبّارة، تقتل عن يمينها وشمالها لتحترم، «الحرليدم» الحمقى وتوراهم، يقولون أنّ بقرة حمراء تعيد أمجاد إسرائيل، لا تضحكني أرجوك، هؤلاء يشقون كثيراً في الماورائيّات؛ أنا لا أعرف شيئاً يسمّي الربّ، أنا أعرف بندقيّتي فقط، هي إلهي الذي أقسم به، نحن نقاتل من أجل وجودنا، من النّهر إلى النّهر، ما نفعله اليوم في الفلسطينيين، ستفعله في غيرهم من شعوب الجوار، كلّهم حالة، كلّهم أعداؤنا «دافيد»، حتى حركة «ناتوري كارتا»؛ أعداء الدّولة، يجب أن يموتونا مثلهم كما تموت الكلاب.

أحسست أنه بدأ يتوتّر، أردت أن أستفسر منه عن «الطعم البشريّ»، لكنّه انصرف معالجاً ما بقي في فيه من طعام، حاملاً بندقيّته بين يديه.

شعرت برغبة في التقيّع من وجهه الكثيف؛ إهار كلّ ما بنيته عنه في لحظات، هذا الوجه الذي ينكر وجود من خلقه، بل يظلّ يكرّر متجحّحاً أنّ الطبيعة هي من فعلت هذا لوحدها، دون تدخل من أحد، ومن خلق الطبيعة إذن؟.

نحن اليهود، نؤمن بوجود خالق واحد لهذا الكون، ونؤمن بوجود الجنة والنار، والملائكة والأنبياء، ويوم القيمة، ما اعتبراه حتّى ينكر كلّ شيء؟.

حتّى الشّيطان لا ينكر وجود الرّبّ، فعلاً... جيش الدّفاع أصبح مزبلة يضمّ حثالة البشر.

هنا على الجبهة، ستستمرّ في رؤية كلّ ألوان الطّيف، الذين تتخيّلهم والذين لا يستطيع عقلك تخيلهم، من المتزمّت المغلق على ذاته، إلى المفتوح على الآخر، الذي يقبل الجميع مثل «عزرا»، من اليميني إلى اليساري إلى عديم العقل، من الليبرالي إلى الإشتراكيّ، من المتحزّبين السياسيّين إلى أعضاء الجماعات السّرّية والعلنية كحرّكي «جباد» و«كاخ».

رأيت كلّ هؤلاء هنا، رأيت الذين يدعون أنّهم أقوياء وأشداء، وأنّهم فراعين الأرض، وحين تقطع رجله، يستنفدي دموعه أكثر من أخي «ياعيل» حين تخدشها قطّتها، ويندب حظه أكثر من النساء، الكلّ يصف نفسه «سوبرمان»، وينسون أنّهم بين براثن الموت والتّالم الفظيع، قنصاً أو تمزيقاً أو احترقاً.

بعد السّيّاج الفاصل لا أمان لأيّ أحد، سواء كنت في «الميركافا» أو خارجها، هناك الرّبّ وحده من يحميك من إشارة المثلث الأحمر، هناك الرّبّ وحده من يقرّر ميّ ستموت، برصاصه، أو بقنبلة، أو بشطّة من قذائف المهاون التي تساقط علينا كرّخات المطر، رغم طائراتنا التي تراقب الوضع عن كثب، على امتداد هذه الأرض.

(32)

ما فعله «أفيخاري» لي لم يفعله أحد معي من قبل.

وحين يسدى لك أحدهم خدمة جليلة و معروفاً، أمن الرجلة أن تنساه؟.

هذا الطيب الذي رمم جراحى، وأنا الذي فقدت كلّ أمل في الوصول ذات يوم إلى نبع الماء، بكيت بكلّ أسى و مرارة على تابوتة، حين أحضروه لوحده ممزقاً إرباً، ملفوفاً نعشة في العلم.

هذا القلب الخنون الذي ما يخل بعطفه على الجنود، كأنه أنحاهم الكبير المهمم بكلّ صغيرة وكبيرة لهم،
هذا البلسم الذي ما فتئ يحدّثني عن دميته الصّغيرة، إبنته «حاكلين» ذات ثمانية أشهر، لما تستبد به الأسواق،
وأمنيته المشتركة مع زوجته، أن يعودا لمدينتهما التي ترعرعا فيها، «شاعر هنيجف»، قبل إخلائهما بسبب
القصف.

بذا متغيّرا ذات صباح ينظر كثيراً إلى السماء، واجهني بربعه من المثلث الأحمر، والكلّ هنا مرعوبون،
لكن لا يظهرون ذلك، حفاظا على الروح المعنوية، و خوفا من ضباط الأمن العسكري، الذين لا يتزدّرون في
حبس أيّ جنديّ يجدون عنده فيديوهات «القسام».

ورغم أنّ هذه ليست هي المرة الأولى التي يذهب فيها وراء السّيّاج الفاصل، إلاّ أنّ لديه حسناً غريباً
مقلقاً تكاثف في الآونة الأخيرة، تكاثفاً بلغ به مبلغ الملوسة، سيُقتل، وستعيش ابنته «حاكلين» يتيمة الأب،
فأتدّكّر أخي «ياعيل» حين كانت في سنّها، إنطبع صورتها في ذهني منذ ذلك الوقت، رغم أنّي كنت صغيراً
جداً آنذاك.

مستسلم لواقعِي كمّيت بين يدي مغسله؛ أكملت حصة التّدريب الصّباحيّة، مناورات لا تنتهي، وبناء
ردود أفعال تتسم بالإيجابيّة والسرعة، أتبادل السيّاحة مع صديقي الدّمث «موشيه»، في جوّ بارد جدّاً، بعد أن
غادرنا أخوه «إيتان»، عائداً إلى المترّل، في عطلة لا تمتّد لأكثر من أربع وعشرين ساعة، بدأت أحقّق تقدّماً
سريعاً حسبيما أخبرني به الرّقيب «الكسندر»، وعلى ما ييدو، فإنّ أسلوب تدريبيه كان الفيصل، إذ الكلّ يشيد
بطريقته المثلّى في التعليم، وكلّما اقترب الوقت للدخول «غزة»؛ إزداد قلقى على مصيرِي المجهول، إذ تشرف
دورتي التطبيقيّة كسائق دبابة على نهايتها، وإذا قرّ المدرّب إرسالي، لا مجال للّتراجع.

نعم أُعترف أني تعلّمت هنا أكثر مما تعلّمته في «شيزافون».

رأيت جنوداً يتسامون أمامنا آخر ابتساماتهم، ثم يعودون مساء في توابيت مغطاة بعلم إسرائيل، هذه القطعة القماشية التي كنت أبجلها كأي مراهق نشأ بين أحضان ما تمثّله، مثلما بجلها صديقي العريف «موشيه عسيفا»، يهودي إثيوبي من «الفالشا»، من سكان جنوب «تل أبيب»، مشرق العينين، متوسّط الطول، يمبل لون بشرته إلى السّواد، مع لمسة فاتحة تقرّبه للسمّرة أكثر، لا يتجاوز سنه الأربع والعشرين سنة، كان في سلاح المدفعيّة، ثم كنتيجة لعدم التزامه بالأوامر؛ عوقب بشهرين سجناً مع تخفيض رتبته، وُنُقل هنا كسائل دبابات، لقد جنّد مع أخيه «إيتان» في يوم واحد، ونالا معاً رتبة «رقيب»، و«إيتان» هذا يعتبر صديقاً حميمياً للرّقيب «المانو إيمانويل فالكا»، من وحدة «دووفوفان»، الذي قُتل في السادس من ديسمبر 2023، متأثراً بجراحه.

كنا نستعدّ لتناول الغداء لما رأيت أحد الجنود يتحدّث مع «موشيه»، ثم رأيت هذا الأخير يمسك برأسه، كأنّ مصيبة حلّت عليه.

ركضت سريعاً نحوه أستطلع ما يجري.

– أخي «إيتان» في السّجن.

وذهب راكضاً دون أن يضيق شيئاً.

كان الجنديّ الذي أحبره قادماً نحوّي حاملاً بعض المعدّات، ولما اقترب، حاولت أن أنتزع منه بعض المعلومات المفيدة، فأفرغ كلّ ما في جعبته ككتاب مفتوح، تقرأ منه ما تشاء، حتّى أني ساعدته في حمل المعدّات، كي أعطي له انطباعاً جيّداً، فلا يخفي عنّي أبسط التّفاصيل.

في السّابع عشر ديسمبر 2023، اعتقل «الشاباك» الصّاب «روعي يفراخ»، صاحب السّجل الطّويل في قضايا التّصب والمخدّرات والتّزوّير، الذي انتحلّ عدّة صفات هويّات مزورّة، منها ضابط في وحدة مكافحة الإرهاب، وحتّى ضابط في «الشاباك»، سارقاً أسلحة متّوّعة وذخيرة وقنابل يدوية، من مساحات التّحشد، وداخل «غزة»، لبيعها في السّوق السّواد، حسبما نشرته صحيفة «يديعوت أحرونوت»، وحسب لائحة الإٌّتهام الموجّهة ضده، فإنه سيواجه تكمّلاً أثقل من وزن الرّئيق، تكمّلاً إن دلت على شيء، فإنّها تدلّ على هشاشة الأمن الدّاخلي للدّولة، مما مكّنه من اختراق الدّوائر العسكريّة، والأمنيّة العليا، وبناء على التّحقيقات؛ تم اعتقال «إيتان عسيفاً» يوم الثّالث من جانفي المنصرم، الخبر الذي نزل كالصّاعقة على أخيه «موشيه».

كان كلّ شيء سيمّر على ما يرام، لولا الصّورة التي كشفت خيوط اللعبة، وأثارت انتباه الأجهزة الأمنيّة.

صورة جماعيّة لتسعة جنود رفقة رئيس الوزراء «بنيامين نتنياهو»، خلال تفقّده لقوّات الجيش التي تحاول السيطرة على قطاع «غزة».

كان من بينهم «روعي»، الشّيء الذي اقتضى معرفة المزيد عنه، وبالتالي الوصول إلى ملابسه القدرّة.

تذكّرت ما قاله لي «بابلو» قبل مقتله في حادث السيارة المدبر، «السلاح لا يبور ولا يكسد».

واشتدّ كريبي حين وجدت نفسي أمام ذكرياتي، التي أصبحت الآن تغرنّي، مجرّد وجود رابط بسيط يستدعيها من الماضي.

أقلّ من ثلاثة كيلومترًا تفصلني فقط عن وجه «أتار» وعينيه، ولا أستطيع الاتصال بها لأعرف الجديد عن «غابي»، أنا في وضع لا أحسد عليه، مسلول مثل أبي الذي يرقد في المستشفى لا يشعر بوجليه، كما لا أستطيع مغادرة المكان تحت أيّ ظرف.

أيّ عجز أكثر من هذا الذي أنا فيه الآن؟.

هل هناك من وشي بي؟، هل كان «آيزنكوف» يراقبني من بعيد؟، كيف عرفوا أنّي غادرت قاعدة «شيزافون»، رغم أنّي أخذت كافة احتياطاتي؟.

هذا ما أفكّر فيه دائمًا، ولا أستطيع الوصول إلى نتيجة تقنعني، أكاد أجنّ، يتطرّر القلق شيئاً فشيئاً ويعاظم حتّى أفقد الأمل، كلّ محاولاتي لنسياني مشكلتي لم تفدي.

كنت في لحظات الهزام النفسيّ، أسير وحيداً يائساً مطروقاً برأسه منهاراً، حتّى سمعت صوتاً يناديّني، إلتفت خلفي لأجد صديقي «أفيخاي» خارجاً من المطعم، بعد الساعة الثامنة مساءً، ينطلق أسنانه بقطعة رفيعة من الخشب، إثر رجوعه من وراء السيّار.

- أهلاً «أفيخاي»، كيف كان يومك؟.

- صعب جدّاً، توفير الحماية لبعثة من الصحّفيّين من القناة 12، جاؤوا للتغطية مجرّيات الحرب، مسؤوليّة كبيرة، تتسبّب في إرهاق عصبيّ، وجسمانيّ فظيع.

- أعرف طبيعة عملكم تواجهون الخطر أكثر منّا، ليساعدكم ربّ.

وهمت بالإنفصال وأنا أقول في داخلي:

- «كتائب القسام» لا تقتل الصحّفيّين، فلماذا هذا التوجّس من مشكل لن يحدث؟.

غير أنّه ناداني مجدّداً، كالذّي يريد الإستفسار عن شيء، أو كالمتردّ في فتح موضوع:

- ألسنت أنت «دافيد عوفر» من سلاح المدرّعات من مدينة «أوفاكيم»؟.

- نعم، هل هناك خطب ما؟.

- لا... لا أعرف ما الموضوع بالضبط، كانت إحدى الصحّفيّات تسأّل عنك، أو عن شخص آخر له نفس الإسّم، لست متّيقنا، كانت تبحث عن مجند، سيخرج ضابطاً في سلاح المدرّعات، في قاعدة «شيزافون»، أخبرتكما أنّك صديقي، وأنت تتدرّب في مهنة سائق دبابة لتعبر إلى «غزة» بعد أقلّ من أسبوع.

ثمّ وضع كفّه على رأسه:

- ييدو أنّ هناك تبساً ما أو سوء فهم، لا تختّم... أعتذر.

- صحفية في القناة 12؟.

- كلاً، في «هاريس».

خفق قلبي فجأة، إنّها السيدة «ليزا» أم «أتارا»، لا شكّ في ذلك.

إندمجت معه مرّكزاً، فأكّدّ أنها ذكرت إسمي دون قصد، حين أرادت إلتقاط صور للواء 401 المدرّع، الذي فقد الكثير من جنوده، فردّ عليها أحد الضبّاط الأشkenaz بعلوّ وعنجهية ألاّ تختّم، هذا ما يحدث في كلّ الحروب، ومن المؤكّد أنّ المدارس العسكريّة ستسدّ النّقص، وإن لم تكفي فسنجد مرتزقة من خارج إسرائيل، مهما كلفنا المشروع من مال، ثمّ ذكرت له -مقدمة إسمى الكامل- أنّ خطيب ابنتها هناك، يتدرّب ليصبح ضابطاً على دبابة «ميركافا 5»، وسيكون هنا مباشرة في اللواء 401 بعد تخرّجه.

أكملت حديثها مع الضبّاط، فاقترب منها «أفيحاي» مستفسراً عن الإسم، ومنوّهاً أنه يعرف شخصاً يحمل الإسم ذاته والأوصاف، يقيم معهم في مساحات تحشد الجنود، وأعطها حتى عنوان هنا لزياري إن أرادت التّحقق بنفسها.

عانته والفرحة تكاد تفجّر صدري، وعلامات الدهشة على وجهه، لم يستطع استيعاب شيء، وانقلب همّي انشراحه وبهجة، وأنا متّيقن تماماً أنّ السيدة «ليزا»، ستكون هنا لرؤيتي في أقرب وقت، وشكّرت الربّ على نعمه.

بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة، حوالي السّاعة الحادية عشرة صباحاً، كانت هنا تبحث عنّي مثلما توقّعت، ومعها رائحة «أتارا».

أشار لي «الكسندر» أنّ أغادر الدبابة، كت قد دخلت مقصورة القيادة للتوّ بعد أن تركت مكاني لأحد المغضوب عليهم، القاًد حديثاً من «تلّ هاشومير»:

- هناك امرأة تطلبك، تجدها في ذاك المكتب، خذ كلّ وقتك ولا تعد إلاّ بعد الغداء.

ركضت بأقصى سرعي، ومن لوعتي، إحتضنتها مثلما أحضن أمّي، كانت وحدها غيرّي شمت رائحة «أتارا» في ثيابها، وعانتني طويلاً، ثمّ نظرت في عيني:

- وأخيراً «دافيد» وجدناك، بحثنا عنك طويلاً، كلّ واحد يقول لنا كلاماً مختلفاً.

ثمّ مسحت دمعة كانت تكمّ بالنزول:

- المهمّ أنت هنا.

مسترسلة في الحديث، ومستمعاً لها دون مقاطعة، متوتّراً، مستعجلاً، وحائراً، أنتظر أن تظهر «أتاراً»، لأراها أمّي وأحتضنها، كما كنت أنتظر أن تتحدّث عن تاريخ نشر المستندات في «هاريس»، بيد أنها لم تتطرق لهذا الجانب، بل ركّبت على شيء آخر ألقّها.

من أجل تعطية مجريات الحرب، دخلت «غزة» مع مجموعة من الصحّفّين من القناة 12 و 14 الإسرائيليّة، في البداية، لاقت صعوبة في قبولها، كونها من «هاريتس»، الصحيفة التي تؤرّق صناع القرار في «تلّ أبيب»، لنشرها مواضيع لا تعجبهم، جاعلة مبدأ حرية التعبير، وحقّ المواطن الإسرائيليّ في معرفة ما يدور في وطنه؛ أولى أولويّاتها، غير أنّ بعض الضّباط المحبطين من سير العمليّات القتاليّة، سهّلوا لها المرور، على أمل أن تتطّرق للخطّة المفترضة التي يجب أن تتوفر، من أجل خوض حرب مفهومة على الأقلّ، بينّ الأهداف.

«غابي» ما زال مختفيًا، وعائلته أودعت بлагاءً لدى الشرطة، وأمّه في غاية القلق عليه، وهناك أدلة جديدة على أنّ موت «بابلو» كان بفعل فاعل، ولم يكن مجرّد حادث مرور عاديّ مثلما أشيع في الأخبار.

لقد وجدت الشرطة كاميرا صغيرة جدًا مخبأة بعناية في السيارة، تنقل على المباشر كلّ شيء، صوتاً وصورة، لقد اعتقدوا أنّي سأعود برفقته، لهذا أرادوا التخلّص منّا بحجر واحد، لكن بقائي في «أوفاكيم» أدى لتغيير الخطّة، بحيث أزاحوا «بابلو» عن طريقهم، كي لا يخرج الموضوع عن حيز السيطرة.

هم الآن ينتظرون أن يعرفوا مكان المستندات، ثم يخلّصوا منّي، وما دمت لم أذكر اسم «غابي» في السيارة؛ فهذا معناه فقدانهم للخيط الموصل لبقية التفاصيل، تأكّدت الآن أنّهم لن يقتلوني، ما داموا لا يعرفون مكان المستندات، بل سيراقبوني من بعيد، حتّى يتّضح لهم كلّ شيء، كما لن يرسلوني إلى «غزة»، لأنّهم سيخشون علىّ من «كتائب القسام».

سأعيش من الآن فصاعداً مثل الإمبراطور.

من أجل تعميق تحقيقها؛ زارت السيدة «ليزا» عائلة «بابلو» في جنوب «تلّ أبيب»، لتقدّم التعازي، ولتتعرّف أكثر على حيّيات قدوة «إدواردو تسيحاي» إلى إسرائيل، فاكتشفت أنّ كلّ من أحضرهم معه غير مؤمنين اجتماعياً، حتّى الساعة، فيما رفضت أمّه أن تكشف عن اسم من تولّى استقدامهم، قائلة أنّ ذلك يندرج ضمن عملية سرية، وأنّ هناك من أكّد عليها مراراً أن تبقى في إطار الكتمان، إذا أرادوا الإستقرار هنا نهائياً، لأنّ صفتهم ما زالت في نظر القانون لم تتجاوز مرحلة اللجوء.

وحين خرجت من عندهم، رأت سيارة تسير خلفها، فقرّرت حين تأتي هنا أن تتحذّج جميع احتياطاتها.

بقدر ما أراحني كلامها بقدر ما وترني، هل يُعقل أن يُستغل «بابلو» وعائلته معه بهذا القدر من البشاعة؟، وأين؟، هنا في إسرائيل؟، أين هي الإنسانية؟.

ثمّ من هذا الذي استقدمه بهذه الطريقة الغريبة المربيّة؟، وماذا يريد منه بالضبط؟.

يبدو أنّ «بابلو» لم يكن مطمئناً لما يحدث، وانتابته الشّكوك، فخلص إلى البحث عن طريقة جيّدة لتأمين نفسه وأسرته، فاختلس المستندات التي أنا شخصياً لا أعرف مكانها الآن، الوحيد الذي يعلم مكانها هو «غابي»، والكلّ يبحث عنه، ولا أحد يعرف مكانه، ويجب أن نصل إليه، لينشر الموضوع بالأدلة التي تدعّمه.

ما هذه المشاكل التي تأتي متسلّلة؟، كأنّ مشكلة واحدة لا تكفي؟... تباً لهذه الحرب.

(33)

أحاول الإنغماس في التدريب قدر المستطاع، وإشغال ذهني كي لا تسحبني الأفكار السلبية بجدّداً، وأحياناً يشجّعني لطف الملازم «غريغوري» على طلب مساعدته، على الأقلّ استشارة بسيطة تخفّف من شدّة أمواجي المتلاطمة.

هل تعرفون ما معنى مجالسة «غريغوري»؟

معناه أنه قد لمس في مجالسه حبه وشغفه للتعلّم، وإلاّ لما نظر إليه أصلاً، لكنّي حين أتذكّر عوّاقب هذه المساعدة، أعدل عن الموضوع برمته.

أشقر بقامة تتجاوز المائة والتّسعين سنتيمتراً بقليل، وعيون حضراء وأنف ضخم بارز، ومنكبين عريضين يوحيان بقوّة جسمية هائلة، أوّصف تفسّر وافية انتماهه لأصول صرية عريقة، وحين أحدهُ عن أيّ، يفترخ بوالده الحاخام، الذي شارك في مجرزة «سيربرينيتشا»، في 1995 ضدّ المسلمين، وامتدّ هذا الحقد الدّفين لكلّ العرب أينما كانوا، وخاصةً لما قتلوا حبيبه «ليا بن نون»، صاحبة التّسعة عشر عاماً، القناصّة البارزة في كتبية «الفهود».

هذا هو «غريغوري»، ذو التّسع والعشرين سنة، المتممّي للواء «كفير» الهندسيّ لتفجير الأنفاق، وهو صديق حميم للنّقيب «يارين غال»، الذي قُتل في جنوب القطاع، يوم الثّامن عشر من ديسمبر 2023.

كانت ليلة صافية صفاء عيني «أتارا»، براقة النّجوم، كالليليالي التي يحبّها «عزرا»، أشعل سيجارة لأول مرّة وراح ينفث دخانها متمهّلاً:

ـ نحن نخوض حرباً فاشلة؛ سنُهزم، لا محالة، حتّى ولو ثابرنا على إقناع أنفسنا بالإنتصار.

ـ لدينا جيش قويّ، وعقيدة عسكريّة هي من أفضل العقائد العسكريّة في العالم.

نظر إلىّ وعينيه تدمعان من تأثير التّبغ، بابتسامة تحولت لضحكة ساخرة:

ـ دعك من هذا الذي يحسون به أدمغتكم في المدارس العسكريّة، إنّها مجرّد نظريّات وأفكار طوباويّة لا تمتّ للواقع بصلة، دولتنا قائمة على عنصر الخوف يا «دافيد»، لا تدع أحداً يخدعك، لا تسمح لأيّ كلب

بالنّيّاح عليك، ألا ترى حين تطلق صفارات الإنذار في «حيفا» و«تل أبيب» و«أشكلون»، كيف نختبئ كالغثراي في الملاجئ، ما يقال لدينا في الإعلام كذب في كذب؛ «نتانياهو» و«أدرعي» و«غالانت»، كلّهم يعرفون أنّهم يكذبون، لكنّهم مصرون على الكذب حتّى يصدقونه، حتّى يحافظوا على مناصبهم المالية، كلّ ما فعلناه منذ حرب الإستقلال وسنفعله لن يفيدنا بشيء، العملية تلو العملية، ولا نتيجة نهائية وصلنا إليها، لأنّ هذه الأرض ليست لنا «دافيد»، نعم هذه الأرض ليست لنا... ولن تكون لنا، نحن نضيّع الوقت والمال والجهد والأرواح، من يريد التمسّك بكلّ شيء سيفقد في النهاية كلّ شيء.

كأنّ شخصاً ألقى على دلوا من ماء مثلج:

- الأرض التي ولدت عليها ليست لي؟، هل هذا معقول؟.

ثم نظرت إلى قسمات وجهه الذي بدا حزيناً متسائلاً في قرارة نفسى:

- أليس فيها بيتنا وبيت حارنا الطيب السيد «ريكاردو»؟، والثانوية وحبيبي «أتارا» وسيارة «غابي»؟، أيكذب أبي؟.

كأنّه قرأ أفكارى، هزّ رأسه نافياً، ثمّ أخرج صورة زوجته وابنته، ساحقاً ما بقي من عقب السّيّجارة، وراح يقبّل خاتم الزّواج قبلة طويلة، وأكمل حديثه محدّقاً فيما أخرجها، بدموع احتشدت في عينيه:

- «القسام» يدافعون عن شرف أرض المسلمين المقدّسة التي اغتصبناها منهم حين أسلّينا دولتنا، هم ليسوا إرهابيين كما يحاول قادتنا إقناعنا به... هم أصحاب الأرض الحقيقيّين، أي حاخام «دافيد»، ويعرف الإسلام جيداً، لقد مشينا في هذا الطريق منذ 48، ووصلنا إلى نقطة لا نستطيع العودة فيها إلى الوراء، لا نستطيع الإعتراف فيها بأخطائنا، لقد اتبّعنا مجموعة من الصّعاليك الذين كانوا يبحثون عن المجد بأية وسيلة، فوجدوه في الرّعامة، «هرتل»، «بن غوريون»، «غولدا مائير»، «رايين»، والآلاف منهم، ونحن الآن ندفع الثّمن باستمرار، وبكلفة ترتفع شهراً عن شهر، وسنة عن سنة، ضع هذا نصب عينيك «دافيد»، لا تدع أحلام المراهقة تأخذك إلى الغمام، تذكّر هذا جيداً، فربما لن نرى بعضنا بعد اليوم أبداً.

وانصرف لينام، وكلّما لفظ إسمى تأخذني قشعريرة غريبة.

وبقيت عباراته في خلدي كلّما خلوت بنفسي.

أكملت دورتي التطبيقيّة الصرف في السيّاق، وأنا متأكد أنّ مشكلتي الأساسية لا وجود لها، لن أذهب وراء السيّاج الفاصل، أو -على وجه أدقّ- لن يستطيع أيّ أحد إرسالي إلى هناك، مهما كان نفوذه، ما دام مكان المستندات مجهولاً، وعليه فقد بقى لا أرواح مكاني، حتّى أنّ الرّقيب «للكسندر» تعجب من كوني ما زلت مع الجنود، وقد وقّع بنفسه على محضر إقامي للدّورة بنجاح، ثمّ وصله أمر يقيني معه كمساعد، أمّا صديقي «موشيه»، فقد دفع الثّمن غالياً يوم الثاني من جانفي 2024.

صدمة بمعنى الكلمة، أذّت لدخوله العيادة وهو في حالة اهياز عصبيّ، من أجل تلقي علاج تقدّمه مختصة نفسية، بذلت كلّ ما في وسعها لتعيده للجبهة في أسرع وقت، لأنّ القيادة رفضت سحبه من القتال، أو حتّى

إدخاله المستشفى، رغم الكوايس التي تواظبه صارخاً في الليل، وعرقه البارد المتصلب على وجهه وجسده، متلفظاً بعبارات بذينة، كلّها سبّ ولعن للضابط الذي أمره بسيارة جرّافة «D9»، المتقدمة رفقه الدبابات.

لقد رجع ذلك اليوم بوجه أصفر، كأنّه رأى ملك الموت أمامه؛ لم يكلّم أحداً حينها، ولم يستطع الوقوف على قدميه، حتّى أخذوه للكشف الطبيّ العام.

- رأيته «دافيد»، لقد رأيته، كان قبالي وجهها لوجه، تخطّي بسرعة وجه القذيفة للدبابة، التي انفجرت أمامي في ثانية واحدة، سار كلّ شيء مثل الفيلم، في سرعة لا يستوعبها عقل بشر.

بعد يومين أراني أحدهم فيديو التّفجير كاملاً، كانت هناك جرّافة واقفة مع دبابتين تقدّمان، ثمّ ظهرت عالمة المثلث الأحمر على الدبابة الأولى، وفي لمح البصر خرج مقاتل من «كتائب القسام»، من مكان ما بنشاط عجيب، مرّ بجانب جرّافة «موشيه»، مطلقاً قذيفة «ياسين 105» نحو الدبابة التي كانت في الأمام، لتفجرّ مخلفة كرّة كبيرة من اللّهب والنّيران.

لمست مدى فطاعة التجربة التي مرّ بها، التجربة التي حتمت على «جودي عشيرات» أن تتناول دواء للاستفراغ المعدي، متظاهراً بالمرض، ومؤخّراً إرسالها وراء السّيّاح أسبوعاً على الأقلّ.

كلّ الأهداف هناك يضعون عليها مثلثاً أحمر؛ ثمّ فجأة تنطلق القذيفة في أقلّ من ثانية واحدة، أو تفجّر بعبوة «شواطئ»، أو بعبوة «العمل الفدائي».

يا ربّ «موشيه»، ما هذا؟!، كلّ التّحصينات التي تمّ تطويرها وأنفقت عليها الملايين، أصبحت دون جدوى، وحتّى المشاة الرّاجلون، مستهدفون؛ يأبى هذا المثلث اللّعين أن يفارقهم، مثلث واحد، وأحياناً ثلاثة أو أربعة مثلثات، تُظهر المعنّين بالقتل، ثمّ يتولّى قناص مهمّة إسقاط المهدّف، أو تتكلّل بهم عبوات فتاكّة، مزروعة في الأرض وبين الأنفاق.

إنّهم يوّثّقون هجماتهم بطريقة يخلّدّها التّاريخ والأجيال اللاحقة، هم يعرفون جيّداً ما يريدون؛ يخرجون من تحت الأرض، ليضربوا أهدافهم الدّسمة، ليصطادونا، هؤلاء ليسوا عصابات مخدّرات وقريب كما أخبرونا في «شيزافون»، أو كما يُشاع عنهم في الإعلام، المهرّبون وعصابات المخدّرات ليست لهم وحدات قتالية متخصّصة في الهندسة والقنصل والدّروع، أيّ تدريب تلقّوه كي يقاتلوا بهذه المرونة والسلّامة والشّراسة في آن واحد؟، ما هو سرّ هذا النّشاط وهذه الروح القتالية العالية؟، أيّ جنديّ هذا الذي يستطيع التّسديد القاتل على دبّابة تتحرّك وهو يتحرّك معها؟، إن لم يكن قد تلقّى تدريباً عالياً المستوى، يوحي بالرؤى الإستراتيجية التي تتمتّع بها قيادته؟، أو... كان الرّبّ معه.

«غزة» مستنقع غادر كما يقول عنها أبي، فقد قاتل فيها قبل خطة «فك الإرتباط» ويعرفها جيّداً... مثلما يعرف أمّي.

في «غزة» يختفي الأصدقاء بسرعة أكبر من السرعة التي يختفي بها أصدقاء قاعدة «شيزافون» في صحراء «النّقب»، الصّدّاقة هناك شيء الصّدّاقة هنا شيء آخر، حين تتفجّر مشاعرك فجأة، فتجد نفسك تعانق

على الأقل، هؤلاء عادوا قطعة واحدة، أما «ناريا زيزاك» الذي أُرسل إلى «جباليا»، فقد عاد أشلاء ممزقة، مجموعة في تابوت مختوم لا يفتح، بعد يومين فقط من إرساله، أي في الخامس والعشرين من ديسمبر 2023.

.2023

نفس الشّيء حدث مع «أفيحاء هرغوي» صديقي الحميم، الذي استهدفوه بقنبلة مزّقته إرباً، تاركاً ابنته «حاكلين»، ذات الشّمانية أشهر، تكبر دون وجه أيّها الصّبح، ومرملة زوجته التي انتظرته كلّ يوم سبت.

مات «أفيخاي» وهو يتضرر وعد «نتنياهو» بعودة السكّان إلى مدنهم التي هُجّروا منها بسبب هذه الحرب، التي بدأت يوم السّابع أكتوبر 2023، وتتكلّفنا يومياً ستين مليون دولار، كله على حساب رفاهيّة المواطن الإسرائيليّ، الذي صدّق وعد الأطفال، وما زال يصدّقها منذ 1948، حرب الإستقلال.

(34)

– خسائرنا تتفاقم ويجب إيجاد حلّ لهذه المهزلة في أقرب وقت.

هذا ما حلّج به أحد الضبّاط ببصاق ينقدف من بين أسنانه، صبيحة يوم من أيام شهر جانفي، في جولة تفقدية لعيادتنا، ثمّ تحولّ لعاينة الدّبابات المتضرّرة.

– الوغد، ليذهب إلى مكان آخر، ألا يرى أنّا جرحى ولا نستطيع القتال؟.

وهذا ما أجاب به أحد المجنّدين بصوت مسموع بينه وبين نفسه.

بعد أربع وعشرين ساعة احتفى المحيب.

وبعد احتفائه بأيام، تمّ إقحام كتيبة «كاراكال 33» في الأعمال القتالية، وبدأ التّسقّي واضحًا لما بدأنا بالتدريب المشترك على المهاجمة، والمناورة مع إسناد المشاة، كان البعض متّحفظين من القتال مع امرأه، مثلّي تماماً، فقد تذكّرت «شلومو» و«رفائيل»، لكنّ «غريغوري» اعتير أنّ ما يجري فضيحة أخرى من الفضائح التي تُضاف لرصيد جيش الدفاع، قتلانا بالعات، ولا أحد ينالق الموضع، بدعوى أنّه سرّ من أسرار الجيش، وهذا نحن نصل إلى نتيجة تعكس فشلنا، بل ضبابية رؤيتنا الإستراتيجية.

– تباً لهذه الحرب، نحن نموت هنا و«بنيامين» يحافظ على ابنه «يائير» هناك في «فلوريدا»، سليماً معافي في القطن، مثل ساعة جيب سويسريّة، تباً، تباً.

وبصق على الأرض في غيظ شديد، إحرّمت بسببه عيناه، وأكمل كلامه ثائراً:

– لم يبق إلا النساء الآن، ستحميهنّ أم نحمي أنفسنا؟.

ثمّ ارتدى خوذته واحتفى بين الدّبابات والآليات المتوقفة، لتأتي بعده بأقلّ من ساعة، شاحنات تحمل مجنّدات يتمّين للكتيبة «كاراكال 33».

لحظة... كأنّي لمحت امرأة أعرفها، أو هكذا تخيلت، وسط العشرات من النساء المختلفة الأشكال والألوان.

مسحت زجاج نظاري ودقّقت جيداً...

نعم هي، بعينيها العسليتين، ووجهها المكتتر الذي علاه هذه المرة شحوب واضح، صعب على تغييرها من مسافة بعيدة.

قسّمونا لمجموعات، كلّ واحدة فيها مجندتين وأحياناً ثلاثة مجندات، يأمر الجميع بأمر ضابط، كانت مجموعتي تحوي الضابط القائد «تسفي ماتياهو»، وأنا السائق، مع مجندة كمدفعية إسمها «إليشيفا كوهين»، ومجندة أخرى كمحملة قذائف، إسمها «تamar بلوخ».

سار كلّ شيء تماماً على ما يرام، وخاصة التّمرّين الميدانيّ الذي يحاكي عملية دعم مدرّع للمشاة، مستمرون في هذه المناورات الشّاقة المجهدة للأعصاب، من الساعة الثّامنة صباحاً، إلى الساعة الرابعة عصراً، دون انقطاع.

ومع حلول اللّيل، كان التّعب قد أخذ منّا كلّ مأخذ، كنت مغبطةً مزهواً بنفسي، متأكّد أنّهم لن يرسلوني هناك وراء السّيّاح، عكس «تamar» ذات العشرين سنة، التي أخبرتني أنّها تكره الدّماء، منذ أن خطفوا قريبتها «عدين يارو شلمي» القادمة من «تلّ أبيب»، والتي كانت برفقتها في حفل «نوفا» الموسيقيّ.

منذ ذلك التّاريخ؛ أصابتها فوبيا الدّم، خائفة لأنّها المرة الأولى التي ستقاتل فيها، وسترى الدّماء أمامها، إنّها تدعوا ربّ في صلواتها أن تكون في مأمن من أيّ هجوم، كانت صريحة لأبعد حدّ في مسألة الحرب، وبدت لي متفقةً من أسلوبها في الحديث، والمصطلحات العلميّة التي تستعملها:

– لا أريد أن أقتل أيّ شخص، أنا هنا مكرهة، رغمّي، سيزجّون بي في السّجن لو انسحبت، يا ربّ «موشيه»، هل يجب أن أفعل شيئاً بنفسي كي يدعوني بسلام؟

بعد يومين، تم إلغاء التّدريب المشترك بين المجنّدين والمجنّدات بقرار حاخاميّ، ثمّ اقسمت الآراء حول كيفية توظيف «كاراكال 33» في عمليّات القتال الدّائرة في «غزة»، منهم من يقول أنّهم سيتولّون زمام المبادرة مثلهم مثل الرجال، وآخرون يقولون أنّهم سيحتفظون بهم كتشكيل دعم قتاليّ، ومنهم من يقول أنّنا سنتركمهم في المناطق المسيطر عليها، بعد تطهيرها تماماً من «كتائب القسام».

– شئنا أم أبينا؛ لدينا تحبّط واضح في الرّؤية الإستراتيجية، ناهيك عن أهداف الحرب، والأخطاء الجسيمة التي تُرتكب باستهتار.

كلّهم يقولون ذلك، ولا سيما من دخلوا «غزة».

لقد تşاجر «غريغوري» مع الضابط الذي يعلوه رتبة، بسبب رفضه نقل الجنود مع المتفجرات، معتبراً أنّ هذا يعارض كلّ الأعراف العسكريّة الدوليّة، وإذا لم يحدث شيء في المرة الأولى والثانية؛ فهذا لا يعني أنّ الخطّر مستبعد دائماً، وسيأتي يوم يحدث فيه حادث، يدفع فيه الجميع الثمن باهظاً، عن المرات السابقة، وسترى كيف ستتصرّف القيادة الحكيمية التي تعجز بعد مرور ثلاثة أشهر من بداية هذه الحرب، عن قراءة متفحّصة، ومتأنّية للمشهد العسكريّ، مقابل التنظيم الصارم للمقاومة بكلّ أطيافها، وتحكّمها في كلّ شيء في الميدان.

الكلّ متأكّدون من أنّنا لم نقم بما يكفي لدعم وتجيئ من أرسلناهم للموت هناك، وعليه يمكن تفسير كثرة القتلى والإصابات التي يتكتّم عليها الجيش، والصّمت المطبق حول تحرير أو تبادل الأسرى، الذين يتعدّب ذويهم بعيابهم، بعد أكثر من ثلاثة أشهر من الإختطاف.

إنّهم يحاولون بكلّ قوام أن يفعلوا شيئاً، كالمسيرة التي نظموها قرب السّيّاج الفاصل باستخدام مكبّرات صوت ضخمة، كنّا نسمعهم قرب كيبوتس «نير عام»، يرددون عبارات تشجيعية، على غرار «نحن معكم لا تيأسوا»، «لا تفقدوا الأمل، سحرّك السماء والأرض من أجلّكم»، حسبما نشر في موقع «أخبار إسرائيل 24»، يوم الخميس الحادي عشر جانفي 2024، وأطلعني عليه صديقي الملازم «غريغوري»، الذي يتصقّ في الأرض كلّما يشعر بضيق:

– ماذا يفعل هؤلاء الحمقى؟، هل الأسرى فوق الأرض حتّى يسمعوا صياحهم؟، إنّهم في الأنفاق، وربما تحتنا الآن، الحكومة فاسدة والجيش فاسد، لا يهتمّان إلّا بمصالحهما الخاصة.

ثم نظر إلى في عصبية:

– هل تعرف بروتوكول «حبّل»؟.

– لا، لم أسمع به من قبل.

– بالطبع لم تسمع به من قبل، أنت مجند جديد، إنه بروتوكول سري في الجيش يقول أنه يمكن قتل الجندي الأسير أو الذي في طريقه للأسر بأيدينا كي لا يتحول مستقبلاً لورقة ضغط.

حاولت التحلّي بالهدوء قدر استطاعتي، وألّا أرسم على وجهي أيّ تعبير، وما حيلتي أمام الذّهول الذي اعتراني مقابل جملته التي هزّت كلّ ذرّة في دماغي؟.

ها أنا ذا أضع يدي الآن على تفسيرات حقيقة في غاية الغرابة لعدة أشياء، لم أجد لها منطقية ساعتها، فقد نشرت صحيفة «هاريتس» مقالاً يوم السبت الثامن عشر من نوفمبر 2023 لم يقنعني، أطلعني عليه السيدة «ليزا» حين كنت في مقرّها، نتّناقش حول موضوع نشر مستندات «بابلو»، فحوّاه أنّ مصدرًا رفيعاً من الحكومة أكّد أنّ هناك مروحة انطلقت من قاعدة «رمات دافيد»، متلقيّة الأمر بإطلاق النار على كلّ من تراهم يعودون لقطاع «غزة»، حتّى ولو كانوا رفقة رهائن، بل وأطلقت قذائفها عليهم، بما يفسّر وجود جثث مزقّة محترقة متفحّمة، فهل من المعقول أن تقوم «كتائب القسام» بحرقهم وتنزيقهم؟.

نعم جيش الدّفاع الإسرائيليّ هو من أحرق مائتي شخص، نساء ورجالاً، كانوا في حفل «نوفا» الرّاقص، وهو نفس الجيش الذي قتل «إيليا توليدانو» وأصدقائه، يوم الخامس عشر ديسمبر 2023، حين رفعوا الأعلام البيضاء، مستسلمين للذين من المفروض أن يحضنوه بكلّ ترحيب، فكيف يتحول خير منقذ لشّرّ قاتل؟.

للأسف... نحن من نقتل مواطيننا قبل أن تقتلهم «كتائب القسام»، ونحن من نحرقهم أحياء بالصّواريخ موازاة مع نيران الإشتياق واللّوعة.

ثم ذهب ملّمحاً لي أنه سيعدّهم من هنا لأنّهم يثيرون أعصابه، بينما جلست مسندًا ظهريّاً لجذريّ أحدى الدّبابات المعطوبة، مرتدّياً وشاح أميّ الأبيض، أمنيّ نفسي من خلال النّظر في صورة «أثاراً»، وهي على ظهر الجواد الأسود، الصّورة التي أعتبرها أحبّ ذكرى بصرية أحملها معي أينما ذهبت، وأنقلها من موضع لوضع، ومن مكان لمكان، أعيد من خلالها أمجاد فؤادي أروم شحنه والأنس، ومحبّطاً هذا الحيوان على حمله لهذا المالك.

ـ هل تسمح بسؤالك؟.

رفعت رأسي لأرى من صاحبة هذا الصّوت الرّخيم.

كانت هي بشحّمها ولحمها واقفة أمامي بلباسها العسكريّ المشود، وعينيها العسليةّين.

قفزت من مكانٍ كالذّي يرى ضابطاً رفيعاً، غير مصدق أنّ «باولا» المغورّة بحملها تحدّثني، آه لو يراني «شلومو» الآن، وأنا أقف أمام هذه المعجزة الأرجنتينيّة، صناعة الربّ.

ـ كيف كان «بابلو» معك؟، أنت «دافيد» صديقه المقرب، أليس كذلك؟، دائمًا أراكما مع بعض، كأنّكما تؤام.

ـ ما وراء هذه الماكرة؟، لقد قُتل «بابلو» وانتهى الأمر، لماذا تجري خلفه الآن؟.

لم أرّجح لها في البداية، لكن مع صدق حديثها، وجدت نفسي أسرد لها كلّ شيء، من تاريخ لقائنا إلى غاية حادث المرور المشؤوم الذي أودى بحياته، الخبر الذي عرفته كغيرها من التّلفزيون، وأدخلها في أزمة صحّية.

محاولاًً استشفاف ما تفكّر فيه، وجدت نفسي أتجهّاً وأخيراً عن «مارغاريتا» قصة حبّ، التي تركها هناك في «السودان»، وعن المستندات السّرّية التي أراد تأمين نفسه بها، وعن العصابة التي استغلّت جهله، وحاولت استعباده لصالحها الخاصة.

كانت دموعها تجري في صمت، غير آبة بالمجنّدين ولا بالمجنّدات الجديّدات الذين كانوا يحاولون تفحّص الموضوع، ماسحة أنفها من حين لآخر ببعض المناديل الورقية، في حين لاحظت أنّ عطرها الذي يمثل راتب شهر قد غاب عنها هذه المرأة.

ـ «بابلو» لم يكن مثل باقي الرجال الذين رأهم في حياتها، لم يكن يشبههم بأيّة صورة من الصّور، كان عملة ذهبيّة وأغلى من الذّهب، كان نادراً ونفيساً أكثر من الألماس، غير منساق لشهوّاته، ولذلك لفت انتباهها، أحسّت أنّه هو الوحيد الذي سيتحمل مسؤوليّتها كزوجة، وسيحافظ عليها من غدر الزّمن، ثمّ أخرجت التّوراة التي كانت تحملها معها، وأقسمت أمامي أنّها كانت تجّبه وما زالت تجّبه، بل زادها موقفه منها في المطعم تمسّكاً به لأقصى درجة، كونها لمست إخلاصه لشيء تجاهله.

ـ في لحظة، تغيّرت نظرها لتحول إلى قطة شرسة، كالوشق الذي سمّيت كتيبتها على اسمه:

ـ أقسم بربّ السماء والأرض أن أنتقم له، ولو كان آخر يوم في حياتي.

ـ يا لحظك يا «بابلو»، لو تعرف الآن من تقسم لأجلك؟.

وانتهى حديثنا كما بدأ، أكثر من ثلاثة ساعات، كانت كافية لتفتح لي قلبها وتطبعني على بواطن ما كانت تخفيه، جلسة واحدة جعلتني أمس عن كتب ما تكتنه لسعيد الحظ هذا المارب من أتون الحرب في «السودان»، فما كان بيدي إلا أن أوصيتها بضرورة التّنسيق مع السيدة «ليزا» حين تسرّح من الخدمة، وتبث عن «غاي» في سرية تامة، فهو الوحيد الذي يعرف مكان المستنادات، وأن تعرف جيداً مع من تتحدث أو تتعامل.

التهور هنا معناه التّحبيـد، دون إثارة شـوك، معناه القـتل تحت أيّ غـطاء يـضمن غـلق المـلف نـهائيـاً، مع عدم فـتحـه لأـي سـبـبـ من الأـسـبـابـ.

بعد أيام كانت «باولا» في فندق «ليوناردو»، الواقع في شارع «هنريتا سولـد» في «بير شـيفـاـ»، مقر عملها الأصلي، لقد سـرـحتـ في إطار خـطـةـ الحـكـوـمـةـ خـفـضـ جـنـوـدـ الإـحـتـيـاطـ لـإنـقـاذـ الإـقـتـصـادـ المـتـهـالـكـ منـ نـقـصـ الـيدـ الـعـالـمـةـ، الـيـ اـسـتـفـرـتـ لـلـحـرـبـ مـنـ السـاـبـعـ مـنـ أـكـتوـبـرـ المـاـضـيـ، لـكـنـ هـذـاـ لـاـ يـمـنـعـ كـوـنـهـاـ تـحـاـوـلـ إـطـالـةـ مـدـةـ الـحـرـبـ، لـيـنـشـغـلـ إـلـسـرـائـيـلـيـوـنـ عـنـ أـمـوـرـ الـفـسـادـ الـمـسـتـشـرـيـ فـيـهـاـ، فـضـدـ «تـانـيـاهـوـ» اـتـهـامـاتـ خـطـيـرـةـ بـالـرـشـوـةـ وـالـفـسـادـ، وـهـوـ يـتـهـرـبـ دـائـماـ مـنـ الـعـدـالـةـ، لـأـنـهـ يـعـرـفـ مـسـبـقاـ أـنـهـ مـدـانـ، وـسـيـعـفـنـ فـيـ السـجـنـ مـثـلـ «إـيـهـودـ أـولـرـتـ»، نـحـنـ مـنـ يـعـانـيـ هـنـاـ مـنـ وـيـلـاتـ الـمـثـلـثـ الـأـحـمـرـ الـذـيـ لـاـ يـرـحـ أـحـدـاـ، بـيـنـمـاـ اـبـنـهـ الـمـدـلـلـ «يـائـيرـ»، ذـيـ الإـثـنـيـ وـالـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ، يـعـيـشـ فـيـ شـقـقـ فـاخـرـةـ فـيـ «فـلـورـيـداـ»، تـحـتـ حـرـاسـةـ أـمـنـيـةـ مـشـدـدـةـ، وـجـمـيعـ تـكـالـيفـ نـدـفـعـهـاـ نـحـنـ مـنـ الـضـرـائـبـ، يـدـفـعـهـاـ أـبـيـ وـأـمـيـ وـالـسـيـدـةـ «ليـزاـ»، وـ«أـتـارـاـ»، وـجـارـنـاـ الـطـيـبـ السـيـدـ «ريـكـارـدـوـ»، وـ«غـايـ» وـالـآـخـرـونـ.

هلـ هـذـاـ مـنـ الـعـدـلـ فـيـ شـيـءـ؟

تـبـاـ لـإـسـرـائـيلـ الـيـ يـتـحـدـثـونـ عـنـهـاـ، أـرـضـ الـلـبـنـ وـالـعـسـلـ، تـبـاـ لـشـارـيـ الـلـبـنـ وـأـكـلـيـ الـعـسـلـ، لـلـجـالـسـيـنـ فـيـ مـكـاتـبـهـمـ فـيـ «تـلـ أـيـبـ»، وـنـحـنـ هـنـاـ نـأـكـلـ الـقـدـارـةـ كـمـ تـأـكـلـنـاـ النـارـ.

لـقـدـ وـصـلـ الـأـمـرـ إـلـىـ سـرـقةـ الضـيـاطـ مـخـصـصـاتـ الـجـنـوـدـ، بـلـ حـتـىـ الإـقـطـاعـ مـنـ روـاتـبـهـمـ بـطـرـيـقـةـ مـاـ، وـبـشـكـلـ بـسيـطـ كـيـ لـاـ يـكـتـشـفـ شـيـءـ، ثـمـ إـلـىـ غـيـابـ الـأـكـلـ الصـحـيـ الـكـامـلـ، ليـتـمـ بـيـعـهـ لـجـهـاتـ أـخـرـىـ، دـونـ الـحـدـيـثـ عـنـ إـهـمـالـ الـحـالـةـ الـنـفـسـيـةـ لـلـعـائـدـيـنـ مـنـ خـلـفـ السـيـاجـ.

«موـشـيهـ عـسـيفـاـ» عـيـنـةـ بـسـيـطـةـ مـاـ يـحـدـثـ هـنـاـ.

أـغـلـبـ الـذـيـنـ أـلـقـيـهـمـ مـنـ الـذـيـنـ قـضـواـ أـيـامـ هـنـاـ، يـعـانـونـ مـنـ مـشـاـكـلـ نـفـسـيـةـ عـوـيـصـةـ، يـحـاـوـلـونـ إـخـفـائـهـاـ بـعـدـ نـفـسـ، يـتـظـاهـرـونـ بـالـتـمـاسـكـ وـالـصـلـابـةـ، وـيـكـبـتوـنـ ضـعـوطـهـمـ، فـيـ حـيـنـ أـنـهـمـ يـتـحـوـلـونـ إـلـىـ وـحـشـ عـنـدـ مـلـاسـتـهـ بـعـضـهـمـ الـبـعـضـ.

وـحـتـىـ الـأـطـبـاءـ الـنـفـسـانـيـوـنـ؛ أـصـبـحـوـاـ عـاجـزـيـنـ تـامـاـ عـنـ إـرـسـاءـ حلـولـ جـذـرـيـةـ لـهـذـهـ الـأـرـمـةـ، الـيـ بـاتـ تـمـدـدـنـاـ جـمـيعـاـ، إـذـ كـلـ جـهـودـهـمـ الـمـبـذـولـةـ لـاـ تـخـرـجـ عـنـ إـطـارـ وـاحـدـ، مـارـسـةـ أـفـعـالـ رـوـتـيـنـيـةـ مـنـ أـجـلـ الـحـفـاظـ عـلـىـ مـنـصـبـ الـعـلـمـ الـذـيـ يـضـمـنـ دـخـلـاـ ثـابـتـاـ، أـمـاـ الـحـكـوـمـ، فـمـاـ زـالـتـ تـكـذـبـ وـتـكـذـبـ، مـوـزـعـةـ تـصـرـيـحـاتـ لـاـ تـكـلـفـهـاـ فـيـ الـوـاقـعـ شـيـئـاـ، مـثـلـ عـجـوزـ تـسـيـرـ فـيـ الشـارـعـ، تـكـسـبـ رـضـيـ الـأـطـفـالـ الصـغـارـ، بـحـبـاتـ حلـوـيـ تـقـتـيـنـهـاـ بـثـمـنـ زـهـيدـ.

هل يعلم وزير الدفاع ما فعلته هذه الحرب التي تباهوا بإعلانها أمام العالم؟.

هل يعلم أننا نعيش في مستشفى للمجانين؟.

هلاوس بصرية، هذيان، تغييرات سريعة في المزاج، فقدان الثقة في الآخر، إتحار، وليس صحيحاً بتة ما يزعمونه من تكفلهم التام بضحاياها على أنساب وأكمل وجه، إننا هنا نواجه مصيرنا بمفردنا، من قُتل قُتل، ومن جُرح جُرح، ولا أحد من القادة الكبار يبالي بنا، وما سيزيد الطين بلة، خروج إشاعات تقول أن وزارة الدفاع تدرس بعناية شديدة مشروعًا لتمديد فترة التجنيد.

سحقاً لإسرائيل.

(35)

عاد صديقي «موشيه» للخدمة بعدما رفضوا إخلاه سبيله، عاد وهو ليس «موشيه»، الذي أعرفه ويعرفه الجميع، لقد غابت تلك الإشراقة التي عهدها في عينيه، تاركة مكانها للكآبة والتشهيد والشروع.

كلّ ما فعلوه له أنّهم أبقوه في منطقة التّحشد شهراً حتّى تتحسّن حالته النفسيّة، فأصبح يقضي وقته إماً متسكّعاً بين الآليّات، أو نائماً داخل إحدى الدّبابات، وغلبت عليه الوحّدة، فنادراً ما أراه يجالس أحداً.
- إنّهم يعالجونه على طريقتهم.

هذا ما أُجاذبني به الرّقيب «الكسندر كارهي» وهو يقلب منصراً أوراقاً سلّمها له أحد المحامين.

ذات سبت قرب الغروب بقليل، رأيته يركض وهو يتلفّت خلفه في وجل، يسأل هذا ويسأل ذاك، ظننت في بادئ الأمر أنّه سمع خبراً جديداً عن أخيه المسجون، غير أنّه كان يبحث عنّي لأمر شديد الأهميّة والخصوصيّة.

لوحّت له من بعيد فحاعني مسرعاً بوجه يغالبه الخوف، لقد سمع ضابطين يتكلّمان عنّي حين كان نائماً داخل إحدى الدّبابات، دون أن يتيقّظ له أحد، رغم أنّ أحدّهما كان حريصاً جداً على سرية حديثهما، بدليل أنّه راح يضرب كلّ الآليّات المتوقّعة أمامه بمسدّسه، ليتأكّد من عدم وجود أيّ شخص داخلها، بينما اعتبر الآخر أنّ الجميع ذهب للمطعم؛ بعدما غادروا دباباتهم، وحثّه على التّكلّم بسرعة، قبل قدوم أحد المجنّدين أو المجنّدات.

لحظات يتزاحم فيها التّشويق والإثارة والتّرقب الحذر.

كان أحد الضّابطين «نيتاي»، ابن حالة «آيزنكوف»، بصوته الجهوريّ الغليظ، الذي لا تخطّطه الأذن على حدّ تعبير «موشيه»، والثّاني «حنانياً» من سلاح المدفعيّ، صاحب الصّوت الأنثويّ، الذي أكله القلق أكلاً، وهو يؤكّد على وجوب التّخلّص مني بأيّة طريقة ممكّنة، قبل أن يسقطوا جميعاً مثلما سقط «روعي بفراخ»، متّهماً «نيتاي» بالتحطّط مسبقاً للهروب إلى «أمريكا»، إذا تسرّب الماء للسفينة.

إنّ اعتبار «نิตاي» أنّ المسألة متّهية قبل أن تبدأ، لأنّه يراقبني جيداً، يعنيون لا تناول، في كلّ مكان حولي على مدار الأربع والعشرين ساعة، وأنّهم لا يستطيعون قتلي قبل التّحديد الدقيق لمكان المستندات، التي إن تسرّبت للصحافة؛ ستكون قضيّة الرأي العام الإسرائيلي، وستُثار التّساؤلات، وستُفتح ملفات ثقيلة نُسيت بعد عقود من الزّمن، بل سيتحرّك الكنيست، ومجلس الوزراء، وحتى فتران المخازن، معترفاً عن واقعية أنّي رقم صعب، على اعتبار أنّ أمّ خطيبتي صحفيّة في «هارينس»، الصحيفة التي لديها مصداقية أكبر من «نتيابو»، وستسقط السماء على الأرض إذا حدث لي مكروه، وأنّ أفضل طريقة هي إدخالي لقطاع «غزة» في الوقت المناسب، هناك سأقتل بلا شكّ، ومن المؤكّد أنّ «كتائب القسام» ستضع عالمة المثلث الأحمر على دبابتي، كوني أمثل لهم عدواً منطقياً، وبالتالي تتمّ تصفيتي دون إثارة شكوك أو تساؤلات أو أيّ ارتياح في الأمر.

كان هادئاً يطالبه دوماً بخضض توّرته وصوته، لأنّ الجنود على بعد أقلّ من خمسين متراً، كما أنّه أوضّح المسألة من جميع جوانبها لضابط آخر إسمه «يعقوب»، وإن كان ولا بدّ من كيش فداء؛ فالأحمق على حدّ وصفه - «إيتان عسيفا» في قبضة «الشاباك»، وسيدفع الشّمن نيابة عن الكلّ.

ثمّ أخبره «حنانياً» أنّ الضابط «يعقوب» طلب كمية كبيرة من ذخائير الدّبابات، لأنّ الطلب يترايد عليها في دول إفريقيّة، والتهريب إلى هناك أسهل بكثير، وإن تطلّب الأمر دفع رشوة ضخمة، فلا بأس، لأنّ السوق واسعة جداً، وسيتمّ تعويض كلّ التّكاليف.

متحمّساً جداً لفكرة التي سيجنون من ورائها جميعاً ملايين الشّواكل، ويحرّكه جشع ينفي ورائه رغبة ما فتئت تتضمّن باستمرار، هو ما أدى إلى نهره من طرف «نิตاي»، مطالباً بنسیان المسألة كلّها، كأنّها لم تكن من أصلها، فهذا الطّمع سيقلب الطّاولة بما فيها على الجميع، مفضلاً الأسلحة الخفيفة، لسهولة نقلها، وعدم لفتها الأنّظار، حتى ولو كان ربحها من القلة ما لا يقارن بالربح المتأتّي من السلاح الثقيل.

ثمّ ساد صمت للحظات، حاكي في «حنانياً» أمر الصّمت، مما دلّ على قدوم شخص نحوهما، قائلاً في همس أنّه سيكون في اجتماع اللّيلة، ومفضلاً مغادرة المكان.

كان «موشيه» يحكى لي وهو غير مصدق بتاتاً ما يحدث، والورطة التي سيجد شقيقه «إيتان» نفسه فيها، إنّه فخّ تستحيل النّجاة منه مهما فعل ومهما وكلّ من محامين أكفاء، أو اتصل بجمعيات حماية الأقليّات في إسرائيل.

لقد تقرّر في الإجتماع أنّه سيكون هو القريان المقدّم للعدالة، شاء أم أبي، وما الذي يستطيع فعله خروف بيد صاحبه سكّين يرمي ذبحه به في كلّ الأحوال؟، هل ينفعه المهرّب، أو الإختباء، أو المقاومة؟.

ووجدت نفسي ملزماً بإيصال ما نقله لي صديقي «موشيه» للسيدة «ليزا»، على وجه السرعة، فكّرت أن أرسل شخصاً أثق فيه، وراقت لي الفكرة كثيراً، لكنّها المسلك الوحيد الذي لا يجب التردد مطلقاً في سلكه.

نضّلت صباحاً على أصوات كثيرة متداخلة لما يقارب المائة جندي وضابط، متجمّهرين في مساحة واسعة أمام آليّاًهم، كان بينهم صديقي «غريغوري» بمحسنه الضّخم، وصوته الجهوريّ الذي لا يمكن لأذن أن تخطّطه،

يحرّض على العصيان، حتّى تلّي جميع مطالبهم، ومنها مجموعة من التّجهيزات التي لا تتوفر داخل إسرائيل، مع قائمة بحوالي عشرين جندية، مؤهّلين مدرّبين جيّداً سبق أن خدموا معه.

كما اشتكي الباقون من نقص المعلومات الإستخباراتيّة الدقيقّة، والتّنسيق بين مختلف الوحدات المتشّرة في الميدان من جهة؛ وبين الطّيران من جهة أخرى، مع الإستهتار العام، واللامبالاة التي تسود الجيش، مؤكّدين أنّه يجب التعلّم فعليّاً وعميقاً من أخطائنا الكثيرة التي لا تُغتَرِّر، خاصة وأنّ حادث الشاحنة الذي أودى بستة جنود وأصيّب بسببه ثلاثون آخرين، منهم من قطع أطرافه؛ ما زال حادثاً يوصف بالصعب، إذا نظر إليه بموضوعيّة، وعلاقاً في الأذهان بطريقة لا يمكن وصفها، سوى بفضيحة تسيّب، وكلّ ذلك بسبب نقل متفجرات في شاحنة كانت تحمل جنوداً للجبهة، في مخالفة صريحة لقواعد السّلامة في هكذا حالات، وفي تناقض مع العرف العسكريّ السائد في كلّ الدول.

وّقعت الحادثة يوم التّاسع من جانفي الماضي، وكشفتها وسائل إعلام إسرائيليّة، وتكتّمت عليها الحكومة كعادتها، لكنّها اشتهرت هنا في كامل مساحات التّحشّد، بل زادت الوضع احتقاناً.

لم يقابل طلب «غريغوري» بالرفض المطلق فحسب؛ بل بإذن عاج شديد من القيادة، التي اعتبرته مجرّد جنديّ رغم كونه ضابطاً برتبة ملازم، وموقعه لا يتيح له سوى الإذعان لما يأمره به من هم أعلى منه، فقط دون مناقشتها، أو توجّه إليه تهمة العصيان.

ثمّ أتى الأمر العامّ للجميع مهما كان سبب تخلّفهم بضرورة الدّخول إلى قطاع «غزة».

نعم، أجبرنا على التّحرّك إلى «رفح» لمنع «كتائب القسام» من الإنّسحاب جنوباً، وقطع الطريق الوحيد أمامهم، الذي يمكن أن يتسلّلوا عبره إلى منطقة آمنة.

هكذا كانت الرواية الرّسمية، ويا لها من رواية!

جافانا النّوم تلك اللّيلة، وبكى «موشيه» على الرّنّازة التي وجد نفسه محشوراً داخلها، مؤكّداً ومصرّاً على استحالة تنفيذ الأمر، لأنّ هناك جحيمما ينتظّرنا وراء السّيّاح، بكى على حالته التي آل إليها، وأحلامه التي يراها تتبعّر أمامه كماء القدر الذي يحمله معه، وهو عاجز عن الإتيان بأية حركة تدفعه ولو شبراً للأمام.

كنا نسمع نحّيه وهو يندب حظه المسكين، وحظّ أخيه العاشر الذي استغلّوه في دولة، يكذب حكّامها على الشّعب، أضعاف أضعاف ما يكذبون على زوجاتهم.

قبل الفجر بما يقارب ساعة أو ساعتين، إستيقظنا فزعين على وقع دويّ طلقة ناريّة لم نعرف مصدرها، خشينا أن تكون المقاومة بيمنا الآن، تجتازنا مثلما اجتازونا في السّابع أكتوبر الماضي، ثمّ أتت إحدى المجنّدات فزعة طالبة منّا التّجدة، فخرّجنا جميعاً ورائهما، ويا ليتني لم أخرج.

لقد انتحر صديقي «موشيه» برصاصة في الفمّ، بسلاحه الشخصيّ، وهو هو الآن غارق في دمه أمامنا، ننظر إليه مشدوهين، لا ندرّي ما نفعل من هول المألم، ثمّ بعده بدقائق معدودة، ونحن ما زلنا لم نفق من هول المشهد، سمعنا دويّاً آخر لرصاصة من عيار صغير، من مسدس لمتّحّر ييلو أّنه تعيس الحظّ مثله.

في لحظات، إنتشر فوقنا الإحباط العام، مثلما انتشرت بيننا عناصر «أمان»، أحسستنا أننا نساق للموت رغمًا عَنَّا، وتذكّرت ما قاله لي «غاي» قبل أشهر، وتذكّرت معه أبي الذي لن أراه مجددًا ولن يراني، تذكّرت أمي ووشاحها الأبيض الذي نسجته لأجل بيديها، وأنا أمسك بهاتف أحد الأصدقاء في يدي التي راحت ترتعش.

تذكّرت «أتارا»، وعيد ميلادها الذي سيكون بعد أقلّ من خمسة عشر يومًا من الآن، وأنا ما زلت لم أشتري لها هدية تذكّرها بي... حين أوضع في تابوت تغطّيه قطعة قماش ذات لون أزرق زاهٍ، بنجمة سداسية، لم تعد لها أية فائدة الآن.



قد يعتقد البعض أنّ المشكلة في حرب العصابات هي جهلهم بمكان تواجد العدوّ على وجه التّحديد، قد يكون الآن أمامك، وفجأة يختفي ليظهر خلفك، ثمّ عن يمينك، ثمّ عن شمالك، ثمّ تأكله الأرض كأنّه شبح.

لكن الطّامة الكبّرى هي أنّ تغادر هذا العالم دون أن تكون مستعدّاً للمغادرة.

هذا هو بالضبط ما نعانيه في قاتلنا مع «كتائب القسام» في قطاع «غزة»، وبافي فصائل المقاومة التي تساندها.

وهذا هو ما حدث للواش الأبيض.

توغلت دبّاباتنا من منطقة «صوفا» تجاه «رفح»، ثمّ توجّه عدد منها إلى «خان يونس» لحدث طارئ، إستُدعيت المدرّعات بصفة عاجلة لإسناد القوات الأخرى، وفي أتون معركة ضروس؛ خرج مقاتل بسرعة من إحدى البناءات المدمرة حاملاً على كتفه قاذفًا صاروخياً ليطلق منه قذيفة «ياسين 105»، نحو إحدى الدّبابات، لتسحّول على الفور إلى كتلة من اللّهب الأحمر، في أقلّ من ثانية، فأحرقت كلّ ما فيها، حتّى الصّور التي أخذها معهم الجنود، وعلّقونها أمامهم إستئنasa.

كان ذلك يوم الثاني والعشرين يناير من سنة 2024، وبعدها بأقلّ من أسبوع تمّ نشر فيديو العملية مثل باقي العمليّات السابقة، وعلامة المثلث الأحمر على الدّبّابة المستهدفة.

يستمرّ مسلسل العبث والتّوجيه العشوائيّ للجنود، الذين يتلقّون الضربات الأولى الموجعة، مثلما حدث للواء «كرياتي»، الذي فقد أغلب قواه البشرية وآلاته، مما أوجب سحبه نهائياً من القطاع، في الثّامن والعشرين يناير 2024؛ حفاظاً لماء الوجه.

لكن...

سُحبت الروح من صديقي «دافيد»، تاركاً خلفه والده السيد «يوسف»، ووالدته السيدة «إيليانا»، وأخته «ياعيل»، تعتصرهم غصّة الوداع، وخطيبته المسكينة، التي كانت تستعدّ لدعوته لعيد ميلادها في الأيّام القادمة.

نعم... قُتل صديقي «دافيد عوفر» في ذلك اليوم، محترقاً داخل دبّابته في «خان يونس»، مع وشاحه الأبيض، وصورة «أتارا»، وبقي من دبّابته بعد ثلث ساعات، رائحة الدّيزل المحترق، وعمود صغير من الدّخان، يشهد على مرور ملك الموت من هنا.

قتل «دافيد» يوم الثاني والعشرين من شهر يناير، من سنة 2024.

قتل «دافيد»، وقتل معه كلّ حلم شابّ إسرائيليّ، ذنبه الوحيد أنّه تماهى مع من أقعموه بأنّهم رعاة أمناء لأحلام المراهقة، فاستفرد به الأمل فتبخرّ.

الباب الثاني

(١)

العشرون من جوان سنة 2020.

يُوْم لا يُنْسَى، يُوْم وُجُدُّه «عديال فشلر» مقتولًا خارج قاعدة «شيزافون»، ببِرْتَه العسكريّة، مباشِرَةً بعد يومين من اختفائه، ومعه سلاحه الشّخصيّ، بندقية من نوع «M16».

لقد تم الإيقاع به من طرف أحدّهم؛ أعطاه موعدًا على السّاعة التّاسعة والنّصف مساءً، لأمر طارئ لم يحدّده له، ثم تخلّص منه بناءً على أوامر تلقّاه، وتم حفظ القضية ضدّ مجاهول.

تبين لاحقًا أنها أوامر من الضبّاط الضالّعين، ومنهم «نيتاي»، الذي لم يكن يعلم أنّ «دافيد» قد تلقّى أمرًا للّتّوجه للجبهة المشتعلة، بصفة مستعجلة.

«نيتاي» الذي رغم مرّكزه المرموق، أصبح الآن بين المطرقة والسدان، مطرقة المستندات وسدان الأوامر العليا، القاضية بإدخال جميع المجنّدين الموجودين في «سديروت» وما جاورها إلى «غزة»، مهما كانت حالاتهم.

أمّا المستندات، فهي أولويّة الأولويّات، التي إن ظهرت وتسربت للصّحافة، فستُطْبَح بكلّ الرّؤوس دون استثناء.

عادت «باولا» لعملها في فندق «ليوناردو» في «بير شيفا»، ينبعق منها عزم غريب وإصرار دفين على الإنقاص من أحّبّته بصدق وإخلاص، هذا ما أراه ثابتًا في عينيها، لا يتغيّر أو يتّمّع، على مرّ الفترات التي ألتقيها فيها، تلك العينين العسليّتين اللّتين تحولّتا منذ زمن إلى عيناً وشقّ.

وباعتبارها حاصلة على دبلوم دوليّ في الفندقة، وثقافتها الواسعة، وإتقانها للفرنسيّة والإنجليزية والعربية والتركية؛ فضلاً عن العبرية، مع جمالها الفتّان، وحداثتها الملّموسة التي انعكست في تفانيها في العمل؛ أسّست «باولا» بواضع حاسمة، تضمن لها إحاطة معرفية بكلّ ما يدور في المكان، بما في ذلك المتردّدين عليه.

هيكل ضخم مؤلّف من اثني عشر طابقاً، يحوي ما يقارب مئتين وخمسين غرفة، أقيم خصيصاً لجذب أصحاب الأعمال والمشاريع، بتصنيف أربعة نجوم، وموقع استراتيجي يميّزه عن باقي المنشآت المماثلة، أصبح

فندق «ليوناردو» واحة في صحراء «النقب»، وأضخم يسقط عدداً لا يأس به من رجال الأعمال، من إسرائيل ومن خارجها، هؤلاء الحريصون على راحتهم، وراحة من يجتمعون معه، مثل الجنرال ذو الوجه العريض، الذي حلّ حديثاً بجواز سفر كينيّ، تحت إسم لا يثير أية شبهة، السيد «إبراهام نباومبورا».

كلّ شيء بدا عادياً ساعتها، لا يمكن أن تثار حوله ذرة شكّ أو توجّس، حتّى حانت اللحظة التي اجتمع فيها مع أحدهم في المطعم الفارغ، تجنبّاً للفت الأنظار، متّحدّين بالإنجليزية، وبعدما تأكّدا أن لا أحد مهمّ لشأنهما، من بعض النّزلاء الذين حلّسوا بعيداً عنهم، يرتشفون فناجين من القهوة؛ راح الجنرال يلحّ في طلب عشرين ألف قذيفة دبّابة، ناسياً أنّ صوته بدأ يرتفع شيئاً فشيئاً، مما أثار انتباه «باولا» التي كانت في الإستقبال، خاصةً بعد التحاق شخص ثالث، بدا لها مألف الوجه، ثم التحاق رابع بالمجموعة، سرعان ما غادر متقدّداً ساعته السويسريّة الفاخرة.

كان الشخص الأوّل «حنانياً»، الضابط في سلاح المدفعيّة، حريص كلّ الحرص على إرضاء الجنرال، ولو بتقدّم وعود زائفة، والتحقّ بما هو «نّيّاتي»، الذي حمل لواء الوسطيّة، يحاول التّوفيق بين المطالب المستعجلة للجنرال، وبين جشع «حنانياً»، الذي راح يعرض جهوزيّته التّامة لتهريب أعضاء بشرية من «غزة»، قصد بيعها في العالم لمن يدفع أكثر، من كلي الجنسين، ومن كافّة الأعمار، كلية، رئة، قلب، بنكرياس، قرنية العين، بل تحرّأً عارضاً على الجنرال العمل معه، بأرباح تترواح من خمس وعشرين إلى خمسين بالمائة، غير مدرك أنّه بتسرّعه وتكوّره، سيغرق السفينة بمن فيها.

كانت طلبيّة القذائف العاجلة من أجل إحداث انقلاب في إحدى الدول الإفريقيّة، ولا يجب أن تكون عبّرّياً لتدرك أنّ دولة هذا الجنرال هي التي ترعى الإنقلاب.

بحفة الوشق، تسلّلت «باولا» وراء إحدى الأسسات الكبيرة للمبين، دون أن يتمكّن أحد من اكتشافها، لأنّ الجميع كانوا حذرين من رجل أسرّ طويل القامة، رياضيّ الهيئة، لا يتجاوز سنه الأربعين عاماً، وامرأة في منتصف العشرينيات، بياضه البشرة، ذات شعر بنيّ فاتح، جلساً على بعد طاولات منهم، ملقيان نظرات عابرة بين الفينة والأخرى.

ثمّ ذهبوا جميعهم للحانة بطلب من الجنرال الإفريقيّ، الذي تحمّس للثّروة القادمة إليه من وراء السّيّاج، تحت أعين كاميرات المراقبة، دون أن ينطر على بال أيّ واحد من هؤلاء السّعداء، أنّ صورة تذكاريّة لهم، قد سرّبت تحت الطاولة، من فريق أمن الفندق.

(2)

معرباً عن تعاطفه الصادق، وتعازي جيش الدفاع الإسرائيلي، في العريف الذي رُقي بعد مقتله إلى رقيب في سلاح المدرعات، «دافيد عوفر»، قدم نفسه باسم «رفائيل أليعازر»، للسيدة «إيليانا» التي كانت وحدها في المترّل آنذاك.

ما إن رأته حتّى أهارت من هول المصيبة التي هوت عليها من السماء، كان جبلاً عملاقاً اتطبق عليها فسحّها، إرتجفت يداها، وتحتّ على ركبتيها تبكي في مدخل البيت، وتحتّ البكاء ضلّ طريقه إلى عينيها، إذ تجمّدت دمعتان كبيتان سدّتا مسار البقية.

إنه إحساس الأم بأنّ شيئاً خطيراً حدث لفلذة كبدها.

وسرعان ما جاءت جارتها السيدة «براخا» عقيلة السيد «ريكاردو مزراحي»، رفقة ابنتيها التوأم، «مارتينا» و«روزالييا»، قصد مواساتها، والتخفيف من مصابها الحال، مع تذكيرها المتواصل أنها حامل، والتوتر سيضرّ جداً بها وبجنبينها.

- هوّي عليك عزيزتي «إيليانا»، الحيّ الذي يكبر داخلك الآن أولى من الميت الذي لن يعود، ولو بكينا عليه ليل نهار.

وكم كانت صعبة مهمة إجلالها على أريكة في الصالون!، لم يترك موت ابنتها فيها من قوّة تستعين بها على الكلام، فضلاً على الوقوف أو السير.

إنّتم الضابط فرصة توجّه السيدة «براخا» للمطبخ، مع ابنتيها، لتحضير قهوة له، وعصير الليمون للأم الشكلي، وسأل السيدة «إيليانا» بودّ واضح لا يخلو من مكر عن الحافظة السوداء التي أحضرها «دافيد» معه، محاولاً إيهامها أنها تخصّ الدبابة الجديدة «ميركافا 5»، الذي كان يتدرّب عليها، وأنّ هذا يعدّ من أسرار الجيش التي يجب أن تبقى في طيّ الكتمان، كونها تكنولوجيا حديثة، يتحمّل عليها تسليمها له مباشرة متى ما وجدتها بين متعلّقاته الشخصيّة، ثمّ - متصلّنا ابتسامة تخفّي وراءها انزعاجه البليغ من كونها لا تعلم شيئاً حولها، ولم تر أبداً أية حافظة سوداء في المترّل -؛ غادر على عجل، غير مقتنع بما تحصلّ عليه من إجابات، عندما فاجأته «روزالييا»

بغضان القهوة، وبابتسامة ترحيب عريضة، مع كلام لبق، فلم يجد بدّا منأخذ رشفة واحدة، كمحاملة يخفى بها مراوغته الفاشلة.

في اليوم التالي، إستدعت الحاجة أن أقني دوائي الخاصّ من إحدى الصيدليّات في «أوفاكيم»، فلمحت «آيزنوكوف» يقود سيارة بسرعة جنونية، غير عابئ بقوانين السير، ولا بتذمر السائقين الآخرين، تسائلت في قرارة نفسيّ عما حدث حتّى يتواجد هذا الشخص هنا.

ثمّ ربطت بسرعة بينه وبين ابن خاله «نيتاي»، وجهاً لعملة واحدة، واتّجهت مباشرة لمotel صديقي «دافيد»، حيث وجدت هناك «أتارا» مع والدتها السيدة «ليزا»، رفقة جمّع من المعزّين، من بينهنّ عقيلة عمدة المدينة الماكر «يتسحاق دانيو».

كان الجميع في حالة نفسية سيئة للغاية، حتّى أنّ «أتارا» لم تستطع الكلام من هول ما حدث، كانت عينها حمراوين متتفتحين من شدّة البكاء، ومن آثار الصدمة التي ما زالت لم تستوعبها، بحكم سنّها، بعد مرور أربع وعشرين ساعة على ورود الخبر المشؤوم، ثمّ دخل والده السيد «يوسف»، على كرسيّ متحرّك، يدفعه به أحد الجيران، بوجه حزين عبوس يعكس مرارة الألم، ولوّعة الفراق المقرّون بخيبة الأمل.

بعد الغروب وبعد انصراف المعزّين، إجتمعنا كُلّنا في الصالون تشاور في كيفية التصرّف المثلّى، محاولين إيجاد حلّ، ينهي حلقة الفراغ اللامنتهية، التي وجدنا أنفسنا داخلها، حين نبهتنا السيدة «ليزا» راشدة أنّ إدارة النّشر في الصّحيفة، رفضت رفضاً قاطعاً نشر القصّة، أو حتّى محّرر الإشارة إليها، لغياب المستندات، التي تُعتبر حجّة إدانة دامّعة للمتهمين، وبرهاناً على صحة ادعائنا، وحماية قانونية في حالة رفع دعوى قضائيّة ضدها بتهمة التّشهير.

– يجب البحث أولاً عن «غابي» أكثر من أيّ وقت مضى، لأنّ بيده مفتاح اللّغز.

هذا ما قلته.

«غابي» الذي يُعتبر مختفيّاً منذ أكثر من أسبوع، دون أن يبذل أفراد الشرطة جهوداً حقيقية في البحث عنه، على حدّ قول والدته المحبطه من تقاوسيهم، إذ كلّما ذهبت للإستعلام عن أيّ جديد، يتّجاهلونها متحجّجين بألوبيات أخرى.

كان الشرطة ضالّة في المسألة بشكل أو بآخر، أو هناك يداً عليها تخشى عملية التحرّيك.

يحدّق السيد «يوسف» جيّداً في الصورة التي أريها لهم، بعدما نجحت «باولا» في تكريبيها من كاميرات أمن الفندق، وهو غير مصدق لما يراه بأمّ عينيه:

– «غارسيّا»؟، بلا شكّ، زوج «إنجي»، لقد زارني مرات في المستشفى، لا يمكن أن أنسى وجهه.

وأخيراً، بدأ الضباب ينقشع، ليكشف عنّ يشربون اللبن ويأكلون العسل، في أرض أشواكه للأغبياء الذين يسهل خداعهم، أكثر من الأطفال الصغار.

رجعت لمتربي في تلك الليلة قرب منتصف الليل، بعد أن اتفقنا جميعاً على الإلتقاء دورياً كلّ نهاية أسبوع، لمناقشة أيّ جديد يطرأ على الموضوع، مع ضرورة إبقاء جسور التواصل قائمة للظروف الطارئة، لا سيما وأنّه يتوجّب على العودة للخدمة.

رجعت وعشرات الأفكار تترافق في رأسي، بعد يومين اتصلت بي السيدة «ليزا»، لتقول أنّ أم «دافيد» قد نقلت بصفة مستعجلة إلى مستشفى «سوروكا»، في وضعية حرجة للغاية، فما كان أمامي سوى التوجّه هناك، لأحد السيد «يوسف» والد «دافيد» مهموماً مع «ياعيل»، وهم يتظاران خروج الطّبيب من غرفة العمليّات.

طالت دقائق الإنتظار، وزادت التوجّسات لديهما.

أخبرني السيد «يوسف» أنّ «دافيد» قد قُتل بعد إجراء مكالمة مع والدته، حيث إتصل برقم هاتف جديد، بنبرة صوت الخائف من شيء غامض مجهول، طالباً الصّفح من كلّ أفراد العائلة، ثمّ قطع الخطّ، ليجد الجميع أنفسهم في حيرة وضياع وغمّ، فميّزت أنه اتصل حين تلقّى أمر الدّخول إلى «غزة»، بعد انتشار خبر العصيان العسكريّ، وورود إشاعات عن استدعاء وحدة «كفير»، المتخصّصة في قمع التمرّد المسلّح.

لم يدرِ المسكين ما يفعل، بعد أن تعقد الموقف وتزعزع الوضع، ووُجد نفسه في زجاجة، فقد ترسّخ لديه الإعتقاد أنه باقٍ في مساحة التّحشد لأشهر طويلة قادمة، آمن بكلّ ما للكلمة من فحوى، لا يمكن أن يصيّبه شيء ما دامت المستندات مخفية، بينما يحاول إيجاد طريقة ما، مضمونة للوصول إلى «غابي»، الشخص الوحيد الذي يعرف مكانها، لكنّه كلّ شيء، بشكل غير متوقّع، مما خلط كلّ الأوراق لدى جميع الأطراف.

بعد ساعة أو أكثر بقليل، خرجت ممرّضة ترتدي كماماً وفي عينيها أثر انزعاج، فهرعت «ياعيل» إليها باكية، تريد الاطمئنان على والدّها الرّاقدة بين الحياة والموت، وهرعنا إليها كلّنا دون شعور، حتّى السيد «يوسف»، محاولاً بيديه دفع كرسيّه المتحرك نحوها.

لم يلبث الطّبيب أن خرج بعدها، مزيحاً الكماماً عن وجهه، بيدين تجاولاً السّيطرة على حركتهما، مع بعض الإرهاق الخفيف المتجلّي على وجهه الأسمّر، وفي صوته، مؤكّداً أنّ حالة السيدة «إيليانا» مستقرّة الآن، بعد تجاوزها مرحلة الخطر، غير أنه اضطرّ للتّضاحية بالجنبين، بعدما عمل كلّ ما في وسعه رفقة الطّاقم المراقب، إلا أنّ إرادة الرّبّ سبقت كلّ أخذ بالأسباب.

(3)

يقول «الشّاباك» إنّ حركة «حماس» قوية جداً سياسياً وعسكرياً، ولها أساليبها الخاصة التي يعتمدون عليها في حركهم ضدّنا، «حرب العصابات»، لكن لا يعترفون بذلك علينا.

إنّهم يخشون حتّى الإعتراف، رغم معرفة الرأي العام الإسرائيليّ، واقتناعه به اقتناعاً لا يقبل التشكيك أو الطّعن، لدرجة أنّ «نتنياهو» و«غالانت» أصبحا يتّبّلان التّهديدات فيما بينهما، فإذا كان الأول ما زال يحاول إطالة أمد الحرب بطريقة نموذجية، تسمّى «الهروب إلى الأمام»، حسب تلميحات صحيفة «هاريتّس»، التي ذكرت أنّه يفضل شعارات النّصر الجوفاء على حياة الأسرى الإسرائيليّين، فإنّ الثاني واقعيّ جداً، يدرك أنّ المقاومة حقيقة يجب التعامل معها، دون استهتار أو استفزاز، وبين هذا وذاك؛ فإنّ الشرطة أو بالتعبير الأدقّ، شرطة القزم «نتنياهو»؛ تتولّ مهمّة قمع المطالبين بالتسوية السّلميّة لملفّ المخطوفين.

شرطتنا التي أصبحت تعندي على المواطنين المطالبين بحقوقهم لأنّه الأسباب، حتّى إنّهم اعتدوا على عضو الكنيست عن حزب «العمل» السيد «جلعاد كريّم».

هل يمكن أن يعتدي شرطيّ يتّقاضى راتبه من ضرائبنا المدفوعة على مواطن إسرائيليّ مثله؟، مواطن خرج معبرّاً عن رأيه، بطريقة بليغة في السّلميّة والديموقراطية والحضارة؟.

طبعاً سيكون للمتظاهرين ردود أفعال على قمع الشرطة المتّواصل، المصريّين على إغلاق آذانهم أمام أصواتنا، وهو ما حدث يوم العاشر من فبراير 2024 في «تلّ أبيب»، حيث تحولت المظاهرات السّلميّة إلى مشادات كلاميّة، سرعان ما تطّورت إلى أعمال عنف وتخريب، شارك فيها الآلاف، حاملين علم الدولة، وصور أحجّائهم والشعارات، التي سُمّ أصحابها الوعود العسليّة، والكلام المطاطيّ الرّنان.

استفزاز الشرطة هو ما أوصل الحشود إلى حالة من المستيريا، فقطعوا الطرق الرئيسة، وأشعلوا التّيران بكثافة، مما أدى إلى تكرار الخطأ ذاته، وهو اعتقال العشرات منهم.

كانت أمي وخالي مختبئتين في إحدى زوايا الشّارع القليلة الإنارة، فلم يرّهما الشّور المائج وهو ينفّذ أوامر أسياده، المتّشدّقين بزعمهم أنّهم سيحرّرون الأسرى بالقوّة؛ وهل تنفع القوّة مع «كتائب القسام»؟.

لا أحد في إسرائيل يخشى على مخاطف له عند «حماس»، فهم لم يخظفوه كي يقتلوهم في النهاية، لكننا نخشى قصف الجيش الذي لا يميز بين طفل وامرأة ورجل فقط، ثم يتذرون باستحالة السيطرة على تأثير انفجارات القنبلة الملقاة، مثلما حدث لتعسّف الحظ، «رونين أبخيل»، «يوسي شرعابي»، «مايا غورين».

حكومة تعاين إحباطاً عالياً المستوي تسعى لإخفائه، إحباط قاتل انعكس سلباً على طريقة تصرفها، وأدائها المسرحي المزيل، هل يعتقدون أنّ سيناريو القصة المفترضة للأسرى المحررين؟ «فيناندو سيمون» و«لويس هار»، صالحة لخداع أكثر من تسعة ملايين إسرائيلي؟.

هذا الأسرى كانوا تحت مسؤولية عائلة من «رفح»، ولا شأن للمقاومة بعما، لكن القزم الأفاق سوق للعملية إعلامياً، كعملية إنقاذ، شاركت فيها «الشاباك» والفرق الخاصة لمكافحة الإرهاب، وتحت المتابعة المباشرة له، إلى غير ذلك من الوهم الذي يريد منّا أن نصدقه، لإقناع الرأي العام أن تحرير الأسرى لا يكون إلا بالقوّة.

حسناً، إذا كان هذا صحيحاً، فلماذا لم يتم تحرير باقي الأسرى بالقوّة كما استعادوا الأسرى؟.

لقد تم الإنفاق ودياً مع عائلتهمما لتسليمهمما مقابل مبلغ ماليّ معتبر، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ، والباقي ما هو سوى محاولة ذر الرّماد في العيون، هم يريدون الحفاظ على مصالحهم السياسيّة، شأن «نتنياهو» شأن وزارة «سموتريش»، الذي صرّح أنّ الأولويّة لتدمير «حماس»، ثم نحرر الأسرى فيما بعد.

وبين الإشاعات وتداعياتها على قرب التّوصل إلى اتفاق نهائى، وأعصابنا المشدودة ليل نهار، يقع أحدي هناك، تحت الأرض في «غزة»، وراء السّياج الفاصل، ينتظر ومنتظر معه كلّنا، أنا وأمي وحالي، شروق الشّمس الذي طال انتظاره.

قبل تاريخ السابع والعشرين من أكتوبر سنة 2023، كانت منطقة غلاف «غزة» تعجّ بآلاف الجنود الذين يحاصرونها في انتظار الضّوء الأخضر لدخولها، ومن بينهم أخي الأول، الملائم في سلاح الهندسة، الذي أكّد لنا قبل شهر أنّه بعيد تماماً عن الخطّر، وحدثت نفسي مع أمي وحالي، أصدقه، لأنّي أريد تصديقه، رغم أنّي أعرف يقيناً أنّ الوضع خطير، وهناك تعقيدات ميدانية، لا يعيها إلاّ من كان هناك، يتسبّب بالحياة بين أعاصير الرّصاص.

قبل يومين؛ قال إنّه قلق من الوضع المتأزم باستمرار، لأنّ «كتائب القسام» لا يعرفون الخوف، ولا يهربون من الموت، بل يسعون إليه سعيناً نحن للحياة، فكيف نحيف شخصاً هو من يملك وسيلة الإخافة؟.

لقد حكى لي مواقف بطلية عنهم، مواقف لا تصدر إلاّ عن مقاتلين أشاؤس، في شجاعة الأسود وبطشّهم، يبحثون عن الموت مثلما يبحث الظّمآن عن الماء، أخي وأعرفه أكثر من أيّ شخص آخر، لقد سئم هذه الحرب التي لا تنتهي، ولن تنتهي، قتلانا بالمئات، غير أنّ الجيش يخفي ما يحدث حفاظاً على الروح المعنوية، و«أمان»، جهاز الاستخبارات العسكريّة يراقب كلّ صغيرة وكبيرة، ولا يتوان في محاكمة أيّ تردد، أو تشكيك لأيّ مجنّد مهما كان.

باتت القيادة الآن بعد مرور ثلاثة أشهر، تخشى أهليّات معمuniات الجيش، وتتوّجس العصيان.

إنّهم ي يريدون الحفاظ على شعار «الجيش الذي لا يُهزم» مهما تكلّف الأمر، والظّهور بمظاهر القويّ أمّا حلفائنا، وأمّا الرأي العام العالميّ.

وأنجز أخني حين أصابتهم قذيفة فجرّت حولهم كلّ شيء، إنجز مع رفقاء الدين كانوا قد أنجزوا للتّوّ ترسيب ألغام من أجل تفجير إحدى المباني.

لقد قُتل أخني في نفس اليوم الذي قُتل فيه «دافيد»، وفي نفس المنطقة، ثمّ نشرت «كتائب القسام» الفيديو، يظهر فيه المثلث الأحمر مرسوماً على كافّة الجنود المستهدفين.

كم هي عجيبة هذه الدّنيا، أن يرحل أخوك وصديقك في يوم واحد!

أفضل حلّ كي تبقى حيّاً في إسرائيل هو أن تدير ظهرك للدّولة مثل «يعقوب غوتبرونغ»، صديقي من «الحربيّم»، المعارضة لإقامة دولة إسرائيل منذ تاريخ إنشائها.

لا يشاهد التّلفزيون وليس لديه هاتف، يتعرّف على آخر الأخبار وما يدور حوله من مطالعة الصّحف المعلّقة لديهم في حيّهم، لم أره أبداً يلبس ملابس ملوّنة؛ لأنّ اللّون الأسود لونه الغالب المفضّل الوحيد.

بلحية خفيفة وقميص أبيض، وقبّعة سوداء مع معطف وسروال يماثلها في السّوداء، يمضي كلّ أيام الصّيف والشتّاء، كلّ همّه الصّلاة والتّوراة وإنخاب الأولاد؛ ولا يشارك في أيّ إنشطة أخرى، بل ترُوّج باكراً عند بلوغه سنّ العشرين، وهو ينتظر مولوداً بعد ثلاثة أشهر، قال إنّه سيسماه «موشيه»:

- جدي هنا قبل إنشاء هذه الدّولة، كنّا نعيش مع العرب والمسلمين دون مشاكل، حتّى أتى «بن غوريون»، الصّعلوك الباحث عن الشّهرة والمجّد، وعصاّته، فأفسدوا كلّ شيء، نعم أفسدوا كلّ شيء، بما يصعب عملية الإصلاح، ونحن الآن بين نارين، معارضة إسرائيل من جهة؛ ومحاولة إفهام العرب أنّا لسنا صهاينة من جهة ثانية.

ذكرت أمّامه مرّة «إيتamar بن غفير» كيمييّ، فقاطعني متّشائماً:

- لن يغفر ربّ له، هذا العلمانيّ، هذا الكافر بتعاليم التّوراة، يريد إقحام خمسة عشر ألف مقاتل منّا لسدّ العجز في القوّات، في أتون حرب هو من أشعلها وهو جالس في مكتبه، هل رأيت شيطاناً أحسنّ من هذا؟، المجد له والموت لنا؟، لعنة ربّ «موشيه» عليه إلى يوم القيمة.

ثمّ أردف وهو يحاول ضبط قبّعه التي كادت تسقط بتوتّره:

- قانون إعفائنا من الجيش سيتهي في الحادي والثلاثين من مارس القادم، ونحن نحضر من الآن لمظاهره حاشدة في آبريل، أوسع من أيّة مظاهرة سبقتها، أمّا مكتب التجنيد في «أورشليم»، لن تدركهم يدمّرون كلّ شيء، هؤلاء العلمانيّون الكفار، أعداء ربّ، هل تعلم أنّهم يتدرّبون يوم السبت؟، غير معقول؛ السبت يوم مقدّس، لا يجوز أيّ عمل فيه مهما كان نوعه، التّفرّغ للتّوراة هي من تحمي ديننا، أمّا الوطن فلا نحتاجه، كنّا

نعيش مع العرب والمسلمين منذ الخلافة العثمانية، كأنّا شعب واحد، بل كنّا شعباً واحداً، لم دينهم ولنا ديننا، ما الذي تغيّر الآن كي نضرب في بعض، ويقتل أحدنا الآخر؟.

هذا هو موقف «الحربيّين» منذ وجودهم هنا قبل حرب الإستقلال، لا يقبلون إعانت من الدولة، ولا يتواطّفون، نساؤهم هنّ فقط من يعملن في متاجرهم ومتاجرهم الخاصة، عن الأزواج المنشغلين بالعبادة والذّكر.

كانوا قلّة قليلة لا يؤثرون في شيء آنذاك، أما الآن، فهم يتزايدون باستمرار، بمعدل سبعة أطفال في الأسرة الواحدة، أي أنّهم باتوا يشكّلون خمس وعشرين بالمائة من السّكان.

(4)

خرجت من منزل السيدة «ليزا»، لأجد «آيزنکوف» يحوم بسيارته حول المنزل، فبات من المؤكّد لنا جميعاً أنه عين «نبيّاي».

لا أحد سير أغوار «دافيد» مثلي، أنا صديقه الذي عرفته منذ سنوات، نشأنا في بيته تحبّ الكتب والعلم وتقديس العلماء، المكتبة هي محورها العام، وهي النجم الذي يدور حوله كلّ الكواكب، بيته هي في الأصل عالمه الخاصّ، عالم يعيش مطمئناً بداخله لا ينقصه شيء، وقلمه هو كلّ شيء.

يكتب كلّما وجد وقتاً ملائماً للكتابة، للتنفيس أولاً، وللتّوثيق ثانياً، وفي حركة أشبه ما تكون دفاعيّة، لكلّ موقف لا يستطيع مواجهته ثالثاً.

لم يكن يخبر أحداً أنه يكتب، في فعل تراكميّ نادر، أنتج بعد سنوات مئات الصّفحات من حياته، ليطلعني على الموضوع برمتّه في السّاعات الأخيرة، وظننت أنها مزحة منه، غير أنه أقسم لي أنه جادّ، ملّمّحاً أنه سيخفّيها في «غزة»، عرين الأسود، وهو مكان آمن في نظره.

كان مشتّت التّفكير، قلقاً شارد الذهن منهاراً، رغم كونه يتظاهر بالصلابة والرّزانة، لقد كان يخشى أن يجدوها معه، فيتخلّصون منه ومنها، فتختفي الحقيقة نهائياً، ولذلك جاء إلى استنساخها، فإذا ضاع الأصل بقيت الصّورة، وإذا ضاعت الصّورة بقي الأصل، وللحقيقة ألف طريق.

كم تمنيت لو استنسخ المستندات قبل أن يجد نفسه أمام طريق مسدود.

أوصاني «دافيد» أن تعطى المذكّرات لخطبته في سرية إن أصابه مكروه ما، فقد كانت حّبه الأول المكتنون، وعملت على تنفيذ وصيّته.

وسلّمت لها نسخة، بعد أن اطلعت على بعض الصّفحات، إرضاء لتطفلي.

كان ذلك ظهر يوم الجمعة بعد أن انقضى أسبوع الحداد، فاستقبلتها المسكينة بيد مرتعشة، ثمّ انهارت على الأريكة خاسعة بدمع ينساب رقراقاً من عينين متورّمتين بحالات سوداء، وهي تقرأ كلّ كلمة فيها كالذى يقرأ التّوراة.

كان الموقف عصبياً، إمتدّت يد السيدة «ليزا»، وحقّ لها أن تتدّ، لقطع يد كلّ مجرم يرمي لها أولئك القادمين من وراء السياج، ما كتبه «دافيد» بقدر ما حواه من غرابة؛ بقدر ما كان فاضحاً للمجتمع الإسرائيلي، المزق، لأنّي، الحقير.

لما اطلعت على أسطر منها؛ لم أستطع مقاومة فضولي الذي راح يتّمّي كلّما رقصت عيناي بين الصفحات، بل عرضت نشرها كاملاً على «هاريتس»، ليعلم الجميع بما جرى ويجري، وخاصة في السابع من أكتوبر سنة 2023، وتحمّست السيدة «ليزا» للموضوع كلّ حماس، كما تحمّست للقاء من عرفه جيداً هناك في قاعدة «شيزافون»، الملزّم «ديميترى»، ولو أنّ هذا الإسم ليس غريباً عنّي، هذا الذي كان يعول على «دافيد» كثيراً، ويحاول بناء المقاتل الشّديد فيه، لما لمسه من ميّزات وخصائص.

عدت للجيش بعد انتهاء عطلة القصيرة، عدت للجيش الذي ما زال يُهزم مراراً وتكراراً، وينبّأنا بالعودة مجدّداً للإسطيطان في «غزة».

يا لعباء هذا التّلميذ الذي لا يستوعب الدّرس ولو أُعيد له عشرات المرات.

كنت هناك في «نُتساريم»، قبل أن تفكّك في الثاني والعشرين من أغسطس سنة 2005 بعد الإنّسحاب، كنا جمّيعاً هناك، مع سبع عشرة مستوطنة، بعدها وثّقنا في «شارون»، فمنحناه قلوبنا، بكلّ ما فيها من حبّ وتقدير وامتنان، قبل أن يتخلى عنّا، ذلك البرميل الذي أجرّنا على التّخلّي عن كلّ شيء، وأنا ابن عشر سنوات.

وما زلت أتذكّر، كلّما حملت سلاحي متوجّلاً في هذه الأرض، أرى كلّ المباني المشيدة، تدكّها قنابلنا بما حوطه، من النساء والأطفال والشيوخ، هذه الأرض التي وعلّونا أنّها لنا، تركت فيها غرفتي، وأرجوحتي التي كانت في الحديقة، ومعلّمتي «كاتيا»، الجميلة ذات الشّعر الأشقر.

ولدت هناك في «نُتساريم» المحصنة جداً كما كانوا يزعمون، سمعتهم يقولون أنّا من «الصّابرا»، الجيل الجديد المولود هنا، ولنا كلّ الحقّ في امتلاك ما استرده الآباء والأجداد بتضحيات نفيسة بذلوها، لا يجب أن تُنسى مهما حدث، بل يتعيّن علينا أن نحّمي كلّ شبر حين نكبر، حين تتغيّر فينا الأجساد والأصوات وتبقى الأفكار، مثلما تحمي الدّبابات وجندنا الأشواوس الأقوياء.

كنا خمسين عائلة فقط أو أكثر من ذلك بقليل؛ نعرف بعضنا بعضاً؛ لكنّ هذه الأرض لا يدوّن أنها تعرّفنا.

كان هناك جيش جاهز ليُسحق حتّى الذّبابة التي تخطّى على جبين أيّ واحد فينا، من لوائي «باراك» المدرّع ومشاة «جفعاتي».

أتعلّم؟، ليس من السّهل إزعاجنا، فتحنّ شعب الرّبّ المختار، الذي تمتّدّ أرضه من النّهر إلى النّهر، ثمّ فجأة... إختفى كلّ شيء، حلم آسر أخّاذ، أفقت منه بعثة حين حاولت معلّمتي إفهامنا ذات صباح مشمس هيّ والدموع تتألّأ في مقلتيها، أنّ المغادرة أمر حتميّ، بعد أن عانينا من سلسلة لا تنتهي من المجمّمات.

- يجب تقليل مستوى الإحتكاك مع الفلسطينيين قدر المستطاع.

هذا ما قالته أمي لخالي وهي تجمع حاجياتنا.

كنت صغيراً لا أفهم ماذا يعني هذا الخطاب، ولماذا كانت تحاول تكيتنا نفسياً لتقبل الوضع الجديد؟، ما سبب بكاء أمي باستمرار كلّما جلست وحدها؟.

كنت لا أفهم لماذا يتوجّب علينا دائماً الخروج من المستوطنة في حماية الجيش؟، أقصر نحن نخشون علينا من الضياع؟، ثم لماذا يكرهنا العرب ويقتلوننا؟.

لم يخبرني أحد أننا أخذنا أرضهم وبساتينهم عنوة، واغتصبنا فوقها كلّ ذكرياتهم الجميلة، التي كانت في قراهم الوارفة الظلّال، قراهم التي مونها من الخارطة محوتّي الآثار، وأسّكنا بدهم يهود الشّتات.

لقد أورثناهم الواقع لا تُحتمل ولا تُعترف.

لم يخبرني معلّمي الأوكرانية الأصل بكل ذلك، لم تقل أن السرقة التي تعصب الربّ نحن الذين ارتكبناها أولاً، وأن احتقار الآخر نحن من بدأناه، لم يخبروني بالقصة الكاملة، لقد حذفوا منها كلّ ما أزعجهم، وما يزعجهم هو تماماً مربط الفرس.

- مهمّتنا الأساسية هي تدمير البنية التحتية لحركة «حماس»، وذراعها العسكري «كتائب القسام»، والقضاء على «السنوار»، خطّط هجمات السابع من أكتوبر، مع كلّ القادة المساعدين له.

هذا ما تلقّيته من أمر في اجتماع عاجل للضيّاط، كُلّفت بنقله للجنود الذين هم تحت إمرتي، ويا لها من مهمّة، نحن نتعامل مع أشباح يضربون ويخفون تحت الأرض، لا يشبهون أحداً ولا أحد يشبههم، يصطادون جنودنا في براعة الشّعالب وشجاعة الأسود، بينما نحن نعاني من إجهاد بدنيّ وعصيّ، طول النّهار، سببه الرئيسيّ انعدام الراحة، حيث تصل مدة أنشطتنا القتالية إلى أربع عشرة ساعة كاملة دون انقطاع، تظلّ أصابعنا على الزّناد، وأعيننا تترقب أية حركة.

إنّهم يقاتلوننا باستقلالية تامة عن قيادتهم العليا، في مجموعات صغيرة، خفيفة الحركة، لا يمكن رصدها بل يستحيل، بينما نحن ننتظر كلّ شيء عبر اللاسلكيّ، بل منوعون من المبادرة، ونتحرّك في مجموعات كبيرة، مع محاولة التنسيق مع سلاح الجو، وأحياناً سلاح البحر، لا يوجد وجه للمقارنة، هذه القراءة العبّثية لا تمتّ للواقع بصلة، بل أحياناً تلقى أوامر بالمبث في «غزة»، لظلّ مستيقظين خائفين من قذيفة لا تبقي ولا تذر، رغم أنّي أعطي أوامر لجنودي بضرورة النّوم، وترك واحد فقط للحراسة، إلا أن توّرّهم ينعكس سلباً على نومهم، أصابعهم مشدودة على الزّناد، وتصيب أحدهم من حين لآخر رجفة شديدة، ومنهم من يفقد القدرة على تحريك رجليه، ثم ينعكس سلباً على أدائهم في اليوم التالي.

أراهم في حالة انهيار تامّ، تتأحرّ ردود أفعالهم وتتدنّى مستويات تفاعليهم مع الأوامر، سهو ونسيان وصعوبة بالغة في الإستيعاب، وحتى في الفهم، أخاطب تمثيل برونزية، مجموعة من المتعوهين، يفقد أحدهم توازنه بمجرد دفعه خطأ من رفيقه، ليثور عليه فينشب شجار بينهما، فأُضطرّ للتّدخل.

لن تكون شخصاً لطيفاً إذا لم تحظ بمقدار كافٍ من النوم.

هذا المناخ الذي أعيشه، هو الورقة الضاغطة في يدي الآن، لأطلب أيّ عطلة أريدها، شرط ألا تتجاوز خمسة أيام، وهو بالضبط ما تقدّمت به بعد ثلاث أسابيع من القتال، واحد وعشرون يوماً، كدت أفقد فيها حياتي حين وقعنا في كمين، أوّل يوم من جنودي، الذين لا يعرفون أصلاً لماذا يتواجدون هناك، وما هي دافعهم ليقاتلوا أصحاب الأرض.

إشتريت باقة ورد مشكّلة، وذهبت لزيارة أسرة صديقي «دافيد»، من عادٍي أن أطرق الباب حتى ولو كان لديهم جرس.

بعد طرفيين خفيقين، خرج لي شخص لا أعرفه، حيّته بـألف عالمة استفهام، مستفسراً عن السيدة «إيليانا» والسيد «يوسف»، فقال إنه اشتري المترّل منهما منذ أربعة أيام، ولا يعلم شيئاً آخر.

كان جاره خارجاً من المترّل مستقلاً سيارته، فسألته عنه، غير أنه أجابني مزحراً كاشفاً عن أشياء كثيرة حدثت في غيابي:

- «يوسف» شخص خائن لإسرائيل، لا أريد أن أسمع عنه بعد الآن، لا هو ولا عائلته.

كانت عباراته موجزة صارمة، كأنّ بينهما حساباً قدّيماً، ثمّ أردف في حقد وغضب:

- عملية «السيوف الحديديّة» ما زالت مستمرةً، لقد دمرنا كلّ شوارع «غزة» انتقاماً من هؤلاء الذين يرفضون الخضوع لنا نحن أسياد العالم، يجب تجوييعهم كي يغادروا المكان، أو نسحقهم نساء وأطفالاً، مثلما نسحق الصّراصير، دون رحمة.

ثمّ نزل وهو يقول:

- سنجعلها مجاعة لم يروا مثلها في حياتهم، ولن يقف إلى جانبهم أحد.

وتصعد من جديد وابتعد، وهو يواصل شتمه اللاذع.

كان يتكلّم ويرتعش، هذا أهّم ما لاحظته، ولم أدقّق في باقي التّفاصيل، غير أنّ رائحة عطره أبّت أن تفارق أنفي؛ أعرف هذا العطر جيداً، إنه «روحاً سكاندل»، نوع فاخر رغبت في شرائه ذات صباح وأنا أجحول في «حيفا»، لكنّي عدلّت عن الفكرة، بسبب ثمنه المبالغ فيه، أكثر من ألفي شيكل، واقتنيته من محلّ آخر بشمن أقلّ، عطر لا يقتنيه إلا أصحاب الطبقة المحمليّة في إسرائيل.

ثمّ خرجت السيدة «براها» معتذرة عن السلوك الفضّل لزوجها.

إذن هذا هو السيد «ريكاردو مزراحي»، جار «دافيد»، الذي توسّط له في الإنضمام لسلاح المدرّعات، كثيراً ما سمعته يتحدّث عنه، وأولّ مرة أراه.

ورحت أقارن بين تصرّفه معـي، وما يشاع عنه وعن روحـه الـّريـاضـيـةـ.

ثم أكملت بنيرة حزن:

– لقد عاد لوطنه الأصليّ، «المغرب»، بعدما فقد ساقيه في شلل تامّ، ولديه، «دافيد» والجني، لم يبق له شيء هنا.

عرفت الآن سبب سخط السيد «ريكاردو»، وسبب اتهامه بالخيانة، لقد تخلّى عن صهيونيته، أو بالأحرى تفطّن من غرّر به، وهو ما أثار حقده عليه، خاصة وأنّهما صديقان لا يفترقان، فضلاً عن جيرهما.

قالت السيدة «براها» إنّها تعذر، فقد مرّ بظروف صعبة للغاية، لقد كان دائم الصرّاخ والشجار في الآونة الأخيرة، مع زوجته المسكينة التي عانت وتعاني مثله الأمرين، كيف لا وهو يرى أنّ مستقبل العائلة دُمر، وما بقي يدمر أمّام عينيه؟، فآثار العودة لبلده الأصليّ الذي جاء منه، بعدما أصبح لا يطيق البقاء في إسرائيل ساعة واحدة، لدرجة أنّه لم ينتظر التعويض الماليّ.

لقد تناقصت القدرة الشرائية تناقصاً سريعاً يكاد يوصف بالإهيار، حتّى أنّ بعض السلع أصبحت مفقودة، وزادت المشاحنات بين النّاس في الطّوابير، وأصبح الحفاظ على المرتب لآخر الشّهر كابوساً يؤرق الجميع، وخاصة الطّبقة المتوسطة، أو التي تتدحرج نحو الفقر عاماً بعد عام، مثل أسرته.

بعض الشركات الكبّرى هنا، أعلنت أنّها ستزيد عشرين في المائة على أسعار السلع الإستهلاكية، بسبب فرض «اليمن» حصاراً على السفن الإسرائيليّة، في مضيق «باب المندب»، على مدخل «البحر الأحمر»، مما سيتسبّب في تسريح عشرات العمال من ميناء «إيلات»، كثيجة للوضعية الماليّة الصعبة، كما أنّ سعر الكهرباء ارتفع باثنين ونصف في المائة، وهناك إشاعات تقول أنّ نزاعاً مسلّحاً سيبدأ مع «حزب الله» اللبنانيّ قريباً؛ لأنّ كلّ المؤشرات تقول أنّ هناك حرباً وشيكة شاملة في الأفق.

سنكون جميعاً في مأزق كبير، وربما سيغيّرون العملة، لخفض التّضخم المتزايد، الذي يسرّع من انهيار اقتصادنا، سيتغيّر الشّيكل الجديد منذ سنة 1986، مثلما تغيّرت اللّيرة، وظهر الشّيكل القديم في سنة 1980، والرّبّ وحده يعلم ماذا سيحلّ بنا مستقبلاً.

(5)

عدت لحياتي العادمة بعد أن أخذتني الحرب في «غزة»، عدت وأنا مصمّم على عدم العودة إلى الجبهة، ولو كلفني ذلك الفرار، ول يحدث ما يحدث.

عدت لألتقي مع «باولا»، وأرى سيرورة الأمور معها، بعدما غادرت أسرة صديقي «دافيد» إسرائيل نهائياً، معتبرة وجودها هنا خطأ استراتيجياً، يجب تصحيحه بالرحيل.

كان يوماً غائماً حين دخلت فندق «ليوناردو» في «بير شيفا»، هذه المدينة التي كانت تسمى في الأصل «بئر سبع»، أبحث عن «باولا»، متعمداً زيارتها أثناء تناول الغداء، كي تكون مرتاحين في الحديث.

وجدتها مع زميلاتها، فأشارت لي من بعيد أنها آتية، فطلبت قهوة إيطالية وجلست قبلة المدخل، ولم تلبث أن التحقت بي وهي تحمل كأس عصير بارد.

– لقد عرفت أشياء خطيرة أنت شخصياً لن تخطر لك على بال.

قالتها وهي تجلس أمامي، هذه الأرجنتينية الميسّم، وفي عينيها إصرار غريب.

– لقد عدت للتو من الجيش وأنا أفكّر في التّهرب من الخدمة، نحن نغرق في مستنقع يسمى «غزة»، يريدون منّا أن نقتل كلّ ما يتحرّك هناك، لإقامة مستوطنات جديدة، والحكومة تحضر لإلغاء قانون «فأك الإرطاط».

– ما الأمر؟

– فيما بعد سأخبرك بكلّ شيء، هات ما لديك.

– سأطلب قهوة إيطالية مثلّك، أريد المزيد من التّركيز.

وأشارت بيدها لنادلة كانت على مقرّبة منها، بحركة اعتبارها رمزاً كافياً للقهوة، إذ قاربت بين سبابتها وإيمانها مسافة لا تتجاوز خمسة سنتيمترات في وضعية أفقية، ثمّ نظرت لي متوجهة كمن تطرق أنفه رائحة كريهة.

إسمه الحقيقي «جاكيوب أرماندو مونتير» من مافيا «MS 13» السلفادورية، هرب من هناك بعد سرقته أكثر من مليون دولار أمريكي من مافيا «غوزمات لويرا»، عقب محاولة فاشلة لتسليم شحنة من المخدرات، تم اعتقال أفراد من المافيا على إثرها، بينما هرب هو بالمال، فاتّهم فيما بعد بالخيانة والوشایة بهم.

لقد كان يعرف ممّا سرّا ممّا بين الأشجار، فيما يشبه الفق المشكّل من النباتات المتلوية، تسلّل منه بعيداً عن الخطّر حين بدأ إطلاق النار.

وحتّى الآن، لا يزال مطلوباً من طرف الشرطة السلفادورية، على اعتباره عضواً من المافيا، ومن مافيا «MS 13»، على اعتباره واشّ حقير، باعهم مقابل عفو وحماية من الحكومة، ثمّ هرّبه أحدهم إلى إسرائيل، وأنشأ له هوية جديدة وسط المجتمع، ومع الوقت عمل النّسيان عمله، لكن من هرّبه وأوجد هويّته؛ لم ينسَ ما فعل، بل راح يحاول استغلاله بشّتى الطرق، وفي مختلف العمليّات القدرة، أي واضعاً إياه في فوهه المدفع.

كان هذا الضابط هو «يعقوب»، ومن صنعه هنا في إسرائيل هو «غارسيّا»، ضابط «الموساد»، وزوج «إنجي» أخت صديقي «دافيد».

كم تحمل هذه الدّولة من مفاجآت غريبة؟!.

أدت النّادلة تحمل فنجان القهوة الساخن مع بعض السّكر، فسكتت «باولا» متظاهراً بالخجل، كأنّي طلبت يدها للزّواج، خطوة حذرة تجاه هذه النّادلة، التي ربما تكون عيناً علينا، تحاول «باولا» الآن الظهور بمحض رومانسيّ، كي لا تلفت الإنّباء، فيبدو المشهد العامّ كأيّ عاشقين، التّقيا في مكان عامّ، يخطّطان لبناء مستقبلهما.

وتبادر لذهني فجأة موقف محرج، تعرّضت له مع إحدى قريباتي التي كنت أخطّط للزّواج منها منذ سنوات خلت.

وضعت «باولا» قطعة سكر واحدة في الفنجان، وحرّكت القهوة، فانتشر عبقها في المكان، وألقت لي بالمفاجأة الثانية، بعلامات أسى ترتسم ببطء على وجهها الجميل:

– لقد عثروا على «إيتان عسيفا» منتحرًا في السّجن، لقد تخلّصوا منه كي لا يثير المشاكل، كي لا يعترف أمام هيئة المحكمة مقابل حكم مخفّف، بل ربما سيتحول إلى شاهد، وبما أنه من «الفلاشا»؛ فإهمال قتله وإيجهاض التّحقيق بعد ذلك شيء أسهل من شرب هذه القهوة، لأنّ عائلته فقيرة وأمية، لا يعرفون القانون، وليس لهم مال لتوكيل محامٍ قد يتوّلى القضية نيابة عنهم، أو يوصلها لأعلى المستويات.

خطيره هي المرأة إذا استغلّت كلّ قواها من أجل هدف واحد، وخطيره هذه المافيا بتنظيمها الجيد، تعرف كيف تختار بيادقها، ثمّ كيف تخلّص منهم في الوقت المناسب، بطرق لا توحّي بأنّ الحادث مدبر بتاتاً.

كلّ المعلومات المتوفّرة إلى حدّ اللّحظة حسب «باولا»، تقول أنّ «نيتاي» هو المدير التنفيذي فقط، من بين بعض مدراء تنفيذيين آخرين، أما الرئيس والعقل المدبر لكلّ شيء، فهو «غارسيّا»، بعلاقاته الواسعة في

«الموساد»، وفي كلّ مفصل من مفاصل الدولة، وضابط في الإستخبارات الخارجية عادة ما يتوفّر لديه حسّ أمنيّ عالي المستوى، أكثر من أيّ ضابط في جهة أمنية أخرى، لأنّه يتلقّى أقوى دورات التّدريب.

كلّ خطوة هنا تُتّخذ؛ يجب أن تُدرس أكثر من مرّة، وتنقلب على أكثر من وجه.

أيّة خطوة هجوميّة فاشلة ضده؛ ستزيده حذراً، وبالتالي ستزيد المسافة المأهولة كمنطقة أمان وتنسع، ولو وجد نفسه موشكاً على الغرق؛ سيلهينا بكبش فداء، ولو كان من أقرب المقربين إليه.

وحان دوري لأحكى لها ما في جعبتي من جديد.

(6)

ما يقال عن «ميري سيناي» يجب أن يؤخذ على محمل الجد، فالمعروف بين رفقاءه باسم «ألكسي»؛ شخصية توصف بالنرجسية، وهذا النوع من الصعب جداً أن يؤثر فيه أحد، أو أن يغير له ولو موقعاً بسيطاً من مواقفه، لذلك فالاعتراف الصّغير منه يعني الكثير، ولا سيما إذا كان الإعتراف يخصّ صديقاً عزيزاً على يسمى «دافيد عوفر».

- هل تعرف جندياً يسمى «دافيد عوفر» من «أوفاكيم»؟، سائق «ميركافا» يرتدى نظارات طبية؟، يشبه كثيراً «هاري بوتر»؟.

كان هذا أبرز ما قاله لي باقتضاب، حين خضنا في حديث عابر، ولما أخبرته أنّي أعرفه؛ ترجماني أن أبلغ له تحياته، فقد أثر فيه كل تأثير.

- قُتل في ينابير الماضي في «خان يونس».

تغيرت ملامح وجهه كأنه انتبه لضياع شيء منه.

- كيف؟.

وسردت أمامه الحكاية، فكان آذاناً صاغية، والصدمة على وجهه تزداد وضوحاً كلّما استوعب أكثر.

- حكومتنا مافيا كبيرة؛ كلّ فرع فيها له تخصّص معين، والكلّ يبذل جهداً مضاعفاً للحفاظ على مكتسباته، ولا اعتبار لنوعية الثمن، أصبحت أشكّ في نزعي الصهيونية؛ هذه الفكرة غير المنطقية التي يحاولون إقناعنا بها، ومقتل «دافيد» حرك في قلبي أشياء ما كانت لتحرّك لولا مقتله، لقد كان القطرة التي أفاضت الكأس.

ثم راحت يده ترتجف مستمراً في اعترافاته، وأنا غير مصدق لما أسمع، هل يعقل أنّ هذا «ميري سيناي»؟، الملحد الذي له قلب أقسى من الصّخر؟، يتكلّم الآن أمامي بكلّ شفافية ووضوح؟.

نعم... إنّها الحقيقة الخالية من مساحيق التّجميل، والبعيدة عن كلّ تزيف.

- هل تعلم؟، لقد أطلقت النار على إحدى النساء منذ يومين، كانت تنظر إلى مبتسمة والدماء تترف من جرحها بغزارة، هل تصدق أن هذه المرأة الضعيفة تضحك على جيش الدفاع الإسرائيلي؟.

- كيف؟.

- ضمت ابنتها لصدرها في قوة عجيبة، ورفعت إصبعها تتمتم بكلمات لم تتبينها، وفارقت الحياة، هذه المرأة أصبحت في تلك اللّواني الرّهيبة قوية مني ومنك، ومن كلّ أوليتنا ودروتنا ووحداتنا القتالية.

- كانت تلك شهادة المسلمين التي يرددوها عند الموت، عبارة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللّهُ، مُحَمَّدُ رَسُولُ اللّهِ».

وانتفض حسمه كله كعصفور، ثم قال واضعاً كفيه على وجهه منخرطاً في بكاء متقطع صامت:

- وجهها ما زال أمّا عيني حتى الآن، لا أعرف من أين جاءت بتلك القوّة، رصاصاتي ميتة لا ترحم، لا يثبت أمامها أشدّ الرّجال صلابة.

من كان يصدق أنّ الملحد «ميري سيناي» يبكي مثل طفل صغير حين يسمع شهادة المسلمين؟.

من كان يعتقد؛ أو حتى يظنّ مجرّد ظنّ أنّ القويّ «ميري سيناي»؛ تجزّه ابتسامة امرأة استقبلت الموت بحفاوة، مثلما تستقبل الفتاة شابّاً يأتي لخطبتها؟.

لقد أوّهمنا أنّهم مخربون ومهربون وإرهابيون، ويجب تجوييعهم في إطار خطة منهجة حتى يثوروا ضدّ «حماس»، و«حماس» فكرة، وال فكرة لا تموت.

كنا في الحواجز نسمعهم يشتمون «الستّوار»، لكنّهم في الواقع يسمعوننا ما نرحب نحن في سمعه، إنّهم متماسكون إلى حدّ بعيد، يصعب تصديقهم لو لم تكن ترى ذلك أمّا عينيك.

واستمرّ بكاء «ميري» كما استمرّ حديثه:

- لم أستطع إطلاق النار على الطّيبة الفلسطينية في «جمعّ ناصر الطّيبيّ»، لقد خاطرت بنفسها لإحضار شخص أصبه برصاصة في الرّجل، لم أشأ قتيله، بل أردت أن يبقى دمه يترف معدّباً حتى الموت، لأنّ رصاصه مباشرة في الرّأس ستريّحه، لقد تحدّى إصبعي على الزّناد وأنا أراها بشجاعة اللّبؤة، تحرّي إليه متّحدية رصاصاتي، تذكّرت كلّ النساء اللّواتي كنت أتلذّذ بقتلهنّ، تذكّرت المرأة التي كان حفيدها يرفع الرّاية البيضاء، ومع ذلك أطلقت النار عليها، كانت على بعد مائتي متر، هدف سهل جدّاً، أشبعه بطبق الحلوى لنا نحن القناصة، ثمّ عرفت فيما بعد من أحد الرّفقاء أنّ اسمها «هالة خريص»...

قاطعته منتبها:

- «هالة خريص»؟، سمعت بهذا الاسم من قبل.

- دُفنت في منزل عائلتها بسبب الحصار الذي فرضناه عليهم.

وأدت إلى ذهن الأوامر الصادرة إلينا من حاخام عسكريّ:

- لا فرق بين مدنيّ وعسكريّ في «غزّة»، أقتلوا أيّ شخص يتحرّك حتّى ولو كان طفلاً، والربّ يياركم يا أبنائي.

وطبق جنودي أوامر الماخام بجذافيرها، فكانت الأهداف الحية تثير شهوكم للقتل، ويعريهم الأطفال بأجسادهم الصّغيرة، التي يتراهنون على إصابتها، ومن ينجح؟ يكسب حتّى مائة وخمسين شيكلاً.

إنّها لعنة الربّ التي ستزلّ علينا يا سيد الماخام.

تذكّرت كلّ شيء كشريط سينمائيّ يمرّ أمامي لقطة بلقطة، لقد تحولّنا إلى مصاصي دماء، نتلذّذ بافتراس الضعفاء.

- سلاحنّي الشّعور بالذّنب طيلة حياتي.

وبكت «باولا» تأثّراً.

كانت تفاصيل وجهها الجميلة تعكس مدى الحالة النفسيّة التي انتابتها، ومقدار الألم الذي يعتصرها، ثمّ أخبرتني أنّها التقت مع السيدة «ليزا» البارحة، التي أجرت لقاء في عجلة مع الملازم «ديميترى»، كان في الأصل تميّداً لمقابلة ستجرى بعد أيّام، يكشف فيها كلّ ما عرفه ويعرفه عن «دافيد»، الذي سيكون مضرب المثل للشاب الإسرائيلي المدافع عن وطنه، الواظب النّشيط ذو الصرامة والهمّة، إلى حدّ اللحظة كان مجرد موعد غير محدّد بزمن أو بتاريخ.

وكم تأثّر الملازم «ديميترى» بالحادثة التي أقحمت «دافيد» في «غزّة» دون تحضير مسبق، لما التقته في «تلّ أبيب»، لقد بحث عنه في قاعدة «شيزافون» حين مرّت ثلاثة أيام ولم يظهر، غير أنّهم أخبروه أنه في عطلة لمدة شهر كامل بسبب ظرف طارئ لم يأسره، فأجبروه بذلك على السّكوت.

إضطرّت السيدة «ليزا» من جهتها أن تحكّي له الموضوع برمتّه، وأنّه كان ضحية مؤامرة لعصابة تناجر بالسّلاح المسروق من القاعدة، وبالأعضاء البشرية للجثث المهرّبة من القطاع، فما كان منه إلّا أن عرض مساعدته المفتوحة، لأيّ شيء تراه يخدم إظهار الحقيقة.

كان الملازم «ديميترى» يعتبر «دافيد» أخاه الصّغير، الذي يجب أن يقوس عليه كي يتقوّى عوده، كان يريد أن يصنع منه رجلاً باتّ معنى الكلمة، خاصة وأنّه طالب متفوّق في دراسته، يمكن أن يصل إلى مستويات عالية من الإحترافية بالتدريب الجادّ.

«ديميترى»، آه... أحاول جاداً تذكّر أين سمعت هذا الإسم.

(7)

تعتبر «غزة» منجماً لا ينضب؛ فهي ذات كثافة سكانية عالية من الأطفال والشباب، وهذه الفئات العمرية مطلوبة أعضاؤها بكثرة في «أمريكا» و«أوروبا»، كالكلى والقرنية والقلب والكبد والرحم، الإتجار بالأعضاء البشرية يضمن دخلاً مادياً معتبراً لا ينطوي على بال، ولأنهم فلسطينيون؛ لا تقتم الحكومة لأمرهم، ولا تتحقق في أي شيء.

هذا ما يقوله المنطق، لكن ما تقوله «باولا» شيء آخر مختلف.

أرسل «نيتاي» «آيزنکوف» إلى «غزة» في مهمتين؛ إحضار جثث حديثة لبيع أعضائهما، والبحث عن مذكريات «دافيد»، على أن يظهر الأمر كله للجميع على أنه حماية للبيت الإسرائيلي، خاصة بعد تسجيل عدّة حالات عصيان، ووزارة الدفاع تتبع الوضع على أعلى مستوى.

حسب شكوك «نيتاي»؛ فإن «دافيد» دفن مذكرياته الشخصية قرب إحدى الأشجار في «خان يونس»، قبل قتله بدقايق فقط، حسب المعطيات المقدمة من إحدى الطائرات المسيرة من نوع «كواكبتر»، التي صورته يتحرك جيئه وذهاباً وهي تراقب المنطقة، مما يعني أنه كان يريد إخفاء شيء هام، ثم احتفى تحت بعض الأشجار لفترة كافية، ومن ثم عاد للدبابة.

إذن يجب إحضار المذكريات قبل أن يعثر عليها آخرون.

هناك قوات من الهندسة القتالية تقدم للبحث عن الأنفاق، وسيحفرون المنطقة ويجدوها.

لم أستطع هضم فكرة إدخال «آيزنکوف» إلى القطاع، أحسّ أنّ في المسألة شيئاً مستتراً، لسبعين هامين؛ أوّلاًً يمكن لأيّ شخص أن يحضر الجثث دون أن يسأل عن الدافع لذلك، أمام المال، ثانياً تحرّك «دافيد» جيئه وذهاباً لا يعني أنه سيخفى شيئاً ما، حيث لا تشير المعطيات الميدانية إلى أنه كان يحمل شيئاً.

أما «باولا» فرجّحت أنّ «غارسيا» شرع في التخلص من أعضاء العصابة، بأسباب منطقية لا تشير إلى أيّ شئّ من أيّ نوع، فبعدما تخلّص من «بابلو» و«إيتان»؛ ها هو الآن يريد التخلص من «آيزنکوف».

سيدفع قريبه إلى مثلث الموت بيديه، بينما هو يبقى آمناً في الخلف، هل هناك من سيشكّ في الموضوع؟.

ثم سيختلّص من «نّيّاتي»، بإفحامه في مسألة منطقية تفاديًّا لطرح التّساؤلات، وسيختلّص من «حنانياً» في الوقت المناسب، وبافي الأعضاء الذين لا نعرفهم، إذا فرضنا أنّ «غارسيّاً» هو من يتربّع على قمة الهرم، كما تؤكّد «باولاً»، طبقاً لمعطياتها الميدانية.

تحليل «باولاً» ذكيٌّ جدًا، إذ اقتنعت به مباشرةً بعد لحظات، وهذا ما كنت أحاول الوصول إليه بعد عدم اقتناعي بموضوع إرساله إلى «غزة».

لا أحد يعرف وظيفة «آيزنوكوف» في الجيش، كان في قاعدة «شيزافون»، ثمّ هو الآن في القطاع ضابط «ميركافا»، هل أتمّ مدة دوراته كلّها بهذه السرعة؟، العاز على العاز، وضباب عامٌ لا يدعك ترى الأمور على حقيقتها.

ووَدَّعت هذه الفاتنة الأرجنتينيّة على أمل أن ألتقيها مجدّداً، لقد استطاعت بلياقتها وجاذبيتها، معرفة الكثير من الأشياء، في ظرف وجيز، مجازفة بحياتها ومستقبلها المهنيّ، ولا أعرف إن كان الحظ هو الذي يسعفها دائمًا، أو ذكاؤها وحسّها الأمميّ العالي، أو حبّها العظيم لهذا الربّ المرسلة إليها من «السودان».

(8)

- هل يتظرون منا نحن النساء أن نقبض على السّيّار؟، من هذا الذي يستطيع القبض عليه؟، أعطونا عنوانه وستزوره.

قالتها وهي تنظر للسيدة «ليزا»، مستغربة من الإستدعاء الذي اعتبرته فحّا منطقياً للتخلص منها، بعد مرور أقلّ من سنة على تسرّيّتها، وبعد استدعاء «نتنياهو» المزيد من جنود الاحتياط لاحتياج «رفح»، بتاريخ الحادي عشر من فبراير سنة 2024 الماضي.

«باولا» التي تؤمن بحلّ الدولتين، كما تؤمن بإمكانية تحقيق السلام النهائي الشامل، تباركه دول ثقيلة الوزن على المستوى العالمي.

في الثالث والعشرين جوان سنة 2024، ستصادق الحكومة على قانون جديد بعد صدوره من طرف «الكابينت»، أي «مجلس الوزراء الإسرائيلي المصغر للشؤون الأمنية»، يفرض على جنود الاحتياط الخدمة في الجيش حتّى سنّ الحادي والأربعين عاماً، ويفرض على ضباط الاحتياط الخدمة حتّى سنّ السادسة والأربعين، بذرية الحاجة الماسّة للجنود، حسبما ذكرته القناة 12 الإسرائيليّة، وبالتالي زيادة الإستدعاءات والإستدعاءات المتكرّرة، حتّى ولو لم يوافق الكنيست الإسرائيليّ، فإنّ ذلك سيكون سريّا دون إثارة الرأي العامّ، لأنّ الجيش يحتاج إلى المزيد من الجنود، ويجب توفيرهم مهما كلف الأمر.

وهناك إشاعات بدأت تُداول إلى أنّ الخدمة العسكريّة للجنود الرجال ستبلغ ستّ وثلاثين شهراً، وستكون للنساء ثمانية وعشرين شهراً، لمدة ثمان سنوات قادمة.

لقد اختارت أن تتقابلا في كافيتيريا قرب فندق «ليوناردو» تفادياً لكُلّ مراقبة محتملة.

- إذا عصيت الأمر سيزجّون بك في السجن، مثل «صوفيا» و«سيلينا كونونوفيتش»، يجب أن تلتّحقي بوحدتك في التاريخ المحدّد لكِ عزيزتي «باولا»، لا تجاري، ليست المسألة سهلة كما تعتقدين، نحن في حرب.

- لن أذهب، إنه فحّ للتخلص مني، لأنّهم عرفوا أنّي اكتشفت أشياء كثيرة عنهم، وأنّا متّأكّدة من صحة معلوماتي، لن أذهب، ستُضع «كتائب القسام» مثلّاً أحمر على دبّابتي، مثل الذي وضعوه على دبّابة «دافيد»، هذا تحدّي مباشر لحياتي.

- في كلتي الحالتين مقتولة، سواء هناك بقديبة «ياسين»، أو هنا، وتسجل القضية على أنها انتشار، هم أقرباء، وأياديهم في كل مكان.

— آه، رأسي سينفجر، لا أستطيع التفكير، دعينا من هذا كلّه وأخبريني عن جديتك.

قالتها وارتشفت جرعة كبيرة من القهوة الإيطالية التي أمامها.

- هل تصدقين؟، لقد أخفوا قضية انتحار «إيتان عسيفا» عن عائلته.

كانت هذه السيدة «ليزا»، وهي تضع شيئاً من السكر في فنجان قهوتها، مع تحريك بسيط لا يكاد يُسمع فيه صوت الملعقة، وقالت مكملة:

- ضحايانا لغاية الآن أكثر من ثمانية آلاف قتيل، وأكثر من اثنين وعشرين ألف جريح، لكنهم يخفون ذلك، بل وينكرون، متبجّحين بعبارة المشهورة «الجيش الذي لا يهزم».

إِتَّسَعَتْ عِيْنَا «بَاوْلَا» مِنْ هُولِ الرِّقْمِ، وَأَضَاءَتْ ثُغْرَاهَا مِنْ الْعِبَارَةِ، كَأَنَّهَا طِرْفَةً تَسْمَعُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، طِرْفَةٌ بِقَدْرِ مَا تَضْحِكُ، بِقَدْرِ مَا هِيَ صَعْبَةُ التَّصْدِيقِ.

واستمرت الأخرى في الشرح، لتكلّم عن الوضعية الكارثية التي آتينا إليها، فلم يعد هناك مكان آمن، سواء هناك خلف السياج الفاصل، حيث تتنّن «كتائب القسام» في قتلنا، بقدّائف «الياسين 105» وعبوات «شواظ»، أو في مساحات التحشّد حيث تُطربنا «سرايا القدس» بقدّائف الماون.

لقد تحول المكان كله لجحيم لا ينجو منه أحد، والجميع يوثق عملياته لأسلوب الدعاية، ولتبقي راسخة، في الأذهان وفي التاريخ.

أما جيشنا المغوار فيستعرض عضاته في «مجزرة القمح»، التي ارتكبت بدم بارد في التاسع والعشرين فبراير سنة 2024، ضد النساء والأطفال الصغار والناس الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوّة، لقد كان الفلسطينيون ينتظرون المساعدات الإنسانية، في ظل النقص الحاد في مواد التموين، فأطلق الجيش النار عليهم متعمداً.

أكثر من سبعين قتيلاً، وحوالي مئتين وخمسين جريحاً، هناك في شمال القطاع في منطقة «النابلسي»، حيث اشتهرت في وسائل الإعلام، مجررة كشفت زيف روايتنا للعالم، ودحض صداقها مزاعم الجيش الذي لا يُهزم.

هل هؤلاء «حماس»؟.

هل من المقنع أن يكون هذا خطأ غير مقصود؟.

لقد أشهَر أحد الضباط سلاحه في وجه أحد الجنود لِمَا لَمْ يَسْ ترددَهُ في إطلاق النار، مؤكّداً على وجوب الإنتقام من كلّ شيء هنا، حتّى من الحيوانات، إنّها حرب إبادة وليس حرباً ضد الإرهاب كما ي يريدون إقناعنا به، لقد وثّقت شهادة أحد الجنود، «ستيفي» كما يسمّيه أصدقاؤه، مسجّلاً صوتاً وصورة، أخبرها فيه أنّه محظوظ ومندهش للجرأة والوقاحة التي وصلنا إليها، لقد تفاخر الضباط الذي هددَه بمسدّسه بمكّنا، وسيطر تنا

على «أمريكا»، ملّمّحاً أنّنا نحن من أنسأناها، وحين تسقط؛ ستحتفي وراء دولة أخرى تقود العالم بشعارات وهمية، ومن ذا الذي يجرؤ أن يفعل شيئاً حقيقياً ضدّنا؟، نحن الصّهابيّة السّادّة العظّماء، نحرّك العالم بما يخدم مصالحنا، أيادينا في كلّ مفصل، بل في كلّ زاوية من شوارع هذا الكوكب.

ووثقت شهادة الجنديّ «أوريما» الذي جزم أنّ النّية كانت مبيّته لقتلهم انتقاماً من «القسام»، مثلما هي مبيّة لقتل الأسرى في الوقت المناسب، كي لا يشكّلوا ورقة ضغط، مثلما قتلوا «حايم جيرشون بيري»، و«يورام إتاك ميتزجر»، و«أميرام إسرائيل كوبر»، في قصف لسلاح الجوّ، الذي لا يفرق بين مواطنينا والفلسطينيين، المهمّ أن يدمر كلّ شيء، ليُنشئ سلّماً من حماجم القتلى نحو الدولة المنشودة، حتّى ولو كانت حماجم من ساهموا في بناء هذا الجيش حين كان في مرحلة الشّروع.

أيّ منطق غريب هذا الذي يفكّر به «نتنياهو» و«بن غفير»، والعصابة الحاكمة؟.

- أصبحت أخجل أن أقول أنّي إسرائيليّة، وأنا أرى بأمّ عينيّ أنّ ما تأسّس؛ إنّما تأسّس على الرّمل، لا يمكن أن ننتصر على «حماس» أبداً مهما كذبنا، ومهما قتلنا منهم ومن غيرهم، لذلك، من الأفضل أن نبقى محافظين على يهوديّتنا، بدل هذه التّزعّة الصّهيوّنية الشّاذّة، حتّى حلّ الدّولتين لا يبدو لي أنّه سيجدي نفعاً، وأنّنا سنعيش في إطاره في سلام مع جيراننا العرب.

- يبدو أنّ الأمر كذلك، أنتظر مكالمة الملازم «ديميترى» ليفرغ لي ما في جعبته من أسرار، لقد وعدني بذلك في أقرب وقت.

ورجعت «باولا» لعملها من طريق آخر، وهي تفكّر في الهجرة نهائياً من إسرائيل، كما فعل الكثيرون، حسب بحثها عن محامٍ جيدٍ يخرجها من بيت العنكبوب.

(9)

عدت إلى الجيش خشية المحاكمات العسكرية التي أصبحت بالمرصاد لكل من يشكّون فيه أنه يتهرّب من الخدمة، عدت وأنا كليّ عزم على إيجاد طريقة أخرى مناسبة تخرجني من هذا المأزق الذي وضعني فيه حين فكّرت في الإنضمام لهذه المهزلة الكبرى، عدت لأكتشف مقتل القناص «ميري سيناي»، الذي أجبروه على الدخول للقطاع عندما رفض سابقاً، مهدّدين إياه بالمحاكمة العسكرية، في تقرير رفعه لقائده المباشر، يقول فيه أنه يعني من الإرهاق الشّديد الذي يؤثّر على تركيزه، حيث قضى أياً ما لم يذق فيها طعم النّوم إلا نادراً جداً، وأنّه بحاجة ماسّة لعطلة يستعيد بها قواه المنهارة.

لم يعطوه أدنى اهتمام، بل أوكلوا له مهمّة مستعجلة، القضاء على قناصي «حماس»، مهما كان الحال، لأنّهم يهدّدون ضيّاطنا، خاصة وأنّ «الشاباك» أشارت في أحد تقاريرها أنّ «هاليفي» شخصياً سيكون مستهدفاً من أكثر من قناص.

لقد تطّور أسلوب المعارك الآن، قناصو «القسام» يبحثون عن قياداتنا مثل الذي يبحث عن ملّكات النّحل.

يقول رفقاء «ميري» عنه أنه كان متوتراً جداً في الآونة الأخيرة، بسبب ملاسنة حادة مع أحد الضّباط المتعجرفين، الذي أهانه أمام رفقاءه بكلام حارح، لما ذكره بأنه في حاجة للراحة، وأنّه يتّظر جواباً من القيادة منذ أسبوع:

– من تظّلون أنفسكم أنتم الجورجيّون؟، هذا جيشنا نحن «الأشكيناز»، نحن من أسّسنا هذه الدّولة حين كنتم تتغوطون في ملابسكم الدّاخليّة ربّعاً من «ستالين».

القطرة التي أفضّلت الكأس.

لا أحد يعرف لما كتم غيظه ما الذي كان يجول بخاطره؟، حين توجّه لأحد المباني متّحصّناً في أعلىها، ثم فجأة ارتدّ صوت إطلاق نار في المنطقة، ظنّ البعض أنّ «ميري» قد وضع حداً لحياته، غير أنّ دويّ الرّصاص أصّة كان قوياً جداً، بما يكذّب أيّ ادعاء بالانتحار.

إتّضح فيما بعد أنّ سبب الدّويّ القويّ هو بندقية «الغول» التي كانت قرية منه.

لقد قنعوا أيقونة الجيش الذي لا يُهزم، كانوا يعرفونه جيداً، يبحثون عنه بالصورة، تماماً مثلما كان يبحث هو عن أهدافه من صحفّي قناة «الجزيرة».

رحل «ميري» إلى العالم الآخر عند العصر، رحل مثلما رحل أخي وصديقي «دافيد»، ومثلما سيرحل آخر، بنفس الطريقة أو بشيء مختلف.

تبّاً لهذه الحرب التي تسلب منا كل شيء، حتّى الرحمة بنفسك.

وأقسمت ساعتها على ألاّ أقتل أيّ شخص من الفلسطينيين، لن أكون من اليوم أداء طيعة في يد من يشربون اللّبن ويأكلون العسل في «تل أبيب»، هذه الأرض ليست لنا، ولو كررنا كذبنا ملايين المرات، إنّها لأصحابها، أصحاب المسجد الأقصى وأشجار الزّيتون، فكفانا إهداً لأرواح هؤلاء الطّيّبين الشرفاء، أطهر خلق خلقه ربّ على هذا الكوكب.

ما الذي يفرقنا عن المافيا؟، لا نرتدع للأعراف ولا للقوانين الدوليّة.

«أوبس»، وأخيراً... تذكّرت أين سمعت اسم «ديميترى»، اليتيم البولنديّ صاحب الأربعين عاماً.

عنيف السلوك، ذو مبادئ عادلة ومشاعر صادقة نبيلة، دخل إسرائيل ليبدأ صفحة جديدة، وبوشم كبير كان على ظهره، كدليل على عضويته السابقة في المافيا البولندية، خدمت معه أول ما خدمت في الجيش، كنّا في الشمال، حيث كان هو برتبة رقيب أول، ثمّ تحول إلى كتيبة «ريشيف» في الجنوب، إستغلته مافيا «كراكوف» واستغلت أوضاعه المعيشية السيئة، وحين أدرك أنّ الوضع لا يمكن أن يستمرّ على هذه الشّاكلة؛ بعدها سئم حياة العصابات التي لا مستقبل لها، ولأنّ شكوكاً بدأت تجوم حوله بتخابرها مع الشرطة المحليّة؛ أخبره أحدهم أنه يمكن أن يهرب لإسرائيل، خاصة وأنّ له جذوراً يهوديّة قيّمة تدعم هجرته، فيسهل اعتباره من «السفرديّ»، ولا يوجد إسمه على القائمة السوداء، سواء لدى «الموساد» أو «الشاباك».

يتم فظيع على منه «بوغدان بوتشكورا»، إسمه الحقيقيّ، وهذا اليتيم هو الذي جعل منه رجلاً بحقّ، كان عليه العمل هناك ليأكل، إذا مات من الجوع لن يأبه به أحد، لقد أفصح لي مرةً أنه لم يؤمن قطّ بإسرائيل، هذا الحمل غير الشرعيّ الذين يحاولون إظهاره للناس كافة أنه نتيجة منطقية لزواج صحيح، بُني على قاعدة «شعب دون أرض دون شعب»، كنّا ساعتها في الشمال قبل أن ينتقل هو للجنوب.

لقد إرتكرت الفكرة على إبعاد الشعب الأصليّ للأرض قتلاً وتحجيراً، وسيأتي اليوم الذي سينتقمون فيه منّا، وأنّه مضطّر لاعتناق فكرة الصهيونية، أو على الأقلّ التّظاهر بها مثل الآخرين، لأنّ لا مكان له آخر يُؤويه.

حين ينهض سكّان الأرض الأصليّون سيعادون، لأنّ القتال ضدّهم مضيعة كبيرة للوقت.

ما فعلته هذه الدولة باختصار، هو تحويل كلّ الفاصل البشريّ لمقاتلين، كي يقوها حيّة عبر السنّوات المتالية، كلّ إسرائيليّ هنا، إلاّ وله قناعه الذي يرتديه دائماً؛ وهناك طيف واسع، من الباحثين عن المجد، إلى الباحثين عن المال، إلى الباحثين عن الإستقرار، إلى الباحثين عن المغامرة والنجاح الاقتصاديّ.

منذ ذلك الحين لم أره، حتّى تقرّرت الإسعانة ببعض العناصر المرموقّة في سلاح الدبّابات، لنجدّة الجنود الغارقين هناك في إحدام المعارك.

كان «ديميترى» ضمن هؤلاء، حيث استدعي من قاعدة «شيزافون» على وجه السرّعة إلى «تل أبيب»، ليتحقّق بالقوّات التي دخلت «غزة» في الحادي والعشرين فبراير سنة 2024، ضمن القوّات المشكّلة من لواء مدرعات، إضافة إلى لواءين، قوّات خاصة مع لواء «جفعاتي»، كلّها لجسم المعركة في «خان يونس»؛ مكان اختباء «السنوار»، مهندس هجوم السّابع من أكتوبر عام 2023، في شبكة معقدّة من الأنفاق، تصل إلى خمسمائة كيلومتر، رفقة بعض الأسرى الذين يتحذّم دروعاً بشرية، ومن الحتمي أنّ خسائرنا ستكون فظيعة أكثر مما نتصوّر، وسيتكتّم عليها الجيش كعادته في إخفاء الحقيقة، بدعوى الحفاظ على المعنويّات.

لا أعرف إن كان مجرّد صدفة أم تدبير من الربّ، حين التقى بالسيدة «ليزا»، رفقة جمّع من الصحّفيّين، حضروا للتغطية عمليّات التقدّم العسكريّ، بفرحة تشعّ من عينيها تعكس ما حقّقته من سبق صحفيّ، حيث التقى مع «ديميترى»، ووثّقت له حديثاً طويلاً حول مسيرة «دافيد» في قاعدة «شيزافون»، سينشر في «هاريس» حين تجتمع كلّ الخيوط، كما أطلعتني على مدى تقدّم عمليّة التّحقيق والإستقصاء.

للخيث «غارسيّا» شكوك تقول أنّ «ديميترى» يعرف كلّ شيء، وربما لديه المستندات والمذكّرات التي يبحث عنها الجميع، فاعتبر هذا فرصة ذهبية لن تكرّر لاستعادة ما يبحث عنه، ومن ثمّ التخلّص من الكلّ بضرّبة واحدة، وعلى «آيزنوكوف» تتبعه أينما ذهب، متعلّلاً بحمايته، خشية أن يحدث له مثلما حدث للرائد احتياط «يتسهار هوفمان» من وحدة «شالداغ»، واضع مخطّط حصار مستشفى «الشفاء» ومنفذه.

كانت «كتائب القسام» ترصدّه، حتّى اصطاده قنّاص من قنّاصتها في شمال «غزة»، الأربعاء الحادي والثلاثين يناير من سنة 2024، بينديّة «الغول» الرّهيبة، التي يصلّ مداها إلى كيلومترتين، لقد وضعوا عليه مثلثاً أحمرًا، كغيره من الجنود، ونشروا الفيديو في قناة «الجزيرة».

حين رأينا الصّور حفيّة، لم نصدق أنّهم أصبحوا بهذا المستوى، حيث أمست الستّرات الواقية من الرّصاص عديمة الجنوبي، أمام الذّخيرة الحارقة التي صنعها مقاتلو «القسام»، والذّخيرة الحارقة للدّروع، من عيار 12.7 مم، هذا العيار يحتمّ على القيادة توقيع شهادة وفاتك رغمّها عنها.

في حالة ما فشلت خطّة الحماية، سيكون «آيزنوكوف» هو سائق الدبّابة التي سيكون «ديميترى» الضابط المسؤول عليها، في خطّة بديلة.

ومثّلما توقّع «غارسيّا» رفض «ديميترى» أن يتولّ «آيزنوكوف» حمايته، معتبراً إياه غرّاً لا يستطيع حتّى حماية نفسه، كان ذلك في حصار «جحّم ناصر الطّيّ»، للبحث عن أنفاق «حماس» المحفورة تحته، ثمّ فرّ الجيش اتّخاذه ثكنة، غير أنّهم انسحبوا إلى محيطه، لما تواردت شكوك حول وجود أنفاق ملغمّة أسفله، ستفجر في الوقت المناسب، لكنّ تفتيشاً دقيقاً لقوّات الهندسة القتالية في الثالث والعشرين من فبراير 2024، أدّهض كلّ المزاعم وطمأن الجميع.

ما تبذلها السيدة «ليزا» من جهد يجب أن يسجل كعلامة لها، كونها نجحت في بناء تنسيق جيد بينها وبين «باولا»، من أجل الحصول على معلومات، ربما يصعب حتى على الشرطة أن تصل إليها.

تسلل «ديميترى» بذرية القيام بدورية ليلية - حيث كان هو الضابط المسؤول - إلى منطقة يشكّ أن «دافيد» دفن المذكريات والمستندات فيها، بيد أنّ «آيزنکوف» لم يستطع تتبعهم بدقة، رغم ما بذله من محاولات، فقد كان مرجوباً من «كتائب القسام» أن ترصدّه، وبيدو أنّهم كانوا يراقبونه جميعاً، فهم يسيطرون على كلّ المنطقة، لقد لمح «آيزنکوف» في الظلام بعض الأوراق التي كانت بيد «ديميترى»، فاعتقد أنّ المطلوب لديه، وفوراً اتصل عبر موجة سرية بابن حالته الذي قرر التخلص منه قبل أن يخرج من «غرة»، معطياً الأمر إلى «آيزنکوف» بإطلاق الرصاص عليه في الوقت المناسب، ولن يبحث أحد عن الفاعل، لأنّ الجميع والمنطقى هنا سيقولون أنّ «كتائب القسام» هي المسؤولة، بيد أنّ لا فرصة حقيقية أتيحت له، مما اضطرّه لتحيّن الساعة المناسبة.

كان «آيزنکوف» قد جهز مسبقاً عدّة جثث صالحة للإتّجار بأعصابها، تحت ذريعة أخذها لفحص حمضها النووي، بغية التّتحقق من كون أصحابها لا ينتمون لأىّ فصيل مسلح، ممّا وعده «نيتاي» من مكافأة مالية سخية جداً تغطيه عن العمل لسنوات؛ إضافة إلى مليون شيكل، كمستحقّات مباشرة نظير ما أحضره من جثث، مبلغ كاد أن يصيّبه باكياً عصبيّ بسبب تخوّفاته ليلاً وأعصابه المرهقة، فقبل يوم واحد فقط من تلك اللّحظة التي راقب فيها الوضع من النّافذة؛ دمرت «القسام» ثلاثة دبابات بقذيفة «الياسين»، كانت إحداها أمامه مباشرة.

لم يتقدّم عقله الباطن أن يموت في الأخير، تاركاً كلّ هذه الأموال التي ستجعله من مليونيرات إسرائيل خلفه، كما لم يكن أحد يعلم بما ينوي «ديميترى» القيام به بعد هذه الخطوة، ولم تتركه «كتائب عز الدين القسام»، الإسم الكامل للذرّاع العسكري لحركة «حماس» أن ينعم بما وُعد به، إذ نشرت فيديو عملية جريئة يوم الخامس والعشرين فبراير 2024، توثّق تدمير شقة يتحصن فيها مجموعة من الجنود، بقذيفة «تيندوم» مضادة للأفراد، ثلاثة مثلثات حمراء كانت كافية لإرسال «آيزنکوف» و«ديميترى» رفقة جندي آخر، إلى الدّار الآخرة دون تذكرة رجوع.

بسبب الرّعب المخلّف في النّفوس، لم تستطع فرقه الإنقاذ الدّخول للمنطقة، حتى تأكّدت فعلاً أنها حالية من أيّ تهديد، كما لم تستطع إنقاذ «آيزنکوف» المصاب بجراح بليغ، فقد على إثره الكثير من دمائه، في حين كان «ديميترى» قد فارق الحياة مباشرة مع الجندي الثالث.

وبذل «نيتاي» جهداً مضاعفاً مع «غارسيا» من أجل التكّتم الشّديد على الضّحايا، كي لا تُبعَد خيوط العملية التي شكلّت للجيش الذي لا يُهزم، فضيحة من نوع آخر.

(10)

مشكلة أغلب الناس أنّهم يحتقرون ذوي الطّباع الهادئة الحجولة، بل ينظرون إليهم كأغبياء يسهل التّلاعُب بهم، واستغلاّهم استغلال السّادة للعيّد، وهذا ما كان يحدث لصديقي «دافيد»، الطّفل الهادئ في داخله، الطّموح الذي كان يقظاً متنبهاً لكلّ ما يحدث حوله، غير أنّه لم يكن اجتماعياً لدرجة تسمح له بتفریغ كلّ مكبّوتاته، فكان القلم ملجأه الوحيد، وخير مترجم لفيض المشاعر والعواطف والمواصفات المتناقضة، التي يوضع أو يجد نفسه فيها.

توقف رتل «مير كافا» في انتظار الأوامر، وأمام الهدوء الحذر الذي ميز المنطقة، تشجّع البعض على الخروج من الدّبابات تحت حمايتها، وهناك فاجأني بلّفة ورق أخرجها من تحت بذلته، هي جزءٌ مما كتبه عبر سنوات، في عجلة مستغلاً انفراده بي، ثلاثة دقائق كانت كافية للفصل في الموضوع، قبل أن يصعد إلى دبّابته متوجّهاً للقتال، ثلاثة دقائق كانت الفيصل في كلّ شيء، بعدها كان تحت إشارة المثلث الأحمر.

كان يعلم أنّ عدّة مسّيرات تراقب النّملة من السّماء، لذلك، ما أخفاه «دافيد» كان أوراقاً عادياً ككلّ الأوراق الأخرى، لكنّه أعطى انطباعاً عاماً أنّه متكتّم على شيء خطير، يزيد إخفائه تحت الأرض قرب شجرة زيتون، تمويهاً عن الوجهة الأساسية للمذكّرات.

ودون أن ينبع بنت شفة ودون أن أسأله، أخفيت اللّفة تحت بذلتي وانسحبت للخلف، متسلّلاً بين عشرات الجنود متظاهراً بألم في كاحلي، بعد أن دست عن طريق الخطأ، على بعض الأنقاض، من أحجار إسمنت مسلح تظهر منها قضبان حديديّة، وعزّزت موقعي إصابة قديمة بأثر أزرق في الكاحل، فنُقلت إلى الخطوط الخلفية مباشرة بعد أن حضر المسعفون.

هناك انتهي بي المطاف على سرير في عطلة مرضية تدوم أربعة أيام، إعتبرتها كافية جداً لأعرف ما الذي خطّه «دافيد» بيده.

أول ما أثار انتباهي، هو ما حدث يوماً واحداً قبل هجمات السابع من أكتوبر.

كان «دافيد» شاهداً على عملية قتل وصفها بال بشعة، ورأى الفاعل يخفي الجثة بعدما حاول تقطيعها دون جدوّي، بين بعض النّفايات المتلّية، كان يدوثاً، يسّكّن في يده المضرّجة بالدماء، يقلب وجهه ذات

اليمن وذات الشّمال لا يدري ما يفعل، لتكشف في ظهر الغد يوم السّبت، وأتهمت «حماس» بالجريمة وبالتشكيك بالحقيقة.

لم تكترث الشرطة أصلًا، لأنّ الأولوية آنذاك لستّ وعشرين مقاتلاً من قوات النّخبة، تسللوا لمقرّها، متحصّنين به حتّى الموت، بعد ستّ وعشرين ساعة من الإشتباك المريّر، قتلوا فيها «دافيد بن دايان»، «مور شكورى»، «إلياهو ميخائيل هاروش»، «أديير شلومو»، وأذلّوا «رونين غاباى» و«أفيعاد عكاً» والمغروبة «مالي شوشانا» التي كادت من ربّها أن تبلّل بزّها.

كان هناك عشرات الضّحايا على الطرق، كلّهم قتلى، وفي الأماكن العامة، ومنازل محترقة، والكلّ منشغل بأفراد عائلته أو أقاربه المختطفين، وعما لديه من هموم، لدرجة أنّ عمدة المدينة «علون دافيد»، قال إنّ الحرب لا يجب أن تنتهي، حتّى تدمر «غزة» بالكامل.

أهي الشرّ كله القادم من وراء السّيّاج؟، بينما الإجرام متّصل بجذوره بیننا، منذ اغتصبنا الأرض في سنة

1948.

هناك من استغلّ الوضع وقتل جاره، أو صديقه، أو شريكه في السّكن والتجارة، ليتخلص منه من جهة، أو ليأخذ منحة تعويضية، أو حتّى سكاً من جهة أخرى.

هذه أمور لا تستطيع استيعابها إلّا إذا كنت مقيّماً هنا في إسرائيل، لمدة طويلة، ترصد إشارات تفكّك المجتمع، وضياع القيم الأخلاقية.

نعم للأسف، وصلنا لهذه الدرجة المقرفة من التّمزّق في الروابط الإجتماعية، ولا يجب علينا أن نهرب من مواجهة الحقيقة.

صديق «دافيد» مثلاً، الجنديّ «نيريا بالتا»، الذي قُتل بعده في الّرابع والعشرين فبراير 2024، أقيمت له جنازة متواضعة جدّاً، رأيت ذلك بأمّ عيني ولم يخبرني به أحد، عكس «إيال شومينوف»، الذي قُتل في نفس اليوم، ودُفن في المقبرة العسكريّة، في أبهة أسطوريّة مثل إمبراطور روماً.

لقد أدرك «دافيد» هذا رغم صغر سنه، لقد رأه في الثانوية والجيش، بين يهود «الفالشا» و«الأشكيناز».

لقد لمسه في توزيع السّكنات الفاخرة على أصحاب المراكز العليا، حسابات تحت الطّاولة لأصحاب النّفوذ حسبما روى له والده العسكريّ السابق، الذي يعرف أشياء كثيرة على الطّوائف اليهوديّة الهاشمية، التي يحاولون طمس هويّتها، مثل يهود «كوشين» القادمين من الهند، ويهود «كاييفنج» القادمين من الصين.

هناك أشياء حسّاسة لا نستطيع قولها مباشرة، لكن نستطيع توثيقها بطرق شتّى.

ليس سراً هنا أنّه يُستحسن أن تكون من «الأشكيناز»، بل يجب أن تكون كذلك، لفتح في وجهك كلّ الأبواب الموصلة، والباقي مجرد بيادق موزّعة على رقعة شطرنج واسعة.

مجتمعنا ينهاه على نفسه من الداخل؛ لأنّه ببساطة شديدة لا توجد عدالة اجتماعية بيننا، هنا يوجد تمييز طبقيّ وعنصريّ شنيع، مقرف، بغيض، تشمئز منه الأنفس.

هل يمكن أن يتفكّك المجتمع الإسرائيليّ برمتّه لهذه الدرجة؟، أمّ أنه أصلاً لم يكن ملتحماً من البداية ليتفكّك؟.

«دافيد» شخصيّة خجولة، يعي الكثير من الأشياء، لكن لا يجرؤ على إخبار أحد بها.

كان في «سديروت»، راجعاً من عند صديق له، إقترح عليه المبيت عنده لتأخر الوقت، خاصة وأنّه كان في ليلة الجمعة، لكنه أصرّ على الرّجوع للبيت، ليرى بأمّ عينيه مشهد القتل المرعب، وما كتبه من صفحات حول «أتارا»؛ يعكس فعليّاً مشاعره النّبيلة تجاهها، وتربيته العائلية الرّفيعة وحسّه الثقافيّ.

ومع كونه حريصاً على توثيق كلّ شيء؛ إلاّ أنّ حرصه على حياة صديقه ومستقبله العسكريّ كان أكثر بكثير، الصّديق الأمريكيّ الذي كان له الفضل في حصوله على شهادة «البغروت»، «هارون بوشنل» الذي يتحدث معه أحياناً عبر إحدى تقنيّات التّواصل الاجتماعيّ، معبراً له عن مساندته لإسرائيل كدولة وشعب.

في ديسمبر الماضي، من سنة 2023، تغيّر موقف هذا الطّيار مائة وثمانين درجة، بل أضحت يعتبرها دولة إرهاب في الشّرق الأوسط.

سجلّ «دافيد» في مذكّراته بأيّام قبل مقتله في «غزة»، أنّ صديقه الطّيار اطّلع على وثائق سرّية للغاية في الجناح سبعين، وهو جناح إستخباريّ محض تابع للقوّات الجوية الأمريكية.

تكشف هذه الأوراق بالتفاصيل قضايا شنيعة، منها ما يرويها جنود أمريكيّون بأسنتهم، ممّن شاركوا هنا في الحرب ضدّ «غزة».

يقول «دافيد» أنّه لا يستطيع كتابتها وتلوينها بأيّ شكل، للحفاظ على مستقبل وحياة صديقه الذي إتمنه عليها، ولم يكن يعلم أنّ الذي أقسم له على التّوراة اتحرّ حرقاً أمام سفارتنا في «أمريكا»، في الخامس والعشرين من فبراير 2024، كرّد فعل سلبيّ، جلأ إليه حين استعصى عليه القيام بأيّ شيء آخر.

بعد إعلان الحرب، وبالضبط في الخامس عشر أكتوبر سنة 2023، تمّ استدعاء الأخ غير الشّقيق لزميل «دافيد» في الثّانوية «تشاتشا» للجيش، وبرتبة رقيب أول في قاعدة «زيكيم»، توفّرت له الصّالحيّات لاستنطاق المعتقلين، باستعمال كلّ وسائل التعذيب الممكنة، وخاصة تلك التي لا تترك أثراً دائمًا على الوجه.

كانت مهمّته التي عافها «دافيد»، هي تعذيب المعتقلين، للحصول على أيّة معلومات حول أنشطة المقاومة في «غزة».

ثمّ وبدافع عنفوان الشّباب، يلتقط صوراً لهم وهم في وضعيات حساسة، تحت الألم النفسيّ والجسديّ، يملؤه الحقد الذي زرعوه فيه، كان أحد الضّباط يكرّر دائماً أنّ هؤلاء هم من قتلوا الناس في السابع أكتوبر، هم

من مزقوا الجثث وذبحوا الأطفال، وصدقه «تشاتشا» بحماس شديد، لأنّ الوضع العام آنذاك كان مكهراً جدّاً، كلّ كلمة تُقال هي مرادف للتصديق.

صور فظيعة تلك التي كان يرسلها له، من أطفال في سنّ الثانية عشرة عاماً إلى شيخ في أواخر العمر، عراة الجسم كما ولدكم أمّهاتهم، تبدو على أجسادهم المهزيلة آثار الضرب والجروح والصعق الكهربائيّ، ومنهم حتّى المعاقين ذهنياً.

لم تُكتب النّجاة لأحد من جحيم الإستنطاق الرّهيب.

كتب «دافيد» في إحدى الصّفحات:

«شكّرت الرّبّ حين توقف تشاتشا عن إزعاجي بصور من يتلذّذ بتعذيبهم، كأنّه يتناول قالباً من الملوى، بعد أن أخبرته أني سأكون مجنّداً بعد يومين من الآن، أيّ درجة منحطّة وصل إليها شعورنا بالآلام الآخر، وأيّ بشاشة ترکناها لأعدائنا حين نحاول بكلّ قوانا الشّريرة، أن نرسم الذّعر على وجوه أطفال وشيوخ، لا يعرفون ماذا حدث لنا يوم السّابع من أكتوبر، لأنّهم ببساطة ليسوا هم من هاجمونا، أختلف نحن عن المغامرين الإسبان؟!».

كما يقول في فقرة أخرى:

«قد أتّهم بالجبن أو حتّى بالتعاطف لا شعورياً مع من حاولوا من وراء السّيّاح، أنا إنسان ولّي مشاعر، وقلب أحاول جاهداً أن أحافظ عليه من تلك المشاهد القاسية، التي توسيع الهوة باستمرار بين معتقداتنا في العدوّ، وبين معتقدات هذا العدوّ فيينا، لا أظنّ أبداً أنّ أسرانا يكابدون ما يكابدهم هؤلاء، الذين أوقعهم سوء حظّهم في أيادي من يعبدون الشّيطان».

(11)

- يجب إطلاق صافرة النهاية في «خان يونس».

بهذه العبارة التي تعتبر صريحة إلى حد لا تحتمل معه أي تأويل، عبر محلل الشؤون العسكرية في القناة 13، «علون بن دافيد»، عن رأيه أمام الجميع، كردة فعل على استدعاء أحمق الحكومة «نتنياهو» لجنود الاحتياط، من أجل عمليات عسكرية موسعة في «رفح»، بتاريخ الحادي عشر فبراير 2024 الماضي، وهو الشيء الذي أزعج «باولا» غاية الإزعاج، لأنها كانت ضمن القائمة، مثلما توقعت، لكن تأكّد لها كخلاصة واستنتاج أنها في الطريق الصحيح.

من لقاءاتي الكثيرة معها أصبحت أعرفها جيداً.

يهودية من «الأرجنتين»، هاجر والداها الصهيونيان في سنة 2000، نتيجة اختيار الإقتصاد هناك، وتأقلمما بسرعة في المجتمع، حيث سكنا العاصمة «تل أبيب»، ثم رحلوا إلى «بئر سبع» في 2010.

إنتحرت أختها الكبرى «مارتا» التي تكبرها بعشرين سنة، بسبب فضيحة أخلاقية، حيث رفض صديقها الإعتراف بالمولود، إقتنعت يومها اقتناعاً تاماً أنّ أختها وضعت ثقتها في الشخص غير المناسب، في ذكر وليس في رجل، فدفعت الثمن باهظاً، لهذا أقسمت ألا يمسها إنسان حتى تتزوجه رسمياً، وحين أحبت «بابلو»، خطّطت للهجرة إلى «إيرلندا» لو تزوجها، غير أنّ «غارسيا» وعصابته، إنتصروا حجر عثرة في طريق حبّها الوحيد، وأملها في الإستقرار الدائم بعيداً عن بؤرة الصراع.

في الخامس مارس 2024 كان كلّ شيء جاهزاً للعملية البرية، قرار الحكومة فقط هو ما يُنتظر، التي كانت بدورها تنتظر قذائف الدبابات والمدفعية، مع إجلاء مليون ونصف مليون نازح.

كانت «باولا» في الخطوط الخلفية في دبابتها التي يحميها ساتر تراي، لكن من يضمن أن تبقى في الخطوط الخلفية دائماً؟، لا شيء مضمون في إسرائيل، والكل يترقب خطأ الكل، ثم وعلى حين غرة؛ حدث إنسحاب كلي من «خان يونس»، في السابع أبريل 2024، والقرار كان قبل يوم فقط، من أجل تجميع القوات التي ستشارك في احتياج «رفح»، هذا ما يُشاع في الإعلام، وتعزّزه البروباغاندا، ييد أنّ الحقيقة تكمن في ارتفاع

حسائernا التي تقدّر بأكثر من مائة قتيل أسبوعياً، حسبما نراه أمامنا في الواقع، ويراه كل الجنود والضباط، واستقال بسببها من يعلمون مع «دانيال هغاري»، المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي الذي لا يُهزم.

لدينا سوء تقدير للمواقف، وضبابية في الخطط، بل وغامرة بأرواحنا من طرف ضباط يجلسون وراء مكاتبهم المكيفة، وعملية «الزنّة» في شرق «خان يونس» أكبر دليل على العبث، أربعة عشر قتيلا لأجل شيء، في السادس من أبريل 2024.

إسْهَزَاء عام بالجيش الذي لا يُهزم عبر وسائل التواصل الاجتماعي، هذه المنطقة لمن لا يعرفها لا تبعد سوى ثلاثة كيلومترات عن السياج الفاصل، وهي مؤمّنة جيّداً أكثر من العاصمة «تل أبيب»، لدرجة أنّ الكثير من الجنود كانوا يلتقطون صوراً، ويُبثّنون فيديوهات منها، بما فيهم «باولا» رفقة صديقاهما، وكم استمعنا في هذه المنطقة لعزف صديقنا «باروخ»، الفنان المجتهد الذي قُتل دون معنى.

لقد قُتل دون أن يعي ما الذي قُتل من أجله.

لم أقدر على حجب دموعي وأنا أرى أمّه «شارون» في جنازته تقاوم ألمها في بسالة، لم تستطع أن تقول أنّها فقدت ابنها لشيء تافه خوفاً من «الشاباك»، لكنّها في داخلها كانت ترفض ما حصلت، لاعنة كلّ ساكت عن قول الحقيقة بيده تغيير مسلك الأمور.

بماذا سيفيدها «نتنياهو» الآن و«بن غفير» و«غالانتس» وقد فقدت فلذة كبدها؟.

لقد دمّر الجيش المنطقة كلّها، وتأكد تماماً أنها آمنة، ثم فجأة يخرجون من تحت الأرض، من أنفاق مجهلة لدينا، يضرّبون وينسحبون، بل يجهّزون كميناً قاتلاً رغم طائرات الإستطلاع التي تراقب النّملة، لقد هاجموا الدبابات بقدائف «الياسين 105»، ثم فجّروا ألغاماً كانت تنتظر قوة النّجدة، ثم أجهزوا بقدائف «الياسين» المضادة للأفراد، على ما بقي من الذين جلّوا إلى الشّقق القرية للإحتماء، لدرجة جعلت من الكاتب «علون مزراحي»، يقول أنّ «حماس» تتمتع بعمرقية فلذة في إدارة مواردها، مغيّرة مسار التاريخ.

لقد هزّتنا وهزّت حلفائنا كلّهم مجتمعين.

هل إلى هذا الحدّ تجّبّهم هذه الأرض كي تحافظ عليهم؟، بينما تبذلنا نحن وتخّلص منّا تخلّص الجسم من الفضلات؟.

معركتنا آيديولوجية، ولأنّ «حماس» تدرك ذلك تماماً الإدراك؛ أصبحت تمثّل مأساة حقيقة لنا، بل نراها في كوايسينا لنسْتُيقظ مفروعين وجلين من الموت، لقد جعلتنا نبدو كالمغفلين أمام العالم، ونحن من نحن في المنطقة التي غرسنا فيها نيران الصراع المتأجّحة، لقد قصصنا مقرّ القنصلية الإيرانية في «سوريا»، في تحدّ صريح صارخ، ثم سارعنا لإغلاق أكثر من عشرين سفارة حول العالم، خوفاً من ردّ الفعل الذي نجهل حجمه.

هل نحن مجانين إلى هذا الحدّ؟، أم هي الغطرسة التي أعمتنا عن رؤية الواقع الحقيقي؟.

لقد بتنا نخبي كالغُرَّان، لأنّنا أدعينا الشّجاعة والقوّة، ونحن في الأصل مثل عنكبوت متليّ، يسحقه ابن صاحب البيت بتعلّه حذائه متقرّزاً.

كلّ هذا لم يكُفْ أحمق حكومتنا، ليقول بكلّ تيه وصلف أنّنا لسنا مستعدّين للإِسْلَام، وقريييون جدّاً من النّصر!.

ما النّصر الذي يقصده هذا الكاذب اللّعين هو وزمرته؟، إنّهم يصوّرون أنّايب الصرّف الصّحيّ على أنّها أنفاق مكتشفة؛ أيّ كذب هذا وأيّ ضحك على الذّقون؟.

من الطّبيعيّ أن يقول أيّ شيء يطيل الأزمة، فنجله العزيز هناك في «فلوريدا»، إذا تطّور الموقف وتعفن الوضع؛ فسيغادر المكان ملتحقاً به، بعد أن تسبقه أمواله التي احتلّسها، ونبقي نحن هنا عرضة لانتقام الفرس والعرب والأتراك، بل وحتى الأفغان، الذين سيتوحدون تحت لواء دينهم، وسيسحقوننا مثل الصرّاصير، رغم كلّ ما بُذل من مال وجهود، لإذكاء روح العصبية والتّفرقة بينهم.

«باولا» تعني جيّداً كلّ هذا.

(12)

ويتكرّر الكابوس معها مرات كثيرة.

مقلق ما تراه أمّي في نومها حين تحكيه، رغم أنّها تختبئ وراء ابتساماتها التي يحملّها وجهها البشوش، ووصلت في الآونة الأخيرة إلى حدّ أن هدّدت بحرق «نتنياهو» أمام النّاس، بعدما اتّضح للجميع أنّه يعرّقل مفاوضات التّوصل النّهائي إلى حلّ، من أجل إطلاق سراح المخطوفين في «غزة» منذ السّابع من أكتوبر.

- مجرد قزم، هذا هو «نتنياهو» لمن لا يعرفه، ساحرّقه داخل بيته، حيّا وأهلي الموضوع، سأريح جميع الأمهات منه.

يسبّب هذا الكابوس الذي جفّها النّوم بسببه؛ زارت كمّا هائلاً من الأطبّاء وعيادات العلاج النفسيّ، دون جدوّى، أبرزّهم الدّكتورة «الانا سيحلّ»، والدّكتورة «بنيامين»، مديرّة الرّعاية النّهارىّة السّريريّة في مستشفى «ميرهافيم»، ومرّكز «إميد» المتخصص في معالجة الذّكريات بواسطة خطّ العين، المعروفة باسم EMDR، وفي النّهاية حين لم تجدّ أيّ نتيجة تذكّر؛ زارت إحدى الطّبيّات المتخرّجات حديثاً من حامّة في «المانيا»، أعطّتها أقراصاً منومة تساعدّها لأسابيع فقط، لكنّ يقى أخّي شغلّها الشّاغل.

أخي الذي تراه في نومها يسقط في حفرة دون قرار، وهو يمدّ يديه الإثنين لها لإنقاذه، بينما هي تقف متسمّرة في مكانها مسلولة الفعل والإرادة.

آخر العقدود الشّقيق الذي يشبه أمّي كثيراً، ويصغرّني بعامين، كلّما نغّزّها قلبها، تقول إنّه المسكين «غريدي»، يعاني الجوع والبرد ونقص في أشعة الشّمس.

بعد قتل أخّي الأوّل الملازم في سلاح الهندسة، توتّرت أعصاب أمّي أكثر، خاصّة ونحن نرى أنّ لا جدّيد تحت الشّمس، هذه الوضعيّة اللاّمستقرّة تتحفّر هرمونات القلق مسبّبة الذّعر، ومهيّة جوّا فريداً لنموّ الإشعارات التي لا نعرف بالتحديد من يطلقها، مجرد كلام يُلقي هنا وهناك، في المقاقي والحانات، وفي مساحات التّسوق وبين المارة على أرصفة الشّوارع.

لقد أزاحت الشرّطة جميع الخيم، التي تمّ نصبّها أمام متّل «نتنياهو»، يوم السّبت عشرون يناير 2024 للضغط عليه، ثمّ أزاحت باستعمال القوّة المفرطة جميع الخيم للمرّة الثانية المنصوبه أمام «الكنيست»، للمطالبة

برحيل الحكومة وإعادة الأسرى، فأيّ عقل يبقى لديها هذه المكلومة على فلذة كبدها؟، وهي ترى الأیأس يتّجسّد أمامها مثلاً برونزيّاً ضخماً، بعناد أصحاب البطون الكبيرة، أو لئك الجالسين في مكاتبهم في «تل أبيب».

كلّ فرص النّجاة تتضاءل لديها يوماً بعد يوم؟.

- «حماس» لن تتخلى عن الأرض، مستحيل، لأنّها لها، متى يجب أن يفهم «نتنياهو» ذلك؟، نحن من يتحمّل عليهم المغادرة فور استعادة أخيك، لقد خسرت واحداً منكم، ولست مستعدّة لأنّسرك أنت وشقيقك الثالث، ستذهبون كلّكم للدار الآخرة، ولن يبقى معك أيّ أحد، هذا هذا عدل؟، أنا أُمّ، هل يفهمون ما معنى الأمّ؟، هل يرضى الربّ «أدوناي» بجذب؟.

واجهتني بكلماتها وهي تنظر لخالي في غضب مزوج باليأس الصّارخ، واستمرّت تشكيّي وضعيّتها، والحالة التي آلت إليها، معتبرة ما يحدث عقاباً فظيعاً من الخالق «إلهيّم» ربّ السّماء والأرض، لاقترافنا ذنوباً عظيمة في حقّ الكثيرين، منذ حرب الإستقلال وإلى غاية اللّحظة.

أمّي تعرّف الكثير عن تاريخ إسرائيل المخفيّ، وعن الملفّات الغامضة التي لا يتطرق إليها الإعلام.

لقد أسلّبت في الحديث عن «عرفات»، الشخص النّبيل، الذي استغلّنا طبيته وخدعناه في اتفاقيات «أوسلو»، كانت النّية مبيّنة ضدّ الآخر، وحين غزونا «لبنان» في صيف سنة 1982، كان ذلك قرارنا المتّخذ قبل عام من ذلك التاريخ، لطرد منظمة التحرير الفلسطينيّة «فتح»، لكن كنّا نبحث عن ذريعة قوية أمام العالم، وحصلنا عليها في حدّين رائعين، إستقبلناهما على طبق من ذهب، أولاً حين قصفتنا الفصائل الفلسطينيّة بالمدفعيّة وصواريخ «الكاتيوشا»، بدءاً من سنة 1981، وثانياً لما قام «صبري البنا» المعروف باسم «أبي نضال»، المنشقّ عن «عرفات»؛ بمحاولة اغتيال سفيرنا في «لندن» «شلومو أرجوف»، في جوان عام 1982، متسبّباً له في أضرار جسديّة جسيمة.

مباشرة، أخذنا الأمر على محمل الجدّ في اجتماع أميّ عاجل، ونظرنا إليه على أنه استفزاز صريح، لا يجب السّكوت عنه، فقمنا بمحاولة التقدّم نحو «بيروت»، في عملية جريئة أسميناها «سلامة الجليل»، غير مكترثين للقرار رقم 508، الصادر عن مجلس الأمن.

ما لا يعرفه النّاس أثّنا وسّعنا الدّولة في غفلة من الكلّ، معلنين في كلّ محفل وتصريح أمام العالم، أنّ هدفنا هو احتلال خمس وأربعين كيلومتراً فقط من الحدود، لطرد من يقتلوننا بصواريخ «الكاتيوشا»، ولا أكثر من ذلك، حتّى نحمي مواطنينا.

سبب منطقي تماماً ما أبرزناه للعالم، لكنّ مخابرات «الإتحاد السوفياتيّ» آنذاك، كانت على علم من جواسيسها بأنّنا نسعى قدماً نحو «بيروت».

وفي كلّ مرّة نعود من حيث بدأنا، منذ حرب الإستقلال لم نتعلّم شيئاً.

لقد بحثنا في طرد المقاومة الفلسطينية، وإحلال «الد» جيش لبنان الجنوبي العميل لنا مكابحه، حتى فكّكه «حزب الله»، وتفرق أعضاؤه هاربين خائفين من المحاكمات العسكرية التي تنتظّرهم، لارتكابهم جرائم حرب وإبادة في مذبحة «صبرا وشاتيلا»، أمّا نحن فرجعنا لنقطة الصفر، كالّتلميذ الغيّ، الذي يعيد السنة للمرة الأولى والثانية والثالثة والرابعة، والآن نفس السيناريو سيتكرّر مع «حزب الله»، سنتقدّم نحو «لبنان»، وسننصف بالأسلحة المحرّمة، وسنبيد كلّ أعدائنا، أو بالأحرى جزءاً من أعدائنا، وفي النهاية سنندحر.

كان من الضّبّاط المسؤولين عن المذبحة التي حدثت في ماي عام 1948، بعد أسبوع واحد من قيام الدولة، على يد لواء «إسكندرוני»، مدمر قرية «الطنطورة»، الواقعة على بعد خمس وعشرين كيلومتراً جنوب «حيفا»، قتل أولاداً صغاراً أمام أعين والديهم، وأخرج الأحياء بسكيّنه، ملقياً إياها في العراء، ثمّ ذبح أمّها، واغتصب إحدى النساء، لأنّه أراد قهرها لما رأى عناداً وترفعاً في نظرها إليه، ثمّ قتلها مع والدتها بعد ذلك رفقة أفراد عائلتها، مطلقاً النار على البنات الصّغيرات الباكيات حولها من أقاربها.

كان وحشاً كاسراً لا يرتوي من الدّم، يبحكي لأمي ما فعله متلذّذ، كأنّه يتناول قطعاً من قالب حلوى، معتبراً «بن غوريون» مثله الأعلى، ومتعصّباً للصهيونية أيّما تعصّب؛ بينما الجميع في الأسرة مستغربين من وحشيتّه، التي تختفي وراء وسامته وعيونه الخضراوتين، هذه الوسامّة التي كانت محطّ أنظار المجنّدات، أمثال «ستيفا بوبوفيتش»، الشّقيقة التي كانت تطارده وتعشقه حدّ الجنون، موقدة نيران الغيرة في قلب جدّي.

هو ذاك، جدّي لأمي المقاتل البارز في «البلماح»، هذه القوّة النّظاميّة الضّاربة لعصابات «الهاغانا»، التي سفكت الكثير من الدّماء، في تطهير عرقيّ إجراميّ منهج، لكلّ ما هو عربيّ، أو نصرايّ، وحتى لليهود المعارضين لمشروعهم.

كان هذا بعد أقلّ من شهر من مذبحة «دير ياسين»، التي شارك فيها أيضاً باستمتعّ كبير، إستراتيجياً القتل المنهج خطوة مدرّسة بدقة شديدة، كي تُحدث أكبر أثر في نفسية الفلسطينيين، فكلّما كان القتل بشعاً كلّما أحدث فرعاً لا يقاوم، تختلط فيه الأوراق والحسابات، وينهار منه أشجع الرجال، ولو لا هذه المذابح التي أنحافت العرب ممّا استطعنا امتلاك الأرض.

نعم... كنّا مثل «المغول» في وحشيتّهم، وكان جدّي هو «جنكيز خان».

ثمّ تضاعف توتّرها حين قتل الجيش أبناء «إسماعيل هنية»، السياسي في حركة «حماس»، في العاشر أبريل 2024، في قصف صاروخيّ، أدى لمصرع ثلاثة مع أبنائهم، بعدما كانوا في زيارات عائلية في مخيّم الشّاطئ مناسبة عيد الفطر، وهو العيد الذي يأتي بعد شهر رمضان مباشرة عند المسلمين.

لقد ارتعبت من توقيف المفاوضات، بسبب هذه الخطوة التي تبعدنا عن شاطئ التّفاهم أميالاً بحرية أخرى.

مقتلهم زاده مصداقية، قائد سياسي لا يفكّر في مصلحته الشخصيّة، يستطيع بإشارة منه تحرّك كلّ عائلته خارج «غزة»، لكنّه لم يفعل، أيقونة لا يمكن مقارنتها بسياسيّينا الذين يهربون أموالهم لبنيوك «سويسرا»، وأولادهم إلى «فلوريدا».

الفكرة العامّة التي يعمل عليها «الشّاباك» و«الموساد»، هو محاولة تشوّيه صورة قادة أصحاب الأرض أمّام النّاس، إنّهما يعملان معاً على تأجيج الرّأي العام الدّاخليّ، ضدّ «هنّي» و«السنّوار» وآخرين:

– أنظروا هؤلاء... يعرضونكم للموت أنتم وعائلاتكم، بينما هم مختبئون تحت الأرض يأكلون الدّجاج المشويّ، ويسربون ماء «زمزم».

هذا قد يشكل دافعاً حقيقياً للثورة ضدهم، أو على الأقلّ تنامي مشاعر الرّفض والتوجّس وانعدام الثّقة، وهو بالضبط ما يبحث عنه «الشّاباك» تحديداً، لكن حين يقتل أبناء القادة مع أبناء الشعب، فهذا سيزيد من صلابة الجبهة الدّاخليّة، وتتوحد كلّ الجهود لمقاومتنا.

– لا مجال لهزيمة هؤلاء مهما فعلنا، والحلّ هو مغادرة إسرائيل، لن يخلو عن الأسرى مهما كان عنفنا نحوهم؛ لم لا نفاوضهم ونسترجع ما بقي لنا من كرامة؟.

تقول حالتي وهي تنظر لكتلة الدهون والمياه الذي هو ابته المضخ والنّوم.

إنّهم يزدادون قوّة في شهر «رمضان»، شهر الصّوم لديهم، ولن يثنّيهم الجوع والعطش، أو يقلّل من عزيمتهم.

سمعت الدّكتور الباحث في الثقافة العربيّة والإسلاميّة، الذي عمل مدة خمس وعشرين سنة في «أمان»، «مردحاي كيدار»، ذو الأصول البولنديّة؛ يقول مرّة أنّ لدى «حماس» سراً؛ وهو الصّير، ونحن اليهود ليست لدينا هذه الكلمة، بل لا توجد في العبرية؛ إنّهم يعيشون لأجل الله، ونحن نقاتل لأجل إسرائيل، فكيف سنتصر؟.

هم يصبرون والله مع الصّابرين، عيونهم في كلّ مكان... آذانهم في كلّ مكان، لا يغفلون عن شاردة أو واردة، حتّى إنّهم قبضوا على قوّة أمنيّة تسلّلت مع قافلة مساعدات، إنّهم يراقبون كلّ شيء في «غزة»، ومن له القدرة على فعل ذلك إن لم يكن صاحب الأرض؟.

كلّ مأسينا وأوجاعنا غير كافية؛ لبيت في الملاجئ، نترقب ضربات إيرانية، إنّتقاماً من قصف قنصليّتها في «دمشق».

إذا دخلت «إيران» في حرب معنا؛ ستحاول حرّ المنطة برمّتها، ولن يلتفت ساعتها أحد للأسرى، «بن غفير» – لا غفر الرّبّ له – و«نتياغو»، يسعين لصبّ الزيت على النار مهما كلف الأمر، والمخابرات الأميركيّة تتوقّع ضربات انتقاميّة مباشرة مباغتة من «إيران»، مثل القصف العراقيّ الذي ذقنا الولايات منه على يد «صدّام حسين»، حين أطلق صواريخ «سكود» و«العبّاس» و«الحسين» نحو «تلّ أبيب».

أخبرتني أمي أننا عشنا جحيمًا حقيقًا في سنة 1991؛ حتّى اعتقدنا أنّها نهايتنا ونهاية إسرائيل، إذ كانت أقنعة الغاز لا تفارقنا ليل نهار، وماتت جارتنا السابقة جراء سقوط صاروخ على منزلهم، بسكتة قلبية، كان «صدّام» ي يريد إشعال المنطقة، لقد فتح الباب على مصراعيه، متطرّلاً أنّ هاجمنا كلّ دول الجوار، غير أننا كنا نسيطر على الموقف، حتّى أنّ خسائرنا البشرية لم تتجاوز الخمسة عشر قتيلاً، وتكتّمت الحكومة مع ذلك على المسألة، من أجل المعنويات العامة للشعب، وسمعة الجيش الذي لا يُهزّم، ولم نرّد حينها، لأنّا كنا متأكّدين أنّ «العراق» سيسقط في أيدينا في مطلع القرن الحادي والعشرين، تمهيداً لما هو مرسوم في علمنا، من النّهر إلى النّهر.

لقد هُزمنا في «غزة»، ولا يريدون الإعتراف بهذا، والآن يُقونون على لواء «ناحال» حفظاً لماء الوجه، في الطريق رقم 10، قرب «وادي غزة»، لمنع تسلّل عناصر «القسام» نحو الشّمال.

ما هذا السبب المضحك الذي لا يُقنع حتّى الأطفال؟.

هم يدركون جيّداً أنّ «كتائب القسام» تنتقل تحت الأرض، ولا معنى لوجود قواتنا في المحاور والقواعد.

جيّشنا هناك، لنبدو أمام العالم أننا أصحاب الحلّ والربط، وأنّ الكلمة ما زالت لنا، ثمّ من يهتمّ أصلاً بلواء الفلاّحين؟، في مجتمع طبقيّ أشكينازيّ دينه الربّيع والمصلحة؟.

بالنّسبة لي أن تكون أسيّراً في أيدي «كتائب القسام»، أفضل بكثير من قتلك، والتّشهير بك عبر الإنترنّت والفضائيّات، بمثلث أحمر يغمر فوق رأسك، وتفاصيل وجهك تظهر بوضوح تامّ للعيان. يا للفضيحة ويا للعار.

إنّنا فوق شيء يخصّهم، ليس لنا ولا نملكه، ومن المستحيل أنّه بشيء يطالبك صاحبه به ليل نهار، صيفاً وشتاء، عبر العصور والأزمنة.

(13)

مناورة لا يسعني إلا أن أصفها بالذكية، ما فعلته السيدة «ليزا»، الصحفية التي تعتبر الكلمة لديها أكبر وقعاً من الرصاص لدينا نحن العسكريون، وما كنت أصدق جرأتها حتى روت لي ببساطها كل شيء، مرغمة إياي على التساؤل في قراره النفسي عن سرقة شخصيتها.

مقتل «ديميترى» و«آيزننكوف»؛ أكّد للسيدة «ليزا» أن هناك شيئاً يُحاك في السرّ، بما يفتح باباً واسعاً من الإفتراضات، التي تكون بحاجة إلى تفنيد أو تعزيز، فكان لا بدّ من صنارة متينة تُلقى في الماء.

وألقت بصنارتها بعيداً للحيتان، «أين تذهب الذخيرة يا جنرالات جيش الدفاع؟».

ستتحدّث بإسهاب عن مشكل الأسلحة في الجبهة، ولا سيما بعد اكتشاف عدّة محاولات تهريب، وعدم توفر ذخيرة كافية لمواصلة الحرب، رغم ما ترسله «الولايات المتحدة الأمريكية» والدول العربية الحليفه لنا، ثم تشير بتلميحات بين السطور إلى أن هناك من لديه اعترافات حول هذه المسألة، وأن لكلّ مواطن الحقّ في معرفة ما الذي يدور حوله بالضبط، مرتكزة على كوننا جميعاً ندفع بفلذات أكبادنا للقتال، ولسنا مستعدّات للبكاء عليهم فقط، دون محاسبة من هو المسؤول عن دفعهم للموت.

في سرية تامة ودون أن تشرك أي أحد في الأمر؛ وهو ما أزعج كثيراً «أتارا»؛ ذهبت بالمقال المفخّخ لرئيس التحرير «آمنون هراري»، لتسلّمه له، يداً بيد، خوفاً من أي تجسس إلكتروني، عازفة عن إخبار أي أحد هناك، حتى نائبه «نوعاً لانداو»، إلا أنها عادت كما يقول المثل العربي بخفيّ حنين، وهو ما جعل «أتاراً» تحمد الربّ كثيراً ذلك اليوم، لأنّه أنقذ والدّها من موت وشيك.

– خسرت «دافيد» بسبّهم ولا أريد أن أخسرك أنت أيضاً.

قالتها جملة واحدة وهي باكية، رافضة نشر أي شيء حتى الوصول النهائي للمستندات، وهو ما يضمن التخلّص من العصابة، دون ترك ولو أصغر فرصة لهم للهروب أو الإنقاص.

وجهة نظر منطقية، غير أن السيدة «ليزا» نظرت للمسألة من زاوية أخرى.

كوهنا صحفية، فمنصبيها يحميها من كلّ من يريد إلحاق أيّ أذى بها، وزادتها التسجيلات المرئية والصوتية التي زوّدتها بها «باولا» ثقة، تسجيلات هربتها من أمن الفندق، تضمنّت أسماء بعض الضباط المتورطين في عمليّات المتاجرة بالأعضاء البشرية، وتهريب السلاح والذخيرة، وهناك حتّى من هم مقربين من «نتنياهو»، بما في ذلك زوجته «سارة»، التي أخذت ما قيمته مائة ألف دولار للإنفاق على حياة البذخ والتّرف التي تعيشها، كما استطاعت الوصول إلى أخت «دافيد» زوجة «غارسياً»، الواقف خلف المشهد.

بصراحة؛ المسألة مغربية جدّاً لأنّ تُلقى على الملا، والسيّدة «ليزا» متأكّدة أنّ طلقتها لن تخيب.

- ماما سيقتلونك، لا شكّ في ذلك، ما وصلتِ إليه سيُحدث أهلياراً شاملًا في الدولة، أنظري من النّافذة، إنّهم يراقبوننا عن بعد، لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة وأنا أعيش هذا الرّعب.

- إذا سكتّ أنا فمن سيتكلّم؟، قوّة «نتنياهو» هي الإنّتلاف مع الأحزاب اليمينيّة التي تحمي، فقط، مثل «شاس» و«يهوديت هاتوراه»، و«عوتسماء يهوديت» بزعامة «بن غفير»، «نتنياهو» مثل فزاعة الحقول، لا يخيف سوى الطّيور الصّغيرة، هناك ثلث عشرة قضيّة ضده بسبب الفساد، هل تعلمين هذا؟، هل تصدّقين أنّ الجيش يكرهه؟، ولذلك يلقي بأبنائنا للمثلث الأحمر كي ينجو هو من السّجن، ويستمرّ في إجهاض مفاوضات الأسرى، وسيجازف بنا في «لبنان»، ومع «إيران»، ومع دول أخرى، ولا تسلّم الجرّة في كلّ مرّة.

هذا ما حكته لي حين التقينا للّتّسقيق، وراحت تدافع عن مشاعر ابنتها حين استعظامت لومي.

في الحادي عشر من أبريل 2024، يصرّح «بيبي غانتس» في مؤتمر في «الدوحة» أنّا سندخل «رفح»، وسنعود هناك إلى «خان يونس»، وفي نفس اليوم؛ يُقصّف سوق «فراش» الشّعبيّ وسط «غزة»، بناء على معلومات مضلّلة، ثمّ يُقصّف حيّ «الجنيّنة» في شرق «رفح».

طبعاً لا شيء أسهل من قول أحدّهم أنّه وصله تقرير عن وجود مقاتل يـ«القسام» في منطقة ما، لتلقي الطّائرات الحربيّة بحملتها على رؤوس الأطفال والنساء، وتعرض قناة «الجزيرة» صوراً ومشاهد يندى لها جبين الإنسانية.

يبدو أنّ إسرائيل تحوي عشرات العصابات، كلّ واحدة لها مجالها الخاصّ، فضلاً عن مصالحها المشتركة، عصابات يهمّها بناء هذا الكيان مهما كانت الأحوال، عصابات في السياسة، وأخرى لتهريب السلاح وتجارة الأعضاء، وأخرى لتهريب البشر، وأخرى للمضاربة في السلع، والشعب المكذوب عليه، هو من يدفع الثمن في الأخير، هذا الشعب بكلّ أطيافه، القادم من الشّتات، بثقافات مختلفة تماماً والمغرّ به، لو بقي في البلاد التي أتى منها، لكان أفضل، ولما كنا جميعاً نواجه هذا الشّقاء والمعاناة.

من حسيّ الأمّي أدركت أنّه ليس غيّباً كي يترك السيّدة «ليزا» تسرح وتمرّ دون مراقبة، أخبرته عيونه في «هاريتس» أنّها ألحّت بشدّة على مقابلة رئيس تحرير الأخبار «آمنون هراري» شخصياً، بعد انتظاره لأكثر من ساعة ونصف، وأنّها كانت حرّيصة على مقال أحضرته معها لا أحد يعرف ما فيه، ولم تترك أحداً يطّلع على محتواه.

ولأنّ إشاعات متعدّدة المصدر، بدأت تنتشر، مفادها أنّ رئيس جهاز «أمان»؛ «أهارون هاليفا»، ي يريد الإستقالة بأسرع وقت؛ لأنّه رأى المركب تغرق، أوّلاً، وأنّ هناك مذكّرات اعتقال دوليّة ستتصدر في حقّ «نتنياهو» وبعض القيادات الإسرائيليّة، ثانياً، و«تركيا» التي تستعدّ للانضمام للدّعوّي التي رفعتها «جنوب إفريقيا» ضدّ إسرائيل، ثالثاً، غير «نيتاي» اسمه في جواز سفر مزور، تمهيداً لهروبّه لإحدى الدول العربيّة الصّديقة المطبّعة، التي تقول السيدة «ليزا» إنّها «المغرب» يقيناً، لأنّها في غرب شمال قارة «إفريقيا»، بعيدة عن أرض الصرّاع، وربما يفترّ إلى «أمريكا» إذا اقتضى الأمر؛ وهناك سيكون إبرة في كومة قشّ.

(14)

أتنى عيد الفصح «بيسح» دون أحيي؛ هذا العيد الكثيف للكثيرين من شعبنا المخدوع.

لم نستطع الظهور بمعظمه الفرح، ولا أعرف كيف يفرح الناس وال الحرب تأخذ منهم كلّ عزيز.

لقد أقسمت أمي ألاّ نحتفل بأيّ عيد مهما كانت قدسيته في اليهودية في غياب أحيي، الذي ننتظر إطلاق سراحه كلّما أشرقت الشمس، رغم تطمينات جارتنا البغاء:

- سمعتهم يقولون في الإعلام أنّ هناك هدنة لستة أسابيع، تطلق «حماس» سراح ثلات وثلاثين أسيرًا من لديها.

في اعتقادها مشكلة الأسرى ليست أكثر من فتح صنبور ماء في الحمام.

إستسلمت أمي للمرض بعد اختيار نفسها، كنت ساعتها في «غزة»، وخشيته أن تموت كمدا، دون أن أراها ولو للمرة الأخيرة حين هاتفتني خالي، فكان لزاماً عليّ أن أطلب تسييرها من الخدمة المدّة لا تتجاوز أربع وعشرين ساعة، لظرف طارئ، ويجب أن يأخذوه بعين الاعتبار.

- أفضل العيش في دولة تحكمها «حماس» بدل هذه القاذورات السياسية؛ على الأقل ستكون حقوقنا مضمونة كيهود، لقد أخطأنا كثيراً حين فكرنا في طرد هذا الشعب وسلب أرضه؛ كان أجدادنا هنا آمنين مكرّمين، أما الآن، فلن ننعم بالأمان مطلقاً، مهما فعلنا؛ لأنّ الحقّ يوجد هناك في الطرف الآخر، إنّ الربّ يعاقبنا لأنّا خالفنا أمره، وأقمنا دولة على جثث السّكان الأصليّن.

هذا ما قالته بالحرف الواحد قبل استدعاء الإسعاف بدقائق لينقلها للمستشفى، ثمّ غرفة الإنعاش، بعد أقلّ من ثمان وأربعين ساعة من مشاهدتها لفيديو الأسير «هيرش بولن» ذي اليد المقطوعة، الذي بثّه «كتائب القسام» يوم الأربعاء، الرابع والعشرين من أبريل 2024.

رأيتها هناك شاحبة الوجه في غرفة العناية المركّزة، ترقد على سرير تنفس فوقه بصعوبة، كالذى يقاوم حشرحة الموت، وألقت خالي بنفسها على تختضنني شاهقة بيكانه فظيع، ما كانت تنتظر رؤيتي بسبب توقيف

منح العطل للجنود، وأحسست بجبل من الهموم يحتضنني ساعتها، حتى كادت قواي أن تخور، فأسقط على الأرض وأسقطها معي.

هلهل هذه المسكينة على أختها وهي تراها بين الحياة والموت، وخوفها على ولدتها «دييغو» الذي سُيُستدعي للجيش عن قريب، والآثار النفسية التي تركها الفيديو الذي لا يتجاوز ثلاث دقائق؛ كلّها أسباب جعلتها تبحث عن شخص تستند عليه، ليريحها من فاجعة في وزن جبل.

جلسنا في غرفة الإنتظار وراحت تحكي لي تطورات الوضع الأسريّ التي لم أشهدها في الساعات الأخيرة.

في الخامس عشر أبريل 2024، بدأت التشكيلات العسكرية في الوصول إلى «رعيم»، مقر قيادة «فرقة غرّة»، المسؤولة عن المنطقة الجنوبيّة، تمهدًا لاجتياح «رفح»، ولم أستطع إخفاء تدمّري من العبيّة التي تقودنا نحو طريق مسدود، فلاحظ أحد الضبّاط الذي يعلوّي رتبة ذلك، فما كان منه إلا أن ردّ بصوت لا يخلو من زهو وعنجهيّة، أنه تمّ القضاء على كلّ كتائب «القسام» في القطاع، باستثناء كتيبتين، وبقيت «رفح» فقط بأربع كتائب، آخر معاقلهنّ، الشيء الذي استفزّني، إذ كيف يُعقل أنّنا ما زلنا نتعرّض لضربات قاتلة كلّ يوم كأنّنا في بداية الحرب؟.

وما زالوا يكرّرون لنا في القيادة أنّهم قتلوا أكثر من تسعة آلاف مخرب.

إذا كان هذا صحيحاً فمن يقاتلنا في كلّ مكان؟، من يطلق علينا قذائف «الياسين»، ويقتضي ضبّاطنا على مسافة كيلومترات؟.

أنا ضابط ميداني، وأعلم جيّداً أنّنا منذ العاشر من أبريل 2024، ونحن نبذل جهداً شاقاً مريعاً، للتوغل من «تساريم» نحو «دير البلح»، دون جدوى، حتى أنّنا لم نستطع قطع «وادي غرّة» والتمرّكز بعده، ولو أمّتاراً بسيطة، رغم القصف العنيف الذي وجهناه لهم، والآن يريدون لنا أن نغرق في مستنقع اسمه «رفح»، دون أيّة استراتيجية قتال واضحة.

ولكي نظهر للعالم عظمة الدولة الرّاعية للإنسانية، أطلقنا مناقص لاقتناء أربعين ألف خيمة للسكان الذين ننوي تججيرهم من المستنقع، ذراً للرماد في العيون، حين نتفرّغ له، لأنّ قيادتنا السياسيّة والجيش متّقنان على إخاء العمليّات في الشمال والوسط، أوّلاً وقبل كلّ شيء.

كاد الأمر أن يصل إلى مشاجرة بالأيدي بيني وبين هذا الواقع، لم أعد أتحمل الوضع، ما تلقنه هو محاصرة اللاجئين في «بيت حانون»، والتنفيس عن غضبنا في النساء والأطفال.

هل يعلم هذا العين أنّ كلّ «كتائب القسام» ما زالت تعمل؟ أربع وعشرون كتيبة كاملة حتى هذه اللّحظة، بل حتى الأنفاق التي يحاولون إقتحام العالم أنّا دمرناها، أخيرني أحد ضبّاط الهندسة القتالية هامساً، أنّهم لا يستطيعون تعطيل سوى مائة متر منها، إذا فجّروا عين نفق مكتشفة، وأقلّ من كيلومتر واحد أو اثنين إذا حالفهم الحظّ واستطاعوا تفجير نفق كامل، لكن هناك خمسة كيلومتر منها، لم نصل إليها ولن نصل إليها.

ولا نعلم عنها شيئاً، وليس هذه مشاعري الخاصةّ، بل هي مشاعر الجنود والضيّاط الميدانيّ أمثالي، أمّا قذارة «تل أبيب»، فهم لا يعرفون شيئاً عن الميدان، سوى ما يجب أن يتواجد في الخلفية حين يلتقطون الصور أمام وسائل الإعلام.

في الفاتح من ماي 2024، تتصف «القسام» القوّات المتمرّكة في مستوطنة «حوليت»، التي تبعد كيلومترات عن القطاع، قرب المستنقع الذي يريدون إغراقنا فيه، أمّا معبر «كرم أبو سالم»، وهي مساحة تجتمع للجنود قبل الإجتياح؛ وهذا ما يسمّى «هجوماً إجهاضياً»، وسلاحهم الفتّاك هذه المرة صواريخ «رجوم»، التي تصل إلى ثمانية كيلومترات، برأس حربيّ متفرّج يحوي من اثنين إلى ثلاثة كيلوغرامات، أي مجزرة بكلّ المعنى الذي تحمله الكلمة.

بنفس السلاح في نفس اليوم، تمّ ضرب مرّ «تساريم»، الذي كان يتعرّك فيه لواء «ناحال». أيّ قيادة غبية هذه التي تجتمع جنودها ليكونوا لقمة سهلة، أمّا ضربات لا تُشترط الدقة فيها لتصيب منطقة بعرض ستة كيلومترات، وتضم ما يقارب العشرة آلاف جندي؟.

هل يجب أن تكون حاصلاً على درجات علميّة كبيرة كي تدرك أنّ مقاتلي «القسام» لا يخربون مع النّاس في الأسواق، ولا مع الأطفال في المدارس؟.

هل يجب أن تكون متخرّجاً من ألمع الكلّيات العسكريّة، كي تدرك أنّ الجنود سيكونون لقمة سائغة لهم كلّما تجمّعوا؟، لأنّهم يتبعون أسلوب «حرب العصابات».

ما نحن فيه الآن ليس حرباً نظاميّة.

بعد مائة يوم من الحرب، إستقال قائد الاستخبارات العسكريّة «أهaron هاليفا»، واستشار «هاليفي» و«رونين» و«غلاانت» محاميهم، مبدئياً، تمهدّاً لاستقالتهم، حتّى أنّ «أفرايم غانور»، المحلّل في صحيفة «معاريف»، أكّد أنه لا يجب أن نتوهّم أنّ «رفح» هي نهاية الحرب، «نتياغو» يهدي؛ والمحظوظون سيتأذّون كثيراً، لأنّ «حماس» مستعدّة جيداً، وخطاب «أبي عبيدة»، المتحدّث العسكريّ باسم «كتائب القسام»، يؤكّد أنّهم ما زالوا أقوىاء، وليسوا في رمّقهم الأخير، كما يتوهّم «بن غفير» ويريدنا أن نُخدع بكلامه.

وبعد مائة يوم من الحرب، لم نصل إلى «الستّوار»، ولم نصل إلى «أبي عبيدة»، ولم نحرّر أيّ أسير، بل قتلنا شباب إسرائيل بطائراتنا.

لقد دمرنا كلّ شيء في «غزة»، أكثر من مائة مبنيّ تعليميّ من مدارس وجامعات، أكثر من مائة مسجد؛ وأكثر من خمس وثمانين ألف مسكن، وأكثر من ثمانين مستشفى ومركز صحيّاً.

هل يختبئ مقاتلو «القسام» هناك؟.

أفسدنا ما جمّوعه ثلاثة ملايين دولار، ولم نصل إلى شيء كما وعدنا «بيبي»، بل خرج «السنوار» أمامنا للشارع يتختّر مثل الرئيس، متقدّماً الأوضاع، وملتقياً بقادّة ميدانيّين، في تحّذّر صارخ لجيش إسرائيل الذي لا يُهزم، ولسان حاله يقول:

– أنا هنا في أرضي، فمن أنت يا وطاويط اللّيل حتّى أضعكم في الحسبان؟

والآن يحاولون استعمال ورقة الهجوم على «رفح» في المفاوضات، أيّ منطق هذا الذي به يفكّرون؟.

من البداية وهم يُؤجّلون اجتياح «رفح»، لأنّ عدم معلومات إستخباراتيّة دقيقة، هذه هي الحقيقة، هم لا يعرّفون ما الذي سيكّون هناك بانتظارهم، بعد أن انتهوا من الرّد الإيرانيّ الذي كان يشغلهم، فقد قصفتنا «إيران» في خطوة كانت متوقّعة من المخابرات الأميركيّة، في الثالث عشر أبريل 2024، ردّاً على قصف قنصليّتها في «دمشق».

أخيراً انتهى رعب الفتنان، بأكثـر من ثلاثة صاروخ وطائرة انتشارية مسيرة من نوع «شاهد 136»، وسط ذهول العالم، ونحن من نحن في المنطقة؛ بمنظومات الدفاع الجوّي المختلفة التي أفرزـنا بها الطّيور، «القبة الحديديّة» للصّواريخ القصيرة المدى والصّواريخ المجنحة؛ «مقلاع داود» و«باتريوت» و«حيتس 2»، وحتّى «حيتس 3» التي ما زالت قيد التجربة.

لقد أطلقت «إيران» من جملة ما أطلقتـه، خمسة صواريخ باليستيّة على قاعدة «نيفاتيم»، وبسبعة صواريخ أخرى على قاعدة «رامون»، أهمّ قاعدتين جوّيـتين لنا في صحراء «النقب»، كما قالـت صحيفـة «معاريف» أنها ضربـت «ديمونا»، بصواريخ من نوع «عماد» و«غدر»، الـقادـرة على حـمل خـمسـمـائـة كـيلـوـغـرام من المـتفـجـرات، وـالـطـائـرـة لـمسـافـة تـجاـوزـ الأـلـفـ والـخـمـسـمـائـةـ كـيلـوـمـترـ، بـهاـمـشـ خطـأـ لاـ يـجاـوزـ الـخـمـسـةـ أـمـتـارـ.

في «نيفاتيم» فقط، أصـيبـتـ منـشـأـةـ تـخـرـينـ، وـمنـشـأـةـ أـخـرىـ فيـ المـدـرـجـ الشـمـالـيـ، معـ المـدـرـجـ الذـيـ توـسـطـهـ حـفـرةـ، كـعـلـامـاتـ لـمـدىـ دـقـةـ الضـرـبـاتـ، وـلوـ أـرـادـتـ «إـيرـانـ»ـ أـنـ تصـيـبـ «ـتـلـ أـيـبـ»ـ لـفـعـلـتـ، وـلـحـدـثـ كـارـثـةـ، فـمـنـذـ قـيـامـ الثـورـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ فـيـهـاـ، وـقـيـادـهـاـ تـعـتـبـرـ الـكـيـانـ وـرـمـاـ سـرـطـانـيـاـ خـبـيـثـاـ يـجـبـ إـسـتـصـالـهـ، هـيـ مـنـ تـدـعـمـ «ـحـمـاسـ»ـ فـيـ «ـغـزـةـ»ـ، وـ«ـحـزـبـ اللـهـ»ـ فـيـ «ـلـبـنـانـ»ـ، وـ«ـأـنـصـارـ اللـهـ»ـ فـيـ «ـالـيـمـنـ»ـ، وـالـمـقاـوـمـةـ فـيـ «ـعـرـاقـ»ـ، بـكـلـ أـشـكـالـ الدـعـمـ، ضـدـ إـسـرـائـيلـ، بـنـتـ «ـالـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـّـدـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ»ـ غـيـرـ الشـرـعـيـةـ، الـتـيـ لـوـ غـفـلـتـ عـنـهـاـ لـوـهـلـةـ فـقـطـ، لـانـقـضـ عـلـيـهـاـ حتـىـ الأـطـفـالـ الصـغـارـ بالـحـجـارـةـ.

هل يعلم «ـهـغـارـيـ»ـ أـنـ جـنـوـدـهـ يـفـرـونـ مـذـعـورـينـ أـمـامـ مـقـاتـلـيـ «ـالـقـسـامـ»ـ، حـينـ يـرـونـ أـنـهـ لـاـ فـائـدـةـ مـنـ القـتـالـ؟ـ.

لـقـدـ بـاتـتـ كـلـمـةـ «ـالـلـهـ أـكـبـرـ»ـ تـرـعـبـنـاـ أـكـثـرـ مـنـ اـنـفـجـارـ القـنـابـلـ، هلـ يـتـسـاوـيـ مـنـ يـطـلـبـونـ الـمـوـتـ مـعـ الـذـينـ يـهـرـبـونـ مـنـهـ بـعـسـمـيـاتـ مـتـعـدـدـةـ؟ـ.

هل يـعـلـمـ أـنـ «ـسـرـايـاـ الـقـدـسـ»ـ وـ«ـكـتـائـبـ الـقـسـامـ»ـ يـسـتـطـيـعـانـ إـنـزـالـ مـسـيـرـاتـاـ بـكـلـ سـهـولـةـ، وـالـإـسـتـيـلاءـ عـلـىـ قـاعـدـةـ بـيـانـاـهـاـ، بـمـاـ فـيـ ذـلـكـ مـنـاطـقـ إـنـتـشـارـ الـقـوـاتـ، مـاـ يـسـهـلـ اـسـتـهـادـهـاـ؟ـ.

لماذا إذن ما زال في تعنته؟.

لماذا يصرّ على إضحاكتنا بتصرّيّحاته الغبية أمام وسائل الإعلام، وإضحاك العالم علينا، متشدّقاً أنّنا قضينا على أغلب الكتائب وبقي القليل فقط؟، وأنّ منظومات الدفاع الجويّ بحثت في اعتراض تسع وتسعين بالمائة من كلّ ما أرسل ضدّنا في السماء؟.

«هغاري» بطل فيلم هنديّ، حيث اللامعقول يصبح معقولاً، رغم أنوف المشاهدين؟.

في الخامس والعشرين أبريل 2024، أي بعد مرور ستة أشهر على الحرب، أعلنت إذاعة الجيش عن سحب لواء «ناحال»، الذي أقام قاعدتين على محور «تساريم»، تمهيداً لإعادة بناء مستوطنة «تساريم» المفكّكة، أسبوعين فقط من إقالة قائد، بعد تسبيبه في قتل سبعة موظفين من موظفي لجنة الإغاثة التولية، وهو ما أثار موجة استنكار عارمة، ضدّ كلّ ما هو إسرائيليّ، وترك هناك الفرقة 99.

– ماذا تنتظر من لواء الفلاحين؟.

هذا ما علّق به أحد الضيّاط على سحب اللواء، مكملاً سخريّته ضاحكاً:

– إنّه لواء الجهلة، لا يفرقون حتّى بين بعضهم بعضاً، ويقولون إنّه لواء مرن.

لا تستغرب، جيّشنا مجمّع كبير من الحالات، وقد وجدت القيادة فرصة للتخلّص مني بعد ملاستي مع أحدهم، فمنحتني عطلة تدوم خمسة أيام، قرّرت استغلالها جيداً، وإلى أقصى حدّ ممكّن.

كانت أمي وخالي تحضران للمظاهرات التي تطالب باستقالة حكومة «نتنياهو» وإعادة المختطفين، المقرّرة كلّ يوم سبت، لكن حين ألمت بها الفاجعة يوم الجمعة، وجدت خالي نفسها وحيدة، مهرومة، ورغم ذلك شاركت في المظاهرة التي جرت يوم السّابع والعشرين أبريل 2024، في «تل أبيب»، لوحدها والدموع في عينيها تأبى النّزول أو الجفاف، بعدها أوصتها أمي وألحتّ عليها أن تبقى وفية، في كلّ المظاهرات، التي تنادي بوجوب استعادة الأسرى باللفاوضات، لقد كانت تخشى أن تموت دون رؤية ولدها الأسير، وراودتها الوساوس من أن يلقى أخي نفس مصير الطيّار «رون آراد»، الذي مات في الأسر، ونسّيت قصّته، مثلما ننسى قصص ما قبل اللّوم التي كانت تحكيها لنا الجدّات.

لقد أصبح الأسرى نقطة محوريّة لجميع آلامنا.

– هذا العلم لم يعد يمثلني.

جملة قالتها خالي حين أعطتها إحدى صديقاتها علم إسرائيل لتحمله، كما هي عادتها دائمًا، في كلّ المظاهرات.

(15)

يأبى قلبي أن ينسى أمسية الأحد، إنّها الأمسية التي غيّرت كلّ شيء في حياتي، أمسية ليست ككلّ الأمسيات الكئيبة في مترّنا، الذي ما زال يفتقد عبق أمّي، ورائحة طعامها، بعدما أنسانا الزّمن عبق أبي منذ سنوات، أبي الذي لم تكتحل عيناي يوماً برأّيته، فقد هجرنا سنة 1984 أثناء حرب «لبنان»، بعد رفضه إعادة تجنيده في الجيش، ورحل بعيداً إلى «أوروپا»، ثمّ انقطعت أخباره بعثة عنّا، لما علمت أمّي بزواجه، فصار في نظرها خائناً لجّههما، ترفض حتّى ذكر اسمه أمامنا.

كانت حالتي في مطبخ مترّنا تحاول طهو طبقي المفضل تخفيفاً عني، طبقي الذي تتقنه أمّي كإتقاني أنا قلي البطاطا، رغم الغلاء الفظيع وندرة السلّع، والتّضخّم المتّسارع، الذي بسببه لا تُعرف القيمة الحقيقية للأشياء، بينما كنت أنا في الصالون، أنتقل بين قنوات التّلفزيون، التي تذكّر بشيئين لا ثالث لهما، إماً بالحرب، أو بوضعنا الاقتصادي القابع على كفّ عفريت.

أما وسائل التّواصل الإجتماعي، فتضجّ بخبر محاولة طرد «بن غفير» من المقبرة العسكرية في «بئر سبع»، بعد مشادات بين أنصار هذا الكلب، وبين إحدى العائلات المكلومة من فقد ابنها.

وضعت هاتفي جانباً كي أهرب من توّري، وإذا هاتّفها الموضوع أمامي على الطّاولة الزّجاجيّة، يرنّ لمرة ولمرتين، ولثلاث مرات متتالية، ظننت أنّه «دييغو»، ابنها المدلل الطّائش، الممتليء دهوناً ومياه، الذي لا يعرف حتّى كيفية سلق بيضة، يستميت في الإتصال بها ليحثّها على العودة، كونه جائع، يريد أن يأكل من يديها كما يقول، أو سوف يطلب عشاء جاهزاً إذا كانت ستتأخر عنه.

جاءت مسرعة وهي تمسح يديها بمنشفة صفراء فاتحة اللّون، ثمّ بدأت تتحدّث بإنجليزية كسيحة، بمشاعر حزن تارة، ومشاعر فرح تارة أخرى، وأنا لا أملك سوى النّظرات التي تمشّط وجهها، علىّ أفلح في قراءة شيء ما على هذه الملامح، ثمّ طرق سمعي صوت عذب أعرفه جيّداً ولا أعرفه.

– طبعاً طبعاً عزيزتي «دينا»، «It's very good».

قالتها بمحبّة يعلوها بريق السّرور، ولتكسو وجهي حرارة لم تحدّ تفسيراً لها سوى الخجل، على الفور دون أي تردد.

يا لها من ذكريات تلك التي دعكتني، فلم أتبه جيداً لما كانت تقوله لها، ثمّ واصلت، ترجم ضرب الحديد وهو ساخن:

– نسيت أن أخبرك أنها كانت تسأل عن صحة أمك منذ إدخالها المستشفى، منذ مرضها وأنا غارقة في دوّامة، ويا للمسكينة «دينا»، جسدها هناك وقلبها هنا، و... سألت عنك.

أطلقت عبارتها الأخيرة بنبرة فاحصة بعدها سكتت لثانيتين.

حُفِقَ قلبي بكل قوته حتّى خلته سيتوقف بعد لحظات، من كان يعلم أنها ستُصلَّى من هناك؟، على بعد أكثر من تسعة آلاف كيلومتر، بعد هذا الإنقطاع؟، وأسع صوتها لأول مرّة، بعد أن فرقنا الآيديولوجيا البغيضة لأعوام؟.

– هي الآن طالبة في جامعة «كولومبيا» في «نيويورك»، ومن قيادات الحركة الطلابية اليهودية، المناهضة للصهيونية، والمؤيدة لحقوق الفلسطينيين في استعادة أرضهم المسروقة وحقّهم المسلط.

قالت بها باعتزاز غريب لم أعهد له فيها من قبل.

– إذن ما زالت محافظة على مبادئها، لم تتغيّر منذ سنوات.

فهزّت لي رأسها إيجاباً وعينيها مثبتتين في عيني، تريد رصد أيّ تغيير في شعوري نحوها، بعد كلّ هذه المدة الطويلة من النّسيان.

نحن من أسرة يهودية عريقة، من أصحاب العقارات والأراضي في «الولايات المتحدة الأمريكية»، حيث بقي أغلبنا، وهاجر البعض منها بحثاً عن فرص أفضل في العالم، فمنهم من ارتحل إلى سويسرا مقتحماً بحارة الألماس، ومنهم من استثمر في المساكن، ومنهم من هاجر إلى هنا طمعاً في مستقبل واعد مختلف، وشاء الربّ أن تكون عائلة أمي من المهاجرين المغّرّ بهم، ويا ليتها ما جاءت، يا ليتها ما خضعت لتأثير آلة الدعاية الصهيونية، وهذا هي الآن تدفع الثمن.

بمعدل مرتين أسبوعياً وعبر تقنية «السكّايب»، إستمرّت «دينا» في التّواصل مع خالي، دون أن يتحرّأ أحدنا على الحديث مع الآخر، لتعلّمها على التّحوّلات الفكرية الجندرية لدى الجالية اليهودية هناك تجاه إسرائيل والصهيونية، حوالي خمس وسبعين جامعة في «أمريكا» تشهد حراكاً طلابياً واسعاً، منذ الشّرارة الأولى التي انطلقت في جامعة «كولومبيا»، يوم السابع عشر أبريل 2024، عبر تحالف ضمّ مائة وعشرين منظمة طلابية وهيئة تدريس، ثمّ تطور الأمر إلى إعتصامات بالخيام، وأبرزها ما كان في جامعة «جورج واشنطن» بالعاصمة في مطلع شهر ماي.

لا يتعلّق الأمر بمعاداة السّامية كما يُشاع في الإعلام، فكلّنا يهود؛ لكنّهم يرون، ونرى معهم؛ أنّ ما يحدث للفلسطينيين، ظلم لا يجب السّكوت عنه.

معاداة السّامية أصبحت مشجّعاً سحريّاً يعلق عليه الصّهاينة أيّ شيء، حتّى ولو كان شيئاً لا يصلح للتعليق.

واجه الطّلاب تهديدات من طلبة آخرين صهاينة بالقتل، محميّين جيّداً من نافذين في السلطة، وواجه آخرون تهديدات جديّة بالفصل من الدراسة من إدارة الجامعة، التي من المفروض أن تعزّز الشّعور بالديموقراطية وحرّية التّعبير، في حماية القانون الذي تمثّله الشرطة، غير أنّ الواقع عكس هذا تماماً، شرطتهم مثل شرطتنا.

شرطتهم تستفرّط طلبة كي تقلب الأوضاع إلى عنف مسلّح، رغم إقامة هيئة التّدريس جداراً بشعريّاً لحماية «ديننا» وزملائها.

لقد تجرّأّ عنصر منهم على نزع حجاب إحدى الطّالبات المسلمات، لكنّ زميلاتهن المسلمات وغير المسلمات تصدّين له في وقفة رجل واحد، وحتّى «ديننا»، حاول أحدّهم اعتقالها، لكنّه اضطُرّ لإطلاق سراحها في أقلّ من ساعة بعد تدخل والدها، حظّ لم يحالف تسعّمائة طالب وطالبة خلال عشرة أيام متواصلة، ثمّ يرتفع الرقم إلى ألفي شخص؛ في كلّ الجامعات التي تميّز أغلبها بالنّخبوية.

كان اليهود المؤيّدين للمظاهرات مع «غزة» أكثر المشاركين، ولم تكن عنصرية، أو معاداة للساميّة إطلاقاً.

هؤلاء اليهود الأحرار الرّافضون لهذه التّرّيعة، كالكاتبة «ناعومي كلاين»، التي برهنت على شجاعتها في كلمة لها أمام حشود طلبة «كولومبيا»، معتبرة أنّ الصّهيونية صنم زائف، ليتفاهموا باقتحام الشرطة مبنيّة، واندفعوا إلى قاعة «هاملتون»، حيث اشتبكوا معها بالكراسي، ليلة الثلاثاء دون تسجيل أيّة إصابات، معقلة حوالي ثلاثة عشر شخصاً.

أما «ديننا» المختبئة خلف خزانة، فلم يفكّر الشرّطيّان الذين دخلا في حالة من المستيريا بسبب طالب دفعهما بكلّ قوته، بالنظر إليها.

لقد اعتقلت الشرطة حتّى مرشّحة الرّئاسيات «جيل ستاين» اليهوديّة، لأنّها وقفت مع الحقّ، متّهمينها بالإعتداء على شرطيّ.

هل هذه هي الديموقراطية التي تتعّنى بها الحكومة الأميركيّة أمام دول العالم؟، حرّية الرأي والتّعبير؟.

أم هي مجرّد شعارات وهيبة لا أساس لها في الواقع، ولا انعكاس حقيقيّ لصورتها في الميدان؟.

إنّا أمام مشهد مكرّر، حدث في السّتينيات أثناء حرب «فيتنام»، لكنّ الشّعوب لا تستلهم العبر.

عادت «ديننا» وزملاؤها للتّظاهر مجدّداً صبيحة الثاني من ماي 2024، مطالبين بالإفراج فوراً عن كلّ المعتقلين، مهما كانوا ودون استثناء، كانوا واقفين بالثبات يرتدون الكوفية الفلسطينيّة، تحت أعين الشرطة التي وقفت هذه المّرة، تراقب المشهد عن كثب، فائلين جميعاً، مسلمون ويهود:

- نرفض دولة إسرائيل المقامرة على جحث الأبرياء.

وانتشرت أخبار المظاهرة وتناولتها وسائل الإعلام العالمية، مثل «الجزيرة» و«العربي»، رغم محاولات تهميشها وتشويهها، بل وإنراجها من سياقها العام، المشجب المعروف الذي يعلق عليه كل لباس غير مرغوب فيه.

على بعد تسعه آلاف كيلومتر، وهناك تحديدا وراء السياج، في مخيمات «رفع»، التي كانت تحت رحمة القنابل والخناق والحصار، كتب الأهالي على لافتات كرتونية، وعلى أقمصة خيامهم البالية، عبارات شكر للطلاب الذين وقفوا إلى جانبهم، مضحين بوقتهم، وبمستقبلهم من أجل قضية إنسانية عادلة، لا يجب أن يطمسها الخذلان أو التسخان.

هناك في «رفع»، رفع الطفل «نبيل معروف»، الذي لا يتعذر سنه العشر سنوات، لافتة كتب عليها بالإنجليزية، «شكرا طلبة جامعة كولومبيا، شكر لكم... نحبكم».

كم هي جميلة الأحساس الرّاقية السّخّية المتنقلة بين الأديان وقلوب البشر!

(16)

- وحقَّ الرَّبُّ لِن يذهب للحرب، سأخفيه، سُيُقتل مثل أخيه، وسأبقى وحيدة في هذا العالم، أيُّ شيطان يسكنك؟.

هذا ما ألقت به في وجه ضابط الشرطة، تعس الحظ الذي طرق الباب وهو يرتشف ما تبقى من قهوته الصَّبَاحِيَّة، بعدها نال مقدم نشرة الأخبار نصيبه من شتائمها قبل أقل من ساعة.

نعم، لقد استدعوا «ديغو» للجيش مرّة ثانية، ويبدو أنَّه سيكون في سلاح المدرعات، أو سيشارك لوازه في القتال إلى جانب اللواء 401.

الشَّيء الذي جعل عواصف غضبها تنطلق مدمرة كلَّ آنية في المترَّل، في حالة عصبية لم أرها فيها من قبل.

من الجيد أنَّها لم تكن في متزلاً ساعة علمها بالموضوع.

واستمرَّت في الصَّرَاخ والوعيل، وأنا مشقق عليها من هول ما هي فيه، حتى أنَّ إحدى جاراتها اعتقدت أنَّ أخي قد قُتل فعلاً، فجاءت معزية بلباسها الأسود، وهنا اشتَدَّ تأثيرها، معتبرة فعل الحارة عالمة شؤم، وراحَت تدعُ على «نتيابو»، و«هاليبي»، و«بن غفير»، ثمَّ شرعت في بث مسلسل طويل من اللعنات، أبطاله «بن غوريون»، و«غولدا مائير»، والشرطة، وحرس الحدود، ووزارة الدفاع، و«الكيست»، و«الشَّاباك» و«الموساد»، والمهندس الذي ابتكر «الميركافا»، وحتى رئيس إسرائيل شخصياً، لم ينجو من لسانها الذي فاض سماً.

خطيرة حالتي عظيم الخطر إذا استيقنت ضعفها، ووَجَدَت التوراة أمامها، تذَكَّر ساعتها كلَّ من أخطأ بحقِّها في الماضي، وحتى من في نيتها أنَّه سيخطئ معها في المستقبل.

ثمَّ التفتَّ لي كأنَّها تذَكَّر شيئاً، أو كأنَّي أنا الضابط المسؤول الذي وقع أمر استدعائي:

– لا تنظر إلى هكذا كالآخر، سأخفيه عند الأقارب والمعارف، كل يوم أو يومين عند واحد منهم، حين تقتله «القسام»، لن تأتي زوجة «نتيابو» لتبكي معي، أنا أم... هل أقدم ولدي للموت بيدي من أجل وسام الشجاعة؟، من أجل قطعة أرض مسروقة تسمى إسرائيل؟.

قالتها باندفاع وبجند، وفي منتهى الثقة.

يبدو أن مسألة الإخفاء شيء هين، أو ربما تصورت أن «دييغو» عبارة عن آنية من الأواني، أو هاتف أو حتى كرسي، مما يسهل حمله في كيس، أو إخفاؤه في ثقب مموه في الحائط، وبعد مقتل أخيه في اجتياح «غزة» سنة 2014، أصبح «دييغو»، الرقيب الأسرى في لواء «يفتاح»، وحيد أمّه، الذي تخشى عليه من أشعة شمس الصيف وبرد الشتاء.

حين تجلس وحدها، أسمعها تردد في حسرة، أنها ليست مستعدة لخسارة من حملته رضيعاً بين يديها، واعتنت به كزهرة، ورأته يكبر أمام عينيها، الشّهر تلو الشّهر والسنّة تلو السنّة، إلى أن أصبح يمثل لها النفس والنفيس.

سيقتلونه بالتأكيد هناك في «غزة»، مكان يرتسّم فيه المثلث الأحمر على كل جندي، ثم سيرقونه رتبة واحدة ويحضرونه في صندوق، يغطّيه العلم الذي رفضت حمله في المظاهرات، وسيساومونها مقابل سكوتها مثل العادة، وربما سيقولون أنه قُتل بنيران صديقة، فقد كثر الأصدقاء الذين يطلقون علينا النيران في الآونة الأخيرة. ويشقّ على إفهامها في كلّ مرة أن «دييغو» بجسده الدهني، ليس آنية من الأواني الكريستالية التي تعشق اقتنائها.

حسنا، من المفترض أن يتواجد «دييغو» بعد خمسة عشر يوماً من الآن في مقر «تساريم»، الذي يحميه اللواءان «يفتاح» و«كرمي»، وسيحيثون عنه حين يسجلون غيابه، لهذا فإنّ فرص بقاءه مختفيّا عن الأنظار ستقلّ مع مرور الوقت، والخلّ الوحيد هو خروجه من هنا، لتحلّ المشكلة نهائياً.

حين تقول «حماس» أن لا استعادة للأسرى إلا بإيقاف الحرب؛ فهذا معناه أنّهم ما زالوا أقوياء، وحتى لو دمرنا «رفح» على بكرة أبيها؛ فلن ندمر «حماس»، أو «الجهاد»، أو روح المقاومة عند هذا الشعب.

ما زال أطفالهم يشكّلون أفواجاً لحفظ القرآن، كتابهم المقدس، رغم جوعهم وآلامهم، رغم يتمهم ورغم كلّ ما فعلناه بهم.

هل يعلم حمقي «تل أبيب» أن «كتائب القسام» قد عادت إلى شمال «غزة» ووسطها؟، وإلى كلّ المناطق التي أوهّموا أنفسهم وأوهّموا معهم أنّها قد ظهرت منهم؟.

لقد عادوا مجدداً إلى أراضيهم أيّها المتهوّرون المهووسون بطلبات نسائهم وحسابهم البنكيّ.

في اليوم الذي انتهت فيه إجازتي، الخامس من ماي 2024، قُصّفت قواتنا المحتشدة في مستوطنة «كيرم شالوم» بصواريخ «رجوم»، وقد أتت الهواون، محقّقة إصابات كثيرة، ومنع نشر أيّ شيء عنها، كما حذّرنا من

التصوّر، وطلب الجيش مروحيّات لإخلاء القتلى والجرحى، حتّى أنّ بعض القذائف أصابتنا إصابات مباشرة، كأنّ يداً حفيّة من السماء توجّهها نحوّنا، أصابت إحداها خيمة فقتلّت خمس جنود مباشرة، منهم صديقي «عيدو تيسنا» من لواء «جفعاتي»، وهو ما زال في ريعان شبابه، إذ لم يتجاوز التّاسعة عشرة ربيعاً.

«عيدو» - حين أراه - أتذكّر «دافيد»، يرتدي نظارات طبّية مثله، وله أسلوب حديث مشابه.

لقد تركونا حتّى عمّت الطّمأنينة المكان، ثمّ فجأة صبّوا علينا حامّ غضبهم، قال لي مرّة أنّهم بعيدون عن الخطّر، نفس الكلام الذي كان يقوله أخي، وأنّه يتنقّي في قادتنا ويجب الثقة بهم، لم يكن يعرف المسكين بطراوة عوده أنّه أمّام بيت النّمر، وأنّ هؤلاء الذين يجب الوثوق بهم ثقة عمّياء يخفون خيبة أملّهم؛ فلا أسرى حرّرّوه، ولا هم أمسكوا النّمر.

ما ذنب الجنود الشّباب الذين وثقوا بكم فأرسلتموهم إلى الموت وهم في ربيع أعمارهم؟، ما ذنب الخطّيبة التي كانت تنتظر فارس أحالمها ليأخذها من يدها لمترّل يؤسّسون فيه أسرة، يحضرونها لها اليوم في تابوت، ملفوف بعلم النّجمة السّداسية الذي رفضت خالي حمله في المظاهرات؟.

تذكّروا جيّداً «عيدو»، المهمّ كثيّراً بلياقته خشية أن يصبح بدينا مثل «غابي»، لقد كان شاباً قوياً مفعماً بالطاقة، بل كان في ذاته هو الطّاقة التي تضيء مساحة فارغة لا تحتاج لضوء، وفجأة انطفأ المصباح.

(17)

- لقد وقفت مع الحقّ، تذكّري ذلك، لقد اخترت أخفّ الضّررين، ماذا ستفعلين لو كنتِ مكانِي؟.

هذه هي عبارتها الأخيرة قبل أن تصدق الباب ورائها في غضب لفت إليها الأنظار.

غير أنّ الحقّ الذي تقصده «إنجي» أخت صديقي «دافيد»؛ هو العاطفة التي تركتها تحافظ على علاقتها الروحية، مقابل العقل الذي يدفعها للثورة في وجه زوجها «غارسيا»، وما يرتكبه من أعمال قذرة لا تقبلها الشّريعة اليهوديّة أو القانون.

- هناك قرب مجمع «الشّفاء»، سيجدون مقابر جماعيّة.

- إذن أنتِ تعلمين بالجثث المسروقة من «غزة»؟.

سكتت «إنجي» وصرفت نظرها بعيداً.

- تعرفين، أليس كذلك؟، للمتاجرة بأعصابها؟، لماذا لا تواجهيه؟.

وأمسكتها من ذراعيها تهزاً عنيفاً.

- من؟، زوجي؟، أواحه ضابط «موساد»؟، هنا في إسرائيل؟، هل أنتِ مجنونة سيدة «ليزا»؟.

محاولة تثبيت نظرها في عينيها بعد تحاشي المواجهة؛ نقطة تُحسب لها:

- يجب أن تتفق مع الحقّ ضدّ الباطل، هؤلاء الضّبّاط يستغلّون نفوذهم في أجهزة الدولة كي يقوموا بأشياء غير أخلاقية، لا يقبلها أيّ دين أو منطق.

هذا أبرز ما جرى بينهما في زيارة دامت ساعتين في مكتب الصحيفة في «تلّ أبيب».

- هو من أرسلها ليجسّّن بضبي.

- من تقصدين؟.

- وهل هناك غيره؟، برأغماتيّ لا يردعه شيء.

وكنتُ أول من يعلم بهذه الزيارة.

كتب «دافيد» في مذكّراته أنّه لما زاره زوج اخته «غارسيّا» في قاعدة «شيزافون»؛ ليس لعرض فكرة انضمامه للمكتب؛ وهو الإسم الرّمزي لجهاز «الموساد»، كما صرّح له، بل لشيء لم يقدر على معرفته آنذاك، ولم يستطع استنباطه رغم تفكيره المتواصل، وهو ما لم أستطع بدوري الوصول إليه حتّى كان هذا اللقاء.

بعدما لاحظ «آيزنکوف» تقارباً مبدئياً مع «دافيد» و«بابلو»، في بداية فترة صداقتهما، نقل ذلك لابن خالته «نيتاي»، الذي أراد استغلال سذاجة «دافيد»، وتوريطه في عمليات صغيرة مدفوعة، لم يكن يدرّي أنّ هذا الذي سيتخرّج ضابطاً من «شيزافون» هو الأخ غير الشّقيق لزوجة شريكه، وهو ما اعترضت عليه «إنجي»، حين علمت بطريقتها الخاصة، بل وذهبت حتّى لتهديد زوجها بفضحه أمام الرّأي العام الإسرائيلي، وأنّها ستدمّر كلّ شيء على رؤوس الجميع، إذا فكّر ولو لبرهة واحدة في توريط أخيها في صفقاته غير الشرعية. كأنّها عقدت صفقة راجحة، هكذا تكّيأ لها، في حين كان «غارسيّا» أمام خيارين، إما استغلال «بابلو» وتحبّب مشاكل زوجيّة قد تؤديّ به إلى الطّلاق، أو استغلال «دافيد» وتحمّل عواقب ذلك، بما فيه تدمير مساره المهنيّ بشكل غير مباشر.

غير أنّ الرياح جرت بما لا تشتهي السفن، عندما ورّط «بابلو» صديقه «دافيد» دون قصد منه، وراحت الأحداث تتّوالى وتخرج عن السيطرة، في تعقيّدات والتّباس وتصعيّد مأساويّ، كلّما تشعبت.

(18)

«رُفَح»، السّابع من مאי 2024.

تجمّعنا أمام دبّاباتنا نتلّو الدّعاء:

– يا ربّ أنقذنا، يا ربّ انصرنا، الشّعب الأبدّي سينتصر.

ثمّ نفح أحدهم في البوّق، وصرخنا جميعاً ملءً أفواهنا:

– لندمر «رُفَح».

كنت معهم ولست منهم، أصاري سؤالاً طالما جثا على فكري، هل سيستجيب الربّ لنا ونحن الذين اغتصبنا هذه الأرض من أصحابها؟.

شل التّقدّم محوران؛ نحو مطار «غّرّة» المغلق باتّجاه منطقة «الشّوّكة»، حيث بدأت مجموعة مؤلّفة من ثلاثين جندياً التّوغل متّريّين، خوفاً من وجود كمائين، ترافقهم ثلاثون دبابة، وبعض الطّائرات المسيرة، مع قصف الطّائرات الحرّية، ترافقنا مع تحييد المناطق التي تقع أمامنا بقصفها من السّفن.

ونحو معبر «رُفَح» بالّتوازي، حيث كانت أربع دبّابات تسير عبر محور «فيلاطفيا»، التي تّمّت السيطرة عليه في سرعة غريبة، ورفع علم النّجمة السّاداسية هناك على الجانب الفلسطينيّ.

أما المحور الأول، فقد شهد قتالاً شرساً، خسرنا فيه الكثير من الجنود والدبّابات، محور كانت «كتائب شهداء الأقصى» التابع لحركة «فتح» تنتظرنا على أحرّ من الجمر، وبالضبط في منطقة «الشّوّكة»، حيث تمّ تفجير دبابة «ميركافا»، وتولّت الرّشاشات أمر المشاة، مما تّمّ بدفع ثلاثين دبابة نحو معبر «رُفَح»، للإنقضاض على المحور الأول من زاوية أخرى؛ حيث تمركز لواء «ناحال» واللواء المدرّع 401، لتأمينه، وعزله عن العالم كُلّياً؛ في العاشر من مאי 2024.

منطقة التّقدّم في المحور الأول لا تتجاوز خمسة كيلومترات، وهي مناطق مفتوحة لا يمكن أن تُنفي أنفسنا فيها بإنجاز حقيقيّ.

لقد أعطونا قذائف محّمة دوليّاً، وأمرؤنا بالتكلّم التامّ؛ قذائف قشمّ العظم وحرق اللّحم، بل وتحرّج الأحشاء والدماغ عند الإصابة.

في تلك اللّيلة هاتفتي خالي والفرح باد في صوتها الحادّ الجميل:

– لقد وافقت «حماس» على الصّفقة البارحة، حاولت الإتصال بك أكثر من عشر مرات ولم أستطع، الكراة الآن عند «نتنياهو».

كانت ت يريد أن تفاجئ أمي عند استفاقتها من غيبوبتها التي دامت أياماً، ووجدت نفسي أستبشر فرحاً، كما استبشر رفقائي هنا، ثم تذكّرت لثيم «تلّ أبيب» وخيشه، وسرعان ما تسلّل إلى الإبطاط الذي حاولت أن أخفّيه من نيرة صوتي، سيرأوغ وسيجهض كلّ شيء، كعادته، من المؤكّد الآن أنه يعتقد أنّ «القسام» منهارة ومحبطة، وأنّ هذه فرصة ذهبية لمواصلة الضّغط عليها وتمزيقها شرّ تزييق، ونسى أو تناسي شبح أربع كتائب تنتظّرنا هنا، جاهزة كلّ الجاهزية للقتال، في مدينة من الأنفاق بجهلها، مثلما بجهل كوكب «الزهرة».

واستمرّ في المراوغة كما توقّعت، واستمرّت المظاهرات الغاضبة أكثر من أيّ وقت سابق في «القدس» و«تلّ أبيب»، التي أغلق فيها المتظاهرون شارع «أيالول»، وأشعلوا النّيران في الطريق مهدّدين بالتصعيد، إذا لم يوافق فوراً.

كانت خالي معهم، حاملة صورة أخي الذي لا أخبار عنه إلى الآن.

بينما كانت أمي المسكينة تمنّي نفسها بفيديو من «كتائب القسام» عنه يطمئنها، قبل أن تنهار، على الأقلّ تراه أمامها حياً يرزق، ثم تأثيرها المواجه ليلًا، فتوقظني لتسألي عن نسبة احتمال نجاته من قصف جوي، فأجّيّها بأنّ كلّ شيء على ما يرام الآن، وإذا حدث خطب ما؛ فسيصرّح مقاتلو «القسام» بذلك.

– هل أنت متأكّد أنّهم سيفعلون؟

– وحقّ توراة «موشيه»؛ إنّي لا أثق فيهم أكثر من ثقتي في قيادتنا العسكريّة.

فتذهب لفراشها متفائلة.

متشائمة خالي هذه المرة، هاتفتي وهي تردد غاضبة، أنّ هناك صدمة في الشّارع الإسرائيليّ، بسبب إلغاء «حماس» الصّفقة، لتعنّت الحكومة والجيش، واستمرار المحروم على «رفح» في جنوب القطاع.

لم أتفاجأ، ولم المفاجأة؟.

لقد كان هذا منتظراً من البداية، خاصة وأنا أرى بأمّ عيني الثّمن الذي ما زلنا ندفعه للسيطرة على أرض ليست لنا، لقد تحولت الهمسات والوشوّشات إلى أحاديث صريحة علنية بين الجنود:

– سئمنا الحرب، دعونا نرجع لمنازلنا، نحن نقاتل أشباحاً لا يمكن هزيمتهم.

بينما ردّ عليه الآخر:

- مفاوضة الأشباح أفضل من قتالهم، لماذا هذه الحرب أصلًا؟

خاصةً بعد عودة الجنود إلى «جباليا» في شمال القطاع، في مسلسل لم تنتهي حلقاته ولن تنتهي.

لقد أرانا هنا أحد الضباط فيديو لم أشاهد مثله مطلقاً، يُظهر خروج المقاتلين من نفق أمام رتل دبابات شرق «رفح»، كان أحد الجنود يسير أمام الدبابة غير متتبه للخطر المحدق به، حين تسلل المقاتل في خفة القط ملصقاً عبوا «شواظ» في الدبابة الأولى، وملصقاً الثانية في الثانية، بعد ظهور مثنين أحمرین عليهما، ثم ظهر مقاتل آخر يستعد لإطلاق قذيفة «ياسين»، تجاه دبابة ثالثة علم فوقها بمثلث أحمر.

إنفجر كل شيء في لحظات، في سرعة تصعب عليك استيعاب ما يحدث، ثم سمعنا تكبيرات شكر، تسلل رعب خفي لأفتتنا من خالها، وعادوا جميعاً سالين مثلما جاؤوا، كان شيئاً لم يكن، لتجتمع طائرات الملاكمات البرحى وأشلاء القتلى.

كان في قدرة «القسام» إسقاط الطائرات التي حضرت للإنقاذ، ليكتمل المشهد، وتتعزز الفضيحة.

حدثت العملية يوم الرابع عشر من شهر ماي 2024، أي قبل يوم واحد من عيد الإستقلال، شاهدنا جميعاً الفيديو، وهذه المرة أمام أعين بقية الضباط وأعين «أمان».

- حربنا عبّية، و«السّنوار» يدير الحرب من الأنفاق، أفضل بكثير من أي جنرال لدينا.

قالها أحد الضباط في حزم وانصرف، بينما سمعت أحدهم يقول في الخلف:

- إنه الجنرال «يحيى السنوار»، عدوّي اللّهود، لكنّي أكنّ له احتراماً أكثر من فيلسوفنا الغيّ «هاليفي»، وجه الكوسا، التّلميذ الذي يجب أن يُضرب على مؤخرته دائمًا، وبقسوة دون رحمة، كي لا ينسى الدرس.

ثم قال أحد الضباط من «أمان» الذي يبدو أنه ينس من الحرب، لكنه يحافظ على راتبه:

- كلّ شيء هنا يؤكد أنّنا باقون في القطاع، إنطلاقاً من القواعد الأربع الكبيرة التي تُشيد في «تساريم»، والمبنية العائم الأميركيكي يجسّد مشروعنا الطّموح، يجب تأمين «غزة»، قبل حفر قناة «البحر الأحمر» الموازية لقناة «السويس».

غير أنّ أحد الجنود الأفارقة قاطعه بحماسة كأنّه كان يتّظّر هذه الفرصة ليعلن ولاءه لسيده:

- ليس سراً هذا الذي تقوله سيدّي، لقد كشفت صحيفة «جيروزاليم بوست» عن خطة مستقبلية، مساعدات إنسانية، ثم إعمار شامل ثم حكم ذاتيّ، حيث نكتفي بالسيطرة الخارجية على القطاع، وترك الدّاخل للفلسطينيين، بعد القضاء على كلّ أشكال المقاومة المسلّحة، وخاصةً «حماس» وذراعها العسكريّ، ثم إطلاق مشاريع بناء وتعهّير، ومناقصات دولية بعشرات الملايين الدولارات، وفتح فرص عمل ضخمة، لإشغالهم بالتحول الاقتصادي النّامي، كي لا يفكّر أحد في حمل السلاح، لتأتي المرحلة الأخيرة، تعزيز مشاريع إقليمية ضخمة، تمتّدّ لدول الجوار، لإشراكهم في مصلحة واحدة، ويجب أن يكون كلّ ذلك مترافقاً مع غسيل دماغ كلّ الأهالي، بأنّ اليهود هم أصحاب الأرض الحقيقيّين الذين يجب أن يبقوا ليعمّ الرّحاء.

نظر إليه الضابط غير مصدق أنّ هذا الأسود الصغير الذي أمامه لديه كلّ هذه المعلومات، حاثاً الحضور على قتل كلّ حيّ يتحرّك، كي يتركوا الأرض مقهورين:

– تذكّروا أيّها الأشواوس أنّ الإبادة الجماعية هي أنساب وسيلة تُستعمل لقذف الرّعب في النّفوس.

هنا، قفرت إلى ذهني صورة «مدوح مرتّجى»، بنظّاراته الطّيّة التي زادته هيبة وجلالاً، الأربعينيّ ذو اللّحية الخفيفه والشّارب، الذي أعاد ترميم منزله في «الشّجاعيّة»، ليكون جاهزاً للسكن حين ترجع إليه عائلته، في صبر «أيوب» وإصرار «موشيه» الأسطوريّ، وبعد كلّ ما فعلناه بيته وأرضه وحّيّه؛ ما زالت شعلة الأمل موقدة فيه.

مرآة تعكس نماذج آلاف الفلسطينيين والفلسطينيات، الذين أبوا الخضوع لنا منذ عام 1948، لأنّا لا نعدو أن نكون عابري سبيل.

(19)

إذا رأيت فتاة في العشرين من عمرها، طويلة القامة، رشيقه القوام، يعلو وجهها الأبيض الطويل نمش كثيف، وفوقه عينان حضراوتان، وشعر كستنائي فاتح يتجاوز الكتفين بقليل، فأنت دون شك أمام «ريانا هيز كياهو»، المساعدة المقاتلة التي دخلت معنا إلى «رفع»، مع اللواء المدرع 401.

أمنيتها وأمنية والدتها أن تكون طبيبة بمئر أبيض، وسماعة تتدلى على الصدر الممتليء، ولأنها أصبحت تشعر بالنقض أمام الآخرين؛ تحاول بكل حيلة الظهور بمظهر فتاة رفيعة الشأن من الطبقة المحمليّة، كونها من أسرة فقيرة هاجرت من «أوروپا» الشرقية، في الأربعينيات من القرن الماضي، بعدما عانت عائلتها كثيراً في معسكر «أوشفيتز»، إبان الحرب العالمية الثانية.

وعبر سنوات طفولتها؛ كانت آلام الماضي المترسب من حكايا جدّها خبزها اليوميّ، فلا غرو اليوم أن أكل الحقد قلبها أكلاً، ونمّت فيه مشاعر الشّناعة نحو الطحالب والفطريّات.

- أحب أن أرى أطفالهم جوعى يركضون بأواني فارغة يتسلّلون الطعام، سيحل الصيف قريباً، وسندرّ آبار الماء، ومحطّات الضخ، سينفذ مخزونهم بعد أشهر، وستكون مجاعة لم يعرفوها من قبل، مجاعة سيتحدّث عنها العالم بأسره، سيعرفون جيداً ما معنى «سيوفنا الحديديّة».

هذا ما قالته لي وهي تجهّز حقيقة الإسعاف، أمام إحدى الدّبابات المعلّلة، إستعداداً لمرافقه القوات التي كانت تنتظر الأوامر بالدخول للقطاع، من أجل عملية مراقبة روتينية، ثم تردد على مسامع الجنود عبارتها الشهيرة «القسام» في مرحلة موت إكلينيكي، ونسسحّهم جميعاً كما نسحّ النمل تحت أرجلنا، وسنقتصر أية منطقة ترفع حماس فيها رأسها، مهما كلفنا الأمر من تضحيات، وستتابع قادّكم، وجميع من تسول له نفسه ضربنا».

حتى أنها في الثامن من ماي 2024، إحتفلت مع صديقها بمقتل «أحمد علي»، قائد القوة البحريّة في «كتائب القسام» في مدينة «غزة»، في عملية مشتركة بين الجيش و«الشّاباك»، معتبرة ذلك إنّجازاً عظيماً لا يفوقه إنّجاز، في انتظار عيدها القادم كما تظلّ تكرّر، حين تخلّص من «محمد الضيّف» و«السنوار» و«اسماعيل هنّيّة».

– ألا تشعرين الآن كأنك سوف تعبرين إلى الجانب المظلم من القمر؟

أغلقت علبة الإسعاف وهمت بالذهب، بعد أن أشارت لها إحدى المجنّدات من بعيد وهي تطمئنني:

– هناك جواسيس نستغلّهم في نقل أخبار العدو إلينا، قاذورات من البشر التي تخون أقرب المقربين إليها من أجل المال والمنصب، ثم ليذهبوا للجحيم؛ هم ليسوا يهودا على أية حال، فلماذا نهتمّ لمصيرهم؟.

– أليس من الواجب أن نحمي من يكون إلى جانبنا؟، هذا هو العرف المتّبع في كلّ جيوش العالم.

عادت بخطوات سريعة، فائلة بنبرة واعظ لا تخلو من تحذير:

– لا تفكّر بهذه الطّريقة، الخائن خائن ولو أندرك بوقوع زلزال.

آه يا «ريتانا»، آه يا أحني الصّغيرة التي تعيش بين النّجوم، السّاذجة ككلّ السّذج وبيادق إسرائيل، كم أشدق عليك يا مسكينة.

لو تعلمين أنّ «القسام» ما زالت كما كانت في أوجّ قوّتها، مثلما كانت في بداية الحرب، رغم خسائرهم البشرية.

لو تعلمين أنّ «بئر سبع» قُصفت البارحة فقط، العاشر من ماي، بصورايخ «سجّيل»، وأنّ مستشفى «سوروكا»، الذي ترقد فيه أمي الآن فاقدة الوعي؛ أصبح مبكى للأرامل والشّكالى والأيتام، حتّى أنّهم نقلوا إليه جرحى «كيرم شالوم»، الذين كانوا مع صديقي «عيدو».

من المؤلم أن ترى الصّواريخ التي فتكت بأصدقائك وصديقاتك تجهّز للإطلاق أمام عينيك، في فيديو يوثق جيداً ما حُضُر وبحضُر لنا في الخفاء.

تذكّري أحلامك بوالد «دافيد»، الذي فقد رجليه إثر إصابته في العمود الفقري، ثم تخلّي الجميع عنه، ليعود خائباً إلى «المغرب»، يهجر أذيال النّكسة، بعدما فقد كلّ شيء من أجل لا شيء.

هل ما زلت تصدّقين أننا قضينا على عشرين كتيبة من أصل أربع وعشرين؟.

هل ما زلت تتقين في «نتيابو» وزمرته الحاكمة بعد كلّ ما كُشف حوله؟.

كذبتنا التي صدّقناها أطفالاً، وتعلّقنا بها شباباً وياافعين، ما عادت صالحة اليوم للتصديق، دولتنا الآن تختضر ببطء، مثل عجوز في خريف عمرها، ستقايس الأمرين إلى أن تموت، فهل ستسعفيناها؟.

ألم تقولي ذات يوم أنّ الإسعاف خطوة استراتيجية لإنقاذ حياة أيّ شخص مهما كان؟.

وفي نفس الوقت تقولين أنه يجب ترك الفلسطينيين مرضى وجوعى كي يدرّكوا قيمة ما نعطيه لهم، وإتلاف المساعدات الغذائية الدّاخلة من المعابر، شيء طبيعي في نظركِ ومنطقي إلى حدّ كبير.

من الأجرد بالإسعاف يا «ريتانا»؟، الميت أم الجريح؟.

(20)

كُلّما تّصل بي حالتي؛ تشتكى من تدهور الوضع الاقتصاديّ، مقابل شره ابها ودلاله، الذي ما زال يعتقد أَنّا نعيش في العصر الذهبيّ للدولة، فابتداء من التّاسع من ماي 2024؛ زادت أسعار الدّجاج بعشرين بالمائة، والتهبت أسعار اللّحوم خمسون بالمائة، وفي سنة 2025 القادمة ستزيد الضّرائب، بسبب ضعف الموازنة، نتيجة عجز مقدر بثلاثين مليار شيكّل، وحكومة الطّاهرة تعيش على كوكب «المريخ»، حتّى أنّ الجيش يوسع قاعدة «أوريّم» الإستخباراتية في «أوفاكيم»، مدينة صديقي «دافيد».

كُلّ ذلك ليس له سوى دلالة واحدة، سيزداد الفقر، ستنهار الطّبقة المتوسطة التي تشكّل عmad المجتمع.

من غير المقبول أن توجّه أموالنا كلهـا للجيش، ونـحن نحرق في نار غلاء متأجّحة ذات منحـى تصاعديّ.

أيّ دولة هذه التي تبني أسواراً عالـية وأبراجاً مزروعة في الشّمال والجنوب للحماية الخارجيّة؛ وحمايتها الدّاخليّة تـناـكل كما يـأكل الصـدـأـ الحـديـدـ؟.

لقد أوقفت «تركـيا» جميع صادرـتها نحو إسرـائيلـ، إبـداءـ منـ الثانيـ منـ ماـيـ المنـصرـمـ، ليـزيدـ اـرـتـباـكـناـ وـمعـانـاتـناـ عـمـاـ كـانـتـ عـلـيـهـ، حتـىـ أـنـ خـالـتـيـ الـآنـ لمـ يـعـدـ يـهـمـهـاـ تـنظـيمـ اـنـتـخـابـاتـ مـبـكـرـةـ، رـغـمـ أـنـهـاـ كـانـتـ منـ المـنـادـينـ بـهـاـ، وـالـمـتـحـمـسـينـ بـهـاـ، لـطـرـدـ «نتـياـهوـ» شـرـ طـرـدــ، ماـ دـامـ الغـرـغـرـيـنـ تـنـهـشـ كـلـ مـفـصـلـ فيـ هـذـاـ الـكـيـانـ.

كـنـتـ معـهـمـ وـلـمـ أـكـنـ معـهـمـ.

كانـواـ مجـتمـعـينـ أـمـامـ التـلـفـزـيـونـ يـسـمـعـونـ لـخـطـابـ الـدـمـيـةـ، وـجـهـ النـعـامـةـ الـبـارـدـ، «يـتـسـحـاقـ هـرـتـسـوـغـ»ـ، الـذـيـ أـلـقـاهـ فيـ مـقـرـ إـقـامـتـهـ فيـ «الـقـدـسـ»ـ، أـمـامـ أـكـثـرـ مـنـ مـائـةـ وـعـشـرـ بـنـيـنـ مـتـمـيـزـاـ مـنـ الـجـنـودـ وـالـضـبـاطـ مـنـ الـجـنـسـيـنـ، بـمـنـاسـبـةـ مـرـورـ سـتـ وـسـبـعينـ سـنـةـ عـلـيـ تـأـسـيـسـ الـدـوـلـةـ، مـبـاـشـرـةـ بـعـدـ نـهاـيـةـ الـإـنـدـابـ الـبـرـيـطـاـنـيـ عـلـىـ «ـفـلـسـطـيـنـ»ـ، فـيـ الـرـابـعـ عـشـرـ مـنـ ماـيـ عـامـ 1948ـ.

مـجـرـدـ دـمـيـةـ مـنـ دـمـيـ الغـرـاغـوزـ، يـحـرـ كـوـنـهـاـ بـخـيـوطـ مـنـ أـعـلـىـ؛ هـذـاـ هـوـ بـاختـصـارـ رـئـيـسـنـاـ الـعـظـيـمـ؛ حتـىـ أـنـ هـنـاـ فـيـ الجـيـشـ أـنـسـيـ أـنـ لـدـيـنـاـ رـئـيـسـاـ، بلـ كـدـتـ أـنـفـجـرـ ضـاحـكـاـ حـينـ صـرـحـ بـقـولـهـ:

ـ لـنـ نـسـمـحـ لـأـحـدـ أـنـ يـهـزـ مـنـاـ.

هل تعرف الدّمية أَنّا هُزِمنا منذ الأشهر الأولى من هذه الحرب؟، أم ما زال الخيط المسؤول عن الرأس لم يحرّك؟.

قبل سنوات؛ كنت أنتظر عيد الإستقلال بفارغ صبر، كي أفرح بما أقنعوانا أَنّه لنا، كان علم النّجمة السّداسية يمثل مدلولاً رمزيّاً عظيماً لي، ويعث في نفسي نشوة انتصار عمرها في عمر أمي التي شاركت في حرب 67، ضدّ «مصر» و«سوريا» و«الأردن»، لكن الآن أصبح كلّ لون أزرق أراه أمامي يثير الشّفرازى ونفورى، عميقاً عميقاً آبار البترول، لأنّه يذكّرى بمن قتلناهم لأجل أرضهم، خاصةً بعد أن حكت لي أمي كلّ شيء قبل أن تتدّهور صحتها، وتذهب لترقد على سرير لعين في العناية المركّزة، لا أعرف متى وإلى أين ستخلّيه.

في الخامس عشر من ماي عام 1948، كانت أمي في عمر ثلاث سنوات، تربّت ونشأت وراحت الفترة الحساسة من تاريخ إسرائيل، وطالما افتخّرت بكونها من القوات التي وسّعت حدود الدولة، مرتكبة أعمالاً وحشية ضدّ السّكّان الحائفيين المرعوبين من مجازر الليل ومذاجها.

لأحد في العالم كان يهتمّ آنذاك، كان الجميع يحاول ترتيب أوراقه، بعد الخروج من حرب عالمية مدمرة أكلت الأخضر واليابس.

في تلك الفترة؛ كلّما كنت مندفعاً للدرجة التّعصب الأعمى ترداد الثّقة فيك، وأصبحت جزءاً من الجهود الصّهيونية التي تعبد الطريق وتمهدّ لإقامة الدولة، وتملّكني قشعريرة المكان الجديد، ونحن نستمع لثلاثنا رفقة خالي التي ارتبطت سيرتها بوحشية أيّها، المشارك في تدمير قرية «الطنطورة».

كانت الوضعية العامة والمناخ السائد في تلك الفترة مختلفاً عما هو عليه الآن، كان الجميع يحاولون الخروج من الإحباط الذي أصابهم من التّزعّة النازية، لقد قتل «هتلر» أحبابهم في معسكرات الإعتقال التي أصبحت مضرب المثل في الهمجيّة والتّوحش، كان الكلّ راغبين في إقامة دولة يشعرون فيها بالأمان، يستطيعون النّوم ليلاً دون أن يفكّروا في الجنود الذين سيقتّلهم يوماً للتفتيش، واستغلّت الوكالة اليهودية الموقف جيداً، بعذر الذّئب ومكر التّعلّب وقدارة الخنزير، لتهرب آلاف العائلات النازفة الممزقة، بعدما أغرّتهم أنّ أرض اللّبن والعلل التي وعد بها ربّ «يعقوب»؛ تقع هناك حول «القدس»، المدينة التي تسمى «أورشليم» في توراتنا، وفيها يجب إعادة بناء هيكل النبي «شلomo».

كنت كثيراً ما أغفو على ركبة خالي وأنا أستمع لقصص أمي التي لا تنتهي:

– أنا ابنة «غولدا مائير»، أنا ابنة من ما زالت إسرائيل تدين لها بالوجود.

هذا ما ترددّه حين تستحوذ عليها مشاعر العزة الائمة والكربلاء الكاذب.

بل تحفظ سيرتها الذاتية عن ظهر قلب، للتي تصفها بالأيقونة القومية الأوكرانية المولد، المكروهه حتى من أقرب المقربين لها، والأسطورة الصّهيونية، لأنّها استطاعت جمع خمسين مليون دولار لعصابات «الهاaganah»، قبل إعلان الدولة في عام 1948، ثمّ خمس وسبعين مليون دولار قبل نهاية سنة 1949؛ متطرفة من العيار الثقيل، بدأ

العالم يعرفها ابتداء من سنة 1956، لما غيّرت لقبها من «مايرسون» إلى «ماير»، طبقاً للقانون الذي وضع آنذاك، باعتماد أسماء عبرية لجميع قادة إسرائيل.

تاریخ أمی هو حاضر «ریتنا» الآن.

كم أرجو من الرب أن يشفی لي أمي وتعود للمترّل بكامل عافيّتها، وأفرّحها بعوده علاقي مع «دینا»، لا سيما وأنّ أمنيتها منذ زمن أن أتزوج منها، ونؤسّس أسرة سعيدة، غير أن التحوّلات الحالية تفرض علينا طرح الموضوع بشكل مغاير، وأن نجري مقاربة جديدة، لم نكن نتخيلها أصلا.

(21)

لأننا كنا مختلفين آيديولوجياً؛ رفضت «دينا» استمرار علاقتي بها، شخصيتها القوية الرافضة للصهيونية كانت السبب في حدوث نقاشات حادة بيننا، ثم صدامات، ثم شجارات، وانتهى الأمر بفارق عنيف في إحدى المطاعم.

- ليس عيباً أن أكون يهوديّة، ولكن كل العيب أن أكون صهيونية.

هذه هي جملتها التي فجرت الموقف بيننا، واعتبرتها أنا إهانة كبيرة لي، ثم واصلت كلامها بنبرة مستفرزة:

- لن أسمح أن يتحدث صهيونيّ قدر باسم اليهود؛ فاليهودية أسمى من الصهيونية، منذ القدم ونحن نعيش مع المسلمين دون مشاكل، حتى بدأت أفكار هذه التزعّة تنتشر.

ثم تحرّأت وثبتت عينها في عيني تحديّاً:

- أنت تعلم من روج لها قديماً، وما زال يروج لها الآن بغباء القرد، إسمع، لا تكن سخيفاً، من يبحث عن المجد بتحريف المعتقدات وللّيّها كي يصل لأهدافه؛ فسيدركه الذلّ مهما طال الزّمن.

لم أتمالك نفسي فصفعتها أمام الناس في المطعم، تضايقـت من طريقة كلامها، ونبرة صوتها المتهكّمة، واتهاماتها المستترة لي.

والآن يجب على أحدنا أن يحرّك الأعمق الرّاكدة منذ سنوات، وعلى ما يدُو؛ فإنّ الأعمق ستحرّك أكثر مّا هو متّظر منها.

(22)

ووجده أمامي ينتظر الجنود العائدين من خلف السيّاج، ما إن نزلت من مدرّعة «النمر»، حتّى أخذني بلطف من ذراعي، ودسّ في يدي ورقة وهو ينظر إلى نظرة اخطلت فيها الحزن بالألم بالشفقة، نظرة قالت كلّ شيء، وأوضحت كلّ شيء، وعبرت عن كلّ شيء، ووجدت نفسي أقاوم دموعي التي فاضت على وجهي الملوّن المغبرّ.

لقد فهمت ما عجز عن قوله لي مكتفياً بالتربيت على كتفي، وعجزت أنا عن تقبّله، فلم تسعفي رجالي لأحتفظ بقامتي المنتصبة.

وچنوت على ركبتي وأمامي سلاحي من فرط ما نالني من ألم، ثمّ استعدت توازني مستوعباً ما يدور حولي، ووجدت نفسي أركض بكلّ قواي بدموع يتقدّفها النّسيم، لأراها لآخر مرّة قبل أن توارى التّراب، ركضت بلباسي العسكريّ لأقرب طريق، وأوقفت سيّارة كانت مارة ملقّياً بنفسي على سائقها الذي وجل من طريقة استيقافه:

– إلى مستشفى «سوروكا»، فوراً وسأضاعف أجرتك.

كانت رائحة تراب «غزة» المتبعة من بزّتي تتسلّل إلى كلّ زاوية في السيّارة، كأنّها تذكّري بذنب مقترف منذ أعوام، ولم يثر ذلك السّائق إطلاقاً، فقد كان يقود متّحاوزاً التّسعين كيلومتراً في السّاعة، محاولاً الإفلات من زحمة السيّارات، شاقّاً طريقه نحو الوجهة التي حدّدّها له، متأفّفاً من كاميرات المراقبة، وكانت بجانبه أداري عبراتي، محاولاً إشغال تفكيري بأيّ شيء يبعدني عن مأساتي، حتّى أنه نبهني إلى هاتفي الذي كان يرنّ دون توقّف.

– أين أنت؟، لقد تركت لك خبراً عند الضّابط حين لم أستطع الإتصال بك، نحن في متّلكم في «الشفعاه»، تعال أرجوك.

لقد ماتت أمّي منذ أيام، وتمّ دفنتها دون أن أقبل التّراب الذي يحتضنها إلى يوم القيمة، وتحتمع العائلة الآن لمدة أسبوع في بيت العزاء، وهذا ما يسمّى في اليهوديّة «شفعاه».

من هول ما فهمته من الضّابط، إختلطت عليّ كلّ الأشياء، فلم أعد أعي ما أفعل، خاصة أمام الإرهاق
الذي عشته في «غزة»:

– أنا في الطريق إليّكم، سأّتي على الفور.

نظر إلى السائق مستفهما عن الوجهة الجديدة، فأشرت إليه أن يأخذ إحدى الطرق الجانبيّة، ليوصلني
للبيت، وأنا أهتزّ رأسي أطمئنه على بقاء الأجرا المضاعفة دون تغيير.

ما إن وجلت الباب حتّى صافحني أحد الجيران معرباً، وتبعد آخر بوجه يتظاهر بالحزن، كان الجميع
جالسين في صمت، بينما كانت أصوات البكاء والنحيب تبعت من غرفة النساء، ونظرت نحو باب الغرفة لأرى
حالتي حالسة تبكي، ثم التقت عينانا، فنهضت من مكانها وأقبلت عليّ تعانقني، ثم زاد صوت بكائها ليغطي على
أصوات الآخريات:

– ستصل «دينا» غداً بعد الظّهر.

لم أكن أتوقع أنّي سأراها بعد كلّ هذه السنّوات، وبعد كلّ ما سبّبته لها من ألم نفسيّ في حادثة المطعم،
بأيّ وجه سافل سأقابلها الآن، وأنا المغرور الذي انساق بغباء القرد نحو موز الأوهام؟.

نمت في تلك الليلة في فراش أميّ، نمت ورأسي على وسادتها، وسط رائحتها التي كانت تغمر المكان.
لا أعرف إن كانت حالتي تشمّ رائحتها أيضاً، أم أنا وحدي من يتهميّ له أنّ شذها منتشر في كلّ أرجاء
المتل؟.

مسكينة أميّ قتلتها الحسّرة على أخي الأسير الذي كنّا نأمل أن يُطلق سراحه، فتراء أمامها حين تفيق من
غيوبتها، وماتت قبل أن ترى أولادنا يتشاركون حولها.

هل سيغفر لها ربّ كلّ ما فعلته في حياتها؟.

كان هذا هو السؤال الذي يجلبني طوال ساعات الأرق التي مرّت عليّ وأنا في فراشها، أتذكّر ما اقترفته
يداها في حقّ الفلسطينيين، هل يمكن أن تكون مرتاحه الآن في قبرها؟، وما هو المنتظر مني لأرجيّها؟.

أسئلة لا يمكن لأحد أن يجيبني عليها سوى الحانام.

في الصّباح إنّفقت مع «دييغو» على المروب من الجيش، محاولاً مناقشة الموضوع معه بعقلانية، بعيداً عن
عواطف أمّه، التي تزيد إخفائه في الخزانة.

صغر مساحة إسرائيل، واعتماد الدولة على قواعد البيانات العامة في كلّ شيء سيصعب الأمر، نحن الآن
في سنة 2024 ولسنا في الثمانينيات، كما أنّ فكرة حالتي في إخفائه عن الأعين عند الأقارب؛ فكرة غير واقعية
البّة، أملتها عليها غريزتها الأموميّة، والمغادرة من المطار أو من الميناء صعب جدّاً، بل يستحيل في مثل هذه
الظروف الإستثنائيّة، إلا إذا...

– سألقي بنفسي أمام سيارة مسرعة، ششش، إنه سرّ بيبي وبينك، لا تخبر ماما.

قالها محذّراً وهو يهّم بالتهم شطيرة عملاقة، وضع داخلها بطاطاً وبيضاً مقلّين مع بعض المايونيز والخردل، كان جالساً إلى طاولة متوسّطة في غرفة المعيشة، لا يبدو عليه القلق أو التوتّر، كأنّه حزم أمره.

– سُتُقتل أيّها الصّيّ، «ماما».

قلتها متّهّكما من استهتاره بالمسألة مثل طفل صغير يجهل خطر السيارات.

– ماذا أفعل؟، أكره الجيش، إنّه يقيّدون حرّيّتي الشخصيّة، على الأقلّ سأخرج بإصابات بسيطة تمنعهم من تخيّلني، إجلس، كلّ معنّي.

ومرّ لي شطيرة هامبورغر لم تعجبه، كان قد طلبها البارحة من أحد المطاعم عبر خدمة التّوصيل.

– ستخرج من الدّنيا عوض ذلك، «إصابات بسيطة».

وانصرفت للشارع مباشرةً كي أبدّ عصبيّي.

خرجت حتّى لا أصفع هذا المدلّل عقل العصفوري، الذي ما زال رغم اسوداد شاربه يقول «ماما»، لا دراسة، لا عمل، لا تكوين، لا مستقبل، لا أسرة، وما زال ينتظر من أمّه أن تخدمه بشكل كامل، غير أنّه أوّحى لي بفكرة جيّدة، ظلّت مسيطرة على ذهني، طوال الوقت الذي استغرقته في المشي، فكرة لو نجحت لبدأت صفحة جديدة، بل خلاصاً وحياة أجود، كالمولود الذي يطرق باب الوجود الحقيقّي قبل الفجر بساعات.

في المساء عدت للمotel بعد مغادرة بعض المعزّين، ورحت أقلب في دفتر وحدته أمامي على الطّاولة؛ تذكّرت الورقة التي أعطانيها الضابط، كانت في جيبي الأيمن هنا في الأعلى عند الصدر، وآخر مرّة رأيتها فيها كانت في «غرة» لما دسّها في يدي، ثمّ وفي خضمّ انشغالِي نسيتها تماماً، والآن لا أعرف مكان وضعها، ولا أعرف ماذا يوجد بها، لكن وجدت رقم هاتف آخر في الجيب الثاني، أعطته لي «باولا»، للإتصال بها عندما تكون في الجيش، فقدرّت أنّه رقم غير مصرّح به، تفاديًّا لكلّ تصّنت.

(23)

جلست على الأريكة، وأدخلت الرقم في هاتفي في تروّ واتّصلت، ردّ عليّ صوت امرأة دون تأخير:

- نعم.

- مساء الخير، آسف على إزعاجك، لقد قدمت لي «باولا» هذا الرقم لأنّتّصل بها عند الضرورة، هل أنتِ رفيقتها في الجيش؟.

- آه أنت...

وذكرت إسمي كاملاً فتفائلت:

- هل نلتقي؟، لدىّ ما أحكيه لك.

- حسنا، الآن؟، أين أجده؟.

- أنا في «القدس»، لا أستطيع مغادرة المدينة.

- لماذا؟.

- حين ستأتي سترى كلّ شيء.

- حسنا، أين المكان تحديداً؟.

- حين تكون هنا اتّصل بي، وسأدعوك لأحد المطاعم.

- غدا، هل يناسبك الموعد؟.

- لا أستطيع، دعه في اليوم الذي يليه.

- حسنا، سأتّصل بك مباشرة الساعة والمكان.

وأغلقت الخطّ بسرعة، تاركة في نفسي انطباعاً يصعب تجاهله.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة كتّبت في «القدس»، جالساً أليّ دعوة غداء فاخرة، لسمراء ذات عينين بنيتين واسعتين وشعر أسود، زينت بشرتها البرونزية خانة صغيرة تتوسّط جبهتها العريضة، قالت أنّ اسمها غير مهمّ، لكن يمكّني أن أناديها «جيروشا»، وهو الإسم الذي اشتهرت به في «الهند».

طلبت طبق «كاري» بلحم الدجاج، في حين اقتصرت هي على قليل من الأرز وشيئاً من الحساء، مع قطعة تونة، حفاظاً على رشاقتها.

هالي مذاق طبقي الحارّ اللاذع، فقلت وأنا أحاول التّظاهر بتحمّلِه:

– أريد أن أفهم ما يحصل؟.

ضحكَت مشيرة لي في حركة سريعة أن أعطيها هاتفي، الذي وضعته مع هاتفها داخل إحدى العلب مشيرة للنّادل أن يأخذها بعيداً وأكملت:

– ماذا يحصل في ماذا؟، هل أطلب لك قليلاً من الحليب تخفّف به المذاق اللاذع؟.

– لا، أنا معتاد على ذلك.

ضحكَت مرةً أخرى كأنّها اكتشفت تلاعبي بالعبارات، وشرعت تأكل وتحمّل، بينما أنا أتظاهر بالتركيز في كلامها بعد تناولي ملاعق قليلة من هذا الذي أقحمت نفسي في طلبه.

– حتّى لا يتجسّس أحد علينا، هذا هو سبب إعطائي الهاتفين للنّادل.

أحسست بحاجبائي يرتفعان من هذه الخطوة الأمنية التي لم أفكّر بها وأنا الضابط في القوّات الخاصة.

تعتبر «جيروشا» صديقة «باولا» الحميمة، لا تخفي إدّاهما شيئاً عن الآخر، لقد أحيرت منذ يومين أنّ «نيتاي» اتّحَلَّ شخصيّة يهوديّة مغربية، ويختطّ للهرب في غضون أسبوع، بعد أن قام باستصدار جواز سفر مزورٍ.

لم تثأّن تسهُب في الحديث عن نفسها كما توقّعت، بل راحت تشرح لي القصة من أوّلها.

تفاصيل أعرفها وأخرى جديدة على، مثل إرسال الضابط «حنانيا» في مهمّة سرية لإفريقيا، للتحضير لانقلاب عسكريٍّ هناك، ومضت تسرد لي كيف كانت منشغلة البارحة بمراقبة «نيتاي»، الذي يتردّد على بعض المطاعم هنا في «القدس»، ودرست مع صديقتها «باولا» منذ حوالي أسبوع مسألة طعنه في إحدى زوايا شارع من عادته السّير فيه، مستغلّة منطقة تقع في ظلّ الكاميرا، طولها خمس وعشرون متراً، ومن المؤكّد هنا أنّ العمليّة ستتّناسب لأحد المقاومين، خاصة وأنّ عمليّات طعن الجنود بالسكاكين منتشرة هذه الأيام، ولن يفكّر «الشاباك» في الدافع الحقيقّيّ، قبل أن يفرّ القذر بجلده، ولا نستطيع تتبعه.

أعجبتني خطّة الفاتنة الأرجنتينيّة، واقتنعت تماماً أنها ستنجح، لأنّ «باولا» هي من وضعتها، و«باولا» خطيرة جدّاً، حين تختطّ انتقاماً من أرادته زوجاً لها.

– والنشر على «هاريتيس»؟.

- إنّ الموضوع، الكلّ خائف من مجرّد الإشارة له، لا توجّد ديمقراطية في إسرائيل، لا يجب أن نكذب على أنفسنا أكثر من هذا، إسرائيل غابة.

وتناولت آخر ملعة من النساء كانت تُورّق صحنها، ثمّ طلبت شايًّا دون سكر، وطلبت أنا قهوة إيطالية مرّكة.

- لم لا تجرب القهوة التركية؟، إنّهم يدعون فيها هنا.

- هل تُرّع القهوة في تركيا؟.

- لا، طريقة تحضير فريدة من نوعها، أم تفضل القهوة اللبنانيّة؟.

- دعني أُجرب الثانية.

وأشارت بيدها للنّادل الذي قدم مسرعاً، ثمّ ذهب آخذاً معه أطباقها الفارغة، وصحّي الذي لم أستطع إكماله، كانت أنفاسي الصّارحة تفضّحني، ليعود بعد دقائق حاملاً صينية عليها كأس شاي من النوع الفاخر، وفنجان قهوة مع كأس كبيرة من الماء.

- لكنّ السيدة «ليزا» مصرة على فضح كلّ شيء، حتّى أنها وثّقت عدّة شهادات حيّة...

قاطعني وهي تضع كأسها بعدما رشّفت منه رشّفة واحدة:

- ليس الأمر بيدها، ولا بيد الشرطة، هل وجدوا «غابرييل بوتون»؟.

وهزّت رأسها تحني على أهميّة التركيز في هذه النّقطة، ثمّ راحت تعزّز رأيها:

- رغم كلّ ما تبدو عليه الصّحيفة من حرية في النّشر، إلاّ أنّ هناك خطوطاً حمراء لا يجوز الإقتراب منها، ما تنشره الصّحافة لا يتجاوز مساحة التّأمين لهذه الخطوط، هذا نظام يحكم إسرائيل، ثمّ أين هي المستندات؟، في غيابها لا تنتظّر أن تُطرّأ السماء.

قالت كلامها الأخيرة متنهّدة، وهمست في إصرار وهي تحدّق في وجهي بتحدّ:

- لا يوجد قانون، أقولها لك من الآن، وعليه ستنتقم «باولا» بيديها، وسأساعدها، لأنّي أرى ذلك من واجي نحوها كصديقة، وحتّى الحاخامات هنا في إسرائيل هم أقرب للصّهيونية منهم لليهوديّة، إشرب قهوتك قبل أن تبرد.

وأشارت للنّادل مجدّداً، فأتى يحمل هاتفيّنا وفاتورة الحساب، وفهمت أنّ عليّ تجنب الحديث في أيّ شيء حول مسألة «باولا» والسيدة «ليزا»، وتذكّرت هنا بخني عن حاخام ليجيب عن تساؤلاتي حول أمي.

إرتشفت رشّفة من القهوة اللبنانيّة التي فهمت أنّها أفضل من القهوة الإيطالية المضغوطة، وقفزت لذهني صورة «دينا» التي تأثّرت في مجئها من «أمريكا».

في الطريق رحت أسترجع ما قاله لي «جيروشا»، مقارنا ما لمسه من مفارقات في الجيش، كانت الحكومة قد أغلقت مكتب قناة «الجزيرة» منذ أشهر بذرية الترويج للمخربين وأفكارهم، في بلد زعموا منذ قيامه؛ أنه يقوم على الديمقراطية.

نحن كُلُّنا تقريراً عشر مليون إسرائيليّ، يأخذ أغلبنا الحقيقة من هذه الفضائية، أمّا قنواتنا التي تشبهها خالي بقنوات الصرف الصّحيّ، فهي تقول ما يملئها الجيش، حفاظاً على الروح المعنوية كما يدعون، مما تسبّب في إخفاء الكثير من الحقائق، بل وترويف الواقع أبشع تزييف، يقولون أنّ أول قتيل لنا في «رفح» كان «إيرا يائير غيسبان»، من سلاح المدرعات؛ من يصدق ذلك؟، لقد رأيت مرّة أصدقاءي ممّن يفهمون اللغة العربية جيّداً يستمعون سرّاً للجنرال «فائز الدّويري»، في تحليلاته العسكرية على قناة «الجزيرة»، بعدما فقدوا الثقة في كلّ قياداتنا، في كلامهم الذي لا يُعني ولا يُسمّن من جوع، حتّى أنّ أحدّهم قال لي مرّة حين قُتل «أمين زعرب»، وهو قيادي في الكتائب المسؤولة عن الدّفاع عن «رفح»، يوم الخامس من ماي الماضي:

ـ هناك ألف «أمين» آخر سيظهر، إنّهم يتبعون أنفسهم ويتبعوننا معهم، لا مفرّ من إجراء صفقة تبادل ليتهيي الأمر على خير، ماذا يعني تولي قائد جديد لجهاز الاستخبارات العسكرية؟، ذهب كلب وجاء كلب آخر، كلّ الكلاب تجيد لغة الباح، أين الجديد في هذا؟، ستبقى «القسام» تقصّنا من «غزة» ومن جنوب «لبنان»، وربما من كلّ دول النّطاق مستقبلاً، من يدرِّ ما الذي يمكن أن يحدث بعد شهر أو شهرين من الآن؟.

حين يصل الوضع في أرض اللّبن والعليل إلى دفع تعويضات مالية لعائلات الجنود القتلى مقابل التّكّشم عن مقتل عزيز لهم؛ فإنّ ذلك لا يعدّ تسوّلاً على ما من شأنه خفض الروح المعنوية للجنود، بل استهتاراً بحياة من وثقوا في «تلّ أبيب»، وقدموا أغلى ما يملكون للدفاع عن بيت، كلّ من فيه هم في الأصل عناكب، وهل يستطيع العنكبوت الدّفاع عن شيء في بيته؟.

لقد فهم كبار الضّباط ما يدور هنا، لهذا سارعوا منذ إعلان الحرب في أكتوبر الماضي لإنقاذ أبنائهم من الجيش الذي لا يُهزم، دفعوا رشاوى ضخمة وتبادلوا خدمات مشبوهة، لقد مارسوا حقّهم الطبيعي والمطغى في رفض أن يموت أبناؤهم لأجل لا شيء، بملفات طبية مزيفة، كافية لإنقاذ أرواحهم من المثلث الأحمر، في حين يتمّ استدراج جنود مرتزقة من أمريكا الجنوبيّة، و«أورووبا»، ومن الدول المعدمة، مقابل أموال طائلة، ووعود بالجنسية، في برنامج وقع لوزارة الدفاع أسموه «الجنديّ الوحيد».

كان الأجردر بهم أن يسمّوه «الكلب المتردّ».

هؤلاء المغّرّ بهم لا يُحسبون ضمن القتلى، ولا يتحدّث أحد عنهم إطلاقاً، وليس لهم عائلات هنا لتغلق الطرق وتشتبك مع الشرطة، وتوثّق فيديوهات تحملها على وسائل التواصل الإجتماعيّ.

هنا إسرائيل، هنا الورم السرطاني المزروع بين الدول العربيّة.

(24)

نضت صباحاً متھلّل الوجه تغمرني سعادة عارمة، فالیوم هو موعد قدوم «دینا» من «أمريكا»، بعد تأخرها ثلاثة أيام بسبب بعض الإنشغالات، في زيارة تعزية وتفقد لا تتجاوز ثمان وأربعين ساعة.

كنت متعجّباً من إصرارها على القدوم في هذا الوقت الحسّاس من السنة، فترة الإختبارات الحاسمة، وليس سهلاً أن تغيب عن فصلك هكذا دون سبب وجيه.

قلت ذلك في نفسي وأنا أفتّش في جيوي، لتمسّ أصابعى الورقة التي أعطانيها الضابط، موضوعة في جيبي الأعلى الأيمن الذي لم أجدها فيه المرة الماضية حين كنت أبحث عنها.

كم يبحث عن مفتاح كتر قرأها بشغف، كنت أحسّ أنّ فيها شيئاً هاماً لم يشأ الضابط إخباري به أمام الآخرين، ثمّ... تبّالي، لقد كانت إجازة سبعة أيام لظرف عائليّ طارئ، تمثّل في وفاة أحد الأصول، واليوم هو اليوم الأخير، وأنا الذي من شدة اضطرابي اعتقدت أنه شيء يتعلّق بصديقي «دافيد»، أو بالسيدة «ليزا».

بدأت تنتابني حالات نسيان وشروع منذ وفاة أمي، لقد أصبح متّلنا يضيق باستمرار، ووُجدت نفسي وحيداً فيه، بعدما كنّا أربعتنا في خفة الفراشة نملؤه نشاطاً وحيوية، فأحيى الكبير الملازم في سلاح الهندسة القتالية قد لقى حتفه، وأحيى الآخر أسير لدى «حماس»، وبقيت أنا، تزورني خالي وأزورها بين الفينة والأخرى، وحين أكون في الجبهة تأتي هي لتفقد المكان.

هناك لصوص منازل يجوبون المنطقة، يبحثون عن أية فرصة سطوة، في ظلّ انشغال الشرطة بالأولويات.

لقد ذهب محمد أسرتنا منذ أن ذهبت شمسنا لتشرق في العالم الآخر.

- يجب أن نستقبلها في المطار، ستصل متّعة بعد رحلة أكثر من تسعه آلاف كيلومتراً، ويجب أن تكون أنت أول من ترافقها، وأنت من تقدم لها باقة ورد، عيب أن تغيب عن هكذا موعد، ماذا ستقول عننا؟.

هكذا ببساطة، واجهتني خالي عند مدخل الصالون، دون مقدمات، وأنا أرّاقب باندهاش حركة شفتيها السريعة، وهي تتكلّم دون توقف، دون أن تفكّر في موقفي المحرج الذي ستضعني فيه.

- يجب أن تصالحها، هذه فرصتك، أنت المخطئ، على الأقلّ دعها تندّرك بشوق حين تعود للجبهة بعد انقضاء إجازتك، ولا تنسَ أنّ زيارتها تدوم يومين فقط، بسبب دراستها في الجامعة، لقد ضحّت من أجلك، هذه فترة تحضير مكثّف لامتحانات نهاية السنة، هذه تضحية، أليس كذلك؟.

هزّت رأسي موافقاً لأنخلّص من كلامها الذي لا ينتهي، فأكملت:

- ستصل هذا المساء حوالي الخامسة مساء إذا لم يحدث قصف، أنت تعلم أنّ...

قاطعتها:

- «Ok»، بشرط واحد، أنا من أقود السيارة أثناء عودتنا، وليس...

وأشرت برأسٍ للعلّة.

- بالطبع، «ديكابريو؟»، إبني حبيبي، لا تقلق لن يذهب، ربما يتعرّفون عليه هناك ويعتقلونه.

- ماذا تقولين؟، ما زال يومنا على بداء سريان تاريخ استدعائه، وسينتظرونّه خمسة أيام، لماذا لا تضعيه في المخازنة؟، على الأقلّ سيكون المفتاح لديك، وستضمنين وجوده داخلها.

- أتهكم؟، هو إبني وأنا حرّة في المكان الذي سأخفّيه فيه، أعد علاقتك مع «دينا»، وتزوّجا في هذا الأسبوع كي أرتاح منك، لن أقضّي حياتي بين ذهاب وإياب، تزوّجا وانهيا المسألة، سترتاح نفسياً حين تكون لك زوجة تنتظرك في المنزل، على الأقلّ تحضر لك فنجان قهوتك الصبّاحيّ.

في ذلك المساء، وصلنا متأخّرين بسبب عطل في السيارة، كنت أبدو كمن سيستقبل أحد الوزراء بفقة ورد عملاقة أحملها بين ذراعي، أصرّت خالي على شرائها من متجر زهور قريب تعرف صاحبته.

أنتظر متلملما في ردهة المطار، متخيلاً أنّها ستتصفعني حين تراني، وحالتي تقف إلى جانبي في صمت، ثم انطلقت تحدّثني عن فوائد الزواج، وأنّ الربّ يبارك المتزوجين وأبنائهما، وإذا ولد لي طفل أو طفلة يجب أن أسمّيه إسماً على الموضة، حتّى ظهرت «دينا». معطفها الأسود، وشعرها الذّهنيّ المناسب على كتفيها التّحليّن، معطف لائم قامتها المتوسطة المشدودة.

حيّتنا من بعيد، ثمّ أقبلت بابتسامة عريضة، وبعناق حارّ، وأنا في قمة المخجل والإحراج.

- يا لثيم، ما زلت أتذّكر فعلتك معي في المطعم، المرأة تسامح ولا تنسى.

ضحكّت خالي وهي تساعدني في دفع عربة أمّعتها للخارج، ثمّ نكّرت «دينا» للجلوس بجانبي في السيارة، وقامت هي في الخلف، كمن يترصدّ في كمين، فنّشأ في خلدي أنّ كلّ شيء كان مربجاً من قبل:

- لو كان لكم طفل أو بنت لوضعته الآن في حجري.

نظرت لا شعورياً تجاه «دينا»، لأجد وجهها حبة طماطم أضاجتها شمس أغسطس المتأخرة.

لا أعرف من أين أتت خالي بـكـلـ هذه الجرأة، وسـدـتـ حـملـتهاـ سـبـلـ الـكـلامـ بـيـنـاـ،ـ رـغـمـ مـحـاـلـاتـهاـ الحـشـيشـةـ فيـ الأـحـدـ بـزـمـامـ الـمـبـادـرـةـ،ـ بـيـنـاـ كـنـتـ مـتـوجـّـسـاـ مـنـ أـيـةـ قـبـلـةـ تـلـقـيـهـاـ بـيـنـاـ،ـ مـثـلـمـاـ أـلـقـتـ قـبـلـتـهاـ الـأـوـلـىـ.

وتنفست الصعداء حين ركنت السيارة أمام المترل:

– «Very good»، كل شيء على ما يرام.

لكني وأنا أفتح الصندوق الخلفي لأنزل الأمتعة؛ رمت قبليها الثانية وهي تنظر لها:

– هذه المرة سأبكيت معكما، لكن في المرة القادمة سأكون منشغلة، ترددّجا بسرعة وتدبرّا أمر كما، لستما صغيرين، أنت طالبة في الجامعة وهو ضابط، لن أنتظركما العمر كله.

ثم تبادلت أكثر:

– أعرف ابن أخيتي، إنه يحبك، وسيرعاك بشكل جيد، يجب أن ينوب الجليد الذي بيتكما الآن، أمامي.

لقد وضعتنا أمام الأمر الواقع، جاهلة أو متاجهله أن الزواج ليس سهلاً كما كان في زمنها، وأن على الآن أن أدرس الموضوع جيداً، بكافة أبعاده، ومن كل زواياه، وبأدق تفاصيله.

كادت خالي أن ترقص فرحاً في تلك الأمسية وهي ترى المياه تعود لماريها، كانت تتعمم ترکنا لوحدهنا كي نناقش أمورنا بأريحية تامة، وتنشغل هي بتحضير القهوة والشاي، ثم أصرت من فرحتها أن تذيقها بيدها كل أصناف الحلوي التي صنعتها.

في تلك الأمسية تصاف قلبينا واتفقنا على كل شيء، في جلسة دامت حتى الساعه العاشره ليلاً بصعوبة.

في تلك الأمسية ذاب الجليد الآيديولوجي الذي دام سنوات.

كانت خالي تريد أن تطيل السهرة، غير أني اقترحت على الجميع الخلو للراحة، فهي ما زالت تعاني من آثار السفر، وأنا على موعد عودتي للجيش، ويجب أن أنام باكراً وجيداً، ورأيت عينها تتلألأ إعجاباً كما كانت تتلألأ في أول لقاء رسمى لنا، لما أخبرتها بالخطوة التي نويت الإقدام عليها، لمغادرة إسرائيل نهائياً.

وبدت «دينا» بديعة وهي تنظر إلى باسمة الشّغر، جميلة كأنّها ما زالت في الخامسة عشرة من عمرها، تلك الفتاة الشّقراء التي أحببتهما من أول نظرة، لما جاءت لزيارتـنا ذات جمعـةـ رـبـيعـيـةـ لاـ يـمـكـنـ نـسـيـاـنـهاـ بـسـهـولـةـ،ـ رـفـقـةـ والـدـيـهـاـ فيـ «ـتـلـ أـيـبـ»ـ:

– الآن... أنت زوجي وحبيبي.

(25)

- لا تخشى شيئاً، سأعود مثلما وعدتك.

- تذكّر، لقد أقسمت لي أنك لن تقتل أحداً.

كان هذا آخر حوار مقتضب جمعنا عند مدخل المترّل قبل مغادرتي عائداً للجيش.

في ذلك الصّباح الذي أشرقت شمسه باكراً فتفائلت، غير أنه سرعان ما أصابني غمّ شديد، تذكّرت أنه قد تلقينا أمراً في السادس عشر من ماي الماضي بالدخول إلى «رفح»، لنلتحق بلواء «جفعاتي»، واللواء 401 المدرّع، بعدما كنا في «خان يونس».

كان الضابط الذي اتصلت به حالتي ومنحني إجازة «الشفعاء» هو أول من التقى به عند رجوعي للخدمة، بدا مهموماً وينسأ من كثرة الإصابات الموجعة التي تلقّاها لوازنا، لواء «عوز 89»، بوحداته الثلاث، «إغوز» و«ماحان» و«دوفوفان»، منذ السابع من أكتوبر، إذ تم إحضار ثلات من مقاتليه لخيمة الإسعاف الخاصة باللواء 401 اضطراراً، أمام تزايد الضّغوط على الجنود، الذين وجدوا صعوبة بالغة في سحب جثث زملائهم القتلى، رغم أنّهم من قوّات النّخبة، ويتلقون تدرييات عالية المستوى، أكثر من باقي الألوية الأخرى.

كان الضابط خائفاً من توثيق العمليّات ونشرها على وسائل التواصل الاجتماعي، مما يزيد من معاناة أسر الجنود بشكل عام، ولا سيما إذا بثّه قناة «الجزيرة»، التي تتبعها حالتي وآلاف الإسرائييليين، كما منعت القيادة جميع الهواتف الذكّية، كي لا يوثّق أيّ أحد أيّ شيء يتيح للطرف الآخر الإطّلاع على معلومات حساسة، أو توثيق إصابات رفقائهم.

عكس «ريانا»، التي نجحت في الإحتفاظ بـهاتفها، وتصوير ما استطاعت تصويره من آلام، إذ كلّما استقبلت الجرحى، كلّما زاد حقدها على الفلسطينيين.

يدين ملطّختين بالدماء، ووجه مضطرب انكبّت تقدّم إسعافاً أولياً لأحدّهم، الذي كان جرح بطنه يترف بشدّة:

- ضع يدك هنا.

صرخت بي في عصبية.

كان الجندي يرتجف بعد إصابته بطلقة في الصدر، وشظية قبلة في البطن، وثانية ما زالت لم تزع من فحذه، وضفت يدي ضاغطا، وحاولت «ريتانا» إنقاذه، رغم ما خسره من دماء، رأيتها تنظف جرحه وحبات عرق ناصعة تتناثر على جهتها، دون أن تنظر لوجهه الذي كان يفقد لونه مع مرور الثاني، ثم ارتحى جسده منتقلًا في صمت للعالم الآخر.

- إنتهى الأمر «ريتانا»، لا تتعي نفسك.

رفعت رأسها لترى وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم بصقت على الأرض ثائرة:

- إلى متى هذا العناء؟، هذا الجندي التاسع الذي يموت بين يدي، تبا لهذه الحرب، تبا لك يا «سنوار»، تبا لكم أيّها المخربون، تبا لإسرائيل، تبا لهم جميعا، كم أكرههم... كم أكرههم.

وانخرطت في بكاء شديد وهي تضع يديها المضرّجين بالدم على وجهها، غير عابثة بما حولها، وسط صرخ أحدهم الذي كانت قصبة يسراى متشظية بادية للعيان، إثر إصابته بقذيفة «ياسين».

وارتجفت يدي وهي تمسك بالسلاح، متذكرا قسمي، ووعدي الذي قطعه لزوجتي «دينا»، لن أقل أى فلسطيني، سأتظاهر بالقتال كي أتجنب المشاكل، منفذا خطّي التي أوحى لي بها المدلل «ديغور»، في الوقت المناسب.

لم ينقطع بكاء «ريتانا» في هذه الأناء، بل جشت على الأرض، منهارة تماما وهي تسب وتشتم، إقتربت منها كي أساعدها على النهوض، فتخلّصت من يدي في حركة عنيفة، ونظرت لي متفرّسة:

- عدّي أن تنتقم لكلّ الذين قتلوا.

كان الشر يتطاير من عينيها، أمام دهشتي من الموقف الذي وجدت نفسي أمامه في أقل من خمس ثوانٍ

- عدّي الآن، أنا أختك، أليس كذلك؟... عدّي الآن.

ونهضت في قوّة غريبة وهي تمسك بستري المضادة للرصاص:

- سنجاربكم وسنحارب «حزب الله» في «لبنان»، وستتوسّع كما توسعنا في 82، سنجدهم ذبح الخرفان مثلما ذبحنا ألف شخص في «صبرا وشطيلا»، أليس كذلك؟، وسننسى دولتنا، من النهر إلى النهر، من النهر إلى النهر، صحيح؟، صحيح؟، عدّي ألا تموت قبل أن تساهم في هذا المشروع، عدّي الآن.

إنعقد لساني وزاد الموقف توّرا، حتّى جاعني أحد الجنود يطلبني لاجتماع عاجل للضيّاط، وما زالت متشبّثة بي، تطلب منّي وعداً، وسرت مع الجندي بعدما تخلّصت من أصابعها العنيدة، وأنا ما زلت أسمع توسلاتها ونحيبها ورائي.

في الإجتماع؛ وجدت الرائد يغلي من الغضب، خاصةً وأنه تلقى توبيخاً رسمياً من القيادة، بعد إخفاقاته المتكررة في الوصول إلى «السينوار»، مثلما يريده «نتنياهو» الوصول إلى شيء يبيّنه على رأس الحكومة، بعد اختياره علاقاته مع بعض الوزراء وقادة الجيش.

– أقتلوا الصحّيين والمسعفين، أرسلوا كلّ من تجدوه أمامكم للدار الآخرة، لا تخسوا شيئاً، سنحميكم من المحاكمات، يجب أن تقضي على «رفع» في أقرب وقت، كي تفرّغ للجبهة الشّمالية، ليس لدينا وقت نضيعه، أريد شيئاً ملمساً، إنتهي الإجتماع.

كنت أريد طرح مشكلة غياب استراتيجية واضحة لتوسيعة العمليّات، أخبرني أصدقائي وجنودي أنّهم عانوا الأمرّين في غيابي، ليست لديهم حتّى الذخيرة الكافية للبنادق، مما أجبرهم على اختيار وضعية الطّلاقة بدل وضعية الرّشاش، الشّيء الذي قلّص من قوّة نيرائهم، وأدى لإصابة العديد منهم، كما أطّلعني على الحادثة التي وقعت قبل يومين، حيث طرد أحد الضّباط جندياً من «السفرديم» وآخر من «الفلاشا»، خارج المدرعة لما أتاهم الأمر بالإلحاد، وتركهم يلقون حتفهم في انفجار لغم أرضي، بل لم يتوقف حتّى جمع الأشلاء التي تناشرت هنا وهناك، وهذا ما جعل الجنود يتفضّلون، ورفض أربعة منهم العودة مجدّداً للقتال.

والبارحة فقط حيث فرض أحد «الأشكيناز» عبر اللاسلكي المبيت على مجموعة من الجنود وضابط في شقة، رغم رصد عناصر من «القسام» حوالهم، واليوم تأكّد أنها كانت خطّة لاصطياد مقاتلي المقاومة، بوضع طعم بشرىٍ من جنودنا لهم، حتّى إذا اشتبكوا معهم؛ يتمّ قصف الجميع دون استثناء.

هل إلى هذا المستوى وصل الجيش الذي لا يُهزم؟.

هنا إسرائيل، هنا البنت غير الشرعية التي يريدون إقناع الناس ببرائتها الطفولية.

في السادس والعشرين ماي 2024، أعلن المتحدث العسكري باسم «كتائب القسام» أنّه تمّ اختطاف جنود إسرائيليين.

المضحك في المسألة أنّ المختطفين هم من قوّة النّجدة المرسلة لإنقاذ جنود وقعوا في كمين، والمضحك أكثر من هذا؛ أنّ الحكومة تكذّب الخبر، ولو لا الفيديو الذي نُشر لما كُشفت الفضيحة.

لقد عاد إلينا هاجس الإختطاف من جديد، حتّى أصبحنا لا ننام ليلاً؛ ما يدرّينا؟؛ ربما تكون الأنفاق ممتدة الآن تحتنا، تحت أرجلنا، تحت مقاعdenا، تحت أسرّتنا، ماذا سيكون وضعي أمّام خالي وأمام «دينا»؟، وأنا الذي أحضر للعرس، تارّكاً هذا المستنقع للضفادع القدرة القابعة في «تل أبيب».

في تلك الليلة أمرنا الرائد بالتوغل في «رفع»، في مهمّة مستحيلة التنفيذ، عنوانها «السينوار»، الذي يختبئ في شبكة من الأنفاق، متّخذنا من أسرانا دروعاً بشرية، وهذه المرة كان يثور في وجوهنا أكثر من المرة السابقة، بسبب قصف «القسام» مدينة «تل أبيب» من «رفع»، من منطقة تبعد عن قرّة قوّاتنا ثمانمائة متر فقط، الشّيء الذي اعتبره إهانة له، شخصياً، ويجب ردّ الإعتبار لشخصه الكريم، طبعاً ولجييش إسرائيل الذي لا يُهزم.

بعد الإجتماع، وجدت «ريتانا» واقفة تنتظري على بعد أمتار:

- لا تراغ.

حضرتني بنظرها المريعة أكثر من جملتها، ثم أكملت بعد أن صمت لبرهة تستكشف رد فعله:

- لماذا لم تعدني بالإنتقام؟، هل أفهم أنك خنت إسرائيل؟، خنت إسرائيل؟، أنت صهيوني وستموت صهيونيّا.

كررت جملتها الأخيرة بصوت عال حاد، مما لفت أنظار بعض الضباط والجنود الذين كانوا بالقرب منّا.

- نحن جنود «ريتنا»، مهنتنا القتل، فلم أعدك بشيء من عادتنا جيّعا ممارسته؟، لقد أمرنا بالبحث عن «السنوار»، الآن فقط في الإجتماع، وسنغادر بعد قليل.

بهذه العبارة حاولت التهرب منها، التخلص من إلهاجها، كانت عينها الخضراوات حريصتان على سر أغواري، مثل مسياح فضائي يرصد كل شيء في «المريخ»، كحرص الرائد على قتل «السنوار».

لقد زاد حقد هذه المراهقة على الفلسطينيين، لما صادقت منذ أسبوع «سارة»، بمحنة وصلت حدّها، هي أخت أحد الجنود من وحدة عسكرية تسمى «القرة 100»، المسؤولة عن حراسة معتقل «سدي تيمان» في «النقب»، قُتل أباها في هجوم السابع من أكتوبر، فرُّع فيها كلّ غلّ وتجسدّ، ووُجد أخوها ضالّته في تصنيفهم الرسمي الذي يشبه مشجب معاوّدة السامية، «مقاتلين غير شرعيين»؛ أي لا توجد قواعد وحدود حمراء للإسْتِجوابات، كأنّ هؤلاء هم قتلة أبيه.

في هذا المعتقل، يُترك بعض الأسرى مقيّدين، في وضعية تسبّب ضغطاً شديداً على العمود الفقري، بأعين لا تزع عنّها العصابة أبداً، وإذا تحدّث أحدّهم مع أيّ أحد أمامه يُضرب بقسوة لا مثيل لها، مع الحرث على إبقاء البعض الآخر في أقفاص حديديّة، يواجهون الجوع والعطش لأيّام، كما يُحبر آخرون على الوقوف لساعات طوال، يتناوب على حراستهم جنود مدجّجون بالهراوات، ومرفقين بالكلاب الشرسة، وآخرون يتمّ حشرهم في أماكن ضيّقة جداً، وفي أوضاع مرهقة للأعصاب، وهناك من تقطع أطرافه عمداً، حين تبرد، لأنّه يُحرّك الدّورة الدّمويّة فيها، بسبب التّقييد بالأربطة البلاستيكية، مع حالات الصّعق بالكهرباء، والإيهام بالغرق، والحرمان من النّوم، والكّي بالنّار، والتّريّد الشّديد، حسب نقطة ضعف الأسير.

أمّا استخدام دورة المياه؛ فيكون لدقّيقه واحدة فقط يومياً، والإستحمام لدقّيقه واحدة أيضاً في الأسبوع.

أيّ إنسانية هذه التي تتشدق بها، وهذا المعتقل هو في الأصل «أوشفيتز» آخر بنكهة إسرائيلية، في منطقة قفر، معزولة هناك في الصّحراء، يستحيل المهرب منه، بعيد عن «غزة» بحوالي ثلاثة كيلومترات، ومحروس جيّداً بعشرات الدّبابات، وحتى بالجنود المنتشرين بين كثبان الرّمال، خوفاً من تكرار سيناريو الهجوم السابق، وإذا خشينا أن يصل العالم إليهم، وزّعنا هؤلاء المساكين على بعض السّجون لتتشتّت الإنتباه، فيصعب الوصول إلى أيّ أحد منهم لتوثيق شهادته، ضدّ الجيش الذي لا يُهزم.

- ما بك؟، لقد تغيّرت، لم تعد مثلما عرفتني؟، هل هناك شيء؟.

- أفكّر في «السينّوار»، لا تقنعني فكرة اختبائه في الأنفاق، هل يُعقل أنّ قيادياً مثله لا يخرج من تحت الأرض؟.

– ستذهب بعد قليل وتقتله لأجله، أليس كذلك؟.

– إذا تعفّنت الجذور، فكيف للشّجرة أن تشم «ريانا»؟.

وَمَا زَالَتْ تَنْظَرُ فِي وِجْهِي مُتَفَرِّسَةً، تَحَاوِلُ فَكَّ الْلَّغْزِ.

لقد أقيمت لها خيط حقيقة، خيط أمل، يوصلة ترشدها للنجاة، لعلها تتمسّك به يوماً ما.

ثم غيّرت الموضوع لأصرفها عن التفكير الرائد، فانفرجت أسارير وجهها شيئاً فشيئاً، وهي تحكي عن محقق قتاليٍّ من وحديٍّ، لم تشا إخباري باسمه، قالت إنه مشروع جادٌ، وتذكّرت «دافيد» الذي كانت أمّه تحضّر لزفافه.

كم من مشاريع زواج هنا في إسرائيل باءت جميعها بالفشل؟.

- إذا لم توضع على إشارة المثلث الأحمر.

قالتها وقد نزل عليها إحباط صاعق، كأنّها تذكّرت شيئاً من الماضي، قلب مزاجها رأساً على عقب.

- لا تقولي هذا ثانية؛ أنت تستعددين لبناء أسرة؛ أنت هي الحياة يا «ريتانا»، أنت هي إسرائيل.

قتلها، وأعلم جيداً أنّي أكذب، لكن ما باليد حيلة، نحن نعيش مسلسلاً طويلاً بنى على الكذب، بدأ منذ 1948، ولا أحد يعرف متى ستُثْلِي حلقتها الأخيرة، نكذب ونكذب ليستمرّ عرض المسلسل.

ولإرضاء غرور أخي الصغيرة.

(26)

وأجل أمر التوغل لمدة عشر ساعات.

في صباح اليوم الموالي، سمعت ضابطين يتحدثان عن قصف وشيك لخيام النازحين في «رفح»، قال أحدهما - وهو ملازم من اللواء 401 مدرعات - لرفيقه، إن هذه الضربات مفيدة لنا، كي ننتقم من الشعب الفلسطيني، ثم نأتي بأية ذريعة:

- يجب أن نتركهم مرتكبين دائماً، وحائفين من المستقبل، كي يتركوا لنا الأرض.

في حين اعتبر الثاني - وهو نقيب في لواء «جفعاتي» -، أن هذا كله غير كافٍ بتاتاً، بل يجب قصف مراكز اللاجئين، التي أقعنناهم أنها آمنة؛ ثم نقول للعالم أننا رصدنا مخرباً «حماس» بينهم، وسيصدقوننا لا محالة، لأن سبب وجيه جداً للتدخل الجراحي.

وانطلقت ضحكاتهما تمزق أنسام الصباح.

أيقنت الآن سبب تردد «ميري سيناي» بمراسلي قناة «الجزيرة»، وسبب تلقينها أمراً مباشراً صريحاً من الرائد بقتلهم.

أنقاض في أنقاض، هذا ما وجدته في «رفح».

أو قل - إن شئت الدقة - هذا ما أوجدناه نحن في «رفح».

وهنا يختفي «السّنوار».

في الواقع لا أحد رآه، إنما هي فرضيات تضعها الإستخبارات، بناء على معلومات من وحدات الإستطلاع التي لا ترى شيئاً، أو بالأحرى تتوهم كل شيء.

كنت أسير رفقة مجموعة مؤلفة من خمسة جنود تحت إمرتي، متوجلين في أحد الشوارع، تتقدمنا ثلاثة دبابات «ميركafa 4»، وأنا أدعو ربّ ألا أضطرّ لمواجهة «كتائب القسام».

سرنا نحو مائة متر، ثم أخبرونا باللّسلكي أن هناك مجموعة من الجنود تسير في اتجاهنا في الشارع المترفع على اليمين، وسرعان ما انضمّ لنا ضابط يعلو رتبة، رفقة عشر جنود، منهم ملازمان، كان برفقتهم أسيران

يسيران حافيي القدمين من أهالي المنطقة، أحدهما «سليمان» في الثلاثينيات من العمر، قصير القامة، ممتلئ الجسم، أشيب الشعر، يرتدي سروالاً أسود باليأ زاده الغبار سوءاً، مع قميص رمادي اللون.

والثاني «لؤي»، معصوب العينين، شاب لم يتجاوز الثلاثة والعشرين سنة من عمره، رفيع الجسم أصلبه، متوسط الطول.

كان الأسيران درعين بشريين، حتى نمنع فصائل المقاومة من إطلاق النار علينا، سواء بالأسلحة الرشاشة أو بقذائف «الياسين» المضادة للدروع، أو بتشغيل كمائن القنابل الرعدية والقفازة، خاصةً بعد الأثر الكبير الذي تركته عملية السبت الثامن عشر من ماي المنصرم، حيث تم القضاء على خمسة عشر جندياً، دفعة واحدة بعبوة رعدية، كانوا متخصصين في أحد المنازل في حي «التلور»، والإجهاز على من تبقى منهم بالرشاشات والقنابل اليدوية.

فجأة، سمعنا انفجاراً قوياً أمامنا ارتجت الأرض منه، على بعد خمسين متر، كان كميناً وقعت فيه دبابتين، تمزقت إحداهما بعبوة «شواطئ»، ما أدى إلى مقتل جميع طاقمها، كما قتلت أحد المشاة المرافقين، وجرحت تسعه آخرين.

نظر النقيب إلى الأسير الثلاثي صارخاً بالعربية:

– أين؟، أين؟.

– لا أعرف، أخبرتكم أني خرجت للبحث عن طعام لأسرني، وتركت طفلتي الصغيرة تختضن دميتها باكية من الجوع.

ضاع تركيزي على ما يحيط بي وأنا أفكّر في إيجاد وقت مناسب لتنفيذ خططي، لم أتبه إلا حين رأيت رأسه ينفجر بطلقة مسدس أطلقها عليه النقيب، وضاعت قيمنا الإنسانية حين تركناه هناك مكملين سيرنا بين الأنفاس، وكأن شيئاً لم يكن.

كان الصمت الحذر يغرق المكان، وكلما زادت مسافة سيرنا زاد الصمت، إلا من وشوشات اللاسلكي، ومواء بعيد للقطط، ورائحة الجثث المتوفة مقرونة برائحة قنوات الصرف الصحي.

هنا الدمار هو كل المشهد.

في أحد الشوارع الحanicية، بعيداً عن الناصية بأقل من عشرين متراً، يتسلل لآذانا بكاء طفلة صغيرة، أرهفت سمعي لأنأكّد، فرأيقت أني ابنة الأسير المقتول، الأسير الذي خرج للبحث عن طعام لزوجته وطفلته، وقتلها الجيش الإسرائيلي الذي لا يهزم.

كانت مسيرة إستطلاعية من نوع «كواكب بتر» تمشط المنطقة فوقنا، يتحكم بها جندي إلى جانبي، نظر إلى شاشته ثم أشار للنقيب أن لا شيء حولها يستدعي القلق، ونظرت نحو صوت البكاء الذي كان يقترب شيئاً، ورأيت المشهد المحزن.

أمّها جثّة هامدة، تجلس متّكّة على حائط متولّ على الجهة اليسرى للشارع، وقد أسلّ جرح غائر في رقبتها كلّ دمها، بعينين مفتوحتين نحو السماء، ت يريد أن تتحدى الموت الذي سيعدها عن فلذة كبدها، تلك الطفّلة التي لم تتجاوز الثلاثة أعوام، تجلس أمامها باكيّة تعانق دميّتها في وسط الشارع تماماً، لا تدرّي ما العمل.

كم كان الموقف حرجاً وحسّاساً، وأنا عاجز عن أيّ تصرّف في وجود من يعلوّني رتبة، كم تمنّيت لحظتها أن تطلق رصاصة قنّاص على هذا القدر لأنّخلّص من وجوده، فأاحتضن الطفّلة البريئة التي تسبّب جيش إسرائيل الذي لا يُهزم في يتمّها، كم تمنّيت أن يظهر مقاتل من «كتائب القسام»، على الأقلّ كي يراها، كي لا يتركوها هنا عرضة للكلاب الضالّة، كم تمنّيت وتحمّلت وتمّنت.

تبّاً لهذا النّقيب، وتبّاً للحرب التي تلتهم الضعفاء.

لم يهتمّ ذو الوجه العابس لبّكائها، بل انتزع دميّتها وألقاها في نار متّاجّحة على مرمي حجر منّا، وأوزّر لنا بمحاباة السّير، ثمّ أشار لي بأخذ خمس جنود والأسير المغضوب العينين؛ والتوجّل نحو أحد الأبنية التي اشتبه أنّ فيها نفّقاً خرج منه من نفذ الكمين، بينما بقي المتحكّم في المسيرة معه، وهنا عزمت على تنفيذ خطّي، لأنّه ترك هذا المستنقع كمّاً لضفادع «تلّ أبيب».

كلّ أصدقائي يموتون أمام الأنّظار في شمال «غزة» وجنوّها؛ «إلياهو أم سالام»؛ «إسرائيل يودكين»، «شاشوع»؛ «كوهين نفتالي»؛ «سحر سوداي»، وغيرهم الكثير والكثير، وحتى رموز اللّواء 401 المدرّع لم يسلموا من القتل، مثل «سياستيان أبون» قائد العمليّات، «يائير زلوف»؛ «نيريا زيسك»؛ «دافيد شكورى»؛ «يتسحاق بلانcker».

هل أنتظر حتّى تقتلني «كتائب القسام» ثمّ ييشّون صوري يزينّها مثلث أحمر؟.

أم أنتظر أن أُختطف، فألحق بأخي الذي لا أحد يعلم مصيره إلى حدّ الآن؟.

ما دمت هنا في أرضهم، فأنا شخص غير مرّحب به، لأنّي صهيونيّ.

سأطلق النار على نفسي، ثمّ سأظاهر بالإصابة بحالة ما بعد الصّدمة، وتحت ضغط الجرحى وامتلاء المستشفيات؛ سيسرّحونني من الجيش، لا محالة.

هذا ما أوحى لي به ابن خالي «ديبغو»، ولن يشكّ أحد في الموضوع، لأنّنا في معركة؛ ومن لدّيه الوقت حتّى ليطرح التّساؤل؟.

قد تبدو هذه الفكرة مجنونة، لكن لا مناص من ذلك، لقد وصلت لمرحلة متقدّمة من اليأس، عزمت فيها على اتّخاذ خطّة للأمام، لا رجعة فيها على الإطلاق.

هناك فرق شاسع بين ما يشاهد في الأفلام والواقع، فخطّر الأعيرة النّارّية خطّران، خطّر الرّحّم الحرّكي للرصاص، ثمّ يأتي بعدها مسارها، فهي جسم معدني قاتل إذا أصاب منطقة حسّاسة، إذ يكفي أن تعلم أن سرعتها الإبتدائية تصل إلى أكثر من ألف كيلومتر في السّاعة، إذا انطلقت من مسدّس من عيار تسعه

مليمترات، ثم تناقض تدريجياً تحت مقاومة الهواء، كلما ابتعدت عن الفوهة، هذا الإنطلاق السريع سيجعل الجسم ينبعض قدرًا هائلاً من زخم حركتها، وهو ما سيدمّر الأنسجة بتوسيتها المفاجئة.

بقيت الآن نقطة تحديد الموضع الذي يجب إصابته بالضبط، بحيث لا يشكّل أي خطر على.

من السّلامـة هنا أن أصـيب العـضـلـةـ فقط دونـ أنـ أـتـركـ العـيـارـ النـارـيـ يـسـتـقـرـ فـيـهـ،ـ مـيـتـعـدـاـ قـدـرـ المـسـطـاعـ عنـ الشـرـيـانـ الرـئـيـسـ وـفـرـوـعـهـ،ـ كـيـ لـاـ يـحـدـثـ نـزـيفـ،ـ وـاخـتـرـتـ عـضـلـةـ الـفـخـذـ،ـ لـأـنـهـ أـسـهـلـ مـنـ عـضـلـةـ الـذـرـاعـ،ـ وـإـصـابـتـهـ يـعـنـيـ أـنـكـ لـنـ تـسـتـطـعـ مـشـيـ،ـ مـاـ سـيـرـغـمـهـ عـلـىـ نـقـلـكـ بـعـدـ أـرـضـ الـقـتـالـ.

نزعت العصابة عن عيني الأسير، الذي نظر إلى ببرود وسار أمامنا شامخ الرأس، كنت خلفه بعد جنديين، ولأنّه خطّي، يتوجّب على صرف الجنود الخمسة بأيّ طريقة، ولا يهم إن رأيّ هو، فلن يسألوه على أيّة حال.

كان المبني الذي أمرت بتفتيشه عمارة أغلبها منهار، فأمرت ثلاثة منهم بالتوغل في الطابق الأول، الذي كان يدو سليماً نوعاً ما، مباشرة قبل أن أنفرد مع من معى بالطابق الأرضي، الذي شرّكت في وجود نفق فيه، كنت أدعوا ربّ دائمًا لا يخرج منها أحد فيضعني أمام موقف صعب، كنا جميعاً في حالة توتر شديدة، ننظر لبعضنا خائفين، إلا صاحب الأرض الذي بدا سيد اللحظة والمكان.

أشـرـتـ لـجـنـدـيـنـ بـالـتـقـدـمـ لـمـحـاصـرـةـ عـيـنـ النـفـقـ مـنـ الـيمـينـ وـالـشـمـالـ،ـ خـطـوـةـ غـيرـ مـنـطـقـيـةـ،ـ لـكـ يـجـبـ فـعـلـهـاـ لـجـعـلـهـمـ يـضـعـونـ كـلـ تـرـكـيـزـهـمـ هـنـاكـ،ـ فـأـوـجـدـ الـفـرـصـةـ الـمـنـاسـبـةـ لـتـنـفـيـذـ خـطـيـ،ـ وـلـاـ تـقـدـمـ أـحـدـ جـنـدـيـنـ وـاضـعـاـ أـسـيـرـ درـعاـ بـشـرـيـاـ أـمـامـهـ،ـ إـنـسـلـلـتـ لـلـخـلـفـ فـيـ هـدـوـءـ مـخـرـجـاـ مـسـدـسـيـ الشـخـصـيـ.

لحـظـاتـ فـقـطـ تـفـصـلـيـ الـآنـ عـنـ نـهاـيـةـ الـمـسـلـسـلـ.

فجأة طلب التّقيّب معلومات عبر اللاسلكي الذي كان معه، مما شوّش على الموقف، فاضطربت لإطلاق النار تجاه النفق بمسدس، مع علمي أن لا أحد فيه، بل قد يكون مفخخاً، وبحركة آلية، شرع الجنديان في إطلاق النار عشوائياً نحوه، دون أن يلتفتا لي، والأسير وقف لا يتزعزع، كانت رسالة واضحة للتّقيّب، وهنا صدمت الحائط برأسه، في محاولة للتخلص من الكاميرا المثبتة فوق الحوادة، وأمسكت بالعضلة الخارجية لفخذي الأسير بسرعة قبل أن يتبهأ أي أحد، وأطلقت النار عليها محاولاً تجنب الشّرّاين، فأحدثت رجة في رجلي كلّها، مع ثقب سال منه دم أحسست به ينساب إلى أسفل، وصحت من شدة الألم، الذي كان يشبه حرقاً داخلياً، وحرارة تتصاعد عبر كلّ خلية.

أقبل نحوه أحد الجنود لتقديم الإسعافات الأولى، بينما واصل الثاني إطلاق النار نحو النفق، وجاء الثلاثة الآخرون للإسناد.

لقد نجحت خطّي، ثم توقف الجميع حين لم يجدوا رداً نارياً، وتكلّم الجندي الأول عبر اللاسلكي، لينقلوني للمستشفى عبر مروحية على وجه السرعة، لكن جاءه الردّ أنّ المكان الذي نتواجد فيه خطير، ويجب إخراجي منه بواسطة «مير كافا».

عائق لم أضعه في الحساب، ولا أدرى كيف سهوت عن ذلك رغم حرصي الشّديد على دراسة كافة المعوقات، فقد تطلق علينا «كتائب القسام» قذيفة «ياسين 105»، كالي أطلقوها على دبابة «دافيد»، ونملّك جيّعاً، بعد أن يضعوا مثلثاً أحمر علينا، لتشكّل مادةً إعلاميةً دسمة.

بدأ الألم يخفّ تدريجياً بعد إسعافي، وزال الطّنين الذي كان في أذني، تاركاً مكانه لبعض الدّوار المصحوب بالغثيان، ثمّ بدأ الظّلام ينتشر حولي.

لا أعرف بعدها ما الذي حدث بالضبط، ولا كيف وجدت نفسي في المستشفى.

(27)

- ما الذي حدث معكم؟.

قالها بعكر حاذبا كرسيا خشبيا جلس عليه متأنفا أمام سريري.

- آسف، لم أعرفك على نفسي، أنا الملازم «سوسونوف» من جهاز «أمان»، نهضت صباحاً أبحث عن صديق أتحدث معه، فتذكريت، خدمت معي سابقا في «تل هاشومير»، لا تذكري؟، طبعا هذه أعوام مرّت، أورووف، نحن نكبر بسرعة، آه يا زمن.

شخص بصري من وقاحتة، فأنا لا أعرف صديقا بهذا الإسم، ثم أضاف:

- إسمع... لا شيء رسمي، حتى أنه يمكنك مناداي «ميامي بايولا»، نحن في نفس العمر تقريبا، كما تلاحظ، ليس لدى قلم أو أوراق، نحن هنا لندردش، ندردش فقط، أنظر حولك نحن وحدنا.

كانت الغرفة التي أرقد فيها حالية من الجنود على غير المعتاد، أرادوا أن يوحوا لي أن إصاباتنا قليلة جداً، بدليل أنهم ينحصرون لكل مصاب غرفة مستقلة.

- كيف أصبحت؟، هل كان «الستنوار» هو من أطلق عليك النار؟، نحن نعرف أنه هناك في «رفح»، لكن لا نستطيع إمساكه.

- لقد أصابوني في رجلي حين حاصرناهم في نفق بإحدى الشقق.

- أرأيت؟، لا شيء أجمل من الدردشة بين الأصدقاء، أتعلم شيئاً؟، مشكلة الناس غياب جسور تواصل بينهم، وهذا الغياب يصنع التطرف.

ثم قال مشيرا إلى ذبابة حطّت على طرف الأريكة:

- انظر، هذه الحشرة، من المفروض أن تكون معها ذبابة أخرى.

وراح يدور برأسه في أرجاء الغرفة، إلا أنه عاد متبعها للاحظته الغريبة:

- كم كانوا؟، هل كان «السنوار» معهم؟، هل رأيه بعينيك؟، ماذا كان يرتدي؟، كيف هرب الأسير الذي كان معكم؟.

وأخبرته بكلّ شيء حدث معي بالتفصيل، محاولاً ألاً أحدث تناقضاً أكشف من خلاله خطّي، غير أنه بعد ساعة ونصف بدا لي غير مقتنع، ساعة ونصف وهو يحاول جاهداً قراءة أفكاري، محللاً ما بين السطور:

- قال أحد الجنود أنه لم ير أيّ شخص في النّفق، وأنّهم أطلقوا النار اقتداء بك، ثمّ أصبحت برصاصة مجهولة المصدر، بعد اصطدامك بالحائط، ووجدنا أنّ الكاميرا المثبتة على خوذتك مكسورة، رغم أنّها مصمّمة ضدّ الصّدمات، ألا يدرو لك هذا غريباً بعض الشّيء؟، ضع نفسك مكانِي، هل هذا يقنعك؟، دعني أساعد على التذّكّر، هل ضربك الأسير مثلاً؟.

- لا أعرف، قلت كلّ شيء يا سيدِي، وليس لي ما أضيفه.

- إمم... حسناً، إذا تذكّرت أيّ شيء فأنا في خدمتك، لا تنسِ إسمِي، «ميمي بايولا»، رقمي في هاتفك.

ثمّ هزّ رأسه كأنّه يعرف أشياءً أخفيها عنه، وغادر متمنياً لي الشّفاء العاجل.

تحسّست فخذلي، فوجدهما قد رُبطت بشاش أبیض حتّى الرّكبة، وحقنة تغذية وريديّة تلسع ظاهري يدي، ووُجِدَت أمامي عكّازين إلى جانب كرسيّ متحرّك، وعلى يميني طاولة صغيرة عليها هاتفِي الذي يدرو أنّهم عبشاً بمحطّياته، وبعض متعلّقاتي الشخصية.

بعد نصف ساعة جاءت خالي باكية تحمل باقة ورد لزيارتي، فطمأنتها أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّها إصابة لا تشکّل أيّ خطر، فأنا عسكريّ ويجب أن أصاب، وضحكَت متعمّداً أمّاها لطمئنّ.

كانت الغرفة التي وضعيَ فيها بيضاء واسعة، يتوسّط حائطها الذي يقابلني تلفزيون متوسّط الحجم، وبجانبي أريكة سوداء اللّون لشخصين، إضافة إلى كرسيّ خشبيّ، وعلى يسارِي باب الحمّام، ورحت أتساءل في قراري إن كانت كلّ الغرف على هذه الشّاكلة، أم أنّهم ميزوني عن غيري؟، فأنا ضابط من القوّات الخاصة، لدىّ الآن ما يقارب الخمس عشرة سنة في الخدمة.

ثمّ ما يعنيه هذا التّميّز، هل انطلت عليهم حيلتي أم أنّهم تفطّنوا للأمر؟.

وتذكّرت هذا الضّابط الطّويل، «ميمي بايولا»، الغريب الذي يصرّ على التّقريب مني، واتّحاذِي صديقاً، رغم أنّي لا أعرفه ولم أسمع به من قبل، ثمّ من يدرِّبني أنه لا يعمل مع «غارسيّا»؟، وأنّهم قد عرفوا كلّ شيء؟، وهم الآن يسعون للتخلّص مني، كما تخلّصوا من قبل من «دافيد» و«بابلو» و«إيتان عسيفاً» و«ميغيليري» و«آيزنوكوف»؟.

وأنا في لمح أفكاري المتناقضة، دخلت مرّضة قالت أنّ اسمها «شانِي»، لتخبرني أنّي في مستشفى «سوروكا»، ولتقدّم لي وجبة العداء، نازعة حقنة التّغذية الوريديّة التي تورّم ظاهري يدي بسببها، كانت السّاعة

قد اقتربت من منتصف النهار، وأمعاني تلقي لي بأول إنذار، لم أكل منذ يومين، تاريخ إصابتي، ثم اهتز هاتفي واشيا باتصال من «ديننا».

بعد ثمان وأربعين ساعة، كان «ميامي بايولا» واقعا أمام سريري من جديد، بقامته الطويلة، يحاول مستفزًا نزع أية معلومة جديدة عن الحادثة، فاستمسكت بروايتها السابقة، بكل تفاصيلها الدقيقة، لكنه عاد وطرح السؤال ذاته:

— يقولون عني في الجيش أني غبي لا أفهم سرعة، لا بأس سأيرني على بساطة تفكيري، هل تصدق أني إلى الآن لم أفهم كيف أصبحت برصاصة من نفق لا يوجد فيه أي شخص؟، من أطلق عليك النار إذن؟، هل هو الأسير الذي سرق مسدسك وفرّ، بعدهما قتل به جنديا وأصحابك أنت مع اثنين آخرين؟، أخبرني بأشياء منطقية وأنا مستعد لتصديقك يا رجل.

نظرت إليه واجما، إذن هرب الأسير مسدسي، كيف؟، لا أتذكر أي شيء من هذه التفاصيل.

حُمِّنت أن الجندي المقتول بلا شك ليس هو من كان يقدم لي الإسعافات الأولية، لأنني تذكريت أني سمعت طلقة نارية بعيدة عني بأمتار، قبل أن يغمى علي، ثم تذكريت أن مسدسي لم يكن في يدي حين بدأ الألم يشتد في رجلي.

— هل كنت تعرف أن هذا الأسير من «كتائب القسام»؟.

أثار وصفه حسي الأمين، لماذا لا يستعمل مصطلحات تقليدية لوصف العدو؟، «الإرهابيون»، أو «المخربون»، أو حتى «دواعش حماس»، هذا ما يدور في الدوائر الرسمية.

— لا، مطلقا، لقد كانا أسيران، أحدهما في الثلاثينيات من العمر وقد قتله التّقىيib مباشرا.

— جميل، وبقي الآخر، «لؤي»، كيف عرفت أن اسمه «لؤي»؟.

— من أحد الجنود.

— هل رأيته من قبل؟، هل لديك علاقة ما معه؟، هل هو اسمه الحقيقي؟.

— أبدا سيدى، أنا لا أصادق العدو، فكيف أعرف اسمه الحقيقي من المزور؟.

— لا تصادق العدو، حسنا... دعنا من ذلك، ما رأيك في إسرائيل؟.

— إسرائيل وطني.

— لو عرضت عليك الهجرة إلى «أمريكا»، هل تذهب؟.

— مطلقا، إذا ذهبت وذهب كل إسرائيليين فمن سيقاتل المحرّبين؟.

أطلق ضحكة عالية ناظرا للسماء، وغادر محاولا تمالك نفسه:

— تستطيع التّجول في الحديقة إذا أردت، لا داعي لذكريك أنت هنا في المستشفى ولست في السجن.

بعد تفكير قارب نصف ساعة، أيقنت سبب اطمئنان الأسير وهو أمام عين النّفق، كيف لا يطمئنّ وهو يقف في أرضه؟، يعرف جيّداً ما فوقها وما يوجد تحتها.

هل جرّب أحدكم شعور الوقوف أمام مقاتل من «كتائب القسام»؟، بشحمه ولحمه، وشمونه وأنفته؟.

أو بالأحرى أنا من وقفت بين يدي السيد صاحب الأرض، الذي رفض أن يجهز عليّ بعد أن تفطن خطّي.

(28)

مكثت في المستشفى أكثر من أسبوع، بدأت صحّي تتحسّن فيه بشكل تدريجي ملحوظ، ما جعلني أخشى إعادتي للجبهة فور ثالثي للشّفاء التامّ، خاصة وأنّ «دينا» تماقني من حين لآخر، مع حرصها على عدم ذكر أيّ شيء يمكن أن يكشف اللّعبة، إلاّ أنّي لست مطمئناً لما يحدث في ظلّ نقص الجنود، ما ترتب عنه تقليلص الإجازات، بل وحتى التّأخّر في تسريح المتميّة خدمتهم.

أسبوع وأكثر لم يزري فيه أحد سوى خالي، هل يتحفّظون عليّ هنا بدل مكان آخر؟

كان التّلفزيون أنيسي الوحيد، ثمّ فجأة تغيّرت المرّضة، وأتوا بمصاب آخر لغرفي، ما ساعدي على الإرياح قليلاً، لولا زيارة «ميسي بابولا» المفاجئة ذات صباح صيفيّ:

ـ رائع، تبدو لي أفضل بكثير من الأسبوع الماضي.

ـ حمداً للّه ربّ على نعمه.

ـ أنظر، أحضرت لك التّوراة، أعرف أنك تعاني الوحدة، فقلت لهم أن يضعوا معك أحد المصابين.

وأخرج كيساً ورقّياً من كيس بلاستيكيّ يحمله، واضعاً الكتاب المقدّس على الطّاولة، ثمّ نظر إلى المصاب الذي كان نائماً:

ـ مسكيّن، أربع رصاصات أهدوها له في «رفح»، هو أفضل حالاً الآن مما كان عليه حين أحضروه بالهليكووتر.

ـ تأوه ببطء ثمّ جلس على الأريكة:

ـ آآآآآآه، ر بما نقلك لأعلى حيث الشّمس، أنت الآن تحت الأرض بسبب القصف، طبعاً لدينا من الأسباب التي تجعلنا حريصين على سلامتك الحسديّة والنّفسيّة الكثير.

ـ كان يتحدّث طوال الوقت الذي جاوز السّاعة، تارة بعبارات مقتضبة، وتارة أخرى بعبارات طويلة منمّقة، تكلّم عن «السّنوار» والكتائب التي زعم أنّهم فكّوكوها، والهجرة العكسية من إسرائيل، وأنا أصغي في سكون القنّاص، ألوذ بالصّمت متوصّداً مكره.

يريد اللّعيم سقطة مني، كلمة أو عبارة، أو اسم أحدهم تكون دليلاً ضديّ، هذا تماماً ما يريده «سوسونوف».

وما زال يراوغ كالشّغل حتّى سمعنا جلبة في الرّواق، سرعان ما توسيّع.

إعتقدت بادئ الأمر أنّه إحضار قلي ومحاصين، مثلما هي العادة هنا، وأنّ مصدر الجلبة عائلاً لهم، التي لا تتقبل مصائر أبنائهما، ثمّ أتت «كارلا»، والفرحة في عينيها، قائلة لنا أنّه تمّ إنقاذ أربعة أسرى كانوا لدى «القسام».

تفاجأت لهذا الخبر، لأنّه يحدث لأول مرّة، حتّى أني شرّكت في العملية، بينما كان «ميمي بايولا» جذلاناً ينظر إلى بنشوة النّصر المبين، كأنّه هو من حرّهم.

وواصلت الممرّضة كلامها مع الضّابط الشّقيق الظلّ بفرنسيّة عرجاء، غير أني فهمت من سياق حديثها أنّه في تمام السّاعة الحادية عشرة من صباح يوم السّبت الماضي، الثّامن جوان 2024، تكّر بعض الجنود من وحدة «اليمام» - وهي الشرطة الخاصة بمكافحة العمليات التّحرّبية -، في صورة نازحين يحملون أمتعة في إحدى المركبات، وبسرعة البرق اعتلوا سطح البناء، في وسط قطاع «غزة»، مشتبكين مع «كتائب القسام»، ثمّ بدأ قصف عنيف مساند، كاد يودي بحياة بعض الجنود.

أسفرت هذه العملية التي أسموها «عملية أرنون» عن تحرير أربعة أسرى، من الذين اختطفوا يوم السّابع من أكتوبر الماضي، وهم «نوعاً أرغمنا»؛ «ألوغ مائير»؛ «أندرييه كوزلوف»؛ «شلومي زيف»، بينما قُتل أحد ضبّاط الوحدة، «أرنون زامورا»، رغم مساعدة «الشاباك» والفرقة 98، مع إسناد القوات الجوية والبحريّة، ومساعدة إستخباراتيّة من «أمريكا» و«بريطانيا» و«كندا» من قاعدة «أوريم»، التي رصدت بصمات أصوات الأسرى منذ أيام، حيّاً ارتکاب خطأ من طرف الحرّاس.

معنى ذلك أنّ المختطفين لم يكونوا في الأنفاق، ولو لا ذلك لما التقطوا لهم أيّة إشارة، بل كادت العملية أن تفشل برمّتها حين تعطلت السيارة التي تقلّهم وسط «النصيرات».

جوّ في غاية التّوتر، والدّخان منتشر بكثافة، والدمار سيد المشهد.

قد يخرج أحدهم من أيّ نفق ويقصف السيارة بقذيفة «ياسين»، فتمّ خض الجبل ليلد فأرا.

ثمّ جاءت ممرّضة أخرى قائلة أنّه قد تمّ إحضار الأسرى إلى هنا عبر طائرة هليكووتر، ليتلقّوا فحوصات شاملة، وراح ترينا نشرة إحدى القنوات التّلفزيونية.

لم يتّظر أحد ضبّاط «الشاباك» إجابتنا لما سأّل عن المكان الذي يمكن أن يجد فيه «ميمي بايولا»، حتّى راح يقصّ علينا بطولاته الشّخصيّة، وأنّ اسمه سيدخل التّاريخ، باعتباره أحد المشاركيّن البارزين في العملية، التي قُتل بسببها أكثر من مائة فلسطينيّ.

سرعان ما انصرف الجميع حين انتهى كلّ هذين المهمّتين.

كانت السّاعة تشير إلى السادسة مساءً:

– لا تقلقي أنا في صحة جيّدة، لكن أعاني بعض الأعراض النفسيّة الغريبة.

كنت أعرف أنّ «الشّاباك» يراقب جميع المكالمات، ولا سيما الواردة من الخارج، فخشيّت أن أكشف ما رتّبته، لذا قرّرت أن أظهر لزوجي سقمي النفسيّ، ما دامت إصابة رجلي ستُشفى لا محالة، وما أمامي الآن سوى اللّعب على الجانب البسيكولوجيّ.

بعد ثلاثة أيام تفاجأت بزيارة «ريتانا» في المستشفى لأول مرّة، بعد أن كانت حالتي هي من تزورني فقط، بدت في وضع نفسيّ صعب بعدما تبيّن أنّ أنحاها غير الشّقيق أصيب بحروج بلّغ، إثر قصف «حزب الله» ثكنة «زرعيت» بالمدفعيّة، في التّاسع من جوان المنصرم، وُنقل على جناح السّرعة إلى مستشفى في «القدس»، بعد توصية ملحة عليه.

– لا تقلقي، سُيُّشفي، ماذا عن مشروعك الآخر؟

قلتها وأنا أبتسّم محاولاً جرّها لموضوع مبهج، بعيداً عن ألمها، غير أنّي ضاعفت مصابها دون قصد.

– إختفي دون أثر، فرّ من إسرائيل، بعدما استولى على كمية كبيرة من الأموال والذهب، لقد شكّل عصابة مع رفقاءه، ثمّ اقتسموا كلّ ما غنموه من «غزة» وتعرّقوا، تخلى عنّي بكلّ سهولة كأنّي لم أكن أمثل له شيئاً، وأنا التي وثّقت به وبوعوده، النّذل، جذر متّعفن.

ورنّت كلماتها الأخيرة في أذني، وأسقطت ثقتها على ثقتنا نحن من قبل في «شارون».

إندرت دمعتان بطيتان على وجنتيها:

– الكاذب المخادع، وعدني بمسكن واسع في «تساريم»، أمّا المرّ، ونحن الآن نتمرّكز في محور «فيلا ديلفيا»، كم أنا غبّية؛ لقد وعدني بشيء يستحيل تحقيقه.

ثمّ جلست على الأريكة مطرقة برأسها:

– لدى خبر مؤسف لك... ولو أنه غير مؤكّد؛ ييدو أنّ أخاك الأسير قد قُتل في عملية التّحرير الأخيرة. أحسست أنّ السمّاء وقعت على رأسي، بمساحتها الهائلة وزونها الضّخم.

– حدثت بعض الأخطاء في العملية، والجيش يتكتّم عليها.

كنت أعرف من قبل أنّ تحرير الأسرى بالقوّة، عمل غير مجدٍ مهما زينوه للرأي العامّ، ومهمما وضعوا فوقه من مساحيق التّجميل.

ما معنى أن يتمّ تسخير إمكانيّات ضخمة لتحرير عدد قليل وقتل ضعفه؟.

سيستغلّ «نتنياهو» العملية في تعزيز مركزه، معتبراً يوم تحريرهم يوم حظه، وليذهب الآخرون مهمما كانت صفتهم إلى الجحيم.

- عالجت إصابات فظيعة لجنودنا؛ لكن الرّقابة العسكريّة تفرض قيودا صارمة، إنّها الحقيقة المرة، لكن يجب أن تقال؛ نحن نقاتل أشباحاً من العالم الآخر لا يأبهون لشيء، لا توجد طريقة منطقية لإيقاف أشخاص مستعدّين للموت من أجل قضيّتهم، هل تفهم كلامي؟، لماذا خيفهم؟، بحثفهم؟، هم يسعون خلفه بشكل لم نألفه من قبل، لذلك ننتقم منهم في ذويهم؛ كلّ مقاتل منهم في أحشاء الأرض له عائلة فوق الأرض، ونحن الآن في حاجة ماسّة للجنود، ونعي نقاصاً فظيعاً لم نصل إليه من قبل، و«الحربيّين» يرفضون التجنيد.

إنتقطت إشارتها دون أن تنتبه، لقد سمعت هنا أنّهم أعادوا كثيراً ممّن تعافوا من إصابتهم، بل أعادوا بعض الذين شفوا مع إعاقة دائمة، تمجيداً للبروباغاندا «الجيش الذي لا يهزم»:

- إذا كنت ساخطة على الأوضاع، فلماذا لا تهاجرين وتحفظي رأسك من هذا الصّداع؟، ما الذي يجبرك على السّباحة في الماء الآسن؟.

نظرت إلى بغرابة، ثم طأطأت رأسها قليلاً:

- أصارحك؟، فكّرت في «جورجيا»، لم أتّخذ قراري بعد، لكن ييدو أنّي سأصل إلى وجوب اتّخاذ قرار مهما كان صعباً، قال لي أحد الضيّاط أنّا حين ننتهي من «رفع»، سنحارب في الشّمال، ضدّ «حزب الله»، سنُهزم شرّ هزيمة؛ أنا متأكّدة، إنّهم يعرفون أين يضربون هذه المرة، نحن في 2024 ولسنا في 2006، لقد أرسلوا مسيرة للتجسس، طارت فوق «حيفا» ولم يكتشفها أحد، ثم عادت بصور منصّات إطلاق الصّواريخ، ومخازن الذّخيرة، والمياء، كلّ شيء، شيء فظيع سيحدث، يقولون لنا أنّا نعلم جيّداً نقاط ضعفكم فاحذروا منّا، أيّها ربّ الرحيم.

- «ريانا» يا أختي الصّغيرة، فكري بمنطقية؛ ينجح التّدمير مع أناس عاديّين أو جبناء، أناس لا يريدون ترك الدّنيا، لا يريدون الموت؛ هذا هو الجوهر ولبّ الفكر، أمّا غير ذلك فهو عبث وخطّ عشواء، لقد أنسأنا الدولة على أرض مغتصبة من أصحابها، ونطّمع أن نتوسّع أكثر، معتدين على اغتصاب مزيد من الأرض، ثم نريد السلام وحلّ الدولتين؟، أيّ مقبول يقبل بهذا؟، مافائدة احتلال «غزة» ثم ترکها بعد سنوات؟، لم تسمعي عن الإشتباك المسلح مع الجنود المصريّين في معبر «رفع» في السّابع والعشرين من ماي الماضي؟، لا تناقضني نفسك «ريانا»، يجب أن تفكّري في حلّ نهائيّ، ما الذي استفادت منه صديقتك «ميشال رو كوفيسين»؟، شظيّة قنبلة يدوية كانت كافية جداً في السّابع من أكتوبر لتشوّه وجهها الجميل وتصيبها بشلل تامّ؛ أنتِ مراهقة، ويجب أن تتحمّلي في مشاعرك، لا تسمحي لهم باقتيادك نحو مصير مجهول، هذه حياتك «ريانا»، حياتك، هل تعين كلامي؟.

طأطأت رأسها أكثر، كالي تخجل من شناعة عظيم اقترفته.

- صديقي «دافيد» حلم كأيّ مراهق وشاب إسرائيليّ، لكن حين حول حلمه لمشروع عمل مات، لن تستطيعي أية قوّة في العالم هزيمة الحقّ.

ودعّعني بأسي وخرجت تجرّ رجليها.

هل كنت فضاً معها؟

ممكن لكن يجب أخذ حقنة من حين لآخر.

كانت صامتة، تصغي لعباراتي بكتفين منحنين لأسفل، لكن ما باليد حيلة، يجب أن أدفعها لمواجهة الواقع الذي تريد الحكومة والجيش دجنا داخله عنوة.

وعدت لهواجسي الامتهنية، عدت لأنحي القتيل وهذا المصاب الحال الذي أنا فيه، بسبب «ميمي بایولا»، العقبة الكاداء، يأتي من اللأشيء، ليقلق راحتي باستجواباته المقنعة، ليتعبني نفسياً أكثر مما أنا فيه، وحسب الظاهر، فإني سأطيل المكوث هنا لأجل لا يعلمه إلاّ الربّ، لأنّي أخضع للتحقيق، دون إعلان صريح بذلك.

(29)

في مطلع شهر جويلية، ولج باب غرفتي صديقي القديم الذي لم أره منذ فترة طويلة، «يعقوب غوتنبورغ»، سلم عليّ بحرارة معتدراً عن تأخره في زيارتي، لعلمه المتأخر بالحادث الذي تعرضت له في الجبهة.

جاء ومشاعر الإرتياح تعلو محياه، وأخرج من كيس أسود صغير نسخة من التوراة، ملفوفة بعناية في

ورق تغليف لامع رفيع:

– هذه هديّتك.

– شكرًا «يعقوب».

كنت مستغرقاً في متابعة التلفزيون، دون أن أرفع صوته، حرصاً على تجنب إزعاج الجريح الذي يقضي وقته كله في النوم.

وبوجهه البشوش المبتسم هذه المرة، راح يسرد لي – وهو يجلس قبالي على الأريكة –، كيف رزقه الرب مولود قويّ البنية، أسماه «موشيه»، وأنه رفقة زوجته ينعمان بموفور الصحة والعافية، لكن ما حكمت به المحكمة العليا الإسرائيليّة مؤخراً، يؤرقهما قليلاً:

– يجب على الشعب أن يثور ضدّ هؤلاء الذين أضروا بمصلحة اليهود، «بن غفير» وعصابته، إنّهم يجبروننا على ضرب العرب، ثم يغروننا في مستنقع ردود أفعال ليست له نهاية، ولا يستطيع أحد التحكّم بها.

– ما الأمر؟

– ألم تسمع بالخبر؟، سيجّدون ميزانية مدارسنا، لأنّا رفضنا التجنيد ونرفضه، لستا هنا من أجل سد النّقص في الجنود، والمال مال الربّ وليس مال «بن غفير» أو «نتنياهو».

كان متّكها على الأريكة ثمّ اعتدل متّاؤها:

– آآآاه، هل سمعت بتصرّيف «سموتريش»؟؛ قال إنّه غير مستعدّ للإتحار من أجل الرّهائن.

– لا أتوقع من هذا الحسيس شيئاً طيباً على الإطلاق؛ «غانتس» استقال قبل أن يغروه معهم، على كلّ حال انتقل أخي للدار الآخرة.

قلتها متألّماً وأنا أهّم بالنهوض إلى الكرسي المتحرّك.

– ماذا؟، فليرحّمه الرّبّ، سأذكّره في صلاتي.

قالها وهو يحاول مساعدتي مرداً:

– دعني أخّمن، في قصف الجيش، لأنّ «حماس» لا يقتلون الأسرى.

– بالتأكّيد، هل خطّفوه ليقتلّوهم؟.

– حين أحسّوا بغرق السّفينة؛ قلت لك من البداية أنّ دولة إسرائيل ستزول، لقد أغضبنا الرّبّ بإقامة هذه الدّولة، ونحن الآن ندفع الثمن باهظاً جداً فوق المتوقع، ها هم الآن يعترفون أنّ «حماس» فكرة راسخة متजذّرة، لا يمكن القضاء عليها أبداً، لأنّها فكرة صحيحة، بل وامتدّت بذور المقاومة إلى «يهودا» و«السامرة»، في أرض اعتقدو أنّهم ملوكها تماماً، ويريدون الآن بالذات حرباً مع «حزب الله»؛ أليسوا أغبياء حمقى، بل مجانين.

– هل تتكلّم بدفعي للحديقة، أحسّ بالإختناق.

– طبعاً.

ومضى يدفعني ببطء عبر الرّواق مكملاً حديثه معني:

– وحقّ ربّ «موشيه»؛ لو ملّكتنا كلّ شبر من هذه الأرض، سيأتي اليوم الذي نترك فيه كلّ شيء، ستنتهي الحرب يوماً ما، ثمّ ماذا؟، لا شيء، كلّ هذا عبّث أطفال، فإلى متى سنترك الأطفال يسّرون هذه الدّولة؟!، والمشكلة أنّهم يتكلّمون باسمنا.

كان ذكره لمسألة الرّهائن قد فتحت جرحى النفسي القديم، فبقيت صامتاً لا أقوّ على الإتيان ببنت شفة، حتّى لمحت خالي باكية قادمة نحوي في الرّواق، فأدركت أنّ الخبر مؤكّد، على كلّ حال كنت متيقّنا منه من البداية، جرس داخليّ كان ينبهني لتهيئي من أجل تقبّل الواقع الجديد.

إنسحب «يعقوب» لما رأى خالي على تلك الحالة، فيما وقفت هي أمامي ودموعها جارية تدسم النّظر في وجهي، كلّ شيء واضح من البداية، لا داعي لاستعمال الكلمات، وما الفائدة منها أصلاً إذا كان الصّمت أبلغ تعبير، غير أنّها كسرت صمتها بعبارة من الصّعب أن ننساها نحن اليهود:

– إنّ الرّبّ ينتقم منّا بقسّوة؛ إنّ انتقامه عنيف، فظيع لا يرحم.

– أخجلتنا «حماس» بتعاملها مع أسرانا رغم أنّنا أعداء، ما شاهدته في قنواتنا لا يوحّي أنّهم كانوا أسرى على الإطلاق؛ خاصة «نوعاً أرغماً»، كانت تعيش بينهم كأميرة أرستقراطية.

– إنّهم يعاملون أسرانا حقّاً بما يعلّي عليهم دينهم، ونحن نعامل أسراهـم بما تعلّي علينا صهيونيتـنا، هل هناك عار أكبر من ذلك؟، هل هناك وجه للمقارنة؟.

وامتزجت مشاعرنا نحن الإثنين بين اليأس والحزن والإمعان.

- رغم مقتل أخيك؛ إلاّ أنّي لن أتوقف عن المشاركة في المظاهرات، أوصيتي أمك قبل موتها ألاّ أتوقف
أبداً، على الأقلّ لتکفرّ عمّا فعلته في حقّ الفلسطينيين، بما تستطيع، لقد أغوثها التّنّعّة الصّهيونية بشعاراتها البرافقة
المزيفّة كما أغوث آلاّفاً غيرها، وفي أيّامها الأخيرة كان النّدم يأكل قلبها أكلاً؛ إنّها أختي، وأعرف ما تشعر به
ولو لم تتكلّم.

لقد أفسد خبر مقتل أخي سائر يومي، فآثرت الرّحّوع للغرفة، عازماً على طلب إعطائي مهدّداً من
المرّضة، فيما راحت خالي تدفع كرسيّي ببطء عبر الرّوّاق، متّجّبة المارّين بصعوبة، وشينا فشيئاً، بدأّت عيني
تقتلئ بالدمّوع، لتهمر على وجهي.

هذا ما يجب أن نتوقعه منذ زمن، لقد خنا البريطانيّين في عام 48؛ كما خنا العرب من قبل، لما استغلّينا
تسامحهم الدينّي وأسّسنا دولة على جمّاجهم؛ والآن ندفع ثمن الخيانة، وسنقى ندفع الثمن إن لم نتدارك الوضع.
نمّت تلك اللّيلة بعمق، بسبب المهدّئ القويّ الذي حقّته لي المرّضة، نمت معوضاً كلّ الأيّام التي لم
تنمّها أمّي من قبل.

- صباح الخير، هل سمعت باعتقال متّحّل صفة الطّيّب؟.

أقتها وهي تدخل على بناية ورد أبيض، ثمّ اتبّعها للخطأ الذي ارتكبه:
- عفوا، لم أسألك عن صحتك؛ أرجوك اغفر لي تسرّعي.

- لا بأس «باولا»، أعرف مدى حرصك على الإنقاذ، وما يعنيه قلقك.

قلّتها هامساً، في حين نظرت هي نحو الجانب الآخر وحيثّ الجريحين الآخرين، قبل أن تتبّع أنّ الجريح
الثاني كان نائماً كعادته، في حين ردّ الجريح الثالث القادم منذ أقلّ من شهر تحتّها مبتسمّاً ابتسامة مُّرّة.

- إنّهم هم أنا متأكّدة؛ يجب أن أتحرّك في أقرب فرصة؛ لن أعود للجيش مهما كلفني الأمر، إلّي تقيّت مع
«ليزا» وأخبرتها بما أُنوي فعله، وقلّت أنا مصّرّة مهما كانت التّحدّيات، ويجب كإعلاميّة أن تكشفي الحقيقة،
وليس شرطاً أن تكون للحقيقة أدلة واضحة، لدينا التّحّمين، لدينا الإستنتاج، لدينا الإستخلاص، هذا عملها،
أأخطأت؟.

في السادس والعشرين جوان 2024، بثت قناة «إسرائيل 24» خبراً غريباً، نشرته على موقعها على
الإنترنت، مفاده أنّ هناك تحقيقاً جادّاً للشرطة العسكريّة في قضيّة متّحّل صفة طيّب في الجيش، دخل إلى
«غزة» مع إحدى كتائب لواء «نحال»، أيّاماً قلّ أن يشير شكوك الجنود، ولا أعرف ما الذي حدث لي حتّى
طاف بذهني «نيتاي» و«غارسيّا»، وتجارّهما في الأعضاء البشرية.

- هذا الطّيّب واحد من عصابة «غارسيّا»، أنا متأكّدة من كلامي، إحساسني لا يخيب.

قالّتها وهي ترفع سبابتها نحوّي، وعيناها تقدّحان شرّاً.

كادت «باولا» أن تتشاجر مع السيدة «ليزا»، بسبب تأخّر هذه الأخيرة في نشر التّحقيق، معتبرة أنّ واجبها المقدّس هو البحث عن الحقيقة أينما كانت، ولّا فقدت الأمل في ذلك؛ أعطت حلّ اهتمامها لمسألة قتل «نيتاي».

سيكون القتل سبباً وجهاً لتفجير القضية من جديد، وغصباً عن الكلّ، لا سيما بعد أن تكشفت لها معلومات هامة، تخصّ تنظيم «فتية التّلال»، الذي يصنّف كحركة إرهابية في إسرائيل، مما يحتم عليه توويل نفسه بطرق غير شرعية، وهو ما أدى إلى لقاء «نيتاي» بأحد ممثّلهم من الشّباب، لتنسيق عملية تحرّب شحنة هامة من السّلاح والذّخيرة.

- تكلّمي كما تشاءين؛ لا ييدو أنّه سيعيش طويلاً؛ إصابته مميتة.

قلتها قاصداً الجريح الثالث حين نظرت إليه ببرية.

- نحن الآن في الشّهر التّاسع من الحرب، وجنودنا منهكون جداً؛ والجيش يدمّر نفسه بيديه غير شاعر بما يفعل، والأخرق الذي يسمّي «نتنياهو» يجهّز خطاباً يعلن فيه مقتل «الضّيف»، كأنّ هذا الأخير هو مفتاح لغز «غزة»؛ هو كلمة سرّ القضية، نقتله بزرّ فنجّهض المقاومة، ويتوقف كلّ شيء، هل رأيت بلاهه في حياتك بهذا الحجم؟.

- هل سيعاد تجنيدِي؟.

قلتها يائساً مغيّراً الموضوع، أبحث عن إجابة سلبية تعيد لي مشاعر التّفاؤل والإرتياح.

- ممكن جداً، سمعت من أحد الضّباط أنّ الجيش والحكومة يريدون إفشال أية صفقة جديدة للأسرى، بالمناسبة؛ هل من جديد عن أخيك؟.

- قتله الجيش «باولا» حين أنقذ أربع رهائن، نحن أقرب لل مليشيا من جيش نظاميّ، أنتِ عسكريّة وتدركين معنى كلامي، جيداً.

قلتها بنبرة أقصى منها تفريغ شحنة الغضب التي بدأت تتولّد.

- إذن هناك قتلى، من غير الممكن أن يكون كلّ شيء على ما يرام... تعازيّ الحالصة لكم.

وأعادت «باولا» شريط ذكرياتي، الذي كلّما حاولت تجنب التّفكير فيه؛ عاد بزخم أقوى من السابق.

(30)

لم أفكّر مطلقاً بتعزية مسلم في يوم من الأيام، كما فكّرت أن أعزّي عائلة «هنية».

ما عرفته عن هذا العملاق الفلسطينيّ، جعلني أتمنى حضور جنازته، ولو متخفيّاً.

نزيه السّيرورة، نظيف اليد، يبذل كلّ شيء لأجل الرّبّ وشعبه، مؤثراً الآخر عن نفسه، لدرجة أنه ترك عائلته داخل «غزة»، التي يستطيع إخراجها منها بألف طريقة، قبل أن يقتلوه مع أحفاده بتصفّف الطّائرات، وقبل أن يقول كلمته التي سجّلها له التاريخ «الله يسهل عليهم»، في عبارة صريحة إلى المساواة بينهم وبين بقية الشعب الفلسطينيّ، وأنّ عائلات القادة هم في النهاية من طينة الشعب.

أنا الآن على بعد أقلّ من عشرين بالمائة من الشفاء التامّ لإصابتي، ويجب على التّصرف بسرعة كي لا يستدعوني للجبهة مجدّداً، فما كان أمامي إلّا تصنّع إصابة ما بعد الصدمة.

أهض ليلاً لأصرخ في الغرفة، حتّى أني كثيرة ما ألجأ إلى وضع قطرات من الماء على جبتي ووجهي في انتظار مرضّة الدّوام الليليّ، كي يدو المشهد طبيعياً ومقنعاً لأقصى درجة، فما تجود يداها سوى بحقنة تهدّئي، وترىجها من مشوار انتقالها لغرفتي.

ولكن مع كلّ هذا، هل أستطيع أن أخدع كابوساً آخر يترصدّني؟؛ كابوس يسمّى «ميمي بايولاً».

كنت قد نهضت للتوّ من فراشي الذي سئمته، بعد ليلة استسلمت فيها للحقنة التي أصبحت أخشى إدامها، مضطّرّأنا لذلك، من أجل الحفاظ على ما أريد إقناع الآخرين به.

وبينما أهُم بالنهوض مستخدماً العكازين لدخول دورة المياه؛ إنّبهت لوجود طرد على طاولتي، طرد لا يزيد حجمه عن كتاب من ثمانين أو مائة وعشرين صفحة على أقصى تقدير، عبر شركة «حافظة» لخدمات البريد السّريع.

- وصلك هذا باكراً عبر البريد، كنت نائماً فلم أشأ إيقاظك.

- منون لحسك المهيّ، أنت مرضّة جديدة؟.

- نعم، أنا «كارلا»، «كارلا غوتنان»، متربّصة في شهرٍ الثاني، أخذت مكان المرضة السابقة اليوم، إشتكي منها الكثير من الجرحى وعائلاً لهم، آسفة؛ ربما أكون قد أزعجتك، لكن يجب إعطاء حقنة الصبّاحيّة للجريح.

وانصرفت عنّي مخرجة حقنة من جيب مئزرها، حقنّتها في ذراع الجريح الثالث مباشرة:

- يجب حقنها بسرعة في الذراع وإلا سيتلاشى مفعول الدّواء.

- حسناً، والجريح الثاني أين هو؟

- لقد غيّروا غرفته، هذا ما قيل لي اليوم صباحاً.

- أعتذر بني.

وانسللت للحمام.

بعد عشر دقائق كنت جالساً على الأريكة أفتح الكّتر الذي وصلني من مجهول.

ويا لسعادتي!

إنّها المستندات السّرية التي نجح «بابلو» في الوصول إليها في قاعدة «شيزافون»، وقد بسبّبها صديقي «دافيد» حياته، المستندات التي يبحث عنها الجميع، وعن «غاري»، الشخص الوحيد الذي كانت عنده.

وأنا في خضمّ بحثي وصدمي في آن واحد، تسلّل صوت أقدام سريعة في الرواق، فأرهفت السّمع، خشيت أن يكون «ميامي بايولا»، المغدور الذي يحشر أنفه في كلّ شيء.

كم تمنّيت أن يُسجّل رأسه من ضربة عادلة لعارضة الباب العلوية!.

أنّفخت كلّ شيء بسرعة بين طيّات فراشي وأنا أحشر نفسي فيه.

كان وجهها رأيته سابقاً يجول بين الغرف، وهو يوزّع الموز بابتسامة ملئت ثلثي وجهه، ثمّ حدث نوع من الصّدام الخفيف مع «كارلا»، التي رفضت ما يقدّمه البعض الجرحى بسبب حالتهم، غير أنه لم يكن آهباً بها، وواصل في تقدّم هداياه للجميع، بصوت أحشّ ممّيز، ثمّ دخل غرفتي ليجدني جالساً في الفراش، أنتظر فطور الصّباح الذي ستأتي به المرضة، بعد إفأءة جولتها الإستشفائية.

- إنتظر.

قالها وهو يقدّم لي موزة، ثمّ أخرج علبة بلاستيكية بيضاء من كيس برتقالي اللّون كان معه:

- أنت خصوصاً... لك هذا.

وربّت على كتفي بخنو، الشّيء الذي دفعني للإعتقاد أنه على معرفة سابقة بي، كان رياضيّ القوام لا تبدو عليه آثار التقدّم في العمر، سوى بعض الشّيب الذي كسرى جزءاً يسيراً من شعر رأسه الأسود القصير، ثمّ

انتشرت رائحة عطر فاخر في زوايا الغرفة، وغادر بسرعة ليكمل جولته في باقي الأقسام، كأنّه في سباق ضدّ الساعة.

يبدو أنّ اليوم يوم الطّرود والمدايا.

فتحت العلبة البلاستيكية يغمرني الشّوق لما بداخلها، فإذا بي أجد نوعاً من الحلوى التقليدية المشهورة في «مصر»، أتذكّر أنّي أكلتها لما كنت في منزل صديقي «دافيد».

تفاجأت به يعود إلى مبتسماً:

– تخلّصنا من «هنّي» إلى الأبد؛ مشكل وأزحناه من طريقنا.

وحين رأي أحاول تذكّره، قال مبادراً:

– ألسست الذي جئت تسأل مّرة عن والد «دافيد»؟.

– آه... تذكّرت، أنت جارهم السيد «ريكاردو مزراحي».

– أرجوك دون تكّلف، واعذرني على استقبالي السيّء لك في المرة الماضية.

ومدّ يده مصافحاً.

حاولت تقديم نفسي فقاطعني:

– أعرفك جيّداً، أنت صديق «دافيد».

ثمّ أتبع بسرعة متعتني من أخذ زمام الحديث:

– بقي «السينوار»، هو الشّخصيّة الأخطر علينا، بعدما أزحنا «محمد الضّيف» قبل أسبوعين؛ ثمّ أردف وهو يضحك:

– إنّهم يسقطون مثل أحجار الدّومينو، لا فرق لدينا بين عسكريّ وسياسيّ، الكلّ سواء حبيبي.

والنقط في سرعة جهاز التّحكّم عن بعد الذي كان على الفراش وهم بتشغيل التّلفزيون، وهو يلومني على جهلي بما حدث، بعدما أكّد لي في عبارة جارحة أنّي من سكّان القمر.

– قتلناه البارحة عند السّاعة الثانية صباحاً؛ أرسلناه إلى الدّار الآخرة، تذكّر هذا اليوم حبيبي، يوم الأربعاء الحادي والثلاثين من شهر يوليو 2024، سيعقى حالدا في ذاكرة إسرائيل إلى الأبد، حبيبي.

– سيؤثّر سلباً على المفاوضات، هناك أسرى يجب استعادتهم.

رمقي بنظرة مفاجئة قاسية، كأنّي قتلت شخصاً عزيزاً عليه:

– هل أنت ضدّ الدولة؟، مع الإنقلابيين؟.

ثمّ تابع مستطرداً لما رأى استغرابي:

- آسف أنا متوقّر ولا أدرى ما أقول، لا عليك حبيبي؛ المهمّ أنا تخلّصنا منه للأبد، وداخل «إيران»؛ ولترينا ما تستطيع فعله.

- سيعيّنون آخر، وربما سيكون أكثر خطراً من «هنّية».

- سيعيّنون «حالد مشعل» أو «أساميّة حمدان»؛ أنا متّأكد، ليس لديّم بديل آخر.
- و«السنوار»؟.

- دعك من الخرافات، جبان لم ير الشّمس منذ أن وضعناه على القائمة السوداء، لا شكّ أنه يعاني من زيادة الوزن، وعوز في الفيتامين «د».

تضاعف من وصفه أكثر من الضّحكة الوجهة التي أطلقها، فأردت أن أغير مجرّى الحديث سريعاً:

- هل صحيح أنّ «أردوغان» يهدّد بالتدخل العسكريّ ضدّنا علينا؟.

فاختطف الكلمة الأخيرة قائلاً في غطرسة:

- يهدّد؟، سنجّرّ المنطقة بل العالم كله للحرب إذا اتحدوا ضدّنا، نحن مستعدّون لجميع الإحتمالات، كلّ من يهاجمنا سيدفع الثمن باهظاً، «أمريكا» معنا، ومن كانت معه «أمريكا»، لا يسأل عن صاحب المحراث.

ثمّ حدق في عيني اليسرى بمحقّد:

- سنبتلع «يهودا» و«السامرة» ولا أحد سيتكلّم؛ صدّقني حبيبي، هذا ما قاله لي ابني «أنطونيو»، الرّائد في لواء «جفعاتي»، وأنا أصدق كلّ ما يقوله لي.

لم أستطع إكمال الحديث معه؛ بدا مبرجاً على قالب فكريّ لا يقبل الخروج عنه قيداً أبداً.

هذا هو «ريكاردو مزراحي»، صهيونيّ من صهابيّة القرن العشرين، تعيس كتعسّاء الحظّ أمثاله، الذين ما زالوا يعيشون في الأحلام الورديّة، أحلام «بن غوريون» و«غولدا مائير» و«مينا حيم بیغن»، منذ حرب «الاستغلال».

وغادر على مضض حين رأى الطّبيب، الذي أتى مع «كارلا»، وهي تدفع عربة الفطور الصّبّاحيّ أمامها بحمة ونشاط.

الآن، بعد حصولي على المستندات؛ يجب إيقاف خطّة «باولا»، والتركيز على النّشر في «هاريتس».
يجب أن أرسل المستندات للسيدة «ليزا».

بحثت في هاتفي عن رقمها، ثمّ توقّفت حين تذكّرت أنّ هاتفها مراقب، لكنّ ما باليد حيلة، يجب أن أوصل لها المستندات قبل فوات الأوان:

- «جيروشا»، هي المسلك الوحيد الآمن الذي سيوصلي إليها.

ما كدت أتم عبارتي بيبي وبين نفسي، وأنا في قمة انشغالى بالتفكير وتوترى؛ حتى إرتسם خياله عند باب

الغرفة:

- ما زالوا يقولون عنّي أني غبيّ لا أفهم بسرعة، لا بأس، ساعدني في استيعاب الأمر أرجوك، كيف تصاب باضطراب ما بعد الصدمة وأنت من قوّات المغاوير؟، لقد صرفنا أموالاً طائلة على تدرييكم يا رجل، جسمياً ونفسياً وعقلياً، هل العيب فيك أم في مناهجنا؟.

وَاتْسَعَتْ عَيْنَاهُ مِنْ دَفَّاً:

- تذكّر أنّنا ندردش فقط كصديقين ولا شيء رسمي، انظر، أنا لا أحمل أية ورقة أو قلم، نحن ندردش فقط، مثلما يدردش الأصدقاء.

– طبعاً طبعاً نحن أصدقاء، كلّ من في الجيش أصدقاء بعض.

وَثْبٌ نَحْوِي:

– جيد، إذا كنت تفكّر بهذه الطريقة فأنت إسرائيلي، قليلاً وقليلًا.

ثم أكمل بحسب:

– أنا متعاطف معك، أعلم أنك ترى كوايس في نومك، وأنك دائم القلق والتتوّر، وتعاني من ذكريات الماضي اللّصيقة، لكن الشّيء الذي استعصى على فهمه هو شهيتك المفتوحة للأكل، حتى أن وزنك زاد، إلا تلاحظ مع؟.

لاؤسف، لم أر نفسي في المرأة.

قلتها بتأففٍ كي يغادر، غير أنه جلس قبالي على الأريكة متوجهًا تأففي:

– لا علينا؛ بمناسبة الأكل، هل تعرف أن «كتائب القسام» يسرقون المساعدات الغذائية؟.

- لا أعرف، هل بلغت بهم الجرأة والوقاحة لفعل ذلك؟.

قلتها وأنا أقلّد خبته.

- أكيد، كانوا يهربون السلع الإستهلاكية عبر الأنفاق، ويسرقون أموال الناس الضعفاء المساكين، بل ويشغلون العمال في أعمال حفر الأنفاق دون أن يدفعوا للمساكين أجورهم، هل هذا هو الإسلام؟.

ضحكَت في سرِّي على هذا الأحمق وما يُريد إقناعي به، من يسرقون المساعدات الغذائية لِيسوا «كتائب القسّام»، بل هم عصابات ممولة من «الشّاباك»، هدفها إحداث بلبلة داخل المجتمع الفلسطيني، بخلق أزمة ثقة وفتح فجوة ارتياخ، لتعزيز المخاوة بين السُّكَّان، هذا ما وصلني من «ريتانا» والسيّدة «ليزا» و«باولا»، ثلاثة مصادر لا يرقى إليها الشكُّ، بل إن عناصر «الشّاباك» يبحثون دائماً عن أقدر الأشخاص مِنْ تحرّي الخيانة في دمائهم، ليحلّوا محلَّ «حماس» في حكم القطاع.

- هل تعرف أن «السنوار» مختبئ تحت الأرض، يبكي الآن كما تبكي النساء؟، أتدرى أنه جبان لا يجرؤ على مواجهتنا؟، سلني أنا، أعرفه أكثر من أي شخص آخر.

هنا، بدأ الغضب يستولي عليّ، لكنّي تريّثت لما شككت أنه استدرج لي رد فعلّي، فقد أصبح هذا المقاوم رمزاً بين الجنود من مختلف الألوية والوحدات، ثمّ نهض من مكانه مقترباً مني، هامساً لي بما يراه سراً خطيراً:

- دعنا من سيرته المشؤومة الآن، أشعر بالغثيان، لقد اتصلت بزوجتك «دينا»، من أجل زيارتك، عيب أن تتركك وحيداً بعد وفاة أمك وأنت في هذه الحالة، ألا توافقني الرأي؟.

- لا يمكن، لديها اختبارات آخر السنة.

- ليست مشكلة، أحاول مساعدتك، ستحتاجني يا رجل، نحن أصدقاء، أترك الأمر لي، سأتصرّف، أصارحك؟، أنا أيضاً أريد مغادرة إسرائيل، سمعت قذارهم، آن الأوان لأنفت لمستقبلٍ، هل تصدق أنّي لست متزوجاً لغاية هذه اللحظة التي أكلّمك فيها؟.

تصنعت التّعجّب، فأكمل حديثه:

- ستكفّل بمصاريفها كاملاً، سأقول لهم أنّ هذا من أجل إسرائيل، ثمّ أنسق مع والدها هناك ليخرجننا من هذا المرض، إتفقنا؟.

وضمّ سبّابته وإيهامه حول أنفه ورجع ليجلس على الأريكة.

كانت عيناه ونيرة صوته تكشفان خبته، تظاهرت بالخفاض ضغطي مستدعياً «كارلا» كي يخفى وجهه القبيح عنّي، فجاءت مسرعة، بيد أنّه بقي جالساً في مكانه يتفرّج عليها، حتّى أخر جنته بديبلوماسيتها.

حاولت على الفور الإتصال بصديقه «باولا» الحميمة، «جيروشا» التي التقى بها سابقاً في «القدس»، غير أنّ هاتفها مغلق، الشيء الذي زاد من حيرتي، فقررت المغامرة والإتصال بالسيدة «ليزا»، لأنّه يجب أن أتحرّك بما في يدي.

من أرسل لي المستندات؟، هذا ما كان يشغلني ليل نهار، كلّما فكّرت أكثر تمت أكثر.

هل هو «غاي» المختفي منذ أشهر؟، وإذا كان هو فلماذا لم يظهر حتّى الآن؟، هل هو خائف من شيء ما؟، وأين هي الشرطة؟، لماذا لم تستطع الوصول إليه؟، هل هو «بابلو»؟، لكن «بابلو» مات، وُجد جثة هامدة والنّار تأكل جسده في السيارة؟، هل هو شخص آخر لا نعرفه؟، كيف وصل إلى المستندات ومن هو أصلاً؟، أو كيف وصلت المستندات إليه؟.

- تعالى أحتاجك لشراء دواء لي.

وأغلقت الخطّ قبل أن تسأل.

بعد أقلّ من نصف ساعة كانت في الغرفة جالسة أمامي على الأريكة تنظر إلى مستفهمة.

- ششش.

قلتها مخافة أن يكون «ميمي باليولا» قد وضع جهاز تصنّت في غفلة مني، خاصة وأنّ عيناه كانت تجولان في كلّ زاوية من الغرفة، وحتى لا أضطرّ لشرح شيء أنا نفسي لا أملك تفسيراً له، مقدّماً لها الأوراق بسرعة، ثمّ أشرت لها بالرّحيل فوراً قبل أن يعود.

بعد شفائي التامّ من إصابتي، أخبرتني «كارلا» أنّهم سينقلوني لقسم الرّعاية النفسيّة، مباشرة بعد توفر أسرّة شاغرة، وبعد المرور على لجنة طبّية للأمراض النفسيّة والعقلية.

ادركت أنّي سأكون أمام خبراء لهم باع طویل في علم النفس، فيجب تقمّص الدور جيداً، كي لا أطرد نهائياً إلى الجبهة، وأجد نفسي مجدها في صراع لا يجب أن أكون طرفاً فيه.

بعد أيّام جاءت إحدى الطّبيبات لتخبرني أنّهم سينقلوني إلى مزرعة قرب «تلّ أبيب»، تتوفر على كلّ ما من شأنه غرس شعور حميم بين الذين يعانون من اضطراب ما بعد الصّدمة، وسيعالجون بتقنيّة خطّ العين، كالي حاولوا علاج أمّي بها سابقاً دون جدوى.

(31)

- أغرب عن وجهي، وقع، لهذا المستوى بلغت بكم الجرأة والنذالة؟.

فما كان منه إلا أن انصرف مسرعاً بعد أن تعمد دق جرس الباب قرب موعد الغداء، حتى يتأكد من وجود صهري في المترجل، وبعد أن سئم عبارة كبير الخدم النموذجية «سيدي غير موجود».

لسوء حظه هذه المرة، وجده هناك في ثورته العصبية المعتادة، فلم يتضرر حتى يشرح له سبب مجئه، بل طرده مباشرة بعد إتمام جملته الأخيرة التي عرّف بها عن نفسه.

كنا جميعاً متخلقين حول المائدة المستديرة، أنا وصهري وأخوه «جون» وزوجتيهما، و«دينا» وشقيقتيها «إيفلين» و«شارلوت»، وأزواجهما «أوليفر» و«ألبرت» على الترتيب، بينما الأولاد والبنات الصغار يلعبون في الحديقة الواسعة، التي لا تفصلنا عنها إلاّ أمتار قليلة، وحائط زجاجي سميك.

سارعت نسيبي لتهديته، وتذكيره بمرض الضغط الذي يعاني منه منذ سنوات، ففي الأخير ما هو سوى جامع تبرّعات لصالح إحدى الجمعيات الأمريكية الصهيونية، ولا يجب أن يضعه في الحسبان، وساندتها جميع الحاضرين، ولو أنه بدا هادئاً لبرهه، إلاّ أنّ نار الغضب لا تخمد بسرعة في صهري الذي أعرفه أكثر من أيّ شخص آخر، باستثناء زوجته طبعاً.

- هؤلاء الحمقى يطاردون الناس أينما كانوا، تارة يقولون أنّهم يجمعون التبرّعات لكتار السنّ في إسرائيل، وتارة أخرى يقولون أنّ المال من أجل الطفولة المساعدة هناك، والربّ وحده يعلم إلى أين يذهبون بالمال.

وتناول قرص الدّواء الذي أعطته له نسيبي متبعاً بكأس كبير من الماء.

- للجيش.

قالها «أوليفر» وهو يضع قطعة صغيرة من اللّحم.

تفحّصته «إيفلين» متعجّبة، وواصلت كلامها ناظرة نحو «شارلوت» التي هزّت رأسها إيجاباً.

- وصلني البارحة عرض استثماري في إسرائيل.

كان هذا «ألبرت» الذي أتمّ صحبه، ورشف رشفتين من فنجان قهوة أحضرها الخادم للتوّ.

نظر إليه صهري مبتسمًا:

– طبعاً تخفيضات ضريبية.

– بل إلغاء لكلّ أنواع الضرائب لمدة خمس سنوات.

أرسل صهري ضحكة عالية في الفضاء وهو يضرب على الطاولة بيديه الإثنين، فاطمأنّت أنّ غضبه قد انزاح.

إتسعت عيناً نسيبيًّا مستفهمة:

– أخبروني ما الذي يجري هنا؟.

– لا شيء، إنّه مكرٌّ بني إسرائيل.

قالها صهري وهو ما زال يعالج بقايا صحبه، لينفجر الجميع ضاحكين حتّى الخدم:

– يريدون جلب الأموال لمزبلتهم هناك في «فلسطين»، من أجل المشروع الصهيونيّ، إنّهم يعرفون رأيي منذ سنوات، لكن مع هذا يرسلون كلّ مرّة شاباً أو فتاة تحت أية تغطية،وها هو الآن «ألبرت» أمام عرض يغري أيّ رجل أعمال.

– وهل أنا مجّنون لأقبل؟، إسرائيل تعيش على الإنعاش منذ أن ولدت، لا وجود لأيّ بجاحة إقتصاديّة هناك كما يروّجون، كلّها أكاذيب في أكاذيب، الصهيونية أساساً نزعة غريبة، صنعها «هرتل» وتبعه حتّى اليهود، ثمّ المغرّ بنوياهم، الباحثون عن الإستقرار بأيّ ثمن، فأصبحوا جمّعاً تروساً في آلة ضخمة.

في السّابع عشر من سبتمبر 2024، فجر الكيان الإسرائيليّ أحجزة المناداة «البيحر» التي يستعملها أعضاء «حزب الله»، فأصابوا ثلاثة آلاف عنصر، ثمّ اغتالوا الأمين العام للحزب «حسن نصر الله»، في غارة جوية دقيقة، تمهيداً لغزو «لبنان»، مثلما حدث سابقاً.

وبعدها بما يقارب شهراً واحداً، تخلّصوا من «السّنوار»، الذي كانوا يروّجون عنه مئات الأكاذيب، لقد أزاحوا عن طريقهم عظيماً من عظماء «فلسطين»، في مشهد بطوليّ من النادر أن ترى مثله، حتّى في الأفلام أو المسلسلات، شخص لم يكن لديه الوقت حتّى ليتزوج، بعدما قضى في السّجن أربع وعشرين سنة، وحتّى الثلاث عشرة سنة التي كانت بعد زواجه؛ لم يعش فيها سوى أيّاماً مع زوجته، بسبب انشغاله بالتّدريب وتحضير المقاتلين.

– لقد بثّوا الفيديو الذي يدّحض أكاذيبهم في قناة «الجزيرة»، التي أغلقوها في «رام الله» بأمر عسكريّ، في سبتمبر الماضي فقط، لأنّها كشفت ألاعيب «نتنياهو»، والصّورة المزيفّة للنصر الذي يحاول تسويقه، لا سيما بعد قصف «إيران» لإسرائيل، بما يقارب المئتين والخمسين صاروخاً باليستria عبر كلّ الكيان، بضعف حجم

الهجوم السابق، ولم تستطع الدّفاعات الجوية التّصدّي إلّا للقليل منها، كيف لمن بيته من زجاج أن يقذف الناس بالحجارة؟.

كانت هذه «جينيفر» زوجته، بلامح تستغرب جهل زوجها بالحوادث التي تملأ وسائل الإعلام، زوجها المهووس بمحوايته التي أدمّن عليها بعد تقاعده، فقد أصبح يقضي كلّ وقته في قارب للصيد في البحيرة المجاورة: - ومنذ متى وأنت تعرف ما يدور حولك؟.

لم يجدها، بل أشاح بوجهه في حركة تدلّ على تبرّمه، ولما نظر إلى صهري بادره هذا الأخير بقوله: - من المستحيل أن يكون اليابانيون مخطئين حين وصفوه بكونه آخر السّاموراي، فليس من عادة هذا الشعب أن يطلق أوصافاً جرافية على كلّ من هبّ ودبّ، إذا لم يلمس منه برهاناً صادقاً، ودليلاً دامغاً، يدّحض أيّ شكّ وارتياح.

- هل يمكن إستمالة قلب زاهد عن زخارف الدنيا؟، عاش فقيراً يمتلك قميصين فقط، ويوم عرسه استعار ستّرة من صديقه، رغم أنه يستطيع شراء أيّ شيء باعتباره قائداً، وله الحقّ في امتلاك أشياء لا يستطيع الآخرون امتلاكها.

قالتّها «دينا» ناظرة لي كأنّها ترجوني للتّدخل:

- «الستّوار» شخصية كاريزماتية محترمة حتّى بين أعدائه، في وحدي كانوا يلقبونه «الجنرال»، متواضع، لكنّه صارم في نفس الوقت، يستطيع الجمع بين القوّة واللّطف، وهذا نادر عند القادة.

- ماذا؟، أهذا رأيك فيه؟!، أليس هو الذي أطلق عليك النار حين كان في النّفق؟!.

تعجّب «أوليفر» و«أليرت»، فأكّدت لهما مواصلة وأنا أصارع ضحّكي:

- أنا من أطلقت النار على نفسي، لأنّخلّص من الضّغوط التي واجهتني، كانت مغامرة يجب أن أخوضها مهما كلفتني.

ضحّكت «دينا» وهي تمسك بيدي بحنانها الذي لا يقاوم:

- بحوث بصعوبة من الشّثار «ميمي بايولا»، المهووس بالأمن، يشكّ حتّى في الذّبابة إذا رآها في الغرفة، إّنه يثير شفقي، يتصرّف تماماً كالذّي يمتلك المكان.

تذكّرت ما كان يقوله لي، تذكّرت غروره واعتداده بنفسه، ثمّ تراءى لي «لؤي»، ونظرت تجاه «دينا»:

- «لؤي»، هو الوحيد الذي تفطنّ لي، إنقط مسدّسي وقتل الجنديّ الذي اكتشف اللّعبة، وانسحب من منطقتنا في لمح البصر، ذاب تحت الأرض.

- و«الستّوار»؟.

تساءل «أليرت» بحرص وتركيز شديد.

- حاول «الشاباك» تجنيد فتلاعِب بهم «رونالدو» بالكرة، رجل درس التّفكير الصّهيونيّ جيداً لأكثر من عشرين سنة، قضاهَا في السّجن مُحكّماً عليه بأربع مُؤبدات، ويعرف رموزه الفكرية أكثر مما يُعرف زوجته، بل ويُتقن اللّغة العربيّة إلى جانب العربيّة لغته الأمّ، يترجم عنها ما شاء، وله رواية يسرد فيها آلام شعبه ومعاناته، كتبها وهرّبها من سجنه، وحاصل على شهادة ليسانس من الجامعة الإسلاميّة في «غزة»، هل يمكن طيّه هكذا بساطة ووضعه في كيس؟!.

- إذن لم يكن مختبئاً بين الأسرى؟، يأكل الدّجاج المشويّ ويشرب ماء «زمزم»؟.

نطق بها «أوليفر» وهو ينظر تجاه صهري الذي زاد فوق حدّيّي:

- طبعاً لا، كأنّها أراجيف الدّعاية الصّهيونية لتشويه سمعة الرجل، تخيل رجلاً مهشم السّاعد الائين بعد إصابته بقذيفة، يربط أعلى مرفقه بسلك كهربائيّ يقيه خطر التّزيف، يلقي بعضاً كان يستند عليها، على طائرة استطلاع مسيرة دخلت المترّ الذي اشتباك فيه مع دورّية من الجيش، في شمال غرب «رفح»، ملثّم الوجه بكوفية فلسطينيّة تخفي معاً وجهه، مثل النّينجا، أيّ إصرار وثبات هذا؟.

- لا يبدو أنّه يشبه «هاغاري» قناص اللّقطات.

أطلقّتها «جينيفر» دفعة واحدة، في مقارنة ظالمة، فانسجت «جون» ضاحكاً، ليتبعه الجميع مقهّعين.

(32)

بدأ كلّ شيء في التّاسع عشر من أكتوبر سنة 1962 في «خان يونس»، وبدأت بعض الأشياء في السادس من أغسطس 2024، حين تمّ تعيينه خلفاً لرئيس المكتب السياسي المغتال في «إيران»، «إسماعيل هنية».

خطوة لم يتوقّعها أحد، فما كانت إسرائيل تخشاه، أضحت واقعاً يلمّس.

مختطّ هجوم السّابع من أكتوبر «يحيى السنوار»، التّعويذة التي أصبحت على ألسنة الجميع هنا في إسرائيل، هو الآن الزّعيم السياسي لأكبر حركة مقاومة أرّقت صناع القرار في «تلّ أبيب»، فإذا تفاوضوا، سيجدون أنفسهم مجرّدين أن يتحدّثوا مع صاحب اللعبة ذي النّفس الطّويل، طوعاً أو كرها.

هم الآن يتناقشون مع بعضهم البعض، في مربع مختل ضيق، لا يخرج عمّا فعلوا بنا وماذا سفعل بهم، روضة أطفال.

خرجنا للإستراحة، وتركنا الخدم يرّفعون أطباق الطعام، كانت مساحة حضراء واسعة أمامنا مع بعض الأشجار الباسقة، جلست «دينا» قبالي تتناول فنجانًا من القهوة الخضراء المخففة، لتحافظ على رشاقتها كما تقول، وأنا أضحك في سرّي، على فكرتها الغريبة وقد بز بطنها، بينما استأذن «جون» وزوجته «جينifer»، مستقلّين سيارة «ليموزين» مع ولديهما، يقودها سائق بقفازات بيضاء تعكس نور شمس الرّبيع.

– أليس هذا «السنوار» هو المفرج عنه في قضية «شاليط»؟.

تساءلت نسيبي وهي ترشف قهوكا ببطء شديد.

– نعم، كان أحد المفرج عنهم ضمن صفقة تبادل لأكثر من ألف أسير فلسطينيّ، تمت منذ ثلاث عشرة سنة، ومنذ ذلك التاريخ وهو يختطّ لاسترجاع أرضه، إنه مهندس هجوم السّابع من أكتوبر من العام الماضي، سيكون أيقونة عالمية مثل «تشي غيفارا»، لا شكّ في ذلك، تذكّري هذا التاريخ جيّداً «ماغدا»، الأربعاء السادس عشر من أكتوبر 2024.

أجاجها صهري بفخر وهو يتناول عصير برتقال، قد خلطته الخادمة مع بعض الجزر النيء وقطرات الليّمون:

- من عينيه البراقتين، ستشعررين أَنْكَ أَمَامْ شَخْصٍ لَا يُشَبِّهُ الْآخْرِينَ، هَذَا مَا بَدَأْتِي حِينَ رَأَيْتَهُ عَلَى التَّلْفِيْزِيُّونَ لِلْمَرْأَةِ الْأُولَى، نَحِيفُ الْوَجْهِ، خَفِيفُ شَعْرِ الْلَّحْيَةِ وَالرَّأْسِ، كَثِيرُ الشَّيْبِ، يَا رَبَّ «مُوْشِيْهِ»، هِيَةٌ وَوَقَارٌ لَمْ أَرَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ.

وَشَرَبَ الْعَصِيرَ كُلَّهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً، كَأَنَّهُ يَشَرِبُ نَخْبَ اِنْتِصَارِ «السِّنُوْرِ» عَلَى قَاتِلِيهِ.

أَنَا الْآنُ فِي «أَمْرِيْكَا»، مَعَ خَالِتِي، لَكِنْ دُونْ «دِيْيَغُو».

(33)

في منتصف شهر أغسطس من سنة 2024، أي بعد أكثر من ثلاثة أيام من الحرب، أخبرتني «كارلا» أنها سمعت إسمي يتربّد على لسان إحدى الطبيبات العضوات في لجنة الأطباء النفسيين والعقلين، مما يدلّ على أنّي سأعرض عليهم خلال يومين لا أكثر، بعد انتظار طويّل بسبب آلاف الإصابات الحقيقية والمزيفة.

لقد قرّروا الإحتفاظ بي مؤقتاً.

لم يقنعهم اضطراب ما بعد الصدمة الذي أعايني منه، كغيري من الجنود المتذمّرين مما يحدث.

الآن وقبل أسبوع؛ أصبحت قيادة الجيش التي بلغت حسائره البشرية حوالي خمسة عشر ألف قتيل في هذا الشهر؛ تستدعي حتّى الجنود الذين يعانون فعليّاً من آثار ما بعد الصدمة، ناهيك عن ثلاثة آلاف استدعاء لطائفة «الحربيّم»، وهذا كله من أجل تغطية العجز، وملء الفراغ الذي تركه القتلى، والفارّين بجلدهم من المستنقع.

والكثيرون تلقّوا استدعاءات للمحاكمة العسكريّة، حين رفضوا الإلتحاق بوحداتهم، والبعض تمّ اعتقالهم مباشرةً من منازلهم، وفي أماكن عملهم، وفي الحواجز المقامة على الطرق، وهو ما اعتبرته وقتاً ملائماً جداً لتنفيذ خطّي التي إتفقّت مع خالي مسبقاً عليها.

الهروب من المستشفى، الذي بدأ يشهد فوضى غير مسبوقة من عائلات القتلى.

وحان وقت التنفيذ، بعد أربع وعشرين ساعة من الفيديو الذي أرّتني إياه «باولا»، الفيديو الذي صورّته صديقتها المقربة «جيروشا»، واعتبرناه جمِيعاً انتصار عدالة المنطق، في غياب منطقية العدالة.

في زيارة الروتينية؛ أحضرت لي خالي ملابس مدنية، متعمّدة اختيار ألوان باهتة، كي لا تلفت الأنظار بين حشود الزّائرين، وتسلّلت خارجاً بشكل عادي، كزائر لأحد المصاين مواسياً لها، بينما ظهرت هي بالبكاء أمام الناس والحرّاس، وظاهرت أنا بدوري بإسنادها، كما ساعد مرور إحدى العائلات المكلومة على فلذة الكبد أمامنا، على تكوين مشهد درامي لا يرقى إليه الشّك أبداً.

فجأة لمحت «ميمي بايولا» من بعيد، بقامته الهيقاء، واقفاً مع إحدى الطبيبات، بدا لي مشغولاً بشيء ما، لدرجة أنه لم يلقي طرفاً لأيّ مارّ أمامه، بعدها كان يدقق حتى في شكل الذبابة الملحقة في الجوّ، ونوع النملة السائرة على أرضية الغرفة.

كدت أكشف نفسي ضاحكاً لما سمعته -وأنا مارّ بجانبه-، يستفسر متلهفاً عن ابن اخته الذي أحضروه قبل ساعات، بعدها نال ورفقائه من سخاء «كتائب القسام» الكثير، قذيفة من أجود ما صنع للذراع العسكريّ لحركة «حماس»:

- أرجوكِ دكتورة، يقول رؤسائي أنّي بطيء الفهم والإستيعاب، كيف تصيب القذيفة ابن أخي إصابات حرجية، بينما تلقى رفقاؤه بعض الشّظايا القليلة؟، هذا من جهة...

فقط انتهى الحديث معه:

- أكّدت لك ماراً أنّ ابن اختك المعذّب لم يكن يرتدي سترته المضادة للرصاص، لقد خالف الأوامر ونزعها، هذا من جهة، من جهة ثانية؛ كان قريباً جداً من مكان انفجار القذيفة، عكس رفقائه الذين كانوا في غرفة أخرى، لقد أعدت لك هذا الكلام أكثر من خمس مرات، وفي كلّ مرّة تعيد نفس السؤال، دعني أسلّك شيئاً.

- يسعدني تعاطفك، يمكنك منادتي «ميمي بايولا» فقط دون ألقاب رسمية، لاحظي جيداً أننا نتحدّث كأصدقاء.

- أنا لا أتعاطف معك سيد «بايولا» ولا يهمّي من تكون.

زجّرت في وجهه، ودون أن تترك له فرصة استيعاب ما يجري أمامه، أطلقت عليه رصاصة الرحمة:

- كيف أدخلوك الإستخبارات العسكريّة وأنت تتمتّع بكلّ هذا الذّكاء الحادّ؟

ولمحت وجهه المحمرّ لما التفتّ، وهو يحاول مداراة غبائه متعلّضاً، فبدا كبارون جرّد من لقبه.

لكن، قبل ذلك بيوم واحد؛ وبابتسامة النّصر دخلت غرفتي حاملة باقة ورد أصفر على غير عادتها، ثمّ أعطتني هاتفها بطريقة الواقة من نفسها:

- دعني أريك شيئاً سترّ به أيّما سرور.

لم تلتفت لأيّ مصاب في الغرفة، كان معي ثلاثة جرحى، أخرجوا البارحة من غرفة العمليّات، بعدما أضافوا سريراً جديداً على حساب الأريكة، لم أتبين المحتوى الذي أرتني إياه، بسبب التّشويش المنطلق من الرواق لعائلات تنتخب، إلاّ بعد إعادته مرتّين، وتركيزي بصعوبة على شخص يسير في الشّارع، ثمّ يرتسّم عليه مثلث أحمر، وتقرب منه امرأة من «الحربيّم» بعد الزّاوية مباشرةً، فتطعنه ثلاث طعنات، إثتّان في البطن وواحدة في الصدر، على مستوى الكبد، والمعدة، والقلب.

- غير معقول، هل وصلت إليه «كتائب القسام»؟.

- بل أنا من وصلت إليه.

- هل تقصدين أنكِ أنتِ المرأة التي...

وهزّت رأسها موافقة دون أن تتركني أتمّ حملتي.

مع اهتزاز رأسها اهتزّ قلبي، وأنا أعاين الآن انتقام النساء.

(34)

- كنت أتابع تحركاته بمساعدة إحدى المجنّدات في الشرطة، حتى إنّه تفاجأ بي، لم يخطر على باله مطلقاً أن ي يحدث له ذلك، خاصة وأنّه كان في منطقة آمنة بعد أن أجرى لقاء مع أحد أعضاء تنظيم «فتح التّلال» في مطعم مجاور، رصدها في «القدس»، حين أراد مثلّ عن هذا التنظيم رؤيته بصفة عاجلة، فقدّرت أنّهم أرادوا وساطة منه للتدخل في قضيّة «لليس الجعّار»، التي اعتدى عليها أفراد منهم، بعد أن تاهت رفقة شقيقتيها وابنتها، ووُجدن أنفسهنّ وجهاً لوجه مع شباب من مستوطنة «جفعت رونين»، في التّاسع من أغسطس المنصرم، هل تذكّر؟.

وانتظرت بعض الثّواني لتكمّل:

- أحرقوا سيّارتهنّ، ورشّوا الغاز في وجه طفلتها المسكينة البالغة ثلاثين شهراً، إعتقلت الشرطة أربعة منهم، ووصلت القضيّة إلى رئيس الدولة، الذي اتّصل بالفتاة معتذراً للتعويذة، هذا التنظيم يشبه التّشكيلات الفوضويّة إلى حدّ بعيد؛ يضمّ بين صفوفه المشرّدين، وأصحاب السّوابق، والمتسريّين من المدارس، أيّ باختصار؛ أدنى طبقات المجتمع الإسرائيليّ، حيث يسود الجهل والأمية بينهم، مما يغري أيّ سياسيّ باستغلالهم، ثمّ التخلّص منهم بسهولة، مثلما فعل «أرييل شارون»، ويفعل الآن «بن غفير»، باسطّ ذراعيه لهم بالترحيب، وملمّعاً صورهم، وهو يعي جيّداً ما حقّيقتهم، أداة قدرة بين يدي قدر.

- أنت خطيرة يا «باولا»؛ لكن... سيفوضون عليك.

قلتها متأسّفاً على حالها، غير أنها أرسلت ضحكة خفيفة، ومضت في كلامها بنبرة رزينة:

- مستحيل؛ لا يوجد شهود، وفي ظلّ الكاميرا، ودبرت خروجي من هنا للأبد؛ لدى جواز سفر كنديّ، هل تعرف؟.

- كيف وأمر استدعائك للمحاكمة؟؛ أنت في نظر القانون فارّة من أداء الخدمة العسكريّة دون سبب وجيه، ولا تنسي أنّ هناك مراقبة مشدّدة على المطارات.

- من صورت الفيديو لديها شقيق يعمل في شرطة الحدود، ولقد رتبنا كلّ شيء منذ الدّقائق الأولى، بعيداً عن المطارات والموانئ، المهمّ أنّي انتقمت على طريقي، بعيداً عن قوانينهم التي تسرّي على الضعفاء.

- من صورته؟.

- «جيروشا»، من شرفة متل قریب، وهي من وضع المثلث الأحمر، هل تعلم؟، تماماً مثل المقاومة، هل أخرك؟، لقد خلّف الجيش حفرة كبيرة في «خان يونس» بعد انسحابه.

قالتها واضعة سبّابتها اليمني على صدغها الأيمن، كإشارة لوجوب التّفكير العميق والتأمّل، مضيفة في

برود:

- من يضحك أخيراً سيفضحك كثيراً.

وأتى إلى ذهني أنّ العصابة استغلّت الوضع العامّ في البحث عن الأنفاق لتبث عن المذكّرات، وفوراً ارتبطت في مخيّلي ضرورة لقاء «غارسيا»، مع حتميّة وجود «نيتاي» في «القدس»، في مكتب من مكاتب «الموساد» السّريّة.

وازداد تعجيّي من جرأة وذكاء هذه الفاتنة الأرجنتينيّة، فقلت وأنا أتوقع هجوم «ميمي بايولا» في أية

لحظة:

- و«غارسيا»؟.

- إختفى عن الأنظار، لكن أظنّ أنه في مهمّة إستخباراتيّة، وحين يعود سيجد شيئاً سارّاً ينتظره في المتل.

وهزّت رأسها إيجاباً في حركة بطيئة، وعيونها تلمع:

- إنّها العدالة؛ إنّه مثلث الحقّ.

ودون أن أسأّلها شيئاً -معتبراً نفسي شريكاً غير المباشر في الإنتقام-، راحت العبارة تتردد في سمعي، وما زالت تتردد، حتى ودّعني، بعدها سمعت صوت الممرضة في الرواق المزدحم بالعائلات.

وسط استمرار ذهولي من شجاعتها؛ قمت من فراشي أرقيها من باب الغرفة، داعياً الربّ ألاّ تلتقي المدعو «ميمي بايولا».

(35)

أمام الأعين الكبيرة للشرطة، وعبر مطار «بن غوريون» مررنا مثل **الدّيبلوماسيّين**، ولا أحد تحرّّى على تفتيشنا.

ومن ذا الذي يتحاسّر على تفتيش أناس أوصت عليهم جهة نافذة من وراء المحيط؟.

بدت حالتي عليلة وهي تردّ على الجمل الروتينية للضباط، السائلين عن صحتها، وهي الشّكلي التي نأى الفرح عن قلبه منذ أيام، مثلنا نأى الآن عن المستنقع، نأيا يعكس بوضوح تامّ مدى النّفوذ الذي نتمتع به نحن «الأشكيناز».

نعم، إستطعت الخروج من إسرائيل، والنّجاة من السفينة المهدّدة بالغرق، بفضل صهري وشبكة معارفه الواسعة، وخطوط هاتفه الطّويلة، ودعوات أمي الصالحة التي كلّما تذكّرها حالتي؛ بكت عليها مثل طفلة صغيرة، سُلّبت منها دميتها، فأمضت ذلك اليوم بلا طعام ولا شراب.

حالتي التي شاركت بكلّ قوّتها في كلّ الإعتصامات، من أجل الأسرى، رغم مضائقات شرطة «نتنياهو» و«بن غفير» لا غفر الربّ له، حتّى سقطت مغشياً عليها ذات ليلة من ليالي السبت، لتتّضح إصابتها بداء السّكريّ، نتيجة الضّغوط المتراكمة، والتّوتّ الشّديد الذي لزمه طول مدة الحرب، واعتقال «ديغوا»، إبّنها المدلّ، ثمّ جاء خبر مقتله كالصّاعقة بعد يومين من عودته، ليزيد من حالتها سوءاً، وتنهار كليّة في المستشفى لأكثر من عشرة أيام، كتّت خائفاً خالماً أن تلقى نفس مصير أمي، وتحتفي رائحة أسرتنا بين رواح هذا المستنقع القدر.

أمّا «ديغوا» الذي ظلّ مختفياً منتقلًا من مكان لآخر، فقد أعادوه غصباً للجيش، بعد وشایة حقيرة من جارتها، التي انتقمت منه بعد رفض حالي زواجه من ابنتها البلهاء، ثمّ خيّروه بين وحدته العسكريّة، أو السّجن خمسة أعوام كاملة.

وحين قُتل؛ أتى لمرثّتها بكلّ جسارة ووقاحة من يطالبها بالتكلّم على الخبر، مقابل عشرين ألف شيكّل، كأنّ الذي قُتل كلب ضالّ متشرّد من كلاب الشّوارع، فقرّرت المجرة العكسيّة، بعد أكثر من عام على إعلان الحرب على أصحاب الأرض الحقيقيّين.

رحلة مرهقة دامت ساعات، أعلن قائد الطائرة في دقائقها الأخيرة وصولنا لمطار «نيويورك»، ولم تتنفس خالي الصعداء، إلاّ حين رأت «دينا» بباقه ورد تحملها بين يديها، و«شارلوت» رفقة زوجها «ألبرت» في استقبالنا.

ما أشبه اليوم بالبارحة.

«دينا» التي فرقني الصهيونية عنها منذ سنوات، ها هي اليوم تراني أرفع شيء لديها في الوجود، بعد مغامري الفاشلة مع نزعة ستسحق طال الزّمن أم قصر، وستُداس تحت أقدام مسلمين صديقين من طراز فريد، أمثال «تيسير أبي طعمة»، الذي لقى ربّه ساجداً بإصابة خطيرة في العمود الفقري، و«عاهد أبي ستة»، والمقاتل الأنبيق «هشام حمزة عامر»، و«عبادة أبي هين»، وأمين شويدح، والشيخ «حسن نصر الله»، الذي كان ضحية قبلة بوزن أكثر من تسعين كيلوغرام، في حين أيقن أغلب اليهود مصيدهم، التي ما فتئت رائحة طعومها تجذب نحوها أصحاب الأطعما الطائشة، والنّوايا الطيبة على حدّ سواء.

لقد كان «دافيد» يهودياً أباً عن جدّ، من عائلة يهودية عريقة في «المغرب»، مثل «باولا»، و«أتارا»، و«ليزا»، و«ديميترى»، وأختي الصغيرة «ريتانا»، مثل «أغام» صديقتها المقربة، التي قُتلت في السابع عشر من سبتمبر 2024 في «رفح»، وأنفقت عليها أمّها كلّ ما لديها من دموع، مثل «ميشال رو كوفيسين»، أيقونة الجمال التي خرجت من هذه الحرب بفراغ بشع، مكان عينها اليسرى، مع تشوّهات فظيعة في الرأس.

مثلي أنا و«دينا» زوجي، سبقني يهوديّان، ولتنذهب الصهيونية للحجيم.

نحن الآن ننتظر مولوداً على أحرّ من الجمر، لا نريده أن ينشأ صهيونياً، أو أن يُغسل دماغه بشعارات براقة غبية زائفة، ثم يُقتل مثل كلب ضالّ، ساحرها، وتخبره زوجي، وخالي، وصهري ونسبيتي وشقيقات «دينا» كلّهنّ، كما سأخبر أحفادي عن قناعة، إلاّ يشقوا أبداً في كلّ زعيم يحاول قيادتنا إلى المجهول، نحو الخراب الأبديّ، وأن يحذروا من أيّ أفق، حلو اللسان معسول الكلمات؛ يرمي المجد على حساب المستضعفين من أبناء شعبنا.

شكراً «لؤي»، متنّ أنا لك بكلّ أشكال الإمتنان، لأنّك تستّرت عليّ بعدما تفطّنت لخطيّ، بل شakra لأنّك قتلت من رأني أطلق النار على رجلي، شakra أيّها البطل، شakra لك جزيل الشّكر، وشكراً لك كلّ رفقاءك في المقاومة، على اختلاف فصائلهم.

نحن شعب الشّتات وسبقى شعب الشّتات، لأنّنا عصينا ربّ، فحكم علينا بالّيه في العالم، يجب أن نعترف بهذا، بل يجب أن نكون شجاعنا في قضية الإعتراف.

أما المثلث الأحمر، فما زال عالمة مميّزة لقتل كلّ ذي نزعة متطرفة مغتصبة للأرض، كما يصلح جداً أن يكون رمزاً سرمدياً للقضاء على كلّ شيء فاسد، لا يجب أن يعيش مطلقاً، في أيّة منطقة من هذا العالم، وبائيّ حال من الأحوال.

تمّت الرواية، شakra على كرم صبرك، مع تحيّات المؤلّف

عبد الرزاق بن عمر (عبد الرزاق أنفو)

▼ من مواليد 1978 في «الجزائر» العاصمة، متزوج وأب لـ 3 أطفال، باحث مختص في الفكر الإنسادي الحديث منذ سنة 2002، كاتب وروائي، مكون نظري ومدرب تطبيقي، مصمم أغلفة وضابط فيزيولوجي للكتب الرقمية، خريج جامعة «البليدة» بشهادة ليسانس في علم الاجتماع التّربويّ، عن مذكرة «دور الأنشودة الإسلامية في تربية المراهق».

مؤسس عدّة نواد وفرق إنسانية، ومصحّح أصوات للمنشدين والمؤذنين ومرتلي القرآن الكريم، وفق أحدث الطرق العلمية، ومتكرر عدّة مناهج وابحاثات وبرامج تدريب، «التّقليد الصوّي للديوان الموسيقيّ»، كشف الفحص العام للقدرة الصوّية المعروفة اختصاراً (SV 5)، كشف الفحص العام للقدرة الإستيعافية الصوّية (SV 6)، كشف المساحة الصوّية بنسخها الثلاثة، (SV 1.1)، (SV 1.2)، (SV 1.3)، إضافة إلى برنامج التّدريب الصوّي القرآني «افق 1» و«افق 2».

أتشرف باستقبال ملاحظاتكم وآرائكم على البريد الإلكتروني :

Abderezak.info@yahoo.com

كما أُسعد كثيراً إذا تابعتم باستمرار ما أنشره على المنصّات الآتية :

www.vk.com/nadikondos | www.twitter.com/nadikondos

www.instagram.com/nadikondos | www.facebook.com/nadikondos

